وحي القلم

« بيانٌ كأنه تنزيلٌ من التنزيل ،»
« أو قَبَسٌ من نور الذِّكْرِ الحكيم »
سعد زغلول

كتبه

مصطفى صادق الرافعي

الجزء الثاني

الناشر
دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

حقوق الطبع محفوظة

ضبطه وصممه وعلى حواشيه

محمد سعيد العريان

وحي القلم

الإشراقُ الإلهى
وفلسفة الإسلام

كما تطلع الشمسُ بأنوارها فتُفجّرُ ينبوعَ الضوء المسمّى النهار ، يولَد النبىُّ فيوجدُ فى الإنسانية ينبوعَ النور المسمّى بالدين . وليس النهار إلا يقظةَ الحياة تحقّقُ أعمالَها ، وليس الدينُ إلا يقظةَ النفس تحقق فضائلَها .

والشمسُ خلقها الله حاملةً طابَعَه الإلهىَّ ، فى عملها للمادة تُحوّلُ به وتُغيّر ؛ والنبىُّ يرسله الله حاملاً مثلَ ذلك الطابعَ فى عمله ترقّى فيه وتسمو .

ورَعَشَاتُ الضوء من الشمس هى قصةُ الهداية للكون فى كلامٍ من النور ، وأشعةُ الوحىِ فى النبى هى قصةُ الهداية لإنسانِ الكون فى نورٍ من الكلام .

والعاملُ الإلهىُّ العظيم يعملُ فى نظام النفس والأرض بأداتيْنِ متشابهتين : أجرامِ النورِ من الشموس والكواكب ، وأجرامِ العقل من الرُّسُلِ والأنبياء .

فليس النبىُّ إنسانًا من العظماء يُقرأ تاريخُه بالفكر معه المنطق ؛ ومع المنطق الشك ، ثم يُدْرَسُ بكل ذلك على أصول الطبيعة البشريةِ العامة ؛ ولكنه إنسانٌ نجمىٌّ يُقرأ بمثلِ « التلسكوب » فى الدقة ، معه العلم ، ومع العلم الإيمان ؛ ثم يُدْرسُ بكل ذلك على أصول طبيعته النورانيةِ وحدها .

والحياةُ تُنشِئُ علمَ التاريخ ، ولكنَّ هذه الطريقةَ فى درس الأنبياء (صلواتُ الله عليهم) ، تجعلُ التاريخَ هو يُنشئُ علمَ الحياة ؛ فإنما النبىُّ إشراقٌ إلهىٌّ على الإنسانية ، يُقَوِّمُها فى فلَكِها الأخلاقى ، ويجذبُها إلى الكمال فى نظامٍ هو بعينه صورةٌ لقانون الجاذبية فى الكواكب .

ويجىء النبى فتجىء الحقيقةُ الإلهية معه فى مثل بلاغة الفن البيانى ، لتكونَ أقوى أثراً ، وأيسرَ فهمًا ، وأبدعَ تمثيلاً ، وليس عليها خلافٌ من الحس . وهذا هو الأسلوبُ الذى يجعلُ إنساناً واحداً فَنَّ الناسِ جميعًا ، كما تكونُ البلاغةُ فنَّ لغة بأكملها ؛ هو الشخصُ المفسِّر إذا تعسَّف الناسُ الحياةَ لايدرون أينَ يؤُمُّونَ منها ، ولا كيف يتَهدَّون إليها ، فتضطربُ الملايينُ من

البشرية اضطرابَها فيما تنقبض عنه وتتهالك فيه من أطماع الدنيا؛ ثم يُخلَق رجلٌ واحد ليكونَ هو التفسيرَ لما مضى وما يأتى ، فتظهر به حقائق الآداب العالية فى قالَب من الإنسان العامل المرئىِّ ، أبلغَ مما تظهر فى قصة متكلِّمة مروية .

وما الشهادة للنبوّة إلا أن تكونَ نفسُ النبى أبلغَ نفوس قومه ، حتى لَهُوَ فى طباعه وشمائله طبيعةٌ قائمةٌ وحدها ، كأنها الوضعُ النفسانىُّ الدقيق الذى يُنْصَبُ لتصحيح الوضع المغلوط للبشرية فى عالم المادة وتنازع البقاء . وكأن الحقيقةَ الساميةَ فى هذا النبى تُنادى الناس : أن قَابِلُوا على هذا الأصل وصحِّحوا ما اعترى أنفسَكم من غلَط الحياة وتحريفِ الإنسانية .

* * *

ومن ثم فنبىٌّ البشرية كلِّها مَن بُعِثَ بالدين أعمالاً مفصَّلةً على النفس أدقَ تفصيل وأوفاه بمصلحتها ، فهو يُعطى الحياةَ فى كل عصر عقلها العملىَّ الثابتَ المستقرَّ تُنظِّم به أحوالَ النفس على مَيْزة ٍ وبَصيرة ، ويَدَع للحياة عقلَها العلمىَّ المتجددَ المتغير تنظِّم به أحوالَ الطبيعة على قَصْد وهُدى ؛ وهذه هى حقيقةٌ الإسلام فى أخص معانيه ، لايُغنى عنه فى ذلك دينٌ آخر ، ولايؤدِّى تأديتَه فى هذه الحاجة أدبٌ ولاعلم ولافلسفة ، كأنما هو نَبعٌ فى الأرض لمعانى النور ، بإزاء الشمس نبع النور فى السماء .

وكلٌّ ذلك تراه فى نفس محمد (صلى الله عليه وسلم) ؛ فهى فى مجموعها أبلغ الأنفس قاطبة ، لايمكن أن تعرف الأرض أكملَ منها ؛ ولو اجتمعت فضائل الحكماء والفلاسفة والمتألِّهين وجُعِلتْ فى نِصَاب واحد — ما بلغتْ أن يجىء منها مثلُ نفسه (صلى الله عليه وسلم) . ولكأنما خرجت هذه النفس من صيغة كصيغة الدرَّة فى مَحَارتها ، أو تركيب كتركيب الماس فى منجَمِه ، أو صفة كصفة الذهب فى عِرْقه . وهى النفس الاجتماعية الكبرى ، من أين تدبرتَها رأيتَها على الإنسانية كالشمس فى الأفق الأعلى تنبسِط وتَضْحَى .

وتلك هى الشهادةُ له (صلى الله عليه وسلم) بأنه خاتم الأنبياء ، وأن دينَه هو دين الإنسانية الأخير ؛ فهذا الدين فى مجموعه إن هو إلا صورة تلك النفس العظيمة فى مجموعها : صلابتُه بمقدار الحق الإنسانىّ الثابت ، لا بمقدار الإنسان

المتغير الذى يكون عند سبب جبلاً صلداً يتشمخ ، وعند سبب آخر ماء عذباً يجرى .

وهو دين يعلو بالقوة ويدعو إليها ، ويريد إخضاع الدنيا وحكم العالم ، ويستفرغ همه فى ذلك ، لا لإعزاز الأقوى وإذلال الأضعف ، ولكن للارتفاع بالأضعف إلى الأقوى ؛ وفرق ما بين شريعته وشرائع القوة ، أن هذه إنما هى قوة سيادة الطبيعة وتحكمها ، أما هو فقوة سيادة الفضيلة وتغلبها ؛ وتلك تعمل للتفريق ، وهو يعمل للمساواة ؛ وسيادة الطبيعة وعملها للتفريق هما أساس العبودية ، وغلبة الفضيلة وعملها للمساواة هما أعظم وسائل الحرية .

ومن هنا كان طبيعياً فى الإسلام ما جاء به من أنه لافضيلة إلا وهو يطبع عليها صورة الجنة بنعيمها الخالد ، ولارذيلة إلا وهو يضع عليها صورة النار الأبدية وقودها الناس والحجارة ؛ فلا تنظر العين المسلمة إلى أسباب الحياة نظرة الفكر المنازع : يحرص على ما يكون له ويشره إلى ما ليس له ، ويمكر الحيلة ، ويبدع وسائل الخداع ، ويزيد بكل ذلك فى تعقيد الدنيا — بل نظرة القلب المسالم : يخلع الدنيا ويسخو بكل مضنون فيها ، فيعف عن كثير ؛ ويعرف الإنسانية ويطمع فى غاياتها العليا ، فيعفو عن كثير ؛ ويدرك أن الحلال وإن حل فوراءه حسابه ، وأن الحرام وإن غر ليس إلا تعلل ساعة ذاهبة ثم من ورائه عقاب الأبد .

ويخرج من ذلك أن يكون أكبر أغراض الإسلام هو أن يجعل من خشية الله تعالى قانون وجود الإنسان على الأرض ، فمن أى عطفيه التفت هذا الإنسان وجد على يمنته ويسرته ملكين من ملائكة الله يكتبان أعماله بخيرها وشرها ، ، فهو كالمتهم المستراب به فى سياسة النفس : لا يمشى خطوة إلا بين جاسوسين يحصيان عليه حتى أسباب النية ، ويجمعان منه حتى نزوات الكبد ، ويترجمان عنه حتى معانى النظر .

وإذا قامت هذه الحكمة الملائكية وتقررت فى اعتبار النفس ، قام منها على النفس شرع نافذ هو قانون الإرادة المميزة ، تريد الحسنات وتعمل لها ، وتخشى السيئات وتنفر منها ، فإذا معانى الجسد يحكم بعضها بعضاً ، لا لتحقيق الحكومة والسلطة ، ولكن لتحقيق الخير والمصلحة ؛ وإذا نواميس الطبيعة

المجنونة في هذا الحيوان ، قد نهضتْ إلى جانبها نواميسُ الإرادة الحكيمة فى الإنسان ، وإذا كلُّ صغيرة وكبيرة فى النفس هى من صاحبها مادة تُهمة عند قاضيها فى محكمتها ، وإذا كلُّ ما فى الإنسان وما حولَ الإنسان ، لا يرادُ منه إلا سلامُ النفس فى عاقبتها ؛ وإذا معنى السلام هو المعنى الغالبُ المتصرِّف بالإنسانية فى دنياها .

وكلُّ أعمال الإسلام وأخلاقه وآدابه ، فتلك هى غايتُها ، وهذه هى فلسفتُها ؛ لا يقررها للإنسانية حَسْبُ ، بل يَغْرسُها فى الوراثة غرسًا بالاعتياد والمران الدائم ، لتكونَ علمًا وعملاً ، فتمكِّنَ لسلام النفس بين الأسلحة المسدَّدة إليها من ضَرورات الحياة ، فى أيدى الأعداء المتألِّبة عليها من شَهَوات الغريزة .

فليس يعمُّ السلام إلا إذا عمَّ هذا الدين بأخلاقه فشَملَ الأرضَ أو أكثَرَها ؛ فإن قانونَ العالم حينئذ يُصبح منتزَعا من طبيعة التراحُم ، فإمَّا انتسخَ به قانونُ التنازع الطبيعى ، وإما كَسَّرَ من شرِّته ؛ ويُولد المولودُ يومئذ وتولَد معه الأخلاقُ الإنسانية .

* * *

تقرير معنى الدوام لكل أعمال النفس حتى مثقال الذَّرة من الخير والشر ، وضبط ذلك برياضة عملية دائمة مفروضة على الناس جميعًا — هذا هو أساسُ العقيدة الإسلامية ؛ ولا صلاحَ للإنسانية بغيره يردُّها إلى سبيل قَصْدِها ، فإن من ذلك تكونُ الصفة العقلية التى تَغْلِبُ على المجتمع ، وتُجانس بين أفراده ، فتوجِّه الإنسانيةَ كلَّها نحو الممكِن من كمالها ، ولا تزال توَجِّهها نحو ما هو أعلى ، وتحكم فاسدَها بصالحها ، وتأخذ عاصيَها بمطيعها ، وتجعل الشرفَ الإنسانى غرضَها الأول ، لأن الله الحقَّ غرضُها الأخير ؛ فيصبح المرء — وهذا دينُه — كلما تقدم به العمر كَمُلَ فيه اثنان : الإنسان ، والشريعة . ولا يعود طالبُ السعادة النفسية فى الدنيا كالمجنون يجرى وراء ظله ليُمسكَه ؛ فلا يدرك فى الآخر شيئًا غيرَ معرفته أنه كان فى عمل باطل وسعى ضائع .

والإسلام يحرص أشدَّ الحرص وأبلغَه على تقرير ذلك المعنى الإلهىِّ العظيم ، لا بالمنطق ، ولكن بالعمل ؛ ثم فى النفس وعواطفها ، لا فى العقل وآرائه ؛ ثم على

وجه التعميم ، دون الاستثناء والخصوص ؛ وذلك هو سرُّ مشقـَّته على النفس بما يفرضُه عليها ؛ فإن فلسفته أن هذه النفسَ هى أساسُ العالم، وأن النظامَ الخلـُقىَّ هو أساسُ النفس ، وأن العملَ الدائم هو أساسُ النظام ، وأن روحَ العمل الدائم تكون فيما يشقُّ بعضَ المشـَقة ولا يبلغ العـُسْر والحـَرَج ، كما تكون فيما يـَسـْهـُلُ بعضَ السهولة ولا يبلغ الكـَسـَل والإهمال .

وللنفس وجهان : ما تـُعلـِن ، وما تسرّ ؛ ولا صدقَ لإعلانها حتى يصدقَ ضميرُها ، ولا صلاحَ لجـَهـْرها حتى يصلـُحَ السرُّ فيها ، ولا يكون الإنسان الاجتماعى فاضلاً بمـَشـْهـَدِهِ حتى يكونَ كذلك بغـَيـْبـِه .

وللعالم كذلك وجهان : حاضرُه الذى يمر فيه ، وآتيه الذى يمتدُّ له ؛ ولا يـُفلـِح حاضرٌ منقطعٌ لا يـُوَرِّث ما بعده كما وَرِث ما قبله ، وما حاضرُ الإنسانية إلا جزء من عمل الناس فى استمرار فضائلهم باقيةً نامية .

وللنظام أيضًا وجهان : نظامُ الرغبة على الطاعة والاطمئنان لها ، ونظام الرغبة على الخشية والنـَّفـْرة منها . ولا يستقيم شأنٌ ليس أساسـُه الطاعةَ فى النفس ، ولا يستمر نظامٌ عليه خلافٌ من فكر العامل به .

وللعمل الدائم طريقتان : إحداهما طريقة الجادّ يعمل للعاقبة يستـَيـْقـِنـُها ، فلا يجد مما يشقُّ عليه إلا لذةَ المغالـَبة للنصر : كلُّ مرارة من قـِبـَله هى حلاوةٌ فيه من بـَعد ، ولا يعرف للمـِحـْنة يـُبتلى بها إلا معناها الحقيقىَّ وهو إيقاظ نفسه ، فيصبح الصبر عنده كصبر المحب على أشياء ممن تحبه ؛ صبرٌ فيه من السحر ما يكسو الحرمانَ فى بعض الأحيان خيالَ الاستمتاع ، ويـُذيقُ النفسَ فى العجز عن بعض أغراضها — لذةً كلذة إدراكـه .

* * *

تلك هى فلسفةُ الإسلام ؛ لا قـِوامَ للأمر فيها ولا مـِساكَ له إلا بتقرير معنى الدوام لكل أعمال النفس ، ووضع طابـَع الجنة على أعمال الجنة ، وطابـَع النار على أعمال النار — وحياطة كل فرد من الناس حياطةً رياضيةً عمليةً بين الساعة والساعة ، بل بين الدقيقة والدقيقة ، بما يكلـَّف من أعمال جسمه وحواسـّه ، ثم أعمال قلبه ونيته — وتعظيم الشخصية الروحية دون الشخصية المادية ، فلا يحاول

كلُّ إنسان أن يجعلَ بطنَه فى حجمْ مملكة أو مدينة أو قرية ، بما ينتقِصُ من حقوق غيره ؛ بل تتسع ذاتيةُ كل فرد بما يجبُ له على المجتمع من الواجبات الإنسانية؛ وبهذا لا بغيره تتعين مقاييس الأخلاق فى الأرض: بالمصلحة لا باللذة؛ فلا يقع الخطأ ولا التزوير ، وتنحلُّ المشكلة الاجتماعية ما دامت الحياةُ لا تجد من أهلها كلَّ ساعة عُقَداً فيها .

والاستيلاء بذلك المعنى على العقل والعاطفة هو وحدَه الطريقةُ لإنشاء طبيعة الخير فى الناس على نَسَقِها الطبيعى ، كما أنه هو وحده الطريقةُ لتطهير التاريخ الإنسانى من أوبائه الاقتصادية ، التى جعلته كأنما هو تاريخ الأسنان والأضراس ، وتركت الناسَ يهدم بعضهم بعضًا ، كما يهدم الجارُ حائط جاره ليوسِّعَ بيتَه .

وأساسُ العمل فى الإسلام إخضاعُ الحياة للعقيدة ، فتجعلها العقيدة أقوى من الحاجة؛ فيكونُ الفقير مُعْدِمًا ويتعفَّف ، ويكون الغنيُّ موسِراً ويتصدَّق ، ويكون الشَّرهُ طامعًا ويُمْسِك ، ويكون القويُّ قادراً ويُحْجِم ، وكما قال العرب فى تحقيق ناموس الأنَفة والحميَّة وغلبتِه على الناموس الاقتصادى : « تجوع الحرةُ ولا تأكل بثَدْييها » .

* * *

تريد الإنسانية امتداداً غيرَ امتدادها التجاريِّ فى الأرض ، وتحتاج إلى معنى يقود إنسانَها غير الحيوان الذى فيه؛ وإذا قاد الغراب قومًا فإنما هو – كما قال شاعرنا – يمرُّ بهم على جِيَف الكلاب . . . والإنسانيةُ اليوم فى مثل ليل حَوْشِيٍّ مظلم اختلط بعضه فى بعض، وليست معانى الإسلام إلا الإشراقَ الإلهيَّ على هذه الكثَافة المادية المتراكمة ، وإذا رفع المصباحُ لم تجد الظلامَ إلا وراء الحدود التى تنتهى إليها أشعته .

وقد علمنا من طبيعة النفس أن إنسانيةَ الفرد لا تعظُم وتسمو وتتخيلُ وتفرحُ فرحها الصادقَ وتحزنُ حزنَها السامى – إلا أن تعيشَ فى محبوب؛ فإنسانيةُ العالَم لا تكون مثلَ ذلك إلا إذا عاشت فى نبيِّها الطبيعى ، نبيِّ أخلاقها الصحيحة وآدابِها العالية ونظامِها الدقيق ؛ وأين تجد هذا المحبوبَ الأعظم إلا فى محمد ودين محمد ؟

وعجيب أن يجهلَ المسلمون حكمةَ ذكر النبيّ العظيم خمسَ مرات فى الأذان كل يوم ، ينُادَى باسمه الشريف ملء الجو ؛ ثم حكمةَ ذكره فى كل صلاة من الفريضة والسنّة والنافلة ، يُهْمس باسمه الكريم ملء النفس ! وهل الحكمةُ من ذلك إلا الفرضُ عليهم ألا ينقطعوا من نبيِّهم ولا يومًا واحداً من التاريخ ، ولا جزءاً واحداً من اليوم ؛ فيمتدُّ الزمن مهما امتدّ والإسلام كأنه على أوّله ، وكأنه فى يومه لا فى دهرٍ بعيد ؛ والمسلم كأنه مع نبيِّه بين يديه تبعثه روحُ الرسالة ، ويسطع فى نفسه إشراقُ النبوة ، فيكونُ دائماً فى أمره كالمسلم الأول الذى غيّر وجهَ الأرض ؛ ويظهر هذا المسلم الأولُ بأخلاقه وفضائله وحَميّته فى كل بقعة من الدنيا مكانَ إنسان هذه البقعة ، لا كما نرى اليوم ؛ فإن كلَّ أرض إسلامية يكادُ لا يظهر فيها إلا إنسانها التاريخىُّ بجهله وخرافاته وما وَرِثَ من القِدَم ؛ فهنا المسلم الفرعونى ، وفى ناحية المسلم الوثنى ، وفى بلد المسلم المجوسى ، وفى جهة المسلم المعطِّل . . . وما يُريدُ الإسلام إلا نفسَ المسلم الإنسانىّ .

أيها المسلم !

لا تنقطعْ من نبيك العظيم ، وعشْ فيه أبداً . واجعلْه مثلَكَ الأعلى ؛ وحين تذكره فى كل وقت فكن كأنك بين يديه ؛ كن دائماً كالمسلم الأول ؛ كن دائماً ابنَ المُعْجِزة .

حقيقة المسلم*

لا يعرفُ التاريخُ غيرَ محمد (صلى الله عليه وسلم) رجلاً أفرغَ الله وجودَه في الوجود الإنسانيّ كلِّه ؛ كما تنصبُّ المادّة في المادة ، لتمتزجَ بها ، فتُحوّلها ، فتُحْدِثَ منها الجديد ، فإذا الإنسانية تتحوَّل به وتنمو ، وإذا هو (صلى الله عليه وسلم) وجودٌ سارٍ فيها فما تبرح هذه الإنسانيّة تنمو به وتتحوَّل .

كان المعنى الآدميُّ في هذه الإنسانية كأنما وَهَنَ من طول الدهر عليه ، يتَحيَّفُه ويمحوه ويتعاوَره بالشر والمنكَر ؛ فابْتَعث الله تاريخَ العقل بآدمَ جديد بدأتْ به الدنيا في تطوُّرها الأعلى من حيث يرتفعُ الإنسانُ على ذاته ؛ كما بدأتْ من حيث يُوجَد الإنسانُ في ذاته ؛ فكانت الإنسانيةُ دهرَها بين اثنين : أحدهما فتحَ لها طريقَ المجيء من الجنة ، والثاني فتحَ لها طريقَ العوْدة إليها : كان في آدمَ سرُّ وجود الإنسانية ، وكان في محمدٍ سرُّ كمالها .

* * *

ولهذا سُمِّيَ الدينُ (بالإسلام) ؛ لأنه إسلامُ النفس إلى واجبها ، أي إلى الحقيقة من الحياة الاجتماعية ؛ كأن المسلم ينكِرُ ذاتَه فيُسْلِمها إلى الإنسانية تُصرِّفُها وتَعْتَمِلُها في كمالها ومعاليها ؛ فلا حظَّ له هو من نفسه يمسِكها على شهواته ومنافعه ، ولكنْ للإنسانية بها الحظّ .

وما الإسلامُ في جملته إلا هذا المبدأ : مبدأ إنكار الذات و (إسلامُها) طائعةً على المَنْشَط والمَكْرَه لفُروضها وواجباتها ؛ وكلما نكَصَتْ إلى منْزَعِها الحيوانيّ ، أسلمها صاحبُها إلى وازعها الإلهيّ ؛ وهو أبداً يَرُوضُها على هذه الحركة ما دام حيًّا ؛ فينتزعها كلَّ يوم من أوهام دنياها ، ليضعَها ما بين يدَيْ حقيقتها الإلهيّة : يروضُها على ذلك كل يوم وليلة خمسَ مرّات مُسماة في اللغة خَمْسَ صلوات ، لايكون الإسلام إسلامًا بغيرها ؛ فلا غرو كانت الصلاةُ

---

* كتبها لجماعة الكشاف المسلم في بيروت في ذكرى المولد النبوي الشريف . وانظر « فترة جمام » و « عود على بدء » من كتاب حياة الرافعي .

بهذا المعنى كما وصفها النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) هي عِمادَ الدين .

* * *

بين ساعات وساعات في كلّ مطلع شمس من حياة المسلم صلاة ، أيْ إسلامُ النفس إلى الإرادة الاجتماعية الشاملة[1] القائمة على الطاعة للفرْض الإلهيّ ، وإنكارٌ لمعانيها الذاتية الفانية التي هي مادةُ الشرّ في الأرض، وإقرارُها لحظاتٍ في حيّز الخير المحض البعيد عن الدنيا وشهواتها وآثامها ومنكَراتها. ومعنى ذلك كلّه تحقيقُ المسلم لوجود روحه ؛ إذ كانت أعمالُ الدنيا في جملتها طُرُقًا تتشتّتُ فيها الأرواحُ وتتبعثر ، حتى تَضلّ روحُ الأخ عن روح أخيه فتنكرها ولا تعرفها !

وهذا الوجودُ الروحيُّ هو مبعثُ الحالة العقلية التي جاء الإسلامُ ليَهْدىَ الإنسانيةَ إليها : حالة السلام الروحانيّ الذى يجعل حربَ الدنيا المهلكة حربًا في خارج النفس لا في داخلها ، ويجعل ثروةَ الإنسان مُقَدَّرة بما يعامل الله والإنسانيةَ عليه ؛ فلا يكون ذهبُه وفضّتُه ما كتبتْ عليه الدول : « ضُرِبَ في مملكة كذا » ، ولكن ما يراه هو قد كُتِبَ عليه :« صُنِعَ في مملكة نفسي»؛ ومن ثمّ لايكون وجودهُ الاجتماعيُّ للأخذ حَسْبُ ، بل للعطاء أيضاً ، فإن قانونَ المال هو الجمع ، أما قانونُ العمل فهو البذل .

بالانصراف إلى الصلاة وجَمْع النيّةِ عليها ، يستشعر المسلمُ أنه قد حطّم الحدود الأرضيةَ المحيطةَ بنفسه من الزمان والمكان ، وخَرَج منها إلى رُوحانية لايحَدُّ فيها إلا بالله وحدَه .

وبالقيام في الصلاة ، يحقّقُ المسلمُ لِذاته معنى إفراغ الفكر السامى على الجسم كلّه ، ليمتزجَ بجلال الكون ووقاره ، كأنه كائنٌ منتَصبٌ مع الكائنات يسبّح بحمده .

وبالتولّي شَطْرَ القِبلة في سَمْتها الذى لايتغيّر على اختلاف أوضاع الأرض، يَعرف المسلمُ حقيقةَ الرمز للمركز الثابت في روحانية الحياة؛ فيَحمل قلبُه معنى

---

(١) هذه هي حكمة صلاة الجماعة والحث عليها وكونها أفضل من غيرها وأن الثواب الأكبر فيها وحدها .

الاطمئنان والاستقرار على جاذبيّة الدنيا وقلقها :

وبالركوع والسجود بين يدَى الله ، يُشْعِرُ المسلمُ نفسَه معنى السموّ والرّفعة على كل ما عدا الخالق من وجود الكون .

وبالجلسة فى الصلاة وقراءة التحيّات الطيبات ، يكونُ المسلمُ جالسًا فوق الدنيا يحمَدُ اللهَ ويُسلّم على نبيّه وملائكته ويشهَدُ ويدعو .

وبالتسليم الذى يَخرجُ به من الصلاة ، يُقْبِلُ المسلمُ على الدنيا وأهلِها إقبالاً جديداً : من جهتَى السلام والرحمة .

هى لحظَاتٌ من الحياة كلَّ يوم فى غير أشياء هذه الدنيا؛ لجمع الشهوات وتقييد ها بين وقت وآخرَ بسلاسلها وأغلالِها من حركات الصلاة ، ولتمزيق الفَناء خمسَ مرات كلَّ يوم عن النفس ؛ فيرَى المسلمُ من ورائه حقيقةَ الخلود ، فتشعرُ الروحُ أنها تنمو وتتّسع :

هى خمسُ صلَوات ، وهى كذلك خمس مرّات يَفْرَغُ فيها القلبُ مما امتلأ به من الدنيا ، فما أدقَّ وأبدعَ وأصدقَ قولَه (صلى الله عليه وسلم) : « جُعِلَتْ قُرّةُ عينى فى الصلاة »(١) .

* * *

لم يكن الإسلامُ فى حقيقته إلا إبداعا للصّيغة العمليّة التى تنتظم الإنسانيةُ فيها ؛ ولهذا كانت آدابُه كلُّها حرّاسًا على القلب المؤمن ، كأنها ملائكةٌ من المعانى؛ وكان الإسلامُ بها عملاً إصلاحيًّا وقَع به التطوُّرُ فى عالَم الغريزة ، فنَقلَه إلى عالم الخلُق ، ثم ارتقى بالخُلُق إلى الحقّ ، ثم سَما بالحقّ إلى الخير العام ؛ فهو سموٌّ فوق الحياة بثلاث طبقَات ، وتدرُّجٌ إلى الكمال فى ثلاث منازل ، وابتعادٌ عن الأوهام بمسافة ثلاث حقائق .

وبتلك الأعمال والآداب كانت الدنيا المُسْلمةُ التى أسَّسها النبى (صلى الله عليه وسلم) دنيا أسلمتْ طبيعتُها ، فأصبحت على ما أراد المسلمون لاما أرادتْ هى ؛ وكأنها قائمة بنواميسَ من أهليها ، لاعلى أهليها؛ وكان الظاهرُ أن الإسلام

---

(١) كان محمد (صلى الله عليه وسلم) يستبطىء الصلاة وقد جاء وقتها ، من شدة شوقه إليها فيقول : « أرِحْنا بها يابلال » ولا أفصح ولا أدق فى تصوير نفسيته (صلى الله عليه وسلم) وأشواق روحه العالية من قوله : أرحنا بها . فهذا كمال الاتصال بينه وبين خالقه .

يغزو الأممَ بالعرب ويفتتحها ، ولكنَّ الحقيقةَ أن إقليما من الدنيا كان يحاربُ سائرَ أقاليم الأرض بالطبيعة الأخلاقية الجديدة لهذا الدين .

وكأن اللهَ تعالى ألقى فى رمال الجزيرة روحَ البحر ، وبعثها بَعْثَه الإلهىَّ لأمره ، فكان النبى (صلى الله عليه وسلم) هو نقطةَ المدِّ التى يفورُ البحرُ منها ، وكان المسلمون أمواجَه التى غُسلتْ بها الدنيا . . .

لهذا سمع المسلمون الأوّلون كلامَ الله (تعالى) فى كتابه، وكلامَ رسوله (صلى الله عليه وسلم) ، لا كما يسمعون القولَ ، ولكن كما يتلقَّوْن الحكمَ النافذَ المقْضىَّ ؛ ولم يجدوا فيه البلاغةَ وحدَها ، بل رَوْعةَ أمرِ السماء فى بلاغة؛ واتصلوا بنبيِّهم ، ثم بعضُهم ببعض، لا كما يتصل إنسانٌ بإنسان ، بل كما تتصل الأمواجُ بقوةِ المدِّ ، ثم كما يُمِدُّ بعضُها بعضًا فى قوة واحدة .

وحقَّقوا فى كماله (صلى الله عليه وسلم) وجودَهم النفسىَّ ؛ فكانوا من زخارف الحياة وباطلِها فى موضع الحقيقةِ الذى يُرى فيه الشىءُ لا شىء .

ورأوا فى إرادته (صلى الله عليه وسلم) النقطةَ الثابتةَ فيما يتضاربُ من خيالاتِ النفس ؛ فكانوا أكبرَ علماء الأخلاقِ على الأرض ، لا من كُتُبِ العلم ولا فلسفة ، بل من قلبِ نبيهم وحدَه .

وعرفوا به (صلى الله عليه وسلم) تمامَ الرجولة ؛ ومتى تمَّتْ هذه الرجولةُ تمامَها فى إنسان ، رجعتْ له الطفولةُ فى رُوحه ، وامتلك تلك الطبيعةَ التى لا يملكُها إلا أعظمُ الفلاسفة والحكماء فأصبحَ كأنما يمشى فى الحياة إلى الجنة بخُطُوَات مُسدَّدة لا تزيغُ ولا تنحرف ، فلا شرَّ ولا رذيلة ؛ ودنياه هى الدنيا كلُّها بشمسِها وقمرها ، يملكُها وإن لم يملكْ منها شيئًا ، ما دامت فى قلبه طبيعةُ السرور ، فلا فقرَ ولا غِنى مما يَشعُر الناسُ بمعانيه ، بل كلٌّ ما أمكنَ فهو غنىٌّ كامل ، إذ لم تَعُدِ القوةُ فى المادة تزيد بزيادتها وتنقصُ بنقصها ، بل القوةُ فى الروح التى تتَصرف بطبيعة الوجود ، وتَدفع قُوَى الجسم بمثل دوافع الطفولةِ النامية المتغلِّبة ،حتى لتجعلُ من النور والهواء ما يُؤتَدَمُ به مع الخبز القَفَار ، كما يُؤتَدَمُ باللحم وأطايبِ الأطعمةِ (١) .

---

(١) عن ابن عباس قال : دخل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يوم فتح مكة على (أم هانىء) وكان جائعاً ، فقال لها : « أعندك طعام آكله ؟ » فقالت : « إن عندى لكسر آ يابسة ، وإنى=

وبذلك لا تتسلَّط ضرورةٌ على الجسم – كالجوع والفقر والألم ونحوها – إلا كان تسلُّطها كأنه أمرٌ من قوّة فى الوجود إلى قوّة فى هذا الجسم: أن تَظْهرَ لتعملَ عملَها المُعْجزَ فى إبطال هذه الضرورة. وهذا الجنسُ من الناس كالأزهار على أغصانها الخضْر؛ لو قالت شيئًا لقالت: إن ثروتى فى الحياة هى الحياةُ نفسُها، فليس لى فقرٌ ولا غِنى، بل طبيعةٌ أوْلا طبيعة.

* * *

ولقد كان المسلمُ يُضْرب بالسيف فى سبيل الله، فتقَعُ ضَرباتُ السيوف على جسمه فتُمزِّقُه؛ فما يُحِسُّها إلا كأنها قُبَلُ أصدقاء من الملائكة يَلْقَوْنه ويعانقونه!

وكان يُبْتَلى فى نفسِه وماله، فلا يشعر فى ذلك أنه المُرَزَّأ المُبْتَلى يُعْرَف فيه الحزن والانكسار، بل تَظهر فيه الإنسانية المنتصرةُ كما يَظهر التاريخ الظافرُ فى بطله العظيم أصيبَ فى كلّ موضع من جسمه بجراح، فهى جراحٌ وتشويهٌ وألم، وهى شهادة النصر!

ولم تكن أثقال المسلم من دنياه أثقالاً على نفسه، بل كانت له أسبابَ قوة وسمو؛ كالنَّسْر المخلوق لطبقَات الجوّ العُليا، ويحمل دائمًا من أجل هذه الطبقَات ثِقْلَ جَناحيه العظيمين.

وكانت الحقيقةُ التى جعلها النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) مَثَلَهم الأعلى، وأقرَّها فى أنفسهم بجميع أخلاقه وأعماله – أن الفضائل كلَّها واجبةٌ على كل مسلم لنفسه، إذ أنها واجبةٌ بكل مسلم على غيره، فلا تكون فى الأمة إلا إرادةٌ واحدة متعاونة، تجعل المسلم وما هو روح أمته تَعمل به أعمالها هى لا أعمالَه وحدَها.

المسلم إنسانٌ ممتدٌّ بمنافعه فى معناه الاجتماعىّ حولَ أمته كلِّها، لا إنسانٌ ضيّقٌ مجتمعٌ حول نفسِه بهذه المنافع؛ وهو من غيره فى صدق المعاملة الاجتماعية

—

تستحيى أن أقدمها إليك» فقال: «هلميها!»، فكسرها فى ماء، وجاءته بملح، فقال: «ما من إدام؟» فقلت: «ماعندى إلا شىء من خل.» فقال «هلميه!» فلما جاءت به صبه على طعامه فأكل منه، ثم حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «نعم الإدام الخل يا أم هانىء، لايقفر بيت فيه خل» اهـ.

كالتاجر من التاجر ؛ تقول الأمانة لكليهما : لا قيمةَ لميزانك إلا أن يُصَدِّقَه ميزان أخيك .

ولن يكونَ الإسلامُ صحيحاً تامّاً حتى يجعلَ حاملَه مثلاً من نبيِّه فى أخلاق الله ؛ فما هو بشخص يضْبِط طبيعتَه : يَقْهرها مرةً وتقهره مراراً ؛ ولكن طبيعة تضبِط شخصها فهى قانون وجوده .

لا يضطرب من شيء ، وكيف يضطرب ومعه الاستقرار ؟

لا يخاف من شيء ، وكيف يخاف ومعه الطمأنينة ؟

لا يخشى مخلوقاً ، وكيف يخشى ومعه الله ؟

أيها الأسد ، هل أنت بجملتك إلا فى طبيعة مَخَالبِك وأنيابك . . . ؟

وحى الهجرة *

إن التاريخَ ليتكلّم بلغة أوسعَ من ألفاظِه إذا قرأه من يقرؤه على أنه بعضُ نواميس الوجود ، صُوِّرتْ فيها النفسُ الإنسانية كيف اعتَوَرتْ أغراضها ، وكيف مدّت فى نَسَقِها ، وكيف تغلغلتْ فى مسالكِها ، وما تأتّى لها فَجَرَتْ به مَجراها ، وما دفَعها فانحدرتْ منه إلى مَقَارّها ؛ فهو ليس بكلام تستقبلُه تقرأ فيه ، ولكنه أحوالٌ من الوجود تعترضها فتغيّر عليك حسَّك بإلهامِها وأحلامِها ، وتتناولها من ناحية فتتناولُك من الأخرى ؛ فإذا الكلمة من ورائها معنًى ، من ورائه طبيعةٌ ، من ورائها سببٌ وحكمة ؛ وإذا كلُّ حادثة فيها إنسانيتُها وإلهيتُها معًا ، وإذا الوجود فى ذهنك كالساعة ترسم لك حدَّ الثانية بخَطْرتين ، وحدَّ الدقيقة من عدد محدود من الثوانى ، وحدَّ الساعة إلى حد اليوم ؛ وإذا البيان فى نفسك من كل هذه الحواشى ، وإذا التاريخ فيما تقرؤه مُفَنَّنٌ فى ظاهره وباطنه يَفِيء عليك من ألفاظِه ومعانيه بظلال هى صلتُك أنت أيها الحىُّ الموجود بأسرار ما كان موجوداً من قبل .

كذلك قرأت بالأمس تاريخَ الهجرة النبوية فى كتاب أبى جعفر الطَّبرى لأكتبَ عنه هذه الكلمة ، فلم أكن — علم الله — فى كتاب ولا فى حكاية ، بل فى عالم انبثق فى نفسى مخلوقًا تامًّا بأهله ، وحوادث أهله ، وأسرار أهلِه جميعًا ؛ كما يرى المحبُّ حبيبتَه : لايكون الجميل فى محل إلا امتلأ مكانه بعاشقه ، فهو مكانٌ من النفس ، لامن الدنيا وحدَها ، وفيه الحياة كما هى فى الوجود بمظهر المادة ، وكما هى فى الحب بمظهر الروح .

وتلك حالةٌ من القراءة بالروح والكتابةِ بالروح ، متى أنت سموتَ إليها رأيتَ فيها غيرَ المعنى يُخرِجُ معنى ، ومِن لا شيءَ تُخلَق أشياء ، لأنك منها اتصلتَ بأسرار نفسك ، ومن نفسك اتصلتَ بأسرار فوقها ؛ فيُصبِح التاريخُ معك فنَّ الوجود الإنسانىّ على الوجه الذى أفضتْ به الحكمة إلى الحياة لتستمرَّ بالنفس الإنسانية ، لافنَّ علم الناس على الوجه الذى أفضتْ به الحوادث مما بين الحياة والموت .

---

* أولى مقالاته فى الرسالة ، أنشأها للعدد السنوى الخاص بالهجرة .

* * *

نشأ النبي (صلى الله عليه وسلم) فى مكة ، واستُنْبِىء على رأس الأربعين من سنِّه ، وغَبَر ثلاثَ عشْرةَ سنةً يدعو إلى الله قبل أن يهاجرَ إلى المدينة ؛ فلم يكن فى الإسلام أولَ بَدْأته إلا رجلٌ وامرأةٌ وغلام : أما الرجل فهو هو (صلى الله عليه وسلم) ، وأما المرأةُ فزوجُه خديجة ، وأما الغلام فعليّ ابن عمه أبى طالب.

ثم كان أول النموّ فى الإسلام بِحُرٍّ وعبد : أما الحرُّ فأبو بكر ، وأما العبد فبلال ، ثم اتسقَ النموُّ قليلاً قليلاً بُبطء الهموم فى سيرها ، وصبر الحرِّ فى تجلده ؛ وكأن التاريخَ واقفٌ لا يتزحزح ، ضيق لايتسع ، جامدٌ لاينمو ؛ وكأن النبيَّ (صلى الله عليه وسلم) أخو الشمس : يطلُع كلاهما وحدَه كل يوم . حتى إذا كانت الهجرة من بَعد فانتقل الرسول إلى المدينة ، بدأت الدنيا تتَقَلْقَل ، كأنما مرَّ بقدمه على مركزها فحرَّكها ؛ وكانت خطواتُه فى هجرته تَخطُّ فى الأرض ، ومعانيها تخطُّ فى التاريخ ؛ وكانت المسافة بين مكةَ والمدينة ، ومعناها بين المشرق والمغرب .

لقد كان فى مكةَ يَعْرِضُ الإسلامَ على العرب كما يُعْرَض الذهبُ على المتوحشين : يَرَوْنه بَريقًا وشُعاعًا ثم لاقيمةَ له ، وما بهم حاجةٌ إليه ، وهو حاجة بنى آدم إلا المتوحشين ، وكانوا فى المحادَّة والمخالفة الحمقاء ، والبلوغ بدعوته مبلغَ الأوهام والأساطير — كما يكون المريضُ بذات صدره مع الذى يدعوه فى ليلة قارَّة إلى مداواة جسمه بأشعة الكواكب ؛ وكانت مكةُ هذه صخراً جغرافيًّا يتحطم ولا يلين ، وكأن الشيطانَ نفسَه وضع هذا الصخر فى مجرى الزمن ليصدَّ به التاريخَ الإسلامى عن الدنيا وأهلها .

وأوذىَ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وكذِّب وأهين ، ورَجَفَ به الوادى يخطو فيه على زَلازل تتقلّب ، ونابذَه قومُه وتَذامَروا فيه ، وحضَّ بعضُهم بعضًا عليه ، وانْصَفَقَ عنه عامةُ الناس وتركوه إلا من حفِظَ اللهُ منهم ؛ فأصيب كبيراً باليُتْم من قومه ، كما أصيب صغيراً باليُتْم من أبويه .

وكان لايسمع بقادم يقدُمُ من العرب له اسمٌ وشرفٌ ، إلا تصدَّى له فدعاه إلى الله وعرض نفسَه عليه ؛ ومع ذلك بقيت الدعوةُ تلوح وتختفى كما يَشُقُّ

البرقُ من سحابة على السماء : ليس إلا أن يُرَى ثم لا شيء بعد أن يُرى !

* * *

فهذا تاريخُ ما قبل الهجرة فى جملة معناه ، غيرَ أنى لم أقرأه تاريخًا ، بل قرأتُ فيه فصلاً رائعًا من حكمة إلهية ، وضعه الله كالمقدّمة لتاريخ الإسلام فى الأرض ؛ مقدّمةٌ من الحوادث والأيام تحيا وتمرُّ فى نَسَق الرواية الإلهية المنطوية على رموزها وأسرارها ، وتظهر فيها رحمةُ الله تعملُ بقسوة ، وحكمةُ الله تتجلّى فى غُموض ؛ فلو أنت حققتَ النظرَ لرأيتَ تاريخَ الإسلام يتألّه فى هذه الحقبة ، بحيث لاتقرؤه النفسُ المؤمنةُ إلا خاشعة كأنها تصلّى ، ولاتتدبّره إلا خاضعةً كأنها تتعبّد .

بدأ الإسلامُ فى رجل وامرأة وغلام ، ثم زاد حرًّا وعبداً ؛ أليست هذه الخمسُ هى كلَّ أطوار البشرية فى وجودها ، مخلوقةً فى الإنسانية والطبيعة ، ومصنوعةً فى السياسة والاجتماع ؟ فهاهنا مطلعُ القصيدة ، وأولُ الرمز فى شعر التاريخ .

ولَبثَ النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) ثلاثَ عشرةَ سنةً لايَبْغيه قومُه إلا شرًّا ، على أنه دائبٌ يطلب ثم لايجد ، ويَعْرِضُ ثم لايُقبَل منه ، ويُخفِق ثم لا يَعتريه اليأس ، ويَجْهَدُ ثم لا يتخوّنُه الملَل ، ويستمرُّ ماضيًا لايتحرَّف ، ومعتزمًا لايتحوّل ؛ أليست هذه هى أسمى معانى التربية الإنسانية أظهرَها اللهُ كلَّها فى نبيه ، فَعمِلَ بها وثبت عليها ، وكانت ثلاثَ عشرَةَ سنةً فى هذا المعنى كعمر طفل وُلِدَ ونشأ وأحكم تهذيبُه بالحوادث ، حتى تسلّمته الرجولةُ الكاملة بمعانيها من الطفولة الكاملة بوسائلها ؟

أفليس هذا فصلاً فلسفيًّا دقيقًا يعلِّم المسلمين كيف يجب أن ينشأ المسلم: غِناه فى قلبه ، وقوّته فى إيمانه ، وموضعه فى الحياة موضعُ النافع قبل المنتفع ، والمصلِح قبل المقلِّد ؛ وفى نفسه من قوة الحياة ما يموتُ به فى هذه النفس أكثرُ ما فى الأرض والناس من شهوات ومطامع ؟

ثم أليست تلك العواملُ الأخلاقيةُ هى هى التى ألقيتْ فى منبع التاريخ الإسلامىّ ليعُبَّ منها تيّارُه ؛ فتدفعُه فى مجراه بين الأمم ، وتجعلُ من أخص

الخصائص الإسلامية فى هذه الدنيا — الثباتَ على الخُطْوة المتقدمة وإن لم تتقدَّم، وعلى الحق وإن لم يتحقَّق ؛ والتبرُّؤَ من الأثرة وإن شَحَّتْ عليها النفس، واحتقارَ الضعف وإن حكَم وتسلَّط ، ومقاومةَ الباطل وإن ساد وغلَب ، وحملَ الناس على مَحْض الخير وإن رَدُّوا بالشر، والعملَ للعمل وإن لم يأت بشيء ، والواجبَ للواجب وإن لم يكن فيه كبيرُ فائدة ، وبقاء الرجل رجلاً وإن حطَّمه كلُّ ما حوله ؟

ثم هى هى البُرهاناتُ القائمةُ للدهر قيامَ المنارة فى الساحل — على نبوَّة محمد (صلى الله عليه وسلم) : تثبت ببرهان الفلسفة وعلوم النفس أنه رُوحٌ وغاياتُها المحتومة بالقدَر ، لاجسمٌ ووسائلُه المتغلِّبةُ بالطبيعة ؛ ولو كان رجلاً ابتعثتْه نفسُه ، لتَمحَّلَ الحيلَ لسياسته ، ولأحْدَثَ طمعًا من كل مَطْمع ،ولركَدَ مع الحوادث وهَبّ، ولما استمرطوالَ هذه المدة لايتجه وهو فردٌ إلا اتجاهَ الإنسانية كلِّها كأنما هو هى .

ولو هو كان رجلَ المُلك أو رجلَ السياسة ، لاستقام والْتَوَى ، ولأدرك ما يبتغى فى سَنوات قليلة ، ولأوجد الحوادثَ يتعلق عليها ، ولما أفْلتَ ما كان موجوداً منه يتعلَّق به ، ولما انتزع نفسَه من محله فى قومه وكان واسطةً فيهم ، ولا ترك عوامل الزمن تُبعِدُه وهى كانت تُدنيه .

قالوا : إن عمه أبا طالب بعث إليه حين كلمتْه قُريش فقال له : يا ابن أخى ، إن قومَك قد جاءونى فقالوا لى كذا وكذا ، فأبْقِ علىَّ وعلى نفسك ، ولاتحمِّلْنى من الأمر مالا أطيق . فظن رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قد بدا لعمه فيه بَدَاء[1] ، وأنه خاذِلُه ومُسْلِمُه ، وأنه قد ضَعُفَ عن نُصرته والقيام معه ، فقال : يا عمَّاه ، لو وضعوا الشمسَ فى يمينى والقمرَ فى يسارى على أن أتركَ هذا الأمرَ حتى يُظهِرَه اللهُ أو أهلِكَ فيه ما تركته . ثم استعبرَ (صلى الله عليه وسلم) فبكى !

يا دموعَ النبوة ! لقد أثْبَتِّ أن النفسَ العظيمةَ لن تتعزى عن شيء منها بشيء من غيرها كائنًا ما كان ، لامن ذهبِ الأرض وفضّتِها ، ولا من ذهب

(١) أى نشأ له رأى جديد فيه ، وهذا كما يقولون : رجع عن رأيه .

السماء وفضتِها إذا وُضِعَتْ الشمسُ في يد والقمرُ في الأخرى .

وكلٌ حوادث المدة قبل الهجرة على طولها ليست إلا دليلَ ذلك الزمنِ على أنه زمنُ نبيّ ، لازمنُ مَلِكٍ أو سياسيّ أو زعيم ؛ ودليل الحقيقة على أن هذا اليقينَ الثابتَ ليس يقينَ الإنسانِ الاجتماعيّ من جهة قوته ، بل يقينَ الإنسان الإلهيّ من جهة قلبه ؛ ودليلَ الحكمة على أن هذا الدينَ ليس من العقائد الموضوعة التي تنشرها عَدْوى النفس للنفس ؛ فها هو ذا لايبلغ أهلُه في ثلاثَ عشرةَ سنةً أكثرَ مما تبلغ أسرةٌ تتوالد في هذه الحِقْبة ؛ ودليلَ الإنسانية على أنه وحْي الله بإيجاد الإخاء العالميّ والوحدة الإنسانية . أفلم يكن خروجُه عن موطنه هو تحقُّقَه في العالم ؟

ثلاثَ عشرةَ سنة ، كانت ثلاثة عَشَرَ دليلاً تثبت أن النبي (صلى الله عليه وسلم) ليس رجلَ مُلك ، ولا سياسة ، ولا زَعامة ؛ ولو كان واحداً من هؤلاء لأدرك في قليل ؛ وليس مبتدعَ شريعةٍ من نفسه ، وإلا لما غَبَرَ في قومه وكأنه لم يجدْهم وهم حوله ؛ وليس صاحبَ فكرة تعملُ أساليبُ النفس في انتشارها ؛ ولو كانَه لحملهم على مَحْضها وممزوجِها ؛ وليس رجلاً متعلِّقًا بالمصادفات الاجتماعية ، ولو هو كان لجعل إيمانَ يومٍ كُفْرَ يوم ؛ وليس مُصْلِحَ عشيرة يهذّب منها على قَدْر ما تقبل منه سياسةً ومخادعة ، ولا رجلَ وطِنه تكون غايتُه أن يشمخَ في أرضه شُموخَ جبل فيها ، دون أن يحاولَ ما بلغ إليه من إطلاله على الدنيا إطلالَ السماء على الأرض ، ولا رجلَ حاضره إذ كان واثقًا دائمًا أن معه الغدَ وآتيَه ، وإن أدبر عنه اليومُ وذاهبُه ؛ ولارجلَ طبيعتِه البشرية يلتمسُ لها ما يلتمس الجائع لبطنه ، ولارجلَ شخصيتِه يستهوى بها ويسحر ، ولا رجلَ بطشِه يغلب به ويتسلَّط ، ولا رجلَ الأرضِ في الأرض ، ولكن رجلَ السماء في الأرض .

هذه هي حكمة الله في تدبيره لنبيه قبل الهجرة : قبض عنه أطرافَ الزمن ، وحصره من ثلاثَ عشرةَ سنة في مثل سنة واحدة ، لا تَصدُرُ به الأمور مَصادرَها كي تُثبتَ أنها لاتَصدر به : ولاتستحقّ به الحقيقة لتدلّ على أنها ليست من قوته وعمله .

وكان (صلى الله عليه وسلم) على ذلك — وهو في حدود نفسِه وضيق

مكانه – يتسع فى الزمن من حيث لا يَرَى ذلك أحدٌ ولا يعلمه ، وكأنما كانت شمس اليوم الذى سينتصر فيه – قبل أن تُشرقَ على الدنيا بثلاثَ عشرةَ سنة – مشرقةً فى قلبه (صلى الله عليه وسلم) .

والفصل من السنة لا يقدّمه الناس ولا يؤخرونه ، لأنه من سَيْر الكون كله ؛ والسحابة لا يُشْعِلون برقَها بالمصابيح ، ومع النبي من مثل ذلك برهانُ الله على رسالته ، إلى أن نزل قولُه تعالى : « وقاتِلوهم حتى لا تكونَ فتنةٌ ويكونَ الدين كلُّه لله » فحلّ الفصل ، وانطلقت الصاعقة ، وكانت الهجرة .

تلك هى المقدّمة الإلهية للتاريخ ، وكان طبيعيًّا أن يطّردَ التاريخ بعدها ، حتى قال الرشيد للسحابة وقد مرت به : أمطرى حيث شئت فسيأتينى خَراجُك !

فلسفة قصة *

ماتت خديجة زوج النبي (صلى الله عليه وسلم) ومات عمُّه أبو طالب فى عام واحد ، فى السنة العاشرة من النبوة ، فعظُمت المصيبة فيهما عليه ، إذ كان عمُّه هذا يمنعه من أذى قريش ، ويقوم دونه فلا يخلُصون إليه بمكروه ؛ وكان أبو طالب من قُريش كالعقيدة السياسية : هى بطبيعتها قوةٌ نافذةٌ على قوة القبيلة ؛ فمن ثَم كان هو وحده المشكِلةَ النفسيةَ المعقَّدةَ التى تعمل قريش جاهدةً فى حلّها ، وقامت المعركة الإسلامية الأولى بين إرادتهم وإرادته ، وهم أمة تحكمهُم الكلِمة الاجتماعية التى تَسير عنهم فى القبائل ؛ وتاريخُهم ما يقال فى الألسنة من معانى المدح والذم ، فيخشَوْن المقالةَ أكثرَ مما يخشَوْن الغارة ، وقد لا يُبالون بالقَتْلَى والجرحى منهم ، ولكنهم يبالون بالكلِمات المجروحة .

فكان من لَطيف صنْع الله للإسلام ، وعجيب تدبيره فى حماية نبيه (صلى الله عليه وسلم) — وضْعُ هذه القوة النفسية فى أول تاريخ النبوة ، تشتغل بها سخافات قريش ، وتكون عملاً لفراغهم الرُّوحى ، وتُثير فيهم الإشكال السياسىَّ الذى يعطِّلُ قانونَهم الوحشىَّ إلى أن يتمَّ عملُ الأسباب الخفية التى تكْسِر هذا القانون ؛ فإن المصنعَ الإلهىَّ لا يخرِج أعمالَه التامة العظيمةَ إلا من أجزاءٍ دقيقة .

أما خديجة زوج النبى (صلى الله عليه وسلم) ، فكانت فى هذه المِحْنة قلباً مع قلِبه العظيم ، وكانت لنفسه كقول (نَعم) للكلمة الصادقة التى يقول لها كلُّ الناس (لا) ؛ وما زالت المرأة الكاملةُ المحبوبةُ هى التى تُعطِى الرجلَ مانقص من معانى الحياة ، وتَلِدُ له المسرات من عواطِفها كما تَلِدُ من أحشائها ، فالوجودُ يعملُ بها عملين عظيمين : أحدُهما زيادةُ الحياة فى الأجسام ، والآخرُ إتمامُ نقْصها فى المعانى .

* * *

وبموت أبى طالب وخديجةَ ، أفرِدَ النبىُّ (صلى الله عليه وسلم) بجسمه وقلبِه ،

* أنشأها لعدد الهجرة سنة ١٣٥٥ هـ .

ليتجردَ من الحالة التى يَغْلِبُ فيها الحسُّ ، إلى الحالة التى تَغلب فيها الإرادة ، ثم ليخرجَ من أيام الاستقرار فى أرضه ، إلى الأيام المتحركة به فى هجرته ؛ ثم لينتهىَ بذلك إلى غاية قوميّته الصغيرة المحدودة ، فيتصلَ من ذلك بأول عالميّته الكُبرى .

وأراد الله تعالى أن يبدأ هذا الجليلُ العظيمُ من أسمى خِلال الجلال والعظَمة ، ليكونَ أولُ أمره شهادةً بكماله . فكانت الحسنة فيه بشهادة السيئة من قومه ؛ فحِلْمهُ بشهادة رُعُونتهم ، وأناتُه بدليل طَيْشهم ، وحكمتُه ببرهان سفَاهتِهم ؛ وبذلك ظهر الروحانىُّ روحانيًّا فى المادة .

قالوا : فنالتْ منه قريش ، ووَصَلُوا من أذاهُ إلى ما لم يكونوا يصلُون إليه فى حياة عمه ، حتى نثَرَ بعضُهم الترابَ على رأسه ، كأنما يُعلِمونه أنه أهونُ عليهم من أن يكونَ حُرًّا ، فضلاً عن أن يكونَ عزيزاً ، فضلاً عن أن يكون نبيًّا ؛ قالوا : فدخل رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) بيتَه والترابُ على رأسه ، فقامت إليه إحدى بناته تغسل عنه الترابَ وهى تبكى !

كانت تبكى إذ لاتعلم أن هذا الترابَ على رأس النبىّ العظيم هو شُذوذُ الحياة الأرضية الدنيئة ، فى مقابلة إنسانِها الشاذّ المنفرد . هذه القَبْضَةُ من التراب الأرضىّ قبضةٌ سفيهةٌ ، تحاولُ ردَّ الممالك الإسلاميةِ العظيمة أن تَنشأ نشأتَها وتعملَ عملَها فى التاريخ ؛ فهى فى مقدارها وسخافتِها ومحاولتِها ، كعقل قُريش حينئذ فى مقداره وسخافتِه ومحاولتِه .

أما النبىُّ (صلى الله عليه وسلم) فقال لبنته : « يابنيّة لاتبكى ، فإن الله مانعٌ أباك » . حسبَتْ ذلك هَواناً وضَيْعةً ، فأعلَمها أن قبضةً من التراب لاتَطْمُرُ النَّجْم ، وأن هذه الحَثْوَة الترابيةَ لا تُسمَّى معركةً أثارتْها الخيلُ فجاءت بنتيجة ، وأن ساعةً من الحزن فى يوم ، لايُحكَم بها على الزمن كلّه ، وأن هذه النَّزوةَ التى تحركت الآن هى حمقُ الغباوة : قوّتُها نهايتُها .

« يا بنيَّةُ لا تبكى فإن الله مانعٌ أباك » . أى ليس للنبى كبرياء ينالُها الناسُ أو يَغُضُّون عنها فيأتى الدمعُ مترجماً عن المعنى الإنسانىّ الناقص مُثْبِتاً أنه ناقص ؛ إنما هى النبوّةُ : قانونُها غيرُ ما اعتادت النفس من أفراح وأحزان ، وهى

النبوة : تجعل المختارَ لها غيرَ محدود بجسده الضعيف ، بل حدودُه الحقائقُ التي فيها قوتُها؛ فهو فى مَنَعَة الواقع الذى لابد أن يقع، فلو أمكن أن يُحذَف يوم من الزمن أو يؤخَّرَ عن وقته، أمكن أن يؤخَّر النبى أو يُحذَف .

« يا بنيةُ لاتبكى إن الله مانعٌ أباك » . لا والله ما يقول هذه الكلمة إلا نبىٌّ وَسِعَ التاريخَ فى نفسه الكبيرة قبل أن يُوجَدَ هذا التاريخُ فى الدنيا؛ فكلمتُه هى الإيمانُ والثقةُ إذ يتكلم عن موجود .

ترابٌ ينثُره سفيهٌ على رأس النبى! ويحكِ يا حقَارةَ المادة؛ إن ارتفاعَك لعنة ، إن ارتفاعَكِ لعنة .

* * *

قالوا : وخرج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وحده إلى الطائف ، يلتمس من ثَقيف النصرَ والمنَعةَ له من قومه؛ فلما انتهى إلى الطائف عَمدَ إلى نفَر من ثقيف هم يومئذ سادتُهم وأشرافُهم، فجلس إليهم فدعاهم إلى الله وكلمهم بما جاءهم له من نُصرته والقيام معه فى الإسلام على من خالفه من قومه ؛ فلم يفعلوا وأغرَوْا به سُفهاءهم وعبيدَهم يسبُّونه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناسُ وألجأوه إلى حائط(١) لعُتْبَةَ بنِ ربيعة وشَيبة بنِ ربيعة وهما فيه. ورجع عنه من سفهاء ثَقيف من كان يتبعه ، فعمد (صلى الله عليه وسلم) إلى ظل حُبْلَةٍ من عِنَب فجلس فيه ، وابنا ربيعةَ ينظران إليه ويريان ما لَقِى من السفهاء .

فلما اطمأنَّ (صلى الله عليه وسلم) فى مجلسه قال: « اللهمَّ إليكَ أشكو ضعف قوّتى ، وقلةَ حيلتى ، وهوانى على الناس ؛ يا أرحمَ الراحمين ، أنت ربُّ المستَضْعَفِين وأنت ربى ، إلى من تَكِلُنى ؛ إلى بعيد يتَجهّمُنى ، أو إلى عدوٍّ ملَّكتَه أمرى ؛ إن لم يكنْ بك علىّ غضبٌ فلا أبالى ، ولكنَ عافيتكَ هى أوسعُ لى . أعوذُ بنور وجهك الذى أشرقَتْ له الظلُمات، وصَلُحَ عليه أمرُ الدنيا والآخرة ، من أن ينزلَ بى غضبُك ، أويحلَّ علَىَّ سخَطُك ، لك العُتْبَى حتى ترضى ، لاحولَ ولا قوةَ إلا بك ! »

* * *

(١) الحائط : البستان ، وجمعه حوائط .

ألا ما أكملَ هذه الإنسانيةَ التى تثبت أن قوةَ الخُلُق هى درجةٌ أرفعُ من الخلُق نفسه ؛ فهذا فنُّ الصبر لا الصبرُ فقط ، وفنُّ الحِلم لا الحِلمُ وحده .

قوة الخلُق هى التى تجعلُ الرجلَ العظيم ثابتًا فى مركزِ تاريخه لامتقلْقِلاً فى تواريخ الناس ، محدوداً بعظائم شخصيته الخالدة لا بمصالح شخصِه الفانى ، ناظراً فى الحياة إلى الوضع الثابت للحقيقة لا إلى الوضع المتغيِّر للمنفعة .

وما كان أولئك الأشرافُ وسفهاؤُهم وعبيدُهم إلا معانىَ الظلم ، والشر ، والضعف ، تقول للنبي العظيم الذى جاء يمحوها ويُديلُ منها : إننا أشياء ثابتةٌ فى البشريّة .

لم يكن منهم الأشرافُ والسفهاءُ والعبيدُ ، بل كان منهم العَسْفُ ، والرّق ، والطّيش ؛ تَسْخَر ثلاثتُها من نبي العدل ، والحرية ، والعقل ؛ فما تَسْخَرُ إلا من نفسِها .

صغائر الحياة قد أحاطت بمجد الحياة ، لتُثبِتَ الصغائرُ أنها الصغائر ، ولِتُثْبتَ المجدُ أنه المجد .

كان الفريقان هما الفكرتين المتعاديتَين أبداً على الأرض: إحداهما عِشْ لتأكلَ وتستمتعَ وإن أهلكْت ؛ والأخرى عش لتعملَ وتنفعَ الناسَ وإن هلكْت .

كانت الأقدارُ تُبادى هذا الروحَ الواسعَ بذلك الروحِ الضيق ، لينطلقَ الواسعُ من مكانه ويستقبِلَ الدنيا التى عليه أن يُنشئها . فأولئك الأشرافُ والسفهاء والعبيد إن هم إلا الضيقُ ، والركودُ ، وذلُّ العيش، حولَ السّعةِ الروحيةِ ، والسموّ ، وطَهارةِ الحياة .

وقف المعنى السماويُّ بين معانى الأرض ؛ ولكنّ نورَ الشمس ينبسطُ على التراب فلا يُعفِّرُه التراب ، وما هو بنور يضيء أكثرَ مما هو قوةٌ تعملُ بالعناصر التى من طبيعتها أن تحوّلَ ، فى العناصر التى من شأنِها أن تتحوّل .

وكان بين النبي (صلى الله عليه وسلم) وبين أولئك المستهزئين قوةٌ أخرى، هى القدرةُ التى تعملُ بهذا النبي للعالم كلّه ، وبهذه القدرة لم ينظر النبي إلى قريش وصَوْلتهم عليه إلا كما ينظر إلى شيء انقضى ، فكان الوجودُ الذى يُحيط به غيرَ موجود ، وكانت حقيقةُ الزمن الآتى تجعلُ الزمنَ الحاضرَ بلا حقيقة .

وإلى هذه القدرة توجَّهَ النبي (صلى الله عليه وسلم) بذلك الدعاء البليغ الخالد ، يشكو أنه إنسانٌ فيه الضعف وقلة الحيلة ، فينطقُ الإنسانيُّ فيه بالشَّطر الأول من الدعاء يذكر انفرادَه وآثارَ انفراده ، ويتوجعُ لما بينه وبين إنسانية قومه ؛ ثم ينطقُ الروحانيُّ فيه بعد ذلك إلى آخر الدعاء متوجِّهًا إلى مصدرِه الإلهي قائلاً أول ما يقول : إن لم يكن بك عليَّ غضبٌ فلا أبالى .

ولعمرى لو نطقت الشمسُ تدعو الله لما خرجتْ عن هذا المعنى ولا زادت على قوله : « أعوذُ بنور وجهك » ؛ تلتمسُ من مصدر النور الأزليّ حياطةَ وجودها الكامل .

* * *

ولقد هزءوا من قبلُ بالمسيح (عليه السلام) فقال للساخرين منه : ليس نبيٌّ بلا كرامة إلا فى وطنه وفى بيته . وبهذا رد عليهم ردَّ من انسلخَ منهم ، وقال لهم قول من ليس له حكم فيهم ، وأخذهم بالشريعةِ الأدبية لا العملية ؛ إذ كان (عليه السلام) كالحكمة الطائفةِ ليست لكلّ قلب ولا لكل عقل ، ولكنها لمن أعِدَّها ؛ وشريعته أكثرها فى التعبير وأقلُّها فى العمل، ولم تجىء بالقوة العاملة فلم يكن بدٌ من أن تَضَعَ الموعظةَ فى مكانِ السيف ، وأن تكونَ قائمةً على النهى أكثر مما هى قائمة على الأمر ، وأن تكون كشمس الشتاء الجميلة : لا تَغْلِى بها الأرض ، وإنما عملُها أن تمهِّدَ هذه الأرضَ لفصلٍ آخر .

أما نبيُّنا (صلى الله عليه وسلم) فلم يُجب المستهزئين ، إذ كانت القوةُ الكامنةُ فى بلاد العرب كلِّها كامنةً فيه ، وكان صدرُه العظيمُ يحمل للدنيا كلمةً جديدةً لاتقبلُ الدنيا أن تعاملَه عليها إلا بطريقتها الحربية؛ فلم يردَّ إردَّ الشاعر الذى يُريد من الكلمة معناها البليغَ ، ولكنه سكتَ سكوتَ المشْتَرِع الذى لايريد من الكلمة إلا عملَها حين يتكلم ؛ وكان فى سكوته كلامٌ كثيرٌ فى فلسفة الإرادة والحرية والتطور ، وأن لابد أن يتحولَ القومُ ، وأن لابد أن يتفطَّرَ هذا الشجرُ الأجرَدُ عن وَرَق جديد أخضرَ ينمو بالحياة .

لم يتسخَّط ولم يقلْ شيئًا ، وكان كالصانع الذى لايردُّ على خطأ الآلة بسخْط ولا يأس ، بل بإرسال يده فى إصلاحها .

* * *

قالوا : ورأى ابنا ربيعةَ ، عُتْبةُ وشيبة ما لقى النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) من السفهاء ، فتحركتْ له رَحِمُهُمَا ، فدَعَوا غلامًا لهما نَصرانيًّا يقال له عَدَّاس ، فقالا له : خذ قِطْفًا من هذا العنب وضعه فى ذلك الطبق ، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكلُ منه . ففعل عدَّاس ثم أقبل به حتى وضعه بين يدى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ؛ فلما وضعَ يدَه قال : « بسم الله » ثم أكل ؛ فنظر عدَّاس إلى وجهه ثم قال : والله إن هذا لكلامٌ ما يقوله أهل هذه البلدة .

فقال له رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : ومِن أهلِ أىّ البلادِ أنت يا عدَّاسُ وما دينُك ؟

قال : أنا نَصرانى وأنا رجلٌ من أهل نِينَوَى . فقال له رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) : من قرية الرجل الصالح يُونس بن متَّى ؟ قال : وما يدريك ما يونسُ بن متى ؟ قال (صلى الله عليه وسلم) : ذاك أخى : كان نبيًّا وأنا نبىّ .

فأكبَّ عدَّاس على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقبل رأسه ويديه ورجليه .

* * *

يا عجبا لرموز القدَر فى هذه القصة !

لقد أسرع الخيرُ والكرامةُ والإجلالُ فأقبلتْ تعتذرُ عن الشر والسفاهةِ والطيش ، وجاءت القُبُلاتُ بعد كلمات العداوة .

وكان ابنا ربيعةَ من ألد أعداء الإسلام ، وممن مشوا إلى أبى طالب عم النبي (صلى الله عليه وسلم) من أشراف قريش يسألونه أن يكفَّه عنهم أو يُخَلِّىَ بينهم وبينه ، أو يُنازِلُوه وإياه حتى يهلكَ أحدُ الفريقين ، فانقلبت الغريزةُ الوحشية إلى معناها الإنسانى الذى جاء به الدين ، لأن المستقبل الدينىّ للفكر لا للغريزة .

وجاءت النصرانيةُ تعانق الإسلام وتُعزّه ، إذ الدينُ الصحيحُ من الدين

الصحيحِ كالأخ من أخيه ، غير أن نَسَبَ الإخْوة الدمُ ونسبَ الأديانِ العقل .

ثم أتمّ القدرُ رمزه فى هذه القصة ، بقِطْف العنب سائغًا عَذْبًا ، مملوءًا حَلاوة ؛ فباسم الله كان قِطْفُ العنب رمزاً لهذا العنقود الاسلامىّ العظيم الذى امتلأ حَبًّا كل حبة فيه مملكة .

فوق الآدمية*

الإسراء والمعراج

من أعجب ما اتفق لى أنى فرغتُ من تسويد هذا المقالِ ثم أردتُ نقلَه ، فتَعسَّرَ علىَّ وصُرِفتُ عنه بألم شديد اعترانى ، ونالنى منه ثِقْلةٌ فى الدماغ ؛ ثم كشفَه الله بعد يوم فراجعتُ الكتابةَ ، فإذا قلمى ينبعثُ بهذه الكلمات :

كيف يَستَوْطِيء المسلمون العجزَ ، وفى أول دينِهم تسخيرُ الطبيعة ؟

كيف يَستَمْهِدُون الراحةَ ، وفى صَدْرِ تاريخهم عملُ المعجزة الكبرى ؟

كيف يرْكَنُونَ إلى الجهل ، وأولُ أمرِهم آخرُ غايات العلم ؟

كيف لايحملون النورَ للعالَم ، ونبيُّهم هو الكائنُ النورانىُّ الأعظم ؟

* * *

قصةُ الإسراء والمعراج هى من خصائصِ نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) ، هذا النجمُ الإنسانى العظيم ؛ وهو النورُ المتجسِّدُ لهداية العالم فى حيْرة ظلُماته النفسيَّة ؛ فإن سماء الإنسانِ تُظلِمُ وتُضىء من داخله بأغراضه ومعانيه . والله (تعالى) قد خلق للعالم الأرضىِّ شمساً واحدةً تُنيره وتُحييه وتتقلَّبُ عليه بليله ونهاره ، بيد أنه ترك لكل إنسان أن يصنعَ لنفسه شمسَ قلبه وغَمَامَها وسحائبَها وما تسفِرُ به وما تُظلم فيه . ولهذا سُمِّيَ القرآنُ نوراً لعمل آدابهِ فى النفس ، ووُصف المؤمنون بأنهم « يَسْعى نورُهم بين أيديهم وبأيمانهِم » ، وكان أثرُ الإيمان والتقوى فى تعبير القرآن الكريم أن يجعلَ الله للمؤمنين نوراً يمشُون به .

وقد حار المفسِّرون فى حكمة ذكر « الليل » فى آية « الإسراء » من قوله تعالى : « سُبحانَ الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرامِ إلى المسجدِ الأقصى الذى باركْنا حولَه لنُرِيَه من آياتنا » . فإن السُّرَى فى لغة العرب لايكونُ إلا ليلا .

والحكمةُ هى الإشارةُ إلى أن القصةَ قصةُ (النجم) الإنسانىِّ العظيم الذى

* أنشأها برأى صديقه الأستاذ محمود أبو ريه .

تحوّلَ من إنسانيته إلى نوره السماويّ فى هذه المعجزة ؛ ويتمم هذه العجيبةَ أن آياتِ « المعراج » لم تجئْ إلا فى سورة : « والنَّجم» .

وعلى تأويلِ أنّ ذكرَ (الليل) إشارةٌ إلى قصةِ النجم ، تكونُ الآيةُ برهانَ نفسِها ، وتكون فى نَسَقِها قد جاءت معجزة من المعجزات البيانية ؛ فإذا قيل إن نجماً دار فى السماء ، أو قطعَ ما تقطعه النجومُ من المسافات التى تُعْجِزُ الحساب ، فهل فى ذلك من عجيب ؟ وهل فيه شكٌ أو نظرٌ أو تردُّد ؟ وهل هو إلا من بعضِ ما يُسَبِّح الله بذكره ؟ وهل يكونُ إلا آيةً اتصلت بالآيات التى نَرَاها اتصالَ الوجود بعضه ببعض ؟

وأنا ما يكادُ ينقضي عجَبِى من قوله تعالى : « لنُرِيَه من آياتنا » . مع أن الألفاظَ كما ترى مكشوفةٌ واضحة ، يُخيِّل إليك أن ليس وراءها شيء ، ووراءها السرُّ الأكبر ؛ فإنها بهذه العبارة نصٌّ على إشراف النبى (صلى الله عليه وسلم) فوق الزمان والمكان يرى بغير حجاب الحواسّ مما مَرْجِعُه إلى قُدرة الله لاقدرة نفسه ؛ بخلاف مالو كانت العبارةُ : (ليرَى من آياتنا) فإن هذا يجعله لنفسه فى حُدود قوتها وحواسِّها وزمانِها ومكانِها ، فيضطربُ الكلام ، ويتطرقُ إليه الاعتراض ولاتكونُ ثَمَّ معجزة .

وتحويلُ فعل (الرؤية) من صيغة إلى صيغة كما رأيتَ ، هو بعينه إشارة إلى تحويل الرائى من شكلٍ إلى شكل كما ستعرفُه ، وهذه معجرة أخرى يسجدُ لها العقل ؛ فتباركَ الله مُنْزِلُ هذا الكلام !

وإذا كان (صلى الله عليه وسلم) نَجماً إنسانيًّا فى نوره ، فلن يأتىَ هذا إلا من غَلَبَة روحانيته على مادته؛ وإذا غلبت روحانيتُه كانت قواه النفسيةُ مهيَّأة فى الدنيا لمثل حالتها فى الأخرى ؛ فهو فى هذه المعجزة أشبهُ بالهواء المتحرك . فقُل الآن : أيُعتَرضُ على الهواء إذا ارتفع بأنه لم يرتفع فى طيَّارة . . . ؟

ومن ثَمَّ كان الإنسانُ إذا سما درجةً واحدةً فى ثبات قواه الروحية ، سما بها دَرجاتٍ فوق الدنيا وما فيها ، وسُخِّرت له المعانى التى تُسَخِّر غيرَه من الناس ، ونشأتْ له نواميس أخلاقيةٌ غير النواميس التى تتسلط بها الأهواء . ومتى وُجد الشيء من الأشياء كانت طبائع وجوده هى نواميسه ؛ فالنارُ مثلاً إذا وهى

تضرَّمتْ أوجدت الإحراق فيما يحترق ، فإن وُضع فيها مالا يحترق أبطلَ نواميسَها وغلب عليها .

وكلُّ معجزة تَحدُثُ فهذا هو سبيلُها فى إيجاد النواميس الخاصة بها وإبطال النواميس المألوفة ، وبهذا يقال : إنها خرَقَتْ العادة . ومن النور نور لا يَشِفُّ له غيرُ الهواء ، ومنه أشعةُ (رونتجن) الآن تشفُّ لها الجدرانُ والحجُب ؛ فهذه معجزة فى ذاك .

* * *

والنبيُّ لا يكونُ نبيًّا حتى يكونَ فى إنسانه إنسانٌ آخرُ بنواميسَ تجعله أقربَ إلى الملائكة فى روحانيتها ، وما ينزلُ إنسانُه الظاهرُ من الإنسان الباطن فيه إلا منزلةَ من يَتلقَّى ممن يُعطى ؛ فذاك الباطنُ هو للحقائق التى لا تحملها الدنيا ، وهذا الظاهرُ لما يمكن أن يبلغَ إليه الكمالُ فى المَثل الإنسانىّ الأعلى ، ولولا ذلك الباطنُ ما استطاع نبى من الأنبياء أن يحملَ همومَ أمة كاملة لا تُضْنيه ولا تغيّرُه ولا تُعجزُه .

فحقيقةُ النبوَّة أنها قوةٌ من الوجود فى إنسان مختار جاءت تُصْلح الوجودَ الإنسانىَّ به لتُقرَّ فى هذه الحيوانية المهذَّبة مَثَلَها الأعلى ، بدلالتها على طريقها النفسىِّ مع طريقها الطبيعى ؛ فيكونُ مع الانحطاط الرقىّ ، ومع النقص الكمال ، ومع حكم الغريزة التحكّمُ فى الغريزة ، ومع الظلمة المادية الإشراقُ الروحانى .

وما المعجزاتُ إلا شأنُ تلك القوة الباطنة لا شأنُ إنسانها الظاهر ، ومَن الذى ينكر أن قُوى الوجود هى فى نفسها إعجازٌ للعقل البشرى ؟ وهل ينكر اليومَ أحدٌ شأنَ هذه القوة فى (الراديو) حين مسته فجعلت الكلمةَ التى تُرسَلُ بين الشرق والغرب ، كالكلمة بين اثنين يتحدثان فى مجلس واحد ؟

ونحن نرى معجزات التنويم المغناطيسى وما يُبصره النائم وما يسمعُه ، وما ينكشفُ له مما وراء الزمان والمكان ؛ وليس التنويمُ شيئًا إلا تسليطَ الذات الباطنة بقواها الروحية العجيبة ، على الذات الظاهرة المقيَّدة بحواسِّها المحدودة ، فتَطْغَى عليها ، فتُصْبِحُ الحواسُّ مطلقةً شائعةً فى الوجود بمقدار ما فيها من قواه لا بمقدار ما فيها من قوة شخصها .

وعلى نحوٍ من ذلك يتصلُ الرجلُ الروحانى بذاته الباطنة ، فيوقعُ شخصَه الظاهرَ فى الاستهواء ، فينكشفُ له الوجودُ ، ويُبصرُ ما يقع على البعد ، ويرى ما هو آت قبل أن يأتى ؛ وما الكونُ فى هذه الحالة إلا كالمعشوق يقول لعاشقه الذى وقع فى قلبه الحب : قد آتيتُك نوراً تنظرُ به جمالى .

* * *

وفى علماء عصرنا من يفكّر فى الصعود إلى القمر ، وفيهم من يعمل للمخاطبة مع الأفلاك ، وفيهم من تقع له العجائب فى استحضار الأرواح وتسخيرها ؛ وكلُّ ذلك أولُ البرهان الكونىّ الذى سيَلْزمُ العلمَ فيضطرُّه فى يوم ما إلى الإقرار بصحة الإسراء والمعراج .

ونحن قبل أن نُبدىَ رأينا فى القصة نُلمُّ بها إلمامةً موجَزة ؛ فقد اختلفت فيها الأحاديثُ ووقع فيها تخليط كثير ، فجاءت فُنونًا وأنواعا من طُرُق شتى ، حتى جمعها بعضُهم فى جزأين[1] ، وما تحتمل كلٌّ ذلك ولا بعضَه ، ولكنَّ روحَ الرواية فى ذلك الزمن كانت كروح الصّحافة فى هذا العصر : متى فارتْ فَوْرَها استحدثَتْ من كل عبارة عبارةً أخرى ، وعلى هذه الطريقة تخرجُ من العبارتين عبارةٌ ثالثة ، فيكونُ الأصلُ معنى واحداً وإذا هو يَمُدُّ من يمينه ويساره .

ولا يَرون بذلك بأسًا ؛ فإنهم يَشُدُّون به الرأىَ ، ويضاعِفُون منه اليقين ، ويزيدون ضوءاً فى نور المعنى ، وما داموا قد أثبتوا الأصلَ واستيقنوه ، فلا حَرَجَ أن يؤيِّدَ القولُ بعضُه بعضًا ، باجتهاد فى عبارة ، واستنباطٍ من أخرى ، وزيادةٍ فى الثالثة مما هو بسبيلٍ منها ، على نحو ما نرى من فن الرِّواية القصصية ؛ إذ تتعدد الأساليبُ والعباراتُ مختلفةً متنوعة ، وليس تحتها إلا حقيقةٌ واحدة لا تختلف . والقَصصُ الدينىُّ فى هذه اللغة العربية فنٌّ كاملٌ قائمٌ بنفسه ، لا يُبدعُ العقلُ والخيالُ والعاطفةُ أقوى منه ولا أعجبَ ولا أغرب .

هذا فى مَتْن القصة ، أما فى واقعتِها فقد اختلفوا اختلافًا آخر : هل كان الإسراء والمعراجُ يقَظةً أو منامًا ؟ وبالروح وحدها ، أو بالروح والجسم معًا ؟ وإنما ذكرنا هذا الخلاف لأنه الدليلُ القاطع على أن النبى (صلى الله عليه وسلم)

---

(١) قال الذهبى : إن الحافظ عبد الغنى جمع أحاديث الإسراء فى جزأين .

لم يُخْبر بشيء من ذلك ، فلم يعيِّن لهم وجهاً من هذه الأوجه . والحكمة في ذلك أن عقولهم لم تكن تحتملُ الإدراكَ العلميَّ الذى أساسُه ما عُرِفَ اليومَ من أمر الكهرباء والأثير . . .

والخلاصة التى تتأدَّى من القصة : أنه (صلى الله عليه وسلم) كان مضطجعاً ، فأتاه جبريلُ ، فأخرجه من المسجد ، فأركبه البراقَ ، فأتى بيتَ المقدس ، ثم دخل المسجدَ فصلى فيه ، ثم عُرِجَ به إلى السموات ، فاستفتحها جبريلُ واحدةً واحدة ، فرأى فيها من آيات ربه ، واجتمع بالأنبياء (صلواتُ الله عليهم) ، وصعد فى سماء بعد سماء إلى سِدْرة المنتهى ، فغشيها من أمر الله ما غشيها ، فرأى (صلى الله عليه وسلم) مظهرَ الجمال الأزلى ، ثم زُجَّ به فى النورِ فأوحَى اللهُ إليه ما أوحى .

أما وَشْيُ القصة وطرازُها فبابٌ عجيبٌ من الرموز الفلسفية الإنسانية التى يُرمَزُ بها إلى تجسيد الأعمال فى هذه الحياة : تكونُ تَعَباً وتقع فائدة ، أو تُلْتَمس منفعةً وشهوةً وتقع مُضَرَّة وحماقة ، ثم تفنَى من هذه وتلك الصُّوَرُ الزمنية التى توهَّمها أصحابها ، ، وتخلدُ الصورُ الأبديةُ التى جاءت بها حقائقُها .

ومن هذه الرموز البديعةِ قولُه : فجاءنى جبريل بإناء من خمرٍ وإناء من لبن ، فأخذتُ اللبن ، فقال جبريل : أخذتَ الفِطرة . وأنه مرَّ على قوم يزرعون ويحصُدون فى كل يوم ، كلما حصدوا عاد كما كان ؛ فسأل ماهذا ؟ قال جبريل : هؤلاء المجاهدون فى سبيل الله ، تُضاعَفُ لهم الحسنةُ سبعمائة ضِعْف . ثم أتى على قوم تُرْضَخ رءوسُهم بالصخر ، كلما رُضِخَت عادت كما كانت ولا يُفتَّر عنهم من ذلك شيء ؛ فقال ما هذا ؟ قال جبريل : هؤلاء الذين تتثاقل رءوسُهم عن الصلاة . ثم أتى على قوم بين أيديهم لحمٌ نَضيجٌ فى قِدر ، ولحمٌ آخرُ نىء فى قِدر خبيث ، فجعلوا يأكلون من النىء الخبيث ويدَعُون النضيج ؛ فقال ما هؤلاء ؟ قال جبريل : هذا الرجل تكون عنده المرأة الحلالُ الطيِّبُ فيأتى امرأةً خبيثة ، والمرأةُ تقوم من عند زوجها حلالاً طيباً فتأتى رجلاً خبيثاً . ثم أتى على رجل قد جمع حزمةً عظيمةً لا يستطيع حلها وهو يزيد عليها ، فقال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الرجل تكون عليه أماناتُ الناس لايقدر على أدائها وهو يُريد أن يَحمِل

عليها . ثم رأى نساء معلَّقات بثديهن ؛ فسأل ، فقال جبريل : هؤلاء اللاتى أدخلْنَ على الرجال من ليس من أولادهم .

* * *

ونحن على الرأى الذى عليه جمهورُ العلماء : من أن الإسراء والمعراج كانا بالجسم والروح معًا على التأويل الذى سنبينه ؛ ويثبتُ ذلك قولُه تعالى فى سورة (والنَّجم) : « إذ يغشَى السِّدرةَ ما يغشَى ، ما زاغ البصرُ وما طغى » . فلايكون البصرُ يزيغُ ويطغى إلا فى الجسم ، ولاينتفى عنه ذلك إلا وهو فى الجسم . ولم يتنبه أحد من المفسرين إلى المعنى المعجز العجيب فى قوله : (وما طغى) : فذلك نصٌّ على أنه كان يرى بجسم قد تحول عن الطبيعة الآدمية المحدودة فليس فيه منها شيء ؛ إذ لايكون طغيانُ البصر إلا من تسلّط الخيال عليه بأهواء الجسم التى لا يستقيم بها حكم على حقيقته ، فما زاغ البصرُ بكونه مقيَّدَ الحاسة ، ولاطغى بكونه مُطْلَقَ الخيال ، بل كان كما يُريه الله من آياته ، أى كان حقيقةً كونيةً فى غير حالتها الأرضية الناقصة .

والذين قالوا إن الإسراء والمعراج كانا رؤيا رآها النبى (صلى الله عليه وسلم) ؛ احتجوا لذلك بقوله تعالى : « وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنةً للناس » . وقد خلط المفسرون فى هذا أيضًا ، وإنما كان التعبير بلفظ « الرؤيا » — وهى التى تكونُ منامًا — لنفى تأثير الحواس على الرائى ، وإثبات أن الطبيعة الآدمية بجملتها كانت فيه كالنائمة عن حياتها الأرضية بحقائقها وأخْيِلتها معًا ، فليس نائمًا كالنائم ، ولا مستيقظًا كالمستيقظ .

وفى أساس القصة جبريلُ والبُراق ؛ وهما القوةُ الملائكية والقوةُ الطبيعية ، أو الروحُ الملائكى والروحُ الطبيعى ؛ ولم يوصف البراق بأنه دابة إلا رمزاً ، إذ لا يأتى للعرب أن يفهموا ما يراد منه ؛ وعندنا أنه سُمّىَ البُراق من البَرق ، وما البَرقُ إلا الكهربائية ، وهذا هو المراد منه ؛ فتلك قوةٌ كهربائيةٌ متى نَبَضَتْ جمعت أولَ العالم بآخره ؛ وهذه هى الحكمة فى أن آية الإسراء لم تذكُر أنه كان محمولاً على شيء ، إذا لم يكن محمولاً إلا على روح الأثير .

وما دامت القوةُ الملائكيةُ والقوةُ الطبيعية قد سُخِّرتا له (صلى الله عليه وسلم)،

فلا معنى لأن يكونَ ذلك للروح دون الجسم ، بل اجتماعُهما معًا فى القصة دليلٌ على أن سرَّ المعجزة إنما كان فى تيسير ملاءمة جسمه الشريف لهاتين الحالتين ؛ فيتحولُ فى صورة كونية ملائكية بين سرِّ الملَك وسرِّ الطبيعة ، وحينئذ لا تجرى عليه أحكامُ الحواسِّ ولاأحكام المادة .

ومن الممكن أن تتحولَ الأجسام إلى حالتها الأثيرية فى بعض الأحوال الخارقة ، وبهذا يعلَّل طَىُّ الأرض لبعض الروحانيين ، وتُعلل خَوارقُ كثيرةٌ مما يَحدُثُ فى استحضار الأرواح لهذا العهد ، ومما يأتيه فقراء الهند ، ومما كان يصنعه «هوديني» الأمريكي : إذ كانوا يغلِّلونه بالسلاسل والقيود ثم يرونه طليقًا ؛ ويحبسونه فى السجون المحصَّنة يقوم عليها الحراس وتُمسِكُه فيها الأبواب والجدران ثم يجدونه فى بعض الفنادق .

وليس للعقل أن ينكر شيئًا من هذا ونحوه ، فإن تركيبَ الطبيعة ردٌّ عليه ، ونقصُه هو ردٌّ على نفسه ، والمستحيلُ على الأعمى هو أيسر الممكِنات على المبصِر .

فأنت ترى أن ذكرَ البراق والملك فى أساس قصة الإسراء والمعراج هو صلة القصة بالمعجزة ، وهو عينُه صلتها بالبرهان ؛ ولو لم يكونا فيها لما كان لها تفسير .

* * *

والقصةُ بعد ذلك تثبت أن هذا الوجود يرقُّ وينكشفُ ويستضىء كلما سما الإنسان بروحه ، ويغلُظُ ويتكاثَفُ ويتحجَّب كلما نزل بها ، وهى من ناحية النبي (صلى الله عليه وسلم) قصةٌ تَصِفُه بمظهره الكونىّ فى عظَمته الخالدة كما رأى ذاته الكاملة فى ملكوت الله ، ومن ناحية كل مسلم من أتباعه هى كالدرس فى أن يكون لقلب المؤمن مِعراجٌ سماوىّ فوق هذه الدنيا ، ليشْهَدَ ببصيرته أنوارَ الحق ، وجمالَ الخير ، وتجسُّدَ الأعمال الإنسانية فى صورها الخالدة ؛ فيكونُ بتدبُّره القصةَ كأنما يصعَدُ إلى السماء وينزل ؛ فيستريحُ إلى الحقائق الأساسية لهذه الحياة ، فيدفع عن نفسه بذلك تعقُّدَ الأخيلة الذى هو أساس البلاء على الروح .

ومتى استنار القلبُ كان حيًّا فى صاحبه ، وكان حيًّا فى الوجود كلّه . ومتى سَلِمَتْ الحياةُ من تعقيد الخيال الفاسد لم يكن بين الإنسان وبين الله إلا حياةٌ هى الحق والخير ، ولم يكن بينه وبين الناس إلا حياةٌ هى الرحمةُ والحب .

الإنسانية العليا *

من أوصافِ النبي (صلى الله عليه وسلم) : أنه كان متواصِلَ الأحزان ، دائمَ الفكرة ، ليست له راحة ، طويلَ السَّكْت ، لا يتكلم فى غير حاجة ، ليس بالجافى ولا المَهين ، يُعظِّم النعمةَ وإن دقَّت لايذمُّ منها شيئًا ، ولا تُغضبه الدنيا ولاما كان لها ، فإذا تُعُدِّىَ الحق لم يقم لغضبه شيء حتى ينتصرَ له ، ولا يغضبُ لنفسه ولاينتصرُ لها ؛ وكان خافِضَ الطَّرف ، نظرُه إلى الأرض أطولُ من نظره إلى السماء ، من رآه بَديهةً هَابَه ، ومن خالَطَه مَعْرفةً أحبَّه ، لايَحسبُ جليسُه أن أحداً أكرمُ عليه منه ، ولايَطْوِى عن أحد من الناس بِشْرَه ، قد وَسِع الناسَ بَسْطُهُ وخُلُقُه ، فصارلهم أبًا ، وصاروا عنده فى الحق سواء ؛ يحسِّنُ الحسَنَ ويقوّيه ، ويقبِّح القبيح ويُوهِيه ، معتدلُ الأمر غير مختلِف ؛ وكان أشدَّ الناس حياء ، لايثبِّتُ بصَره فى وجه أحد ، له نورٌ يعلوه كأن الشمس تَجرى فى وجهه ، لايُؤْيِسُ راجِيَه ، ولا يخيِّبُ عافِيَه ، ومن سأله حاجة لم يردَّهُ إلا بها أو بمَيْسُور من القول ؛ أجودُ الناس بالخير (١) .

* * *

صلى الله وسلم على صاحب هذه الصفات التى لايجدُ الكمالُ الإنسانىُّ مذهبًا عنها ولاعن شيء منها ، ولايجدُ النقصُ البشرىُّ مَسَاغًا إليها ولا إلى شيء منها ؛ ففيها المعنى التام للإنسانية ، كما أن فيها المعنى التامَّ للحق ، ومن اجتماع هذين يكونُ فيها المعنى التامُّ للإيمان .

هى صفاتُ إنسانِها العظيم ، وقد اجتمعتْ له لتأخذَ عنه الحياةُ إنسانيتَها العالية ؛ فهى بذلك من برهانات نبوّته ورسالته .

ولو جمعتَ كلَّ أو صافه (صلى الله عليه وسلم) ، ونظمتها بعضَها إلى بعض ، واعتبرتَها بأسرارها العلمية — لرأيتَمنها كَوْنًا معنويًّا دقيقًا قائماً بهذا الإنسان الأعظم ، كما يقومُ هذا الكونُ الكبيرُ بسُنَنه وأصولِ الحكمةِ فيه ، ولأيقنتَ

* انظر صفحة ٢٤١ من حياة الرافعى .

(١) جمعنا هذه الأوصاف من روايات مختلفة ، وجعلناها كالحديث الواحد .

أن هذا النبيَّ الكريمَ إن هو إلا معْجَمٌ نفسيٌّ حيَّ ألَّفته الحكمةُ الإلهية بعلْم من علمها ، وقوة من قوتها ، لتتخرَّجَ به الأمةُ التي تبدعُ العالمَ إبداعاً جديداً ، وتُنشئَه النشأة المحفوظةَ له في أطوار كماله .

ولن ترى في الإنسانية أسمى من اجتماع هذه الصفات بعضها إلى بعض وإني لأكادُ كلما تأملتها أحسبُ هذا السموَّ قضاء وقدراً بإنسانٍ على الإنسانية كلها . وهي دليلٌ على أنه الإنسانُ الذي خُلِقَ للدنيا لا لنفسه ؛ فهو لاينمو بما يكونُ على الناس من الحق ، ولكن بما يكونُ للناس عليه من الواجبات ، كأنما هو حقيقةٌ كونيةٌ تعيشُ عيشَها ، فما تكونُ في الوجود إلا لتقرِّرَ وجودَها هي ، ولا تنتهي حين تنتهي بذاتها إلا لتبدأ معانيها في غيرها ، فهو (صلى الله عليه وسلم) إنسانٌ غُرِسَ في التاريخ غرساً ليكونَ حداً لزمنٍ وأوَّلاً لزمن بعده ، وما كانت حياتُه تلك إلا طريقةَ غَرْسِه ، وهو أبداً قائم في مكانه الاجتماعي ، إذْ كان الزمنُ كلما تقدم زاد في إثباته ، وقد أصبح في الدنيا كأنه جهةٌ من الجهات لا إنسانٌ من الناس ، فلن يتغيرَ أو يُمْحَى إلا إذا تغير أو مُحي المشرقُ والمغرب .

ونحن حين نقرأ تلك الصفات وما فاضَتْ به كُتُبُ الشمائل من أمثالها ، لانقرؤها أوصافاً ولاحِلْية ، بل نراها صفحةً إلهيةً مصنَّفَةً أبدعَ تصنيف وأدقَّه ، ومن وراء تأليفها تفسيرٌ طويلٌ لايتهدَّى الفكرُ البشريُّ لأحسنَ منه ولا أصحَّ ولا أكمل ؛ فقد اجتمعت تلك الصفات في إنسانها اجتماعَ الأجزاء في المسألة الرياضية : لاينبغي أن تزيدَ أو تنقُص ، إذ كان في مجموعها ما وُجِدَ له مجموعُها .

ويكاد الارتباطُ بين أجزاء المسألة يكونُ هو بعينه صورةً للارتباط بين أجزاء تلك الصفات الشريفة ؛ فإن كلَّ جزء منها موضوعٌ وضعاً لا يتم الكلُّ إلا به ، حتى لاموضعَ فيها لقلَّة أو كثرة ؛ وهذا معنى قوله (صلى الله عليه وسلم) : « أدَّبني ربي فأحسنَ تأديبي » ، وأنتَ إذا دقَّقتَ في هذا الحديث أدركتَ من مَعْنَاته أن هناك طبيعةً أخلاقيةً مفردةً تجري على قانونها الذي وضعه الله لها وأحكمها به .

وأعجبُ ما يُدهِشنا من مجموع صفاته (صلى الله عليه وسلم) أن فيها دليلاً بيِّنًا على أنه مخلوقٌ خلقةً متميزةً بنفسها ، كخلقة القلب الإنسانى : نظامُه حياتهُ وحياتُه نظامُه ، وكأنما اعترَته حالةٌ نفسيةٌ كالتى تعترى القلبَ فى استشعار الخطَر فتُخرجُه من طبيعته إلى أقوى منها ، فلا يزالُ يُمِدُّ أعضاء الجسم بمَدَد لا ينفَدُ من القوة والصبر . يجعلُ الحياةَ فيها على أضعافها كأنها حياة كانت مخبوءةً وظهرت بغتة ؛ وفى هذه الحالة تتجه غرائزُ النفس كلُّها إلى جهة واحدة كأنها مقدَّرةٌ بميزان، مضبوطةٌ بقياس؛ فتَرجِعُ على تناقُضها واختلافِها مُتَعاونة يُؤازرُ بعضُها بعضًا ، وكان قانونُها الطبيعىُّ أن تَتَجاذَب وتتساقَطَ وتفسِّرَ الواحدةُ منها عملَ الأخرى ، فيجىء بها الشىء وضدُّه معًا : كالصدق والكذب ، والطمع والقناعة ، والشهوات الثائرة والخمودِ الساكن ، إلى آخر ما تعدُّ من هذه الغرائز ؛ ولكنها فى استشعار الخطر تكون كالأشباه لا كالأضداد ، فيشدُّ بعضُها بعضًا ، ويتمم النَّقيضُ منها نقيضَه ، وتَجرى كلها فى قانون واحد : هو الدفاعُ بأجزائها عن مجموعها ؛ فترى النازعَ منها وإنه لمستقرٌّ فى أشدَّ من القيد ، وكأن فيه غيرَ طبيعته .

وهل يُنْبئك مجموعُ صفاتِه (صلى الله عليه وسلم) إلا أنه يعيشُ معيشةَ القلب إذا اختلف ما حوله وفجأتْه بغَتَاتُ الوجود فتَجاوَزَ أن يكون منبعًا للحياة إلى أن يكونَ حافظًا للحياة فى منبعها ؟

وتلك الحالةُ — كما مرَّ بك — تجعلُ وجودَ الإنسان هو وجودَ إرادته وعقله ، لاوجودَ شهواته وغرائزه ؛ وكذلك عاش نبيُّنا (صلى الله عليه وسلم) ؛ فهومدةَ حياته فى وجود إرادته لاغيرها ، حتى ليس عليه سبيلٌ لغَميزة أو لائمة ، كأنه خُلُقٌ تَشُدُّه نيَّةٌ مستيقظة قد نبَّهها ما ينبِّه النفسَ من الغَرَر والخطَر . ولعلَّ هذا الشعورَ فى نفسِه (صلى الله عليه وسلم) هو التفسيرُ لقوله : « نيةُ المؤمن خيرٌ من عمله » . إلى أحاديثَ كثيرة مما يجرى فى معنى هذه الكلمة الجامعة ؛ يريد بها : أن نيةَ المؤمن لاتنطوى إلا على الخير الكامل ، فهو — ما دامت نيتُه على صلاحِها وسِرُّه على إخلاصه — لايَعُدُّ اليسيرَ من الشر يسيراً ، ولا يرى الكثير من الخير كثيراً ؛ فالأصلُ القائمُ فى تلك النية المؤمنةِ ألاّ يبدأ الشرُّ كى

لا يوجَد ، وألاّ ينتهىَ الخيرُ كى لا يفنَى ؛ فالمؤمنُ من ذلك على الخير والكمال أبداً ، فى حين أن عملَه بطبيعتِه الإنسانية يتناولُ الخيرَ والشرَّ جميعاً ، ثم لا يكونُ إلا عملاً إنسانيًّا على نقص واضطراب والتواء .

وقد لا يستطيع المؤمنُ أن يأتىَ الخيرَ فى بعض أحواله ، ولكنه يستطيع دائمًا أن ينْويَه ويرغَبَ فيه ويعْزمَ عليه ، ليحقِّقَ ضميرَه فى كل ما يَهُمّ به ؛ ويَحصرَ أفكارَه فى قانون نيته المؤمنة . وهذا هو الأساسُ فى علم الأخلاق ، لا أساسَ من دونه .

والنيةُ من بعدُ هى حارسُ العمل ؛ فكلُّ إنسان يستطيع أن يذْعِنَ وأن يأبَى ، ومن ثَم تكونُ هذه النيةُ ردًّا ومدافَعةً من ناحية ، واستِجابةً ومُطاوَعة من الناحية الأخرى ؛ فهى على الحقيقة متى صلُحَتْ كانت استقلالاً تامًّا للإرادة ، وكانت مع ذلك ضبطًا لهذه الإرادة على حال واحدة هى التى ينتظم بها قانونُ المبدإ السامى .

ثم إنه لا ضابطَ لصحة العمل واستقامتِه إلا النيةُ الصحيحةُ المستقيمة ؛ فالتزويرُ والتلبيسُ كلاهما سهلٌ ميسورٌ فى الأعمال ، ولكنهما مستحيلان فى النية إذا خلَصَتْ .

وهى كذلك ضابطٌ للفضائل تُوجِّه القلوبَ على اختلافها وتَفاوُتِها اتجاهًا واحداً لا يختلف ؛ فيكونُ طريقُ ما بين الإنسان والإنسان ، من ناحية الطريق ما بين الإنسان وبين الله .

وأشواقُ الروح بطبيعتها لا تنتهى ، فيعارضُها الجسمُ بجعل حاجاتِه غيرَ منتهية ؛ يحاول أن يَطْمِسَ بهذه على تلك ، وأن يغلِّبَ الحيوانية على الروحانية ، فإذا كانت النيةُ مستيقظةً كفَتْه وأماتت أكثر نزَعاته ، ووضعتْ لكل حاجة حدًّا ونهاية ؛ وبذلك ترجع النيةُ إلى أن تكونَ قوةً فى النفس يخرجُ بها الإنسانُ عن كثيرٍ مما يَحُدُّهُ من جسمه ، ليخرجَ بذلك عن كثير مما يحدُّه من معانى الأرض . . .

وهى بعدَ هذا كلِّه تحملُ الإنسانَ أن ينظرَ إلى واجبه كأنه رقيبٌ حىّ فى قلبه ، لا يُرائيه ولا يُجامِلُه ، ولا يُخدَع من تأويل ، ولا يُغَرُّ بفلسفةٍ ولا تزيين ،

ولا يُسكِتُه ما تُسَوِّلُ النفس ، ولايزالُ دائمًا يقول للإنسان فى قلبه : إن الخطأ أكبرَ الخطإ أن تنظِّمَ الحياةَ من حولك وتتركَ الفَوْضَى فى قلبك .

وجملةُ القول فى معانى النِّية أنها قوةٌ تجعلُ باطنَ الجسم مُتَساوقًا مع ظاهره ، فتتعاونُ الغرائز المختلفةُ فى النفس تعاوُنًا سهلاً طبيعيًّا مطَّرداً ، كما تتعاونُ أعضاء الجسم على اختلافها فى اطِّراد وسهولة وطبيعة .

* * *

وكلُّ صفات النبى (صلى الله عليه وسلم) — مما ذكرناه وما لم نذكره — متى اعتُبِرتْ بذلك الأصل الذى بيَّناه انتظمها جميعًا ، فجاء بعضُها تمامًا على بعض فى نَسَقٍ رياضىّ عجيب ، وظهرت حكمةُ كل منها واضحةً مكشوفة ، ورأيتها فى مجموعها تَصف لك عُمراً هندسيًّا دقيقًا قد بلغ الغايةَ من الكمال والروعة والدقة ، لايُعَدُّ جزء منه جزءاً ، بل كلُّه أجزاؤه ، وأجزاؤه كلُّه ؛ كالوضع الهندسىّ : إما أن يكونَ بِكُلِّه ، وإما ألا تكونَ فيه الهندسةُ كلُّها .

وليس مجموعُ تلك الصفات فى معناه إلا صنعةَ الإنسان صنعةً جديدة تُخرجُه موجوداً من ذات نفسه ، وتكْسِر القالَبَ الأرضىَّ الذى صُبَّ فيه وتُفْرِغُه فى مثل قالَب الكَوْن ، فإذا هو غيرُ هذا الإنسان الضيّق المنحصر فى جسمه ودَواعى جسمه ، فلا تُخضعُه المادة ، ولايُؤتى من سوء نظره لنفسه ، ولا تَغرُّه الدنيا ، ولا يُمسكه الزمان ؛ إذ كانت هذه هى صفات المستعبَد بأهوائه لا الحُرِّ فيها ، والخاضع بنفسه لا المستقلّ بها ، والمقبور فى إنسانيته لا الحىّ فوقَ إنسانيته ؛ ومثلُ هذا المستعبَد الخاضع المقبور لاوجودَ له إلا فى حكْم حواسِّه ، فعملُه ما يعيش به لاما يعيشُ من أجله ؛ ويتصل بكل شىء اتصالاً مبتوراً ينتهى فى هوى من أهواء الحيوان الذى فيه .

ومن المقابلة العجيبة أن يكونَ فى الإنسان الاجتماعىّ حيوانٌ ، تقابلُه الحكمةُ فى الحيوان الأليف بإنسان ، وحكمهما واحدٌ ومنطقُهما لايختلف . فلو أنك سألتَ حيوانَ الأعصاب على صاحِبه الإنسان لقال لك : هو غَلَّتى ومَزْرعتى . ولو سألتَ كلبًا عن حبّه صاحبَه ومبلغ هذا الحب فى نفسه لما زاد فى جوابه على أنه يحبه حبَّ اللقمة والعظْمة . . .

ومتى كان الإنسانُ فى حكم حواسّه لم تَعُد الأشياء عنده كما هى فى نفسها بمعانيها الطبيعية المحدودة ، وانقلبتْ كما هى فى وهْمِه بمعانٍ متفاوتةٍ مضطربة ، فلا يشعرُ المرء بائتلاف الوجود وتَعاونه ، ولكن باختلافه وتناقُضه ، فمن ثَمّ لا تكونُ أسبابُ اللذة إلا من أسباب الألم ، ويدخلُ فى كل حب بغضٌ ، وفى كل رغبة طمعٌ ، وفى كل خير شرٌّ ، وفى كل صريح خبىء ، وهلمّ جرًّا ؛ إذ لابد من هذا كلِّه متى غلَب الفانى على الباقى ، ولابد من كل هذا فى تمثيل رواية الحواسّ الخادعةِ التى أساسُها التغيّر والتقلّب ، حتى لكأن النفسَ إنما تعيشُ بها فى ظاهرٍ من الحياة لا فى الحياةِ نفسها .

وهذا الخداعُ جاعلٌ كلَّ شىءٍ من أشياء النفس لا يبدأ إلا لينتهى ، ثم لاينتهى إلا ليبدأ ؛ فما تزالُ هذه النفسُ طامعةً فيما لا تناله ، ولا يزال من ذلك مصدرٌ لآلامها الحسيَّة ؛ ثم إذا هى نالت منالتَها سئِمتُ ، فلا يزال من ذلك مصدرٌ آخرُ لآلامها المعنوية . ولن يجىء الصحيحُ من غير الصحيح ؛ فالكون كلُّه ليس إلا كذِبًا فى النفس الكاذبةِ بحواسِّها .

ولذا كان أخصُّ أوصافه (صلى الله عليه وسلم) راجعًا إلى خروجه من سلطانِ نفسه ، فلا يغضبُ لها ، ولا يُطْلِقها من الدنيا فيما تذمُّه أو تمدحُه ، ولايحبُّ فيها ، ولا يُبغِضُ من أجلها ، ولا يُهاوِنُها ، ولايَستلينُ لها فى مأكلٍ ولاملبس ، ولا يأخذها إلا من ناحية الإيمان بالله والإيمان بالإنسانية ؛ فأفراحُها أحزانُها ، وآمالها أشواقها ، وأملاكُها أعمالها ، وحسابُها فى طبيعتها ، وحوادثُها من العقل لا من الحواس ، وعظَمتها إثباتُ ذاتِها فى غيرها ، لا إثباتُ غيرها فى ذاتها ؛ وغايتُها فى الباقى لاالزائل ، وفى الخالدِ لا الفانى . وما دام الحاضرُ متحركًا فهو طارئٌ عابر أوْشَكُ أمورِ الدنيا زوالاً ، والعملُ له على مقداره فى قلّةِ لُبْثِه وهَوانِ أمره ، والاهتمامُ أبداً بما وراءه لا به .

فأولُ النفسِ النيةُ العاملةُ لآخرتها ، وآخرُ النفس ما تؤدّى إليه أعمالُ هذه النيّة ؛ فليس فى إنسانِ الدنيا إلا إنسانُ العالم الآخر ؛ وبهذا يُقدَّر صمتُه وكلامُه ، وحركتُه وسكونه ، وما يأتى وما يَدَع ، وما يُحب وما يكره ، إذ كلُّ شىء منه على ذلك الاعتبار إنما هو صورةُ الحقيقةِ العاملةِ فيه .

وجماعُ الأمر ألاَّ يكونَ مستقبلُ الإنسان علامةَ استهزاء بجانب ماضيه ، ولا علامةَ استفهام ، ولا علامةَ إنكار .

* * *

وتدلُّ صفاتُ النبى (صلى الله عليه وسلم) باجتماعها وتَساوُقها على حقيقة عظمى لم يتنبه إليها أحد ؛ وهى أن جميعَ خصائصه النفسية مُرْهَفَةٌ متيقظة ، وهذا مما يَنْدُرُ وقوعُه وإمكانه ؛ فإن الرجلَ من الناس ليكونُ حيًّا بالحياة ، ولكنَّ جوانبَ كثيرةً من نفسه قد طاحَ بها الموت ، أو هى مريضةٌ وذلك أولُ الموت ؛ أو غافلة وذلك شِبْه الموت ؛ أما الحى العظيمُ فهو الذى يحيا بأكثر خصائص نفسه ، وأما الحىُّ الأعظم فهو الذى يحيا بجميع خصائصها ، تملؤه الحياةُ فيملأ الحياة ، ويتمدّد السرُّ فيه ليريه حقائقَ الأشياء ويَهْديَه ويدلَّه ، فيكون بنفسه رؤيةً للناس وهدايةً ودلالة ؛ ومثلُ هذا يعظُم ثم يعظم حتى ليُرَى الفرقُ بينه وبين غيره كالفرق بين نور لَبِس اللحم والدم ، وبين تراب لَبِس الدمَ واللحم .

وذلك لا يكاد يتفق إلا فى مراتبَ أعلاها الامتيازُ فى النبوة ، ثم تدنو إلى النبوة ؛ ثم تنزلُ إلى الامتياز فى الحكمة ؛ ثم تهبطُ إلى عبقرية الشعر . فأكبرُ الشعراء قاطبةً كالنبىّ فى معناه إلا أنه نبىٌّ صغير ، وإلا أنه فى حدود قلبه .

وهذه القوى الثلاثُ هى التى أبدعتها الحكمة الإلهية لتحويل الحياة والسموِّ بها ؛ فالشاعِرُ يستوحى الجمالَ إذا تألّه الجمالُ فى قلبه ، والحكيمُ يستوحى الحقيقة إذا تألهت فى نفسه ، والنبىُّ يستوحى الألوهيةَ نفسَها .

* * *

« كان (صلى الله عليه وسلم) متواصلَ الأحزان » ولكنها أحزانُ النبوّة تكسو الحياةَ فرح النفس الكبيرة ؛ وهو فرحٌ كلّه حزن وتأمل ، وفكرةٌ وخشوع ، وطهرٌ وفضيلة ؛ وما فَرَحُ أعظمِ الشعراء بطَرب الوجود وجمال الموجودات إلاّ شىء قليلٌ من حزن النبى .

« وكان دائمَ الفكرة ليست له راحة » إذ هو مكلَّفٌ أن يصنعَ الإنسانَ

الجديدَ وينقِّحَ الآدميةَ فيه . وفكرةُ النبى هى معيشتُه بنفسه مع الحقائق العليا ، إذ لا يرى أكثرَها تعيشُ فى الناس ، وهى الفردية واستقلالُها وسموُّها ؛ لأنها إطاقةُ النفس الكبيرة لوحدتها ، بخلاف الأنفس الضعيفة التى لا تُطيقها ، فدأبُها أبداً أن تبحثَ عما تَستعبدُ له ، أو تنسَى ذاتها فيه ، أو تستريحُ إليه من ذاتها . ومتى كانت النفسُ فارغةً كان تفكيرُها مضاعفةً لفراغها ، فهى تفرُّ منه إلى ما يُلهيها عنه ؛ ولكنَّ العظيمَ يعيشُ فى امتلاء نفسه ؛ وعالَمُهُ الداخلىُّ تسمِّيه اللغة أحيانًا : الفكرة ؛ وتسميه أحيانًا : الصمت .

« وكان (صلى الله عليه وسلم) طويل السَّكْت لا يتكلم فى غير حاجة » .

ومن الصمت أنواع : فنَوعٌ يكونُ طريقةً من طرق الفهم بين المرء وبين أسرار ما يُحيط به ؛ ونوعٌ يغشى الإنسانَ العظيم ليكونَ علامةً على رهبة السر الذى فى نفسه العظيمة ؛ ونوعٌ ثالثٌ يكونُ فى صاحبه طريقةً من طرق الحكم على صَمْت الناس وكلامهم ؛ ونوع رابعٌ هو كالفصل بين أعمال الجسد وبين الروح فى ساعة أعمالها ؛ ونوع خامسٌ يكون صمتًا على دوِىٍّ تحته يشبه نومًا ساكنًا على أحلام جميلة تتحرك .

* * *

على هذا النَمَط يجب أن تفسَّر كلُّ أوصافه (صلى الله عليه وسلم) ؛ فهى بمجموعها طابَعٌ إلهىٌّ على حياته الشريفة ، يُثبِتُ للدنيا بكل برهانات العلم والفلسفة أنه الإنسانُ الأفضل ، وأنه الأقدر ، وأنه الأقوى .

سُمُوُّ الفقر *
فى المصلح الاجتماعى الأعظم

١

كان النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) على ما يصفُ التاريخُ من الفقر والقِلَّة ، ولكنه كان بطبيعته فوق الاستغناء ، فهو فقيرٌ لايجوزُ أن يُوصفَ بالفقر ، ولا تنالهُ المعانى النفسيةُ التى تعلو بعَرَضٍ من الدنيا وتنزلُ بعَرَض ، فما كانت به خَلَّة تُحْدِثُ هدمًا فى الحياة فيُرَمِّمَها المال ، ولا كان يتحركُ فى سَعْيٍ يُنْفِقُ فيه من نفسه الكبيرةِ ليجمعَ من الدنيا ، ولا كان يتقلَّب بين البعيد والقريبِ من طمَعٍ أدرك أو طمعٍ أخفق ، ولا نظر لنفسه فى الحِسْبَةِ والتدبير لِتَدِرَّ معيشتُه فيَحْتَلِبَها ذهبًا أو فضة ، ولا استقرَّ فى قلبه العظيم ما يجعلُ للدينار معنى الدينار ولا للدِّرهم معنى الدرهم ؛ فإن المعنى الحيَّ لهذا المال هو إظهارُ النفس رابيةً متجسِّمةً فى صورة تكَبَّر على قدر من السَّعَةِ والغنى ؛ والمعنى الحيُّ للفقر من المال هو إبرازُ النفسِ ضئيلةً منْزَوية فى صورة تصغُرُ على قدرٍ من الضِّيق والعُسْرة .

إن فقرَهُ (صلى الله عليه وسلم) كان من أنه يتَّسعُ فى الكونِ لا فى المال ، فهو فقرٌ يُعَدُّ من معجزاته الكبرى التى لم يتنبَّه إليها أحدٌ إلى الآن ، وهو خاصٌّ به ومن أين تدبَّرْتَه رأيتَه فى حقيقته معجزةً تواضعت وغيَّرت اسمَها ؛ معجزة فيها الحقائقُ النفسيَّةُ والاجتماعيةُ الكبرى ، وقد سبقتْ زمنَها بأربعةَ عَشَرَ قرنًا ، وهى اليوم تُثبت بالبرهان معنى قوله (صلى الله عليه وسلم) فى صفةِ نفسه : « إنما أنا رَحْمَةٌ مُهْدَاة » .

نحن فى عصر تكاد الفضيلةُ الإنسانيةُ فيه تَلْحَقُ بالألفاظِ التاريخية التى تدل على ما كان قديمًا . . . بل عادت كلمةً من كلمات الشعر ترادُ لتحريك النَّسيم اللّغوىّ الراكدِ فى الخيال ، كما تقول : السحابُ الأزرق ، والفجرُ الأبيض ، والشفَقُ الأحمر ، والتَّطَارِيفُ الورديةُ على ذَيْلِ الشمس . وأصبح

* انظر صفحتى ٢٣٥ ، ٢٤١ من حياة الرافعى .

الناسُ ينظرُ أكثرُهم إلى أكثرِهم بأعين فيها معنىً وحشىٌّ لو لَمسَ لضَرَبَ أو طَعَنَ أو ذَبَح .

وعَملتْ المدنية أعمالَها فلم تزد على أن أخرجت الشكلَ الشعرىَّ لإنسانها الفَنِّىَّ متَهافِتًا ترَفًا، ونعمةً ، وافتنانًا بين ذلك من أيسر الحلال إلى الفظيع المتَفَاحِش فى الإباحة ؛ فكأنما وضعت المدنية عقلاً فى وحْش ، فجاء وقد زاغتْ فيه الطبيعة من ناحيتين ؛ ثم قابلتْه بالشكل الوحشىّ لإنسانها الفقير ، فكأنما نَزَعَتْ عقلاً من إنسان ، فجاء وقد ضَلَّتْ فيه الطبيعةُ من ناحيتين ؛ وكان مع الأول سَرَفُ الهوى بالطبيعة ، وكان مع الثانى بالطبيعة سَرَفُ الحماقة .

وقد أصبح من تهكُّم الحياةِ بأهلِها أن يكونَ الفقيرُ فقيراً وهو يعلم أن صناعتَه فى المدنيّة عَمَلُ الغنِىَ للأغنياء . . . وأن يكون الغنىُّ غنيًّا وهو يعلم أن عملَه فى المدنية هو صنعةُ الفقرِ لضميره !

وخرجتْ من هذا وذاك مسائل جديدةٌ فى فلسفة المُعَايَشَةِ الإنسانية التى يسمونها « الاجتماع » ؛ إلى أسئلة كثيرة لو ذهبنا نعدُّها ونصِفُها لطال بنا القول ، وكلّها عاملةٌ على نزع الشعور العقلىّ من الحياة لتظهرَ أسخفَ مما هى ، وأقبحَ ممن كانت ؛ حتى أصبحت الشمسُ تَطْلُعُ تمحو ليلاً عن المادة وتُلقِى ليلاً على النفس ، فى حين أن الدين والإنسانية لايعملان غيرَ بثّ هذا النور العقلى فى الأشياء والمعانى لتظهرَ الحياةُ مضيئةً ملتَمِعةً ، فتصبحُ أوضحَ مما هى فى نفسها ، وأجملَ مما هى فى الطبيعة .

فى مثل هذه النزعَات المتقاتِلَةِ التى صَعِدَتْ بالفلسفة ونزلَتْ ، وجعلتْ من العلم فى صدر الإنسانية ملء سماءٍ من الغُيوم بسوادها ورعْدها وصواعقِها ، وتركت العالَم يضجُّ ضجيجَه المزعجَ فى قلب كلّ حىّ حتى لَتُذَاعُ الهمومُ إلى قلوب الناس إذاعة الأصواتِ إلى أسماعهم فى « الراديو » . . . فى مثلِ هذا البلاء الماحقِ تتلفّتُ الإنسانيةُ إلى التاريخ تسأله درسًا من الكمال الإنسانىّ القْديم تَطِبُّ منه لهذه الحماقات الجديدة ، ولو علمتْ لعلمتْ أن درسَ هذا العصر فى علاج مشاكِله الإنسانيةِ هو « محمد » (صلى الله عليه وسلم) ، الذى لن يبلغَ أحدٌ فى

وصفه الاجتماعيّ ما بلغ هو في قوله : « إنما أنا رحمةٌ مُهْدَاة » .

* * *

هذا المُصْلِحُ الاجتماعيُّ الأعظم يُلقِي فقرهُ اليومَ درساً على الدنيا العلمية الفلسفية ، لامن كتابٍ ولا فكر . ولكن بأخلاقه وعمله وسيرته ؛ إذ ليس المصلحُ من فكّر وكتبَ ، ووعظ وخطب ، ولكنهُ الحيُّ العظيمُ الذى تلتمسهُ الفكرة العظيمةُ لتحيا فيه ، وتجعلَ له عُمراً ذِهْنِياً يكونُ مُصرِّفا على حكمها ، فيكونُ تاريخه ووصفُهُ هو وصفَ هذه الفكرة وتاريخَها .

وما كان محمدٌ (صلى الله عليه وسلم) إلا عمراً ذِهْنِياً مَحْضاً ، تمرُّ فيه المعانى الإلهية لتظهرَ للناس إلهيّةً مفسَّرة . وكلُّ حياته (صلى الله عليه وسلم) دروسٌ مفنَّنَةٌ مختلفةُ المعانى ، ولكنها فى جملتها تخاطب الإنسانَ على الدهر بهذه الجملة : أيها الحى ، إذا كانت الحياة هنا فلا تكن أنت هناك : أى إذا كانت الحياة فى الحقيقة فلا تكن أنت فى الكَذِب ، وإذا كانت الحياة فى الرجولة البصيرة فلا تكن أنت فى الطفولة النّزِقة ، فإن الرجلَ يَعرفُ ويُدْرِك ، فهو بذلك وراء الحقيقيّ ؛ ولكنّ الطفلَ يجهلُ ولا يعرفُ الدنيا إلا بعينيه ، فهو وراء الوهم ، ومن ثم طيشُه ونَزَقُه . وإيثارُه كلّ عاجل وإن قلّ ، وعملُه أن تكونَ حياتهُ النفسيةُ الضئيلةُ فى مثل توثُّبِ أعضاء جسمه ، حتى كأنه أبداً يلعبُ بظاهره وباطنه معاً . .

أيها الحى ، إذا كانت الحياةُ هنا فلا تكن أنت هناك : أى الحياةُ فى ذاتِك الداخليةِ وقانونِ كمالها ، فإذا استطعتَ أن تُخْرِجَ للأرض معنىً سماوياً من ذاتك فهذا هو الجديدُ دائماً فى الإنسانية ، وأنت بذلك عائش فى القريبِ القريبِ من الروح ، وأنت به شىء إلهى ؛ وإذا لم تستطع وعشتَ فى دَمِك وأعصابك فهذا هو القديم دائماً فى الحيوانية ، وأنت بذلك عائشٌ فى البعيدِ البعيدِ من النفس ، وأنت به شىء أرضىّ كالحجَرِ والترّاب .

هنا : أى فى الإرادة التى فيك وحدك . ولا هناك : أى فى الخيال الذى هو فى كل شىء . وهنا ، فى أخلاقك وفضائلك التى لاتَدفعُك إلى طريقٍ من طرق الحياة إلا إذا كان هو بعينه طريقاً من طرق الهِداية والحكمة ؛ وليس

هناك ، فى أموالك ومعايشك التى تجعلك كاللص مندفعاً إلى كل طريق متى كان هو بعينه طريقاً إلى نهبة أو سرقة . هنا ، فى الروح ، إذ تشعر الروحُ أنها موجودةٌ ، ثم تعملُ لتثبتَ أنها شاعرةٌ بوجودها ، ماضيةٌ إلى مصيرها ، منتهيةٌ بجسدها إلى الموت الإنسانى على سنَّة النفس الخالدة ؛ وليس هناك فى الحسِّ ، إذ يتعلق الحسُّ بما يتقلَّب على الجسم ، فهو مهتاجٌ لشعوره بوَشْك فنائه فلا يحدثُ إلا الألم إن نال أو لم ينلْ ، وهو منته بجسمه إلى الموت الحيوانىّ بين آكل ومأكول على سنَّة الطبيعة الفانية .

أيها الحى ، إذا كانت الحياةُ هنا فلا تكن أنت هناك .

* * *

إن الحكيم الذى ينظر إلى ما وراء الأشياء فيتعرَّفُ أسرارَها ، لاتكونُ له حياةُ الذى يتعلقُ بظاهرها ولا أخلاقُه ولا نظرتُه ؛ هذا الأخيرُ هو فى نفسه شىء من الأشياء له مظهرُ المادة وخِداعُها عن الحقيقة ؛ وذلك الأولُ هو نفسُه سرٌّ من الأسرار له روْعةُ السِّر وكشفُه عن الحقيقة . ولهذا كان فى حياة الأنبياء والحكماء مالا يُطيقه الناسُ ولا يَضبِطونه إذا تكلَّفوه ، بل ينخرقُ عليهم فيكونُ منه العجز الغلَط ، ويحدثُ من الغلط الزَّلَل .

ونظرةُ نبينا (صلى الله عليه وسلم) إلى هذا الوجوه نظرةٌ شاملة مدركةٌ لحقيقة اللانهاية ، فيرى بدايةَ كل شىء مادىّ هى نهايتَه فى التوّ واللحظة ، فلا وجودَ له إلا عارضاً ماراً ، فهو فى اعتباره موجودٌ غيرُ موجود ، مبتدئٌ منته معاً ؛ وبذلك تبطُلُ عنده الأشياء الماديةُ وتأثيرُها ، فلا تتصلُ بنفسه العالية إلا من أضعف جهاتها ، ويجدُها الناسُ فى حياتهم الشجرةَ والفرعَ والثمرة ، وما لها عنده هو جذْرٌ ولا فرع ؛ وبهذا لم يفتِنْه شىء ولم يتعلق به شىء .

وكانت الدنيا تطولُ الناسَ وتتقاصرُ عنه ، وكانت منقطعةَ النَّماء وهو ذاهب فى نموِّه الروحى ، وكأنما هو صورة أخرى من آدمَ (عليه السلام) ؛ فكلاهما لَمَسَ بنفسه الحياةَ جديدةً خاليةً مما جمع فيها الزمنُ وأهله من طمع وشرّه ، وجاء آدمُ ليعطِيَ الأرضَ ناسَها من صُلْبه ، وجاء محمدٌ ليُعطِيَ الناسَ

قوانينَهم من فضائله ؛ فآدم بشخصه هو دنيا بُعِثَتْ لتتسع ، ومحمدٌ بشخصه هو دنيا بُعثتْ لتنتظم .

وماذا يُفهَم من الفلسفةِ الأخلاقيةِ النبويةِ العظيمة ؟ يُفهم منها أن الشهواتِ خُلِقت مع الإنسان تتحكم فيه ، لينقلبَ بها إنسانًا يتحكَّم فيها ؛ وأن الإنسانَ الصحيحَ الذى لم تُزَوِّرْه الدنيا يجب أن يكونَ ذا روح يمتدُّ فَيَفيضُ عِن غايات جسمه إلى ما هو أعلى فأعلى حتى يُصبِحَ فى حكمِ النور وانطلاقه وحريته ، ولاينكمشُ فيحصره جسمُه فى غاياته وضروراته فيرتدُّ إلى ما هو أسفلَ أسفلَ حتى يعودَ فى حكم التراب وأسرِه وعبوديته . فالفقرُ وما إليه ، والزهدُ وما هو بسبيلٍ منه ، والانصرافُ عن الشهوات والرذائل — كلُّ ذلك إن هو إلا تَراجُعُ النفسِ العالية إلى ذاتها النورانيةِ حالاً بعد حال ، وشيئًا بعد شيء ، لِتُضيء على المادة فتكشفَ حقائقَها الصريحةَ فلا تُباليها ولا تقيمُ لها وزنًا . فبينما الناسُ يَرونْ الأموالَ والشهواتِ مادةَ حياة وعمل وشعور ، تراها هى مادةَ بحثٍ ومعرفةٍ واعتبارٍ ليس غير ؛ وبهذا تكون النفسُ العظيمةُ فى الدنيا كأستاذِ المعملِ : تدخلُ المادة إلى معمله وهى مادةٌ وفكرة ، وتخرج منه وهى حقيقةٌ ومعرفة ، وعلى أىّ أحوالها فهى إنما تُحَسُّ فى ذلك المعمل بأصابعَ علميةٍ دقيقةٍ ليس فيها الجمع ولا الحرص ، ولكنْ فيها الذهنُ والفكر ؛ وليس لها طبيعةُ الرغبةِ والغفلة ، ولكن طبيعةُ الانتباه والتحرُّز ، وليست فى أسرِ المادة ، ولكنْ المادةَ فى أسرها ما شاءت .

ولايسمَّى فقره (صلى الله عليه وسلم) زُهداً كما يظن الضعفاء ممن يتعلقون على ظاهر التاريخ ولا يحققون أصولَه النفسية ؛ وأكثرهم يقرأ التاريخَ النبوىَّ بأرواح مظلمةٍ تريهم ما تَرى العينُ إذا ما اختلط الظلامُ ولَبِسَ الأشياء فتراءت مُجْمَلَةً لاتفصيلَ لها ، مُفْرَغةً لا تَبْيينَ فيها ؛ وما بها من ذلك شىء ، غير أنها تتراءى فى بقية من البصر لاتَغْمُرها .

وهل الزهدُ إلا أن تطردَ الجسمَ عنكَ وهو معك ، وتنصرفَ عنه وهو بك متعلق ؟ فتلك سخريةٌ ومُثْلَة ، وفى رأيى تشويهٌ للجسم بروحه ، وقد تنعكسُ فتكونُ من تشويه الروح بجسمها ؛ فليس يعلم إلا اللهُ وحده : أذاك تفسيرٌ

لإنسانية الزاهد بالنور ، أم هو تفسيرٌ بالتراب . . .

ولقد كان (صلى الله عليه وسلم) يملك المالَ ويَجدُه ، وكان أجوَدَ به من الريح المرسَلَة ، ولكنه لا يدعُه يتناسلُ عنده ، ولا يتركه يَنْبُتُ فى عمله ، وإنما كان عملُه ترجمةً لإحساسه الروحى ؛ فهو رسولٌ تعليمىّ ، قلبُه العظيمُ فى القوانين الكثيرةِ من واجباته ، وهو يريد إثباتَ وحدةِ الإنسانية ، وأن هذا الإنسانَ مع المادة الصامتة العمياء مادةٌ مفكّرةٌ مميِّزة ، وأن الدينَ قوةٌ روحية يلقى بها المؤمنُ أحوالَ الحياة فلا يثبت بإزائها شىء على شيئيَّته ، إذ الروحُ خلودٌ وبقاء ، والمادةُ فناء وتحوُّل ، ومن ثم تخضع الحوادثُ للروح المؤمنة وتتغير معها ، فإن لم تخضَع لم تُخْضِعْها ، وإن لم تتغير الروحُ بها ؛ وأساسُ الإيمان أن ما ينتهى لا ينبغى أن يتصرَّفَ بما لا ينتهى .

ما قيمةُ العقيدةِ إلا بصدقها فى الحياة ، وأكثرُ ما يَصنع هذا المالُ : إما الكذبَ الصُّراحَ فى الحياة ، وإما شُبهةَ الكذب ؛ ولهذا تنزّه النبىُّ (صلى الله عليه وسلم) عن التعلق به ، وزاده بعداً منه أنه نبىُّ الإنسانية ومثَلُها الأعلى ، فحياته الشريفةُ ليست كما نَرى فى الناس : إيجاداً لحلّ مسائل الفرد وتعقيداً لمسائل غيره ، ولا توسُّعًا من ناحية وتضييقًا من الناحية الأخرى ، ولا جمعًا من هنا ومنعًا من هناك ؛ بل كانت حياته بعد الرسالة منصرفةً إلى إقرار التوازنِ فى الإنسانية ، وتعليم الجميع على تفاوتهم واختلافِ مراتبهم كيف يكون لهم عقلٌ واحد من الكون ؛ وبهذا العقل الكونىّ السليم ترى المؤمنَ إذا عَرَضَ له الشىء من الدنيا يفْتِنُه أو يَصْرِفه عن واجبه الإنسانى — أبتْ نفسُه العظيمةُ إلا أن ترتفعَ بطبيعتها ، فإذا هو فى قانون السموّ ، وإذا المادةُ فى قانون الثقل ؛ فيرتفعُ وتتَهاوَى ، ويصبح الذهبُ — وإنه ذهبٌ — وليس فيه عند المؤمن إلا روحُ التراب .

سمو الفقر
فى المصلح الاجتماعى الأعظم

٢

قالت عائشةُ (رضى الله عنها) : لم يمتلئ جوفُ النبى (صلى الله عليه وسلم) شِبَعًا قَطّ ، وإنه كان فى أهله لا يسألهم طعامًا ولا يتشهّاه ؛ إن أطعموه أكل ، وما أطعموه قَبِل ، وما سقَوْه شَرِب .

وقالت : ما شَبِع آلُ محمد من خبز الشعير يومين متتابِعين حتى قُبِض رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) .

وعنها : كنا آلَ محمد نمكثُ شهراً ما نَسْتَوْقِدُ بنار ، إنْ هو إلا التمرُ والماء .

وقالت : ما رَفع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قَط غداء لعَشاء ، ولا عَشاء لغداء ولا اتخذ من شيء زَوجين ؛ لا قميصين ، ولا رداءين ، ولا إزارين ، ولا زوجين من النعال .

ويروى عنها ، قالت : تُوفى رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) وليس عندى شيءٌ يأكله ذو كَبِد ، إلا شطرُ شعير فى رَفٍّ لى .

وقالت : توفى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ودِرْعُه مرهونةٌ عند يهودى فى ثلاثين صاعًا من شعير .

وعن ابن عباس : كان رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) يَبيتُ الليالىَ المتتابعةَ وأهلَه طاويًا لا يجدون عَشاءً ، وإنما كان خبزهم الشعير .

وعن الحسن ، قال : خطب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال : « واللهِ ما أمسَى فى آلِ محمد صاعٌ من طعام ، وإنها لتسعةُ أبيات ! » والله ما قالها استقلالاً ، ولكن أراد أن تتأسَّى به أمتُه .

وعن ابن مجير قال : أصاب النبيَّ (صلى الله عليه وسلم) جُوعٌ يومًا ، فعمَدَ إلى حجر فوضَعَه على بطنه ، ثم قال : « ألا رُبَّ نفسٍ طاعمةٍ ناعمةٍ فى

الدنيا ، جائعةٌ عاريةٌ يوم القيامة ؛ ألا ربَّ مُكْرِمٍ نفسَه وهو مُهينٌ لها ؛ ألا رب مُهينٍ نفسَه وهو مكْرِمٌ لها » .

وخُيِّرَ (صلى الله عليه وسلم) أن يكونَ له مثلُ « أحُدٍ » ذهبًا فقال : « لا يارب ؛ أجوعُ يوما فأدعوك ، وأشبعُ يوما فأحمدك ! »

وكان يقول فى دعائه ويُكْثِر منه : « اللهم أحْيِنِى مِسكينًا ، وأمِتْنى مِسكينًا ، واحشُرْنى فى زُمرة المساكين » .

* * *

هذا هو سيدُ الأمة ، يُمسِكهُ فى الحياة نبيًّا عظيماً ما يُخْرِجُ غيرَه منها ذليلا محتقَراً ، وكأنما أشرق صفاءُ نفسه على تراب الأرض فردَّه أشعةَ نور ، على حين يُلقِى الناسُ على هذا التراب من ظلام أنفسهم فلا يَبْقَى تراباً بل يرجعُ ظلاما ، فكأنهم إذْ يمشون عليه يطئون المجهولَ بخَوْفه ورَوْعته ؛ ثم لايستقر ظلامًا بل يرجعُ آلامًا ، فكأنهم ينْبتُون على المرض لاعلى الحياة ؛ ثم لايثبتُ آلامًا بل يتحوَّلُ فَوْرةً وتوثُّبًا تكونُ منه نَزَوَاتُ الحمقِ والجنونِ فى النفس .

هؤلاء الذين تعيش أنفسُهم فى التراب ، ويتمرغون بأخلاقهم فيه ، ينقلبون على الحياة من صنع التراب ناسًا دُوداً كطبع الدُّودِ لايقعُ فى شىء إلا أفسده أو قذَّره ؛ أو قومًا سُوسًا كطبع السُّوسِ لاينالُ شيئًا إلا نَخَرَه أو عابه ، فهم يوقِعُون الخلَلَ فى نظام أنفسهم ، فإذا هى طائشةٌ تُخيِّل لهم كأنما اختلَّت نواميسُ الدنيا ، وكأن الله قَبَضَهم وبسط غيرَهم ، وشَغَلَهم وفَرَّغ مَن عداهم ، وابتلاهم على مُسْكةِ الرزق[1] بالشهوة المسعورةِ التى لاتتحققُ ، فضربَهم بالمجاهَدة التى لاتنقطع ؛ وأنعم على غيرهم فى بَسْطَةِ الرزق بالشجرةِ المسحورةِ التى لاتَقطَعُ منها ثمرة إلا نبت غيرُها فى مكانها .

إن ما وصفناه من فقر النبى (صلى الله عليه وسلم) ، وأنه لم يكن له عتيدٌ حاضرٌ ، وأنه لم يجعلْ نفسَه فى همّ المال ، ولاجعلته نفسُه فى هم الفقر ، وأنه لقى الحياةَ حاملاً لامحمولاً ، واستقرّ فيها هادئًا لا مضطربا — كل ذلك إنما يثبتُ للدنيا أنه خُلِقَ وبُعِثَ وعاش ليكونَ درسًا عمليًّا فى حل المشكلات الاجتماعية ،

---

(١) مسكة الرزق : ضد بسطة الرزق ، أى الضيق والسعة .

يعلِّم الناسَ أنها لا تتعقَّد بطبيعتها ، ولكن بطبائعهم فيها، ولا تستمرُّ بقوتها ، ولكن بإمدادِ قواهم لها ؛ ولا تَـغْـلِـبُ بصَوْلتها ، ولكن بجزعهم منها ؛ ولا تُـعْـضِلُ من ذاتِ نفسها ، ولكن من سوء أثرِهم عليها وسوء نظرهم لأنفسِهم ولها .

فإذا قرأتَ الأحاديثَ التى أسلفناها فلا تقرأها زهداً وتَـقلّـلاً ، ولا فقراً وجُـوعا ، ولا اختلالاً وحاجة ، كما تُترجمها نفسُك أو تُحِسُّها ضرُورتُك ؛ بل انظر فيها واعتَبِرْها بنفسه هو (صلى الله عليه وسلم) ، ثم اقرأها شريعةً اجتماعيةً مُفصَّلة على طبيعة النفس ، قائمةً على أن تأخذَ نفسُ الإنسان من قُوَى الدنيا عناصرَها الحوية ، لتُعطِيَ الحياةَ من ذلك قوةَ عناصرها .

والحياةُ العاملةُ غيرُ الحياة الوادعة ، هما ذكرُ وأنثى ؛ فأما الأولى فهى ما وصفنا وحكَينا ، وأما الثانيةُ فهى تَـغَـلّـلُ النعمة ، وإطلاقُ قانونِ التناسلِ فى المال ينمي بعضُه بعضا ، ويَـنْبُتُ بعضُه على بعض ، ثم إقامةُ الحياة على الزينة ومُقَـوِّماتِـها ، وقيامُ الزينة على الخداع وطبائعه ، فيُقْبِلُ المرء من دنياه على ما هو جدير أن يصرفَه عنها ، ويحبُّ منها ما كان ينبغى أن يباغِضَه فيها . وكلُّ ما رأيتَ وعلمتَ فى رجل قُوَّتُه القوةُ فهو هناك ؛ وكل ما علمتَ ورأيتَ فى أنثى قوتُها الضعفُ فهو هنا .

فالسوادُ الذى تراه فى فقره (صلى الله عليه وسلم) هو السوادُ الحىّ ؛ سوادُ الليلِ حولَ الروح النَّجْمِيّةِ الساطعة ؛ وذلك الترابُ هو الترابُ الحىّ ؛ ترابُ الزرع تحت النَّضرَة والخُضْرَة ؛ وتلك الحاجةُ الجسمية هى الحاجةُ الحية الدافعة إلى حرية النفس ؛ وذلك الإقلالُ من فهم اللذة هو الإقلالُ الحىُّ الذى يزيد قوةَ فهم الجمالِ فى السماء والأرض وما بينهما ؛ وذلك الضيقُ فى حَيِّزِ المَتاعِ للحاسَّة هو الضيقُ الحىُّ الذى يُوَسِّع حَيِّزَ المتاع للروح . وبالجملة فذلك النقص من المادة لم يكن إلا لنفي النقص عن الفضيلة ، وذلك الاحتقارُ للعَرَض الفانى الزائل هو المعنى الآخرُ لتقديس الخالدِ الباقى .

فليس هناك خُبزُ الشعير ، ولا الجوعُ ، ولا رهنُ الدرع عند اليهودى . كلا ، كلا ، بل هناك حقيقة نفسية عقلية ، ثابتة متَّزِنة ، قائمة بعناصرها السامية : من اليقين والعقل والحكمة ، إلى الرفقِ والحلم والتواضع ، تخبرُ هذه

الدنيا العلمية الفلسفية المفكرة أن ذلك النبي العظيم هو الرجل الاجتماعي التام بأخلاقه وفضائله ، وهو الذى بُعث لتنقيح غريزة تنازع البقاء ، وكسر هذه الحيوانية ، وقمع نزواتها ، وإماتة دواعيها ، والسمو بخواطرها ؛ فهو بنفسه صورة الكمال الذى بُعث لتحقيقه وإثبات أنه الممكن لاالممتنع ، والحقيقى لاالخيالى .

ليس هناك درع مرهونة فى ثلاثين صاعا ، ولا الفقر ، ولاخبز الشعير . كلا ، كلا ، بل هناك تقرير أن النصر فى معركة الحياة لا يأتى من المال والثراء والمتاع ، ولكن من المعاناة والشدة والصبر ؛ وأن التقدم الإنسانى لايباع بيعًا ، ولا يؤخذ هونًا ؛ بل هو انتزاع من الحوادث بالأخلاق التى تتغلب على الأزمات ولاتتغلب الأزمات عليها ، وأن هذا المال وهذه الشهوات — فى حقائق الحياة ومصائرها — ككنوز الأحلام : لاتكون كنوزاً إلا فى مواضعها من أرض الغفلة والنوم ، فلا لذة منها إلا بمقدار خفيف من هذه الغفلة . وليس إلا الأحمق أو المخذول أو الضائع هو الذى يقطع العمر نائماً أبداً ليظل مالكًا أبداً لهذه الكنوز . . . وهو يعلم أنه لابد مستيقظ ، وأنه متى انتبه فى آخرته لم يجد منها شيئًا « ووجد الله عنده فوفَّاه حسابه » .

كلا ، كلا ، ليس هناك فقر ولاجوع وما إليهما ، بل هناك وضع هذه الحقيقة : ينبغى أن تجد نفسك ، وموضع نفسك ، وإيمان نفسك ، وعزة نفسك . فإذا أدركت ذلك ورفعت نفسك إلى موضعها الحق ، وأقررتها فيه ، وحبستها عليه ، وحددتها بالإنسانية من ناحية وبالله من الناحية المقابلة — رأيت إذن أن قيمتك الصحيحة فى أن تكون وسيلة تعطى وتعمل لتُعطى ، لاغاية تأخذ وتعمل لتأخذ ، ومهما ضُيِّق عليك فإنما أنت كالشجرة الطيبة تأخذ ترابًا وتصنع حلاوة .

وما قط نبتت شجرة فى مكانها لتأكل وتشرب وتختزن السماد والتراب وتحصنهما وتمنعهما عن غيرها ، ولو قد فعلت ذلك شجرة لكان هلاكها فيما تفعل ، إذ تحاول أن تضاعف فائدتها من قانون العالم ، فيكون طمعها سريعًا فى إفساد الصلة بينهما ، فلا يجد القانون فيها نظامه ، ومن ثم لاتجد فى القانون

نظامَها ، فيُهلِكُها الذى كان يُحييها ، وتستعبدُ لحظّ نفسها ، فيُفْقِدُها ذلك حريةَ الحياة التى كانت لها فى نفسها .

* * *

يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : « إن المؤمنَ بكل خير على كل حال ، إن نفسَه تُنْزَعُ من بين جنبيه وهو يَحمدُ الله عزّ وجلّ » . فهذا هو أسمى قانون اجتماعىٍّ يمكن أن تظفرَ به الإنسانيةُ ، وما يأتى لها ذلك إلا إذا أصبحتْ تلك المعانى التى أومأنا إليها شعوراً اجتماعيًّا عامًّا مقرَّراً فى النفس ، قائمًا فيها على إيمان راسخ بأن الفردَ هو صورة المجتمع لاصورةُ نفسه وحدها ، وأن الناسَ كحبِّ القمح فى السُّنبلة ، ليس لجميعه إلا قانونٌ واحد ، فموضعُ كل حبة من السنبلة هو ثروتُها ، علَتْ أو سفَلَتْ ، وكثُرَ ما تأخذُه أو قلّ ؛ وإذا كان أساسُ الحياة فى الحبة منها أن تجدَ قِوامَها وكِفايتَها من مادة الأرض ، فتمامُ الحياة فيها أن يَغْمُرَها النورُ مِن حولها ، وأن يستمرّ النورُ من حولها يغمرُها .

فالحبة من السُّنبلة بكل خير على كل حال ، وإنها لتُنْزَعُ وما بها أنها نُزِعتْ ، ولكنها أدّت ما تؤدّى ، وانقطعتْ من قانون لتتصلَ بقانون غيره ، وما اغتنتْ ولا افتقرتْ ، ولا أكثرتْ ولاأخفقتْ بل حقّقت موضعها ، فإنها ما نبتتْ لتبقى ، وما نمتْ إلا لينقطعَ نماؤُها . وكذلك المؤمنُ الصحيحُ الإيمانِ ، الصادقُ النظرِ فى الحياة : هو أبداً فى قانونِ آخرتِه ، فهو أبداً فى عملِ ضميره .

والناسُ فى هذه الحياة كحَشْد عظيم يتدفق من مَضيق بين جبلين ينفُذُ إلى الفضاء؛ فإذا هم أدركوا جميعًا أنهم مُفْضُونَ إلى هذه النهاية مرُّوا آمنين وكان فى يقينهم السلامة ، وفى صبرِهم الوقاية ، وفى نظامِهم التوفيق ، وفى تعاونهم الحياة ؛ فهم بكل خير على كل حال ، ما دام هذا قانونَ جميعهم ؛ فأيُّما رجلٍ شذّ منهم فاضطربَ فطاشَ ، هلَكَ وأهلكَ مَن حولَه ، ومن عكسَ منهم موضعَه ونكَصَ على عقبيه ، أهلك مَن حولَه وهلَكَ . والموتُ أشقى الموتِ هنا فى هذا المضيقِ بين الجبلين — اعتبارُ الحاضرِ حاضراً فقط ، والضجرُ منه ، وجعلُ كلّ

إنسان نفسَه غاية . والحياةُ أهنأُ الحياة – اعتبارُ الحاضر بما وراءه، والصبرُ على شدته ، وجعلُ الإنسانِ نفسه وسيلة .

* * *

فذلك معنى خبز الشعير ، والقِلّة والضيق ، ورهنِ الدرع عند يهودى من سيِّدِ الخَلْق وأكملِهم ، ومن لوشاء لمشى على أرض من الذهب . فهو(صلى الله عليه وسلم) يعلِّم الإنسانية أن الرجلَ العظيمَ النفسِ لايكون فى الحياة إلا ضيفًا نازلاً على نفسه .

ومن معانى ذلك الفقرِ العظيم أن خبز الشعير هو رَمزٌ من رموز الحياة على التحلّل من خُلُقِ الأثَرَةِ ، والبراءةِ من هوى الترّف ؛ ورهنُ الدرع رمزٌ آخرُ على التخلُّص من الكبرياء والطمع ؛ والعُسرةُ رمز ثالثٌ على مجاهدة الملَل الحىّ الذى يُفْسِد الحياةَ كما يُفسد بعضُ النباتِ النبات . ومجموعُ هذه الرموز رمزٌ بحاله على وجوب الإيقاظِ النفسىّ للأمة العزيزة التى تقود أنفسَها بمقاساة الشدائد ومجاهدةِ الطباع ، لتكونَ فى كل فرد مادةُ الجيش ، وليصلُحَ هذا الجيشُ قائداً للإنسانية .

على أنه (صلى الله عليه وسلم) حثَّ على طلب اليَسَار ، والتغلُّلِ من الأعمال الشريفة بالغَلَّةِ والمال ، فقال : « إنك إنْ تَدَعْ عِيالَك أغنياء ، خيرٌ من أن تَدَعَهم عَالَةً يتكفّفون الناس . » ورأى عابداً قد انقطع للعبادة حتى أكلتْ نفسُه جسمَه ، ووصفوا له من زُهدِه وعبادتِه ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : « مَن يعولُه » قالوا : كلّنا نعوله . فقال : «كلّكم خير منه ! ...» إلى أحاديثَ كثيرة مرويَّة ، هى تمام القانون الأدبى الاجتماعى فى الدنيا ، تثبت أن الحى إنْ هو إلا عملُ الحىّ .

ولكن حين يكون سيد الأمة وصاحبُ شريعتها رجلاً فقيراً ، عاملاً مجاهداً ، يكْدَحُ لعيشه ، ويجوعُ يوماً ويشبعُ يومًا ، فلم يقلِّبْ يدَه فى تِلادٍ من المال يرثُه ، ولم يجمعْهما على طَريفٍ منه يُوَرِّثه – فذلك هو ما بيناه وشرحناه ، وذلك كالأمر نافذاً لارُخْصَةَ فيه ، على ألاَّ يتخذَ الغنىُّ من الفقير عبداً اجتماعيًّا لفقرِ هذا ولمال ذاك ؛ بل هى المساواةُ النفسية لا غيرُها وإن اختلفت طبقاتُ

الاجتماع . والأكرمُ هو الأتقى لله بمعنى التقوى، والأقومُ بالواجب على معنى الواجب ، والأكفأ للإنسانية فى معانى الإنسانية .

فقرُ ذلك السيدِ الأعظم ليس فقراً ، بل هو كما رأيت : ضبطُ السلطةِ الكائنةِ فى طبيعةِ التملك ، لقيام التعاوُنِ الإنسانىّ على أساسِه العملىّ ؛ هو المحاجَزَةُ العادلةُ بين المصالح الاقتصادية الطاغية : يمنع أن تأكلَ مصلحةٌ مصلحةً فتهلكَ بها ، ويُوجبُ أن تَلِدَ المصلحةُ مصلحةً لتحيا بها .

والنبي الفقيرُ العظيمُ هو فى التاريخ من وراء كل هذه المعانى ، كالقاضى الجالس وراء موادّ القانون . صلى الله عليه وسلم .

درس من النبوة

قالوا : إنه لما نَصر اللهُ (تعالى) رسولَه وردَّ عنه الأحزابَ وفتح عليه قُرَيْظَة والنَّضير[1] ، ظن أزواجُه (صلى الله عليه وسلم) أنه اختصَّ بنفائس اليهود وذخائرهم ؛ وكنَّ تِسْعَ نِسوة : عائشة ، وحَفْصة ، وأم حبيبة ، وسَوْدة ، وأم سَلَمة ، وصفية ، وميمونة ، وزينب ، وجُوَيْرِية ؛ فقعدنَ حوله وقلن : يا رسولَ الله ، بناتُ كِسرى وقَيْصرَ فى الحَلى والحُلَل ، والإماء والخَوَل ، ونحن ما تراه من الفاقة والضيق ... وآلَمْنَ قلبَه بمطالبتهن له بتَوْسِعَة الحال ، وأن يعاملَهن بما تُعامِلُ به الملوكُ وأبناء الدنيا أزواجَهم ؛ فأمره الله (تعالى) أن يتلوَ عليهن ما نزل فى أمرهن من تخييرهن فى فراقه ، وذلك قولهُ تعالى : « يا أيها النبىُّ قل لأزواجك : إن كنتنَّ تُرِدْنَ الحياةَ الدنيا وزينتَها فتعالَيْنَ أُمَتِّعْكُن وأُسَرِّحْكُنَّ سراحًا جميلاً[2] ؛ وإن كنتن تُرِدْنَ اللهَ ورسولَه والدارَ الآخرةَ فإن الله أعدَّ للمُحسِنات منكن أجراً عظيماً » .

قالوا : وبدأ (صلى الله عليه وسلم) بعائشة — وهى أحبُّهن إليه — فقال لها : « إنى ذاكرٌ لك أمراً ما أُحب أن تعجلى فيه حتى تَسْتأمِرى أبوَيك » . قالت : ما هو ؟ فتلا عليها الآية . قالت : أفيكَ أستأمرُ أبوىَّ ؟ بل أختارُ اللهَ تعالى ورسولَه .

ثم تتَابعْنَ كلّهنَّ على ذلك ، فسمَّا هن الله « أمّهات المؤمنين » ، تعظيماً لحقهن ، وتأكيداً لحرمتهن ، وتفضيلاً لهن على سائر النساء .

* * *

هذه هى القصة كما تُقرأ فى التاريخ وكما ظهرت فى الزمان والمكان ، فلنقرأْها نحن كما هى فى معانى الحكمة ، وكما ظهرتْ فى الإنسانية العالية ؛

---

(١) هما حيان من أحياء اليهود بالمدينة ، وكان ذلك فى أواخر سنة خمس للهجرة .

(٢) السراح : الطلاق ، ومتعة الطلاق ما تعطاه المطلقة — وهو — يختلف حسب السعة والإقتار .

فسنجدُ لها غَوْراً بعيداً ، ونعرفُ فيها دَلالةً سامية، ونتبينُ تحقيقاً فلسفياً دقيقاً للأوهام والحقائق .

وهي قبل كل هذا ومع كل هذا تنطوى على حكمة رائعة لم يتنبه لها أحد ، ومن أجلها ذُكِرتْ فى القرآن الكريم ، لتكون نصًّا تاريخيًّا قاطعًا يُدَافِعُ به التاريخُ عن هذا النبيِّ العظيم فى أمرٍ من أمر العقل والغريزة ، فإن جَهَلَة المشرين فى زمننا هذا ، وكثيراً من أهل الزَّيغ والإلحاد، وطائفةً من قِصَار النظر فى التحقيق — يزعمون أن محمداً (صلى الله عليه وسلم) إنما استكثَرَ من النساء لأهواءٍ نفسية محضةٍ وشهواتٍ كالشهوات ؛ ويَتَطرَّقون من هذا الزعم إلى الشبهة ، ومن الشبهةِ إلى سوء الظن ، ومن سوء الظن إلى قبح الرأى ؛ وكلّهم غبيٌّ جاهل ؛ فلو كان الأمر على ذلك أو على قريب منه أو نحوٍ من قريبه ، لما كانت هذه القصةُ التى أساسُها نفيُ الزينة وتجريدُ نسائه جميعًا منها ، وتصحيحُ النيَّة بينه وبينهن على حياة لاتحيا فيها معانى المرأة ، وتحتَ جوٍّ لايكونُ أبداً جوَّ الزَّهر . . . وأمرُه من قِبَل ربِّه أن يخيِّرهنَّ جميعًا بين سراحِهن فيكنَّ كالنساء ويجدنَ ما شئن من دنيا المرأة ، وبين إمساكِهن فلا يكنَّ معه إلا فى طبيعة أخرى تبدأ من حيث تنتهى الدنيا وزينتُها .

فالقصة نفسُها ردٌّ على زعم الشهوات ، إذ ليست هذه لغةَ الشهوة ، ولا سياسةَ معانيها ، ولا أسلوب غضبها أو رضاها . وما ههنا تمليقٌ ، ولاإطراءٌ ، ولا نُعومةٌ ، ولا حرصٌ على لذة ، ولاتعبيرٌ بلغة الحاسة ؛ والقصةُ بعد مكشوفةٌ صريحة ليس فيها معنى ولاشبهُ معنى من حرارة القلب ، ولاأثرٌ ولابقيةُ أثرٍ من ميل النفس ، ولاحرفٌ أو صوتُ حرف من لغة الدم . وهى على منطقٍ آخرَ غير المنطق الذى تُستَمالُ به المرأة ، فلم تقتصر على نفى الدنيا وزينة الدنيا عنهن ، بل نَفَتِ الأملَ فى ذلك أيضًا إلى آخر الدهر ، وأماتت معناه فى نفوسهن ، بقَصْر الإرادة منهن على هذه الثلاثة : اللهُ فى أمره ونهيه ، والرسولُ فى شدائده ومُكابَدَتِه ، والدارُ الآخرةُ فى تكاليفها ومَكارهها . فليس هنا ظرفٌ ، ولارقةٌ ، ولاعاطفةٌ ، ولا سياسةٌ لطبيعة المرأة ، ولا اعتبارٌ لمزاجها ،ولازُلْفَى لأنوثتها ؛ ثم هو تخييرٌ صريحٌ بين ضدين لاتتلوَّنُ بينهما حالةٌ تكونُ منهما معًا ،

ثم هو عامٌّ لجميع زوجاتِه لايستثنى منهن واحدةً ولا أكثر .
والحريصُ على المرأة والاستمتاع بها لا يأتى بشىء من هذا ، بل يخاطبُ فى المرأة خيالَها أولَ مايخاطب ، ويُشبِعُه مبالغةً وتأكيداً ، ويُوسِعُه رَجاءً وأملاً ، ويقرِّبُ له الزمنَ البعيدَ ، حتى لوكان فى أول الليل وكان الخلافُ على الوقت ، لحقَّق له أن الظهرَ بعد ساعة . . .

* * *

وبرهانٌ آخرُ ؛ وهو أن النبى (صلى الله عليه وسلم) لم يتزوَّج نساءه لمتاع مما يمتِّع الخيالُ به ، فلو كان وَضْعُ الأمر على ذلك لما استقام ذلك إلا بالزينة وبالفنّ الناعم فى الثوب والحِلْية والتشكُّل كما نرى فى الطبيعة الفنيَّة ، فإن الممثلةَ لاتمثل الرواية إلا فى المسرح المهيأ بمناظرِه وجَوِّه . . . وقد كان نساؤه (صلى الله عليه وسلم) أعرفَ به ؛ وها هو ذا ينفى الزينةَ عنهن ويخيرهن الطلاقَ إذا أصررن عليها . فهل ترى فى هذا صورةَ فكرٍ من أفكار الشهوة ؟ وهل ترى إلا الكمالَ المحض ؟ وهل كانت متابعَةُ الزوجات التسع إلا تسعةَ بُرهانات على هذا الكمال ؟!

وكأنَّ النبيَّ (صلى الله عليه وسلم) يُلقى بهذه القصة درساً مستفيضاً فى فلسفة الخيال وسوء أثره ، على المرأة فى أنوثتها ، وعلى الرجل فى رجولته ؛ وأن ذلك تعقيدٌ فى الشهوات يقابله تعقيدٌ فى الطبع ، وكَذِبٌ فى الحقيقة ينشأ عنه كذبٌ فى الخلُق ، وأنه صَرْفٌ للمرأة إلى حياة الأحلام والأمانىّ والطيش والبطَر والفراغ ، وتعويدُها عادات تُفسِد عاطفتَها ، وتُضيف إليها التصنّعَ فتُضعفُ قوتَها النفسيةَ القائمةَ على إبداع الجمال من حقيقتها لا من مظهرها ، وتحقيق الفائدة من عملها لا من شكلها .

وكل محاسن المرأة هى خيالُ متخيِّل ولا حقيقةَ لشىء منها فى الطبيعة ، وإنما حقيقتُها فى العين الناظرةِ إليها ؛ فلا تكونُ امرأةٌ فاتنةً إلا للمفتونِ بها ليس غير . ولو ردت الطبيعةُ على من يُشَبِّبُ بامرأةٍ جميلةٍ فيقول لها : هذه محاسنُكِ وهذه فتنتُكِ وهذا سحرك وهذا وهذا ؛ لقالت له الطبيعة : بل هذه كلُّها شهواتُكَ أنت[1] . . .

(١) بسطنا هذا المعنى فى كثير مما كتبناه ، وخاصة فى كتاب : (السحاب الأحمر) .

وبهذا يختلفُ الجمالُ عند فقد النظر؛ فلا يفتن الأعمى جمالُ الصورة ولا سحرُ الشكل ولا فَرَاهةُ المنظر، وإنما يفتنه صوتُ المرأة ومَجَسَّتُها ورائحتُها .

فلا حقيقةَ فى المرأة إلا المرأةُ نفسُها؛ ولو أخذتْ كلُّ أنثى على حقيقتها هذه لما فسدَ رجلٌ ولا شقيت امرأة، ولا انتظمت حياةُ كلِّ زوجين بأسبابها التى فيها . وذلك هو المثلُ المضروب فى القصة .

يريد النبي (صلى الله عليه وسلم) ليعلِّم أمتَه أن حَيف الغريزة على العقل إفسادٌ لهذا العقل، وأنه متى أخذت المرأة لحظ الغريزة واختيارها، كانت حياتُها استجابةً لجنون الرجل، وملأتها معانى التزيُّد والتصنُّع؛ فيُوشِكُ أن ينقلَها هذا عن طبيعتها السامية التى أكثرُها فى الحرمان والإيثار والصبر والاحتمال، ويردَّها إلى أضداد هذه الصفات، فيقومُ أمرها بعدُ على الأثرة والمصلحة والتفادى والضجَر والتبرُّم والإلحاح والإزعاج، ويضعفُ معنى السلْب الراسخ فى نفسها من أصل الفطرة؛ فيتبدَّلُ حياؤُها، وفى الحياء ردُّها عن أشياء؛ ويقلُّ إخلاصُها، وفى الإخلاص ردٌّ لها عن أشياء أخرى؛ ويكثرُ طمعُها، وفى قناعتها مُحاجَزَةٌ بينها وبين الشر .

وبهذا ونحوه يفسدُ ما بين الرجل والمرأة المتصنِّعة؛ فإذا كثُر المتصنِّعات لا يكون من النساء مَشَاكلُ فقط، بل تكونُ من حُلول المشاكل معهن مشاكلُ أخرى ...

* * *

ولُبابُ هذه القصة أن النبي (صلى الله عليه وسلم) يجعلُ نفسَه فى الزواج المثَلَ الشَّعبيَّ الأكملَ كما هو دأبه فى كل صفاته الشريفة، فهو يريد أن تكونَ زوجاته جميعًا كنساء فقراء المسلمين، ليكونَ منهن المثَلُ الأعلى للمرأة المؤمنة العاملة الشريفة التى تَبْرَعُ البراعةَ كلَّها فى الصبر والمجاهدة والإخلاص والعفة والصراحة والقناعة، فلا تكونُ المرأة زينةً تَطْلُبُ زينةً لتتمَّ بها فى الخيال، ولكن إنسانيةً تطلبُ كمالَها الإنسانى لتتمَّ به فى الواقع .

وهذه الزينةُ التى تتصنع بها المرأة تكاد تكون صورةَ المكر والخداع والتعقُّد، وكلما أسرفتْ فى هذه أسرفتْ فى تلك، بل الزينة لوجه المرأة وجسمِها

سلاحٌ من أسلحة المعانى : كالأظافر والمخالب والأنياب ، غير أن هذه لوحشية الطبيعة الحية المفترسة ، وتلك لوحشية الغريزة الحيّة التى تريد أن تفترس . ولا تنكر المرأةُ نفسُها أن الزينةَ على جسمها ثرثرةٌ طويلة تقولُ وتقولُ وتقول ..

* * *

وإنما يكونُ أساسُ الكمال الإنسانى ، فى الإنسان العامل المجاهد : لايحصُرُ نفسَه فى شىء يسمَّى متاعًا أو زينة ، ولايقدّر نفسَه بما يجمع لها أو بما يجمعُ حولها ، ولا يعتدُّ ما يكون من ذلك إلا كالتعبير من عمل الشهوات عن الشهوات . ونبيُّنا (صلى الله عليه وسلم) هو الغايةُ فى هذا . دخل عليه مرة عمر بن الخطاب ، فإذا هو على حَصير وعليه إزارُه وليس عليه غيرُه ، وإذا الحصيرُ قد أثّر فى جنبه . قال عمر : وإذا أنا بقَبْضة من شعير نحو الصاع ، وإذا إهابٌ معلّق[1] ، فابتدرَتْ عيناى ، فقال : ما يُبكيكَ يا ابنَ الخطاب ؟ قال : عمر : يا نبىَّ الله ، ومالى لا أبكى وهذا الحصيرُ قد أثر فى جنبك ، وهذه خزائنك لا أرى فيها إلا ما أرى ، وذاك كسرى وقيصرُ فى الثمارِ والأنهار وأنت نبىُّ الله وصفوته وهذه خزائنك[2] ؟

وجاء مرة من سفَرٍ فدخل على ابنته فاطمة (رضى الله عنها) فرأى على بابها سِتْراً وفى يديها قُلبَيْنِ من فضة[3] ، فرجع ؛ فدخل عليها أبو رافع وهى تبكى ، فأخبرتْه برجوع أبيها ، فسأله فى ذلك فقال (صلى الله عليه وسلم) : من أجل الستر والسوارين .

فلما أخبرها أبو رافع هتكت الستر[4] ونزَعت السوارين فأرسلتْ بهما

---

(١) كيس من جلد كان يتخذه العرب وعاء .

(٢) الروايات من مثل هذا كثيرة عنه (صلى الله عليه وسلم) ، وقد بسطنا فلسفة هذه المعانى فى مقال (سمو الفقر) .

(٣) القلب (بالضم) : سوار من الفضة غير ملوى ، هو الذى يقال له اليوم : (الغويشة) وهو خفيف .

(٤) أى مزقته ؛ وكذلك رأى مرة ستراً على باب عائشة (رضى الله عنها) فهتكه وقال : كلما رأيته ذكرت الدنيا . أرسلى به إلى آل فلان .

بلالاً إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) وقالت : قد تصدقتُ به ، فضعهُ حيث ترى . فقال لبلال : اذهبْ فبعهْ وادفعهْ إلى أهلِ الصُّفَّة[١] . فباع القُلْبين بدرهمين ونصف (نحو ثلاثة عشر قرشاً) وتصدق به عليهم .

يا بنتَ النبي العظيم ! وأنت أيضًا لايرضى لك أبوك حِلية بدرهمين ونصف وإنَّ في المسلمين فقراء لايملكون مثلها .

أيُّ رجل شعْبيٍّ على الأرض كمحمدٍ (صلى الله عليه وسلم) ، فيه للأمة كلِّها غريزةُ الأب ، وفيه على كل أحواله اليقينُ الذى لايتحوّل ، وفيه الطبيعةُ التامة التي يكونُ بها الحقيقيُّ هو الحقيقي .

يا بنتَ النبي العظيم ! إن زينةً بدرهمين ونصف ، لاتكون زينةً في رأى الحق إذا أمكن أن تكون صدقةً بدرهمين ونصف ؛ إن فيها حينئذ معنىً غيرَ معناها ؛ فيها حقُّ النفس غالبًا على حق الجماعة ؛ وفيها الإيمانُ بالمنفعة حاكمًا على الإيمان بالخير ؛ وفيها ماليس بضروري قد جار على ما هو الضروري ؛ وفيها خطأٌ من الكمال إن صحَّ في حساب الحلال والحرام لم يصحَّ في حساب الثواب والرحمة .

تعالَوا أيها الاشتراكيون فاعرِفوا نبيَّكم الأعظم ؛ إن مذهبَكم ما لم تُحْيِه فضائلُ الإسلام وشرائعُه — إن مذهبكم لكالشجرة الذابلة تعلِّقون عليها الأثمارَ تشدُّونها بالخيط . . . كلَّ يومٍ تحِلُّون ، وكلّ يوم تَربُطون ، ولا ثمرة في الطبيعة .

ليست قصةُ التخيير هذه مسألةً من مسائل الغنى والفقر في معاني المادة ، ولكنها مسألة من مسائل الكمال والنقص في معاني الروح ؛ فهي صريحةٌ في أن النبي (صلى الله عليه وسلم) أستاذُ الإنسانية كلِّها ؛ واجبُه أن يكونَ فضيلةً حية في كل حياةٍ ، وأن يكونَ عزاءً في كل فقر ، وأن يكونَ تهذيبًا في كل غنى ، ومن ثَم فهو في شخصه وسيرته القانونُ الأدبي للجميع .

وكأنه (صلى الله عليه وسلم) يُريد ليعلِّم الأمةَ بهذه القصة أن الجماعاتِ

---

(١) الصفة : الغرفة ، وأهل الصفة : هم فقراء المهاجرين ومن لم يكن له منهم منزل يسكنه ؛ فكانوا يأوون إلى موضع مظلل في مسجد المدينة يسكنونه .

لاتَصلُحُ بالقوانين والشرائع والأمر والنهى ، ولكن بعمل عظمائها فى الأمر والنهى ؛ وأن الحاكم على الناس لاينبغى أن يحكم إلا إذا كان فى نفسه وطبيعته يُحس فتنةَ الدنيا إحساسَ المتسلِّط لاالخاضع ، ليكون أولُ استقلاله استقلالَ داخِله .

فليس ذلك فقراً ولا زهداً كما ترى فى ظاهر القصة ، ولكنها جُرأةُ النفسِ العُظمَى فى تقريرِ حقائقها العملية .

* * *

وتنتهى القصة فى عبارة القرآن الكريم بتسمية زوجاتهِ (صلى الله عليه وسلم) : « أمَّهاتِ المؤمنين » بعد أن اختَرْن اللهَ ورسولَه والدارَ الآخرة ؛ وعلماءُ التفسير يقولون : إن الله (تعالى) كافأهن بهذه التسمية ؛ وليس ذلك بشيء ولافيه كبيرُ معنى ، وإنما تُشْعِرُ هذه التسميةُ بمعنى دقيق هو آيةٌ من آيات الإعجاز ؛ فإن الزوجة الكاملةَ لاتكملُ فى الحياة ولاتكملُ الحياةُ بها إلا إذا كان وصْفُها مع رجُلها كوصفِ الأم : ترى ابنَها بالقلب ومعانيه ، لابالغريزة وحُظوظِها ؛ فكلُّ حياةٍ حينئذ ممكِنةُ السعادةِ لهذه الزوجة ، وكلُّ شقاء محتمَلٌ بصبر ، وكلُّ جهاد فيه لذتهُ الطبيعية ، إذ يقومُ البيتُ على الحب الذى هو الحبُّ الخالصُ لا المنفعة ، وتكونُ زينةُ الحياة وجودَ الحيِّ نفسه لاوجودَ المادة ، وتُبْنَى النفسُ على الوفاء الطبيعىّ كوفاء الأمّ ، وذلك خُلُقٌ لايَعْسُرُ عليه فى سبيلِ حقيقته أن يتغلَّب على الدنيا وزينتِها .

وآخِرُ ما نستخرجُ من القصة فى درس النبوة هذه الحكمة :

بِحَسْبِ المؤمن إذا دخَلَ دارَه أن يجدَ حقيقةَ نفسِه الطيبة ، وإنلم يجد حقيقةَ كِسْرَى ولا قيصر .

شهرٌ للثورة . . . *

فلسفة الصيام

لم أقرأ لأحدٍ قولاً شافياً فى فلسفةِ الصوم وحكمتِه ؛ أما منفعتُه للجسم ، وأنه نوعٌ من الطب له ، وبابٌ من السياسة فى تدبيره ؛ فقد فرغ الأطباءُ من تحقيق القول فى ذلك ؛ وكأن أيامَ هذا الشهر المبارك إن هى إلا ثلاثون حبَّةً تؤخَذُ فى كل سنة مرةً لتقوية المعدة وتصفية الدم وحياطةِ أنسجة الجسم ؛ ولكنا الآن لسنا بصَدَدٍ من هذا، وإنما نستوحى تلك الحقيقةَ الإسلامية الكبرى التى شرَعت هذا الشرعَ لسياسة الحقائق الأرضية الصغيرة ، عاملةً على استمرارِ الفكرة الإنسانيةِ فيها ، كى لا تتبدَّلَ النفسُ على تغيرِ الحوادث وتبدُّلها ، ولكيلا تجهل الدنيا معانىَ الترقيع إذا أتت على هذه الدنيا معانى التمزيق .

من معجزات القرآن الكريم أنه يدَّخرُ فى الألفاظ المعروفة فى كل زمنٍ ، حقائقَ غيرَ معروفة لكل زمن ، فيُجلِّيها لوقتها حين يَضجَّ الزمانُ العلمىُّ فى متاهته وحيرته ، فيَشْغَبُ على التاريخ وأهله مُسْتَخِفًّا بالأديان ، ويذهبُ يتتبَّعُ الحقائق ، ويستقْصِى فى فنون المعرفة ، ليستخلصَ من بينِ كفرٍ وإيمانٍ دِيناً طبيعيًّا سائغاً ، يتناولُ الحياةَ أوّلَ ما يتناولُ فيضْبِطها بأسرار العلم، ويوجِّهها بالعلم إلى غايتها الصحيحة ، ويضاعف قُواها بأساليبه الطبيعية ، ليحقِّقَ فى إنسانيةِ العالَم هذه الشَّيْئيَّةَ المجهولةَ التى تتوهمها المذاهبُ الاجتماعية ولم يهتدِ إليها مذهبٌ منها ولا قاربَها ؛ فما برحتْ سعادةُ الاجتماع كالتجربة العلمية بين يَدى علمائها : لم يحققوها ولم ييأسوا منها ، وبقيت تلك المذاهبُ كعقارب الساعة فى دَوْرَتها : تبدأ من حيثُ تبدأ ثم لا تنتهى إلا إلى حيثُ تبدأ . . .

* * *

يضطربُ الاشتراكيون فى أوربا وقد عجزوا عجزَ مَن يحاول تغيير الإنسانِ بزيادةٍ ونقصٍ فى أعصابه ؛ ولا يزال مذهبهُم فى الدنيا مذهبَ كُتُب

* كتبها فى شهر رمضان سنة ١٣٥٣ هـ ، وانظر « عود على بدء » من كتاب حياة الرافعى .

ورسائل ؛ ولو أنهم تدبّروا حكمةَ الصوم فى الإسلام ، لرأوا هذا الشهر نظامًا عمليًّا من أقوى وأبدع الأنظمة الاشتراكية الصحيحة : فهذا الصومُ فقرٌ إجباريّ تفرضُه الشريعةُ على الناس فرضًا ليتساوى الجميعُ فى بواطنهم ، سواء منهم من ملَك المليونَ من الدنانير ، ومن ملك القرشَ الواحد ، ومن لم يملك شيئًا ؛ كما يتساوى الناسُ جميعًا فى ذهاب كبريائهم الإنسانية بالصلاة التى يفرضُها الإسلامُ على كل مسلم ؛ وفى ذهاب تفاوُتهم الاجتماعى بالحجّ الذى يفرضُه على من استطاع .

فقرٌ إجباريٌّ يراد به إشعار النفسِ الإنسانيةِ بطريقة عملية واضحة كلَّ الوضوح ، أن الحياةَ الصحيحةَ وراءَ الحياة لا فيها ، وأنها إنما تكونُ على أتمها حين يتساوى الناسُ فى الشعور لا حين يختلفون ، وحين يتعاطفون بإحساس الألم الواحدِ لا حين يتنازعون بإحساس الأهواء المتعددة .

ولو حقّقْتَ رأيتَ الناسَ لا يختلفون فى الإنسانية بعقولهم ، ولا بأنسابهم ، ولا بمراتبهم ، ولا بما ملكوا ؛ وإنما يختلفون ببطونهم وأحكامِ هذه البطون على العقل والعاطفة ؛ فمن البطن نكبةُ الإنسانية ، وهو العقلُ العمليٌّ على الأرض ؛ وإذا اختلف البطنُ والدماغُ فى ضرورةٍ ، مدّ البطنُ مدّهُ من قوَى الهضم فلم يُبقِ ولم يَذَرْ .

ومن ههنا يتناولُه الصوم بالتهذيب والتأديب والتدريب ، ويجعل الناسَ فيه سواءً : ليس لجميعهم إلا شعورٌ واحد وحِسٌّ واحدٌ وطبيعةٌ واحدةٌ ؛ ويُحكِم الأمر فيحولُ بين هذا البطنِ وبين المادة ، ويبالغُ فى إحكامه فيمسكُ حواشيَه العصبيةَ فى الجسم كله يمنعُها تغذيتَها ولذتَها حتى نفْثةً من دخينة(١) .

وبهذا يضعُ الإنسانيةَ كلَّها فى حالةٍ نفسيةٍ واحدة تتلبّسُ بها النفسُ فى مشارق الأرضِ ومغاربها ، ويُطْلِق فى هذه الإنسانيةِ كلِّها صوتَ الروح يُعلِّم الرحمةَ ويدعو إليها ، فيُشْبِعُ فيها بهذا الجوعِ فكرةً معيّنة هى كلُّ ما فى مذهب الاشتراكية من الحق ، وهى تلك الفكرةُ التى يكون عنها مساواةُ الغنىّ

---

(١) الدخينة كلمة وضعناها للسيجارة ، وجمعها دخائن .

للفقير من طبيعته ، واطمئنان الفقيرِ إلى الغنيّ بطبيعته ؛ ومن هذين: (الاطمئنان والمساواة) ، يكون هدوءُ الحياة بهدوء النفسين اللتين هما السَّلْبُ والإيجابُ فى هذا الاجتماع الإنسانى ؛ وإذا أنت نزعتَ هذه الفكرةَ من الاشتراكية بقى هذا المذهبُ كلُّه عَبَثًا من العبث فى محاولة جعْلِ التاريخ الإنسانى تاريخًا لا طبيعةَ له .

* * *

من قواعد النفس أن الرحمةَ تنشأ عن الألم ، وهذا بعضُ السرِّ الاجتماعىّ العظيم فى الصوم ، إذ يبالغُ أشدَّ المبالغة، ويدقق كلَّ التدقيق ،فى منع الغذاء وشبهِ الغذاء عن البطن وحواشيه مدةً آخرُها آخرُ الطاقة ؛ فهذه طريقةٌ عملية لتربية الرحمةِ فى النفس ، ولا طريقةَ غيرُها إلا النكباتُ والكوارث ؛ فهما طريقتان كما ترى : مُبصِرةٌ وعمياء ، وخاصةٌ وعامة، وعلى نظامٍ وعلى فَجْأة .

ومتى تحققَّتْ رحمةُ الجائعِ الغنىِّ للجائع الفقير ، أصبح للكلمة الإنسانيةِ الداخليةِ سلطانُها النافذ ، وحَكم الوازعُ النفسىُّ على المادة ؛ فيسمع الغنىُّ فى ضميره صوتَ الفقير يقول : « أعطنى » . ثم لا يسمع منه طلبًا من الرجاء ، بل طلبًا من الأمر لا مفرَّ من تلبيته والاستجابةِ لمعانيه، كما يُواسِى المبتَلَى من كان فى مثل بلائه .

أية معجزةٍ إصلاحية أعجبُ من هذه المعجزة الإسلامية التى تقضى أن يحذَفَ من الإنسانية كلها تاريخُ البطن ثلاثين يومًا فى كل سنة ، ليحلَّ فى محله تاريخُ النفس(١) ؟ وأنا مُستيقِنٌ أن هناك نسبةً رياضيةً هى الحكمة فى جعل هذا الصوم شهراً كاملاً من كل اثنى عشر شهراً ، وأن هذه النسبةَ متحقِّقةٌ فى أعمال النفس للجسم ، وأعمالِ الجسم للنفس ؛ كأنه الشهرُ الصِّحىُّ الذى يفرضه الطبُّ فى كل سنة للراحة والاستجمام وتغييرِ المعيشة ، لإحداثِ الترميم العصبىّ فى الجسم ، ولعل ذلك آتٍ من العلاقة بين دَوْرة الدم فى الجسم

---

(١) أفسد ضعف النفوس هذا المعنى ، فما يحقق الناس (تاريخ البطن) كما يحققونه فى شهر رمضان ، وهم يعوضون البطن فى الليل ما منعوه فى النهار ، حتى جعلوا الصوم تغييراً لمواعيد الأكل . . . ولكن الصوم على ذلك لم يحرمهم فوائده .

الإنسانى وبين القمر منذ يكون هلالاً إلى أن يدخل فى المُحاق ؛ إذ تنتفخ العروقُ وتربو فى النصف الأول من الشهر ، كأنها فى (مَدّ) من نور القمر ما دام هذا النورُ إلى زيادة ، ثم يراجعُها (الجَزْرُ) فى النصف الثانى حتى كأن للدم إضاءةً وظلاماً . وإذا ثبت أن للقمر أثراً فى الأمراض العصبية ، وفى مدّ الدم وجَزرِه(١) ، فهذا من أعجب الحكمة فى أن يكونَ الصيامُ شهراً قمرياً دون غيره .

وفى ترائى الهلالِ ووجوبِ الصومِ لرؤيته معنى دقيقٌ آخر ، وهو — مع إثبات رؤية الهلالِ وإعلانِها — إثباتُ الإرادة وإعلانُها ، كأنما انبعث أَولُ الشعاع السماوى فى التنبيه الإنسانى العامّ لفروض الرحمة والإنسانية والبرّ .

وهنا حكمة كبيرة من حِكَم الصوم ، وهى عملُه فى تربية الإرادة وتقويتها بهذا الأسلوب العمليّ ، الذى يُدَرِّبُ الصائم على أن يمتنع باختياره من شهواته ولذّةِ حيوانيته ، مُصِرّاً على الامتناع ، متَهيّئاً له بعزيمته ، صابراً عليه بأخلاق الصبر ، مزاوِلاً فى كل ذلك أفضلَ طريقةٍ نفسيةٍ لاكتساب الفكرة الثابتةِ ترسَخُ لا تتغيَّر ولا تتحوَّل ، ولا تعدو عليها عوادى الغريزة .

وإدراكُ هذه القوة من الإرادة العملية منزلةٌ اجتماعية سامية ، هى فى الإنسانية فوق منزلة الذكاء والعلم ، فى هذين تَعرض الفكرةُ مارّةً مُرورَها ، ولكنها فى الإرادة تعرِض لتستقرّ وتتحقَّق . فانظر فى أى قانون من القوانين ، وفى أية أمة من الأمم ، تجد ثلاثين يوماً من كل سنة قد فُرِضت فرضاً لتربية إرادة الشعب ومزاولتِه فكرةً نفسيّةً واحدةً بخصائصها وملابساتها حتى تستقرّ وترسخ وتعودَ جزءاً من عمل الإنسان ، لا خيالاً يمرُّ برأسه مَرّاً .

أليست هذه هى إتاحةَ الفرصةِ العمليةِ التى جعلوها أساساً فى تكوين الإرادة ؟ وهل تبلغ الإرادةُ فيما تبلغ ، أعلى من منزلتها حين تجعل شهواتِ المرء مُذْعنَةً لفكرهِ ، منقادةً للوازع النفسىّ فيه ، مُصَرَّفَةً بالحسّ الدينىّ المسيطرِ على النفس ومشاعرِها .

---

(١) قال الجاحظ فى (الحيوان) : « ولزيادة القمر حتى يصير بدراً ، أثر بين فى زيادة الدماء والأدمغة وجميع الرطوبات » .

أما والله لو عمَّ هذا الصومُ الإسلاميُّ أهلَ الأرض جميعًا ، لآلَ معناه ن يكون إجماعا من الإنسانية كلها على إعلان الثورة شهراً كاملاً فى السنة ، لتطهير العالم من رذائله وفساده ، ومَحْقِ الأثَرَة والبخلِ فيه ، وطَرْحِ المسألةِ النفسية ليتدارسَها أهلُ الأرض دراسةً عمليةً مدةَ هذا الشهر بطوله ، فيَهبطُ كلُّ رجُلٍ وكلُّ امرَة إلى أعماق نفسه ومكامنِها ، ليختبرَ فى مصنع فكرِه معنى الحاجة ومعنى الفقر ، وليفهمَ فى طبيعة جسمه — لا فى الكتب — معانىَ الصبرِ والثبات والإرادة ، وليبلغَ من ذلك وذلك درجاتِ الإنسانية والمواساة والإحسان ؛ فيُحقِّق بهذه وتلك معانىَ الإخاء والحرية والمساواة .

شهرٌ هو أيامٌ قلبيَّةٌ فى الزمن ؛ متى أشرفَتْ على الدنيا قال الزمنُ لأهله : هذه أيامٌ من أنفسِكم لا من أيامى ، ومن طبيعتكم لا من طبيعتى ؛ فيُقْبِلُ العالَمُ كلُّه على حالةٍ نفسيةٍ بالغةِ السموّ ، يتعهَّدُ فيها النفسَ برياضتها على معالى الأمور ومكارمِ الأخلاق ، ويفهم الحياةَ على وجه آخر غيرِ وجهها الكالح ، ويراها كأنما أجيعَتْ من طعامها اليومىّ كما جاع هو ، وكأنما أفْرِغَتْ من خَسائسِها وشهواتها كما فرَغَ هو ، وكأنما أُلْزِمَتْ معانىَ التقوى كما أُلْزِمَها هو . وما أجملَ وأبدع أن تَظهَرَ الحياةُ فى العالمَ كله — ولو يومًا واحداً — حاملةً فى يدها السُّبْحة . . . ! فكيف بها على ذلك شهراً من كل سنة ؟

إنها والله طريقةٌ عملية لرسوخ فكرةِ الخير والحق فى النفس ؛ وتطهيرِ الاجتماع من خسائس العقل المادىّ ؛ ورد هذه الطبيعة الحيوانيةِ المحكومةِ فى ظاهرها بالقوانين ، والمحرَّرةِ من القوانينِ فى باطنها — إلى قانونٍ من باطنها نفسِه يُطهِّرُ مَشاعرَها ، ويسمو بإحساسها ، ويَصْرِفُها إلى معانى إنسانيتها ، ويُهذِّب من زياداتها ، ويحذف كثيراً من فُضُولها ، حتى يرجعَ بها إلى نحوٍ من بَراءة الطفولة ، فيجعلَها صافيةً مُشْرِقةً بما يجتذبُ إليها من معانى الخير والصفاء والإشراق ؛ إذ كان من عمل الفكرة الثابتةِ فى النفس أن تدعوَ إليها ما يلائمها ويتصلُ بطبيعتها من الفِكَرِ الأخرى . والنفسُ فى هذا الشهر مُحتَبَسَةٌ فى فكرة الخير وحدها ، فهى تبنى بناءَها من ذلك ما استطاعت .

هذا على الحقيقة ليس شهراً من الأشهر ، بل هو فصلٌ نَفسانىٌّ كفصول

الطبيعة فى دَوَرَانها ؛ ولَهُوَ والله أشبهُ بفصلِ الشتاء فى حلوله على الدنيا بالجوّ الذى من طبيعته السحُبُ والغَيث ، ومن عمله إمدادُ الحياة بوسائلَ لها ما بعدها إلى آخر السنة ، ومن رياضته أن يكسبها الصلابةَ والانكماشَ والخفّة ، ومن غايته إعدادُ الطبيعةِ للتفتّح عن جمالِ باطنها فى الربيع الذى يتلوه .

وعجيبٌ جدًّا أن هذا الشهرَ الذى يدّخر فيه الجسمُ من قواه المعنوية فيُودِعها مَصْرِفَ روحانيَّته ، ليجدَ منها عند الشدائد مَدَدَ الصبر والثبات والعزم والجلَد والخشونة — عجيبٌ جدًّا أن هذا الشهرَ الاقتصاديَّ هو من أيام السنة كفائدة ٨ ١/٣ فى المائة . . . فكأنه يسجّلُ فى أعصاب المؤمن حسابَ قوّته وربحه فله فى كل سنة زيادة ٨ ١/٣ من قوّته المعنوية الرُّوحانية .

وسحرُ العظائم فى هذه الدنيا إنما يكون فى الأمة التى تعرف كيف تدّخر هذه القوّة وتوفّرها لتستمدّها عند الحاجة ، وذلك هو سِرُّ أسلافنا الأولين الذين كانوا يجدون على الفقر فى دمائهم وأعصابهم ما تجدُ الجيوشُ العظمى اليوم فى مخازن العَتَاد والأسلحةِ والذخيرة .

* * *

كلُّ ما ذكرتُه فى هذا المقال من فلسفة الصوم ؛ فإنما استخرجتُه من هذه الآية الكريمة : « كُتِبَ عليكم الصيامُ كما كُتِبَ على الذين مِن قَبْلِكم ، لعلّكم تتّقُون » . وقد فهمها العلماء جميعًا على أنها معنى « التقوى » ، أما أنا فأوّلْتُها من « الاتّقاء » ؛ فبالصوم يتّقى المرءُ على نفسه أن يكونَ كالحيوان الذى شريعتُه مَعِدَتُه ، وألّا يُعامِلَ الدنيا إلا بمواد هذه الشريعة ؛ ويتّقى المجتمعُ على إنسانيَّته وطبيعته مثلَ ذلك ، فلا يكون إنسانٌ مع إنسانٍ كحمارٍ مع إنسانٍ : يبيعه القوّةَ كلَّها بالقليل من العَلَف .

وبالصوم يتّقى هذا وهذا ما بين يديه وما خلفه ، فإن ما بين يديه هو الحاضرُ من طباعه وأخلاقه ، وما خلْفَه هو الجيلُ الذى سيرثُ من هذه الطبّاع والأخلاق ، فيعمل بنفسه فى الحاضر ، ويعمل بالحاضر فى الآتى (١).

(١) يفسر القرآن بعضه بعضاً ، ومن معجزاته فى هذا التأويل الذى استخرجناه أنه يؤيده بالآية الكريمة فى سورة (يس) : « وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون ... » =

وكلٌّ ماشرحناه فهو اتقاءُ ضررٍ لجلْبِ منفعة ، واتقاءُ رذيلةٍ لجلب فضيلة ؛ وبهذا التأويل تتوجَّه الآيةُ الكريمةُ جهةً فلسفيةً عاليةً ، لاً يأتى البيانُ ولا العلمُ ولا الفلسفةُ بأوجزَ ولا أكملَ من لفظها ؛ ويتوجَّهُ الصيامُ على أنه شريعة اجتماعيةٌ إنسانيةٌ عامة ؛ يتَّقى بها الاجتماعُ شرورَ نفسه ؛ولن يتهذّبَ العالَم إلا إذا كان له مع القوانين النافذةِ هذا القانونُ العام الذى اسمُه الصومُ ، ومعناه « قانونُ البطن » . . . .

ألا ما أعظمَكَ يا شهرَ رمضان ! لو عرَفَكَ العالَمُ حقَّ معرفتِك لسَمَّاكَ : « مدرسة الثلاثين يومًا » .

= ويشير إلى هذا التأويل قول النبى (صلى الله عليه وسلم) : « إنما الصوم جنة (بضم الجيم) فإذا كان أحدكم صائماً فلا يرفث ولا يجهل ، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل: إنى صائم ، وإنى صائم ».

الجنة الوقاية يتقى بها الإنسان، والمراد أن يعتقد الصائم أنه قد صام ليتقى شر حيوانيته وحواسه ، فقوله : « إنى صائم ، إنى صائم » ؛ أى إننى غائب عن الفحش والجهل والشر ؛ إنى فى نفسى ولست فى حيوانيتى .

ثبات الأخلاق

لو أنني سُئلتُ أن أجمل فلسفةَ الدينِ الإسلاميّ كلّها فى لفظين ، لقلتُ: إنها ثباتُ الأخلاق » ولو سُئل أكبرُ فلاسفة الدنيا أن يُوجِزَ علاجَ الإنسانية كلّه فى حرفين ، لما زاد على القول : إنه ثباتُ الأخلاق . ولو اجتمع كلُّ علماء أوربا ليدرسوا المدنية الأوربيةَ ويَحصُرُوا مايُعْوِزُها فى كلمتين لقالوا : ثباتُ الأخلاق .

فليس ينتظرُ العالَمُ أنبياءَ ولا فلاسفةً ولا مصلحين ولا علماء يُبدعون له بِدْعا جديداً ؛ وإنما هو يترقّب من يستطيع أن يفسرَ له الإسلامَ هذا التفسير ، ويُثبِتَ للدنيا أن كلَّ العبادات الإسلامية هى وسائلُ عمليةٌ تمنع الأخلاقَ الإنسانية أن تتبدّلَ فى الحيّ فيخلعَ منها ويَلبَسَ ، إذا تبدلتْ أحوالُ الحياة فصعِدَت بإنسانها أو نزلت ؛ وأن الإسلام يأبَى على كل مسلم أن يكونَ إنسانَ حالته التى هو فيها من الثروة أو العلوم ، ومن الارتفاع أو الضَّعَة ، ومن خمولِ المنزلة أو نَباهتِها ؛ ويوجبُ على كل مسلم أن يكون إنسانَ الدرجة التى انتهى إليها الكونُ فى سموّه وكماله، وفى تقلّبهِ على مَنازلهِ بعد أن صُفّى فى شريعةٍ بعد شريعة ، وتجربة بعد تجربة ، وعلم بعد علم .

انتهت المدنيةُ إلى تبدُّل الأخلاق بتبدُّل أحْوال الحياة ، فمن كان تقيًّا على الفقر والأملاق وحَرّمه الإعسارُ فُنونَ اللذة ، ثم أيسرَ من بعدُ ؛ جاز له أن يكونَ فاجراً على الغِنى وأن يتسمّحَ لفُجوره على مَدّ ما يتطوّحُ به المال ، وإن أصبح فى كل دينار من ماله شقاءُ نفسٍ إنسانيةٍ أوفسادُها .

ومن وُلد فى بطن كُوخ ، أو على ظَهرِ الطريق ، وجب أن يبقى أرضًا إنسانية ؛ كأن الله (سبحانه) لم يَبْنِ من عظامه ولحمِه وأعصابهِ إلا خَرِبةً آدميةً من غير هندسة ولا نظام ولا فن . . . ثم يقابله مَن وُلِدَ فى القصر أو شِبهِ القصر فله حكم آخر ، كأنّ اللهَ (سبحانَه) قد ركّب من عظمه ودمه وتكوينهِ آيةً هندسية وأعجوبةَ فنٍّ ، وطُرْفَةً تدبير ، وشيئًا مع شىء، وطبقةً على طبقة .

ولكن الإسلام يقرر ثَبَاتَ الخلُق ويوجبه ويُنشئ النفسَ عليه ، ويجعله في حياطة المجتمع وحراسته ، لأن هناك حدوداً في الإنسانية تتميز بحدود في الحياة ، ولا بد من الضبط في هذه وهذه ، حتى لا يكونَ وَضْعٌ إلا وراءه تقدير ، ولا تقديرٌ إلا معه حكمة ، ولا حكمةٌ إلا فيها مصلحة ؛ وحتى لا تعلوَ الحياةُ ولا تنزلَ إلا بمثل ما ترى من كِفَّتَيْ ميزان شُدَّتا في عَلاقَة تجمعهما وتحرِّكهما معًا ، فهي بذاتها هي التي تنزلُ بالمنازل لتَدُلَّ عليه ، وتَشيلُ بالعالي لتبين عنه ؛ فالإسلامُ من المدنية هو مدنيةُ هذه المدنية .

* * *

إنها لن تتغيرَ مادةُ العظم واللحم والدم في الإنسان فهي ثابتةٌ مقدَّرةٌ عليه ، ولن تتبدلَ السُّنَنُ الإلهيةُ التي تُوجدها وتُفنيها فهي مُصرَّفة لها قاضيةٌ عليها ؛ وبين عمل هذه المادة وعمل قانونها فيها تكونُ أسرارُ التكوين : وفي هذه الأسرار تجد تاريخَ الإنسانية كلَّه سابحًا في الدم .

هي الغرائز تعمل في الإنسانية عمَلَها الإلهي ، وهي محدَّدةٌ محكَمةٌ على ما يكونُ من تَعاديها واختلافِ بينها ، وكأنها خُلقت بمجموعها لمجموعها ؛ ومن ثَمَّ يكون الخُلق الصحيحُ في معناه قانونًا إلهيًّا على قوة كقوة الكون وضبط كضبطه .

وبهذه القوة وهذا الضبطِ يستطيع الخلُق أن يحوِّلَ المادة التي تعارضه إذا هو اشتدَّ وصَلُب ، ولكنه يتحولُ معها إذا هو لانَ أو ضعُف . فهو قَدَرٌ إلا أنه في طاعتك ، إذ هو قوةُ الفَصْل بين إنسانيتك وحيوانيتك ، كما أنه قوةُ المَزْج بينهما ، كما أنه قوةُ التعديل فيهما ، وقد سُوِّغَ القُدرةَ على هذه الأحوال جميعًا ، ولولا أنه بهذه المثابة لعاش الإنسانُ طولَ التاريخ قبل التاريخ ، إذ لن يكونَ له حينئذ كَوْنٌ تؤرِّخُ فضائلَه أو رذائلَه بمدح أو دم .

فلا عِبرة بمظْهر الحياة في الفرد ، إذ الفردُ مقيدٌ في ذات نفسه بمجموع هو للمجموع وليس له وحده : فإنك ترى الغرائزَ دائبةً في إيجاد هذا الفرد لنوعه بسُنَن من أعمالها ، ودائبةً كذلك في إهلاكه في النوع نفسه بسُنَن أخرى ؛ فليس قانونُ الفرد إلا أمراً عارضًا كما ترى ؛ وبهذا يمكن أن يتحولَ الفردُ على أسباب مختلفة ، ثم تبقى الأخلاقُ التي بينه وبين المجموع ثابتةً على صورتها .

فالأخلاقُ على أنها فى الأفراد ، هى فى حقيقتها حُكْمُ المجتمع على أفراده ؛ فقِوامها بالاعتبار الاجتماعىّ لا غير .

* * *

وحين يقع الفسادُ فى المُجْتَمَع عليه من آداب الناس ، ويلْتوى ما كان مستقيماً ، وتَشْتَبِهُ العاليةُ والسافلة ، وتُطَّرَحُ المبالاةُ بالضمير الاجتماعى ، ويقومُ وزنُ الحكم فى اجتماعهم على القبيح والمنكَر ، وتجرى العِبْرةُ فيما يعتبرونه بالرذائل والمحرَّمات ، ولا يُعجِبُ الناسَ إلا ما يفسِدهم ، ويقع ذلك منهم بموقع القانون ويَحِلُّ فى محل العادة ؛ فهناك لامِساكَ للخُلُقِ السليم على فرد ، ولا بد من تحوُّل الفرد فى حقيقته؛ إذ كان لا يجىء أبداً إلا مُتَصدِّعاً فى كل مظاهره الاجتماعية ، فأينما وقع من أعمال الناس جاء مكسوراً أو مثْلوماً ، وكأنه منتقِلٌ من عالَم إلى عالمٍ ثانٍ بغير نواميسِ الأول .

وما شذَّ من هذه القاعدة إلا الأنبياء وأفرادٌ من الحكماء ؛ فأما أولئك فهم قوةُ التحويل فى تاريخ الإنسانية : لا يُبعَثُ أحدُهم إلا ليهَيِّجَ به الهَيْجُ فى التاريخ ، ويَتطرَّقَ به الناسُ إلى سُبُل جديدة كأنما تطردهم إليها العواصفُ والزلازلُ والبراكينُ ، لا شريعتُه ومبادئُه وآدابه ؛ وأما الحكماءُ الناضجون فهم دائماً فى هذه الإنسانيةِ أمكنةٌ بشريةٌ مُحصَّنَة لحفظ كنوزها وإحرازِها فى أنفسهم ، فلهم فى ذاتِ أنفسهم عصْمةٌ ومَنَعَة كالجبال فى ذات الأرض .

* * *

الأخلاقُ فى رأيى هى الطريقة لتنظيم الشخصية الفَردةِ على مقتضى الواجبات العامة ، فالإصلاحُ فيها إنما يكونُ من عمل هذه الواجبات ، أى من ناحية المجتمع والقائمين على حُكمه . وعندى أن للشعب ظاهراً وباطناً ؛ فباطنُه هو الدينُ الذى يحكم الفردَ ، وظاهرُه هو القانونُ الذى يحكم الجميع ، ولن يصلُحَ للباطن المتصل بالغيب إلا ذلك الحكمُ الدينىُّ المتصِلُ بالغيب مثلَه ؛ ومن هنا تتبيَّنُ مواضعُ الاحتلالِ فى المَدنية الأوربية الجديدة ؛ فهى فى ظاهر الشعب دون باطنه ، والفردُ فاسِدٌ بها فى ذاتِ نفسه إذا هو تحلَّل من الدين ، ولكنه مع ذلك يبدو صالحاً منتظماً فى ظاهره الاجتماعىّ بالقوانين وبالآداب العامة التى

تفرضُها القوانين ، فلا يبرحُ هازئًا من الأخلاق ساخراً بها ؛ لأنها غير ثابتة فيه ، ثم لا تكون عنده أخلاقًا يعتقدُ بها إلا إذا درَّتْ بها منافعُه ، وإلا فهى ضارَّةٌ إذا كانت منها مَضَرَّة ، وهى مؤلمة إذا حالتْ دون اللذات . ولا ينفكُّ هذا الفردُ يتحول لأنه مطلَقٌ فى باطنه غيرُ مقيَّد إلا بأهوائه ونزعاته، وكلمتا الفضيلة والرذيلة معدومتان فى لغة الأهواء والنزَعات ؛ إذ الغايةُ المتاعُ واللذةُ والنجاحُ ، وليكن السببُ ما هو كائن . . .

وبهذا فلن تقومَ القوانينُ فى أوربا إذا فَنِيَ المؤمنون بالأديان فيها أوكاثَرهم الملحدون ، وهم اليومَ يُبْصِرون بأعينهم ما فعلت عقليةُ الحرب العظمى فى طوائفَ منهم قد خَرَبتْ أنفسهُم من إيمانهم فتحولوا ذلك التحوُّلَ الذى أومأنا إليه ، فإذا أعصابُهم بعدَ الحرب ما تزال محاربةً مقاتِلةً ترمى فى كل شيء برُوح الدم والأشلاء والقبورِ والتعفُّنِ والبِلَى . . . وانتهت الحربُ بين أمم وأمم ، ولكنها بدأت بين أخلاق وأخلاقٍ .

وقديمًا حارب المسلمون ، وفتحوا العالم ، ودوَّخوا الأمم ؛ فأثبتوا فى كل أرضٍ هَدْيَ دينهم وقوةَ أخلاقهم الثابتة ، وكان من وراء أنفسِهم فى الحرب ما هو من ورائها فى السِّلم ؛ وذلك بثباتِ باطنهم الذى لا يتحول ، ولا تستخفُّه الحياةُ بنزَقِها ، ولا تَستفِهُّهُ المدنيَّاتُ فتحملهُ على الطيش .

ولو كانوا هم أهلَ هذه الحرب الأخيرة بكل ما قَذَفَتْ به الدنيا ، لبقيتْ لهم العقليةُ المؤمنةُ القوية ، لأن كلَّ مسلم فإنما هو وعقليتُه فى سلطانِ باطنه الثابتِ القارِّ على حدودٍ بينة مُحصَّلة مقسومة ، تحوطُها وتُمسكها أعمالُ الإيمان التى أحكمها الإسلامُ أشدَّ إحكام بفرْضها على النفوس منوَّعةً مكررةً : كالصلاة والصوم والزكاة ، ليمنعَ بها تغيراً ويُحدِثَ بها تغيراً آخر ، ويجعلَها كالحارسة للإرادة ما تزال تمرُّ بها وتتعهدها بين الساعة والساعة[1].

إنما الظاهرُ والباطنُ كالموج والساحل ؛ فإذا جُنَّ الموجُ فلن يَضيرَه ما بقى الساحلُ ركينًا هادئًا مشدُوداً بأعْضَادِه فى طبقات الأرض . أما إذا ماجَ

---

(١) فصلنا هذا المعنى فى كثير من مقالاتنا : كمقالة (حقيقة المسلم) ، و (فلسفة الصوم) وغيرها .

الساحل . . . فذلك أسلوبٌ آخرُ غير أسلوبِ البحار والأعاصير ؛ ولا جَرَمَ ألا يكونَ إلا خَسْفًا بالأرض والماء وما يتصلُ بهما .

* * *

فى الكون أصلٌ لا يتغير ولا يتبدل ، هو قانونُ ضبط القوة وتصريفها وتوجيهها على مقتضى الحكمة . ويقابلهُ فى الإنسان قانونٌ مثلُه لا بد منه لضبط معانى الإنسان وتصريفها وتوجيهها على مقتضى الكمال . وكلُّ فروض الدين الإسلامىّ وواجباته وآدابه ، إنْ هى إلا حركةُ هذا القانون فى عمله ؛ فما تلك إلا طُرُقٌ ثابتة لخَلْق الحسّ الأدبى ، وتثبيته بالتكرار ، وإدخاله فى ناموس طبيعىٍّ بإجرائه فى الأنفُس مَجرى العادة ، وجعلهِ بكل ذلك قوةً فى باطنها ، فتُسمَّى الواجباتُ والآدابُ فروضًا دينيَّةً ؛ وما هى فى الواقع إلا عناصرُ تكوين النفس العالية ، وتكون أوامرَ وهى حقائق(١) .

ومن ذلك أرانا نحن الشرقيين نمتاز على الأوربيين بأننا أقربُ منهم إلى قوانين الكون ؛ ففى أنفسنا ضوابطُ قويةٌ متينة إذا نحن أقررنا مدينتَهم فيها — وهى بطبيعتها لا تقبلُ إلا محاسنَ هذه المدنية — سبقناهم وتركنا غبارَ أقدامنا فى وجوههم ، وكنا الطبقةَ المُصَفَّاةَ التى يَنْشُدونها فى إنسانيتهم الراهنة ولا يجدونها ، ونمتازُ عنهم من جهة أخرى بأننا لم نُنْشِئْ هذه المدنيةَ ولم تنشئنا ، فليس حقًّا علينا أن نأخذَ سيئاتِها فى حسناتها ، وحماقتَها فى حكمتها ، وتزويرَها فى حقيقتها ؛ وأن نُسيغَ منها الُحلوةَ والمرَّة ، والناضجة والفجَّة ؛ وإنما نحن نُحَصِّلها ونقتبسها ونَرتَجعُ منها الرَّجْعَةَ الحسنةَ ؛ فلا نأخذُ إلا الشىء الصالح مكانَ الشىء قد كان دونه عندنا ونَدَعُ ما سوى ذلك ؛ ثم لا نأخذ ولا نَدَعُ إلا على الأصول الضابطةِ المحكمة فى أدياننا وآدابنا ؛ ولسنا مثلَهم متصلين من حاضر مدنيتهم بمثل ماضيهم ، بَيْدَ أن العجَبَ الذى ما يفرغُ عَجَبى منه ، أن الموسومين منا بالتجديد لا يحاولون أولَ وَهْلةٍ وآخرَها إلا

(١) هذا هو الذى ضل عنه مصطفى كمال ومن شايعوه ، ومن قلدوه ، ومن انخدعوا فيه ، ولو فهمه حق الفهم لجدد تركيا وجدد العالم الإسلامى كله ، ولكن الرجل غريب عن هذه المعانى قصير النظر ، فما زاد على أن جدد ثوباً وقبعة . . . !

هدمَ تلك الضوابط التى هى كلٌّ ما نمتازُ به ، والتى هى كذلك كلٌّ ما تحتاج إليه أوربا لضبط مدنيتها ؛ ويسمون ذلك تجديداً ، ولَهُوَ بأن يسمى حماقةً وجَهلاً أولى وأحق .

أقول ولا أبالى : إننا ابتلينا فى نهضتنا هذه بقوم من المترجمين قد احترفوا النقلَ من لغات أوربا ، ولا عقلَ إلا عقلُ ما ينقلونه : فَصَنَعَتْهم الترجمةُ من حيثُ يدرون أو لا يدرون صنعةَ تقليد مَحْضٍ ومُتَابَعَة مُسْتعبَدَة ، وأصبح عقلُهم — بحكم العادة والطبيعة — إذا فكّر انجذب إلى ذلك الأصلِ لا يخرجُ عليه ولا يتحولُ عنه . وإذا صح أن أعمالنا هى التى تَعملُنا — كما يقول بعضُ الحكماء — فهم بذلك خَطَرٌ أيُّ خطر على الشعب وقوميته وذاتيته وخصائصِه ، ويُوشِكُ إذا هو أطاعهم إلى كل ما يدعُون إليه أن ... أن يترجموه إلى شعبٍ آخر . . .

* * *

إن أوربا ومدنيتَها لا تساوى عندنا شيئًا إلا بمقدار ما تُحقق فينا من اتساع الذاتيةِ بعلومها وفنونها ، فإنما الذاتيةُ وحدها هى أساسُ قوّتنا فى النزاع العالمىِّ بكل مظاهره أيّها كان ؛ ولها وحدَها ، وباعتبارٍ منها دون سواها ، نأخذ ما نأخذه من مدنية أوربا ونُهمل ما نهمل ؛ ولا يجوز أن نتركَ التثبتَ فى هذا ولا أن نتسامَحَ فى دقةِ المحاسَبة عليه .

فالمحافظةُ على الضوابط الإنسانية القوية التى هى مظاهرُ الأديان فينا ، ثم إدخالُ الواجبات الاجتماعية الحديثةِ فى هذه الضوابط لربطها بالعصر وحضارته ، ثم تنسيقُ مظهرِ الأمة على مقتضى هذه الواجباتِ والضوابط ، ثم العملُ على اتحادِ المشاعر وتمازُجِها لتقويم هذا المظهر الشعبىّ فى جملته بتقويم أجزائه — **هذه هى الأركانُ الأربعة التى لا يقوم على غيرها بناءُ الشرق .**

والإلحادُ والنزَعاتُ السافلة وتخانيثُ المدنية الأوربية التى لا عملَ لها إلا أن تُظْهِرَ الخَطَرَ فى أجمل أشكاله . . . . ، ثم الجهلُ بعلوم القوة الحديثة وبأصول التدبير وحياطة الاجتماع وما جرى هذا المجرى ، ثم التدليسُ على الأمة

بآراء المقلِّدين والزائفين والمستعمِرين لمحْقِ الأخلاقِ الشعبية القوية وما اتصل بذلك ، ثم التخاذلُ والشقاقُ وتدابُرُ الطوائف وما كان بسبيلها — تلك هى المَعاوِلُ الأربعةُ التى لا يَهدم غيرُها بناءَ الشرق .

فليكن دائمًا شعارُنا نحن الشرقيين هذه الكلمة : أخلاقُنا قبل مدنيتهم .

قلت لنفسي . . .
وقالت لى . . .[١]

قلتُ لنفسي : ويحكِ يا نفسُ ! مالى أتحامَلُ عليكِ ؛ فإذا وفَيْتِ بما فى وُسْعِكِ أردتُ منكِ ما فوقه وكلَّفتُكِ أن تَسْعَى ؛ فلا أزال أُعْنِتُكِ من بعدِ كمالٍ فيما هو أكملُ منه ، وبعدَ الحَسَنِ فيما هو الأحسن ؛ وما أنفكُّ أجْهَدُكِ كلَّما راجَعَكِ النشاط ، وأُضنيكِ كلما ثابَتِ القوّة ؛ فإن تكن لكِ همومٌ فأنا أكبَرُها ، وإذا ساوَرَتْكِ الأحزانُ فأكثرها مما أجلِبُ عليكِ .

أنت يانفسُ سائرةٌ على النَّهْج ، وأنا أعتَسِفُ بكِ أُريد الطيرانَ لا السَّير ، وأبتغى عملَ الأعمار فى عُمْر ، وأستَحِثُّكِ من كل هَجْعَةِ راحة بفجرِ تعبٍ جديد ، وكأنى لكِ زَمنٌ يُمادُّ بعضُه بعضًا ، فما يبرحُ ينبثقُ عليكِ من ظلام بنور ومن نورٍ بظلامٍ ؛ ليُهَيِّئَ لكِ القوّةَ التى تمتدُّ بكِ فى التاريخ من بَعدُ ، فتذهبين حين تذهبين ويعيشُ قلبُكِ فى العالَم ساريًا بكلماتِ أفراحِه وأحزانِه .

وقالتْ لى النفس : أمَّا أنا فإنى معكَ دَأبًا كالحبيبة الوفيَّة لمن تُحبُّهُ : ترى خضوعَها أحيانًا هو أحسنَ المقاوَمة ؛ وأما أنتَ فإذا لم تكن تتعبُ ولا تزالُ تتعب فكيف تُرينى أنك تتقدَّمُ ولا تزالُ تتقدَّم ؟

ليستْ دُنياكَ يا صاحبي ما تجدُه من غيرك ، بل ما تُوجِده بنفسك ؛ فإن لم تَزِدْ شيئًا على الدنيا كنتَ أنتَ زائداً على الدنيا ؛ وإن لم تَدَعْها أحسنَ مما وجدْتَها فقد وجدْتَها وما وَجَدَتْكَ ؛ وفى نفسكَ أولُ حدودِ دُنياكَ وآخِرُ حدودها . وقد تكون دنيا بعض الناس حانوتًا صغيراً ، ودُنيا الآخَرِ كالقَرْيةِ المُسْتَلْمَةِ[٢] ، ودنيا بعضِهم كالمدينة الكبيرة ؛ أما دنيا العظيم فقارَّةٌ بأكملها ، وإذا امرؤٌ امتدَّ فى الدنيا فكان هو الدنيا .

---

(١) كتبت فى ساعة ضجر ، من هذه الساعات الطارئة على الروح ، يخيل للمرء فيها أنه هو وحده والعالم كله وحده ؛ ذاك فى وجود نفسه خاصة ، والآخر فى وجود الطبيعة كلها .

(٢) أى الصغيرة تقوم بالدور القليلة المجتمعة .

والقوّةُ يا صاحبي تَغتذى بالتَعب والمُعَاناة ؛ فما عانيتَه اليومَ حركةً من جسمك ، ألفَيْتَه غداً فى جسمك قوةً من قُوَى اللحم والدم . وساعةُ الراحة بعد أيام من التعب ، هى فى لذّتها كأيام من الراحة بعد تعب ساعة . وما أشبهَ الحيَّ فى هذه الدنيا وشَكْكِ انقطاعه منها ، بمَنْ خُلِق ليعيشَ ثلاثةَ أيامٍ معدودةً عليه ساعاتُها ودقائقُها وثوانيها ؛ أفتَراه يَغْفُل فيُقَدِّرُها ثلاثةَ أعوام ، ويذهبُ يُسرِفُ فيها ضُرُوبًا من لَهْوِهِ ولعِبِه ومُجونِه ، إلا إذا كان أحمقَ أحمقَ إلى نهاية الحُمْق ؟

اتعَبْ تعبَكَ يا صاحبي ، ففى الناس تَعَبٌ مخلوقٌ من عمله، فهو ليِّنٌ هيِّنٌ مُسَوَّى تسويةً ؛ وفيهم تَعَبٌ خالقٌ عملَه، فهو جبَّارٌ متمرد له القَهرُ والغَلَبة . وأنتَ إنما تكدُّ لتسموَ بروحِك إلى همومِ الحقيقة العالية ، وتسموَ بجسمك إلى مشقات الرُّوح العظيمة ؛ لذلك يا صاحبي ليس تعبًا فى حفْرِ الأرض ، ولكنه تعبٌ فى حَفر الكنز .

اتعبْ يا صاحبي تعبَكَ ؛ فإن عَنَاء الروح هو عُمرُها ؛ فأعمالُك عُمْرُكَ الرُّوحانيُّ ، كعُمر الجسم للجسم ؛ وأحدُ هذين عُمْرُ ما يعيش ، والآخر عُمْرُ ما سيعيش .

* * *

قلتُ لنفسي : فقد مللْتُ أشياءَ وتبرَّمْتُ بأشياء . وإن عَمَلَ التغيير فى الدنيا لَهُوَ هَدْمٌ لها كلما بُنيتْ، ثم بِناؤُها كلما هُدِمتْ ؛ فما من شىء إلا هو قائم فى الساعة الواحدةِ بصورتين معًا ؛ وكم من صديق خلطْتُه بالنفْس يذهبُ فيها ذَهابَ الماء فى الماء، حتى إذا مرَّ يومٌ ، أو عَهْدٌ كاليوم ، رأيتُ فى مكانه إنسانًا خياليًّا كمسألة من مسائل النُّحاة فيها قَولان . . . ! فهو يَحتمل فى وقتٍ واحد تأويلَ ما أظنُّ به من خير ، وما أتوقَّع به من شرّ ! وكم من اسمٍ جميلٍ إذا هَجَس فى خاطرى قلتُ : آه ، هذا الذى كان . . . !

أمَا واللهِ إن ثيابَ الناس لَتجعلُهم أكثرَ تشابُهًا فى رأى النفس ، مما تجعلهم وجوهُهم التى لا تختلف فى رأى العين : وإنى لأرى العالَم أحيانًا كالقِطار السريع منطلِقًا برَكْبه وليس فيه مَن يقوده، وأرى الغفلةَ المُفْرِطةَ

قد بلغت من هذا الناس مبلغَ من يظن أنه حيٌّ في الحياة كالموظَّف تحت التجربة ، فإذا قضى المدة قيل له : ابدأ من الآن . كأنه إذا عاش يتعلَّم الخيرَ والشرَّ ، ويدركُ ما يَصْلُح وما لا يصلح ، وانتهى من عمره إلى النهاية المحدودة — رَجَعَ من بعدها يعيش منتظماً على استواء واستقامة ، وفي إدراكٍ وتمييز . مع أن الخرافةَ نفسَها لم تقبل قطّ أن يُعَدّ منها في أوهام الحياة أن رجلاً بلغ الثمانين أو التسعين وحانَ أجلُه فأصبحوا لم يجدوه ميتاً في فراشه ؛ بل وجدوه مولوداً في فراشه ...!

وقالتْ لي النفسُ : وأنت ما شأنُكَ بالناس والعالَم ؟ يا هذا ليس لمصباح الطريق أن يقولَ : « إن الطريقَ مظلم » . إنما قولُه إذا أراد كلاماً أن يقولُ : « هأنذا مُضيء » .

والحكيم لا يَضْجَرُ ولا يَضيقُ ولا يَتَمَلْمَل ، كما أنه لا يَسْتَخِفُّ ولا يَطِيشُ ولا يَسْتَرْسِلُ في كَذِب الوهم ؛ فإن هذا كلّه أثرُ الحياةِ البهيميَّة في هذه البهيمة الإنسانية ، لا أثرُ الروح القويَّةِ في إنسانها . والحيوانُ هو الذى يجوعُ ويشبع لا النفسُ . وبين كل شيئين مما يَعْتَوِرُ الحيوانيةَ — كالخلوّ والامتلاء ، واللذة والألم — تعمل قُوَى الحيوان أشياءَها الكثيرة التي تتسلَّط بها على النفس ، لتحُطَّها من مرتبة إلى أن تجعلَها كنفوس الحيوان ؛ ولهذا كان أولُ الحكمة ضَبطَ الأدوات الحيوانية في الجسم ، كما توضَع اليدُ العالمةُ على مفاتيح القِطار المنطلِق يَتَسَعَّر مِرْجلُه ويغْلِي .

اعملْ يا صاحبي عملَكَ ؛ فإذا رأيت في العاملين من يَضْجَرُ فلا تضجرْ مثلَه ، بل خذ اطمئنانَه إلى اطمئنانك ، ودَعه يخلو وتَضَاعَفْ أنت .

إنه ليُوشِكُ أن يكونَ في الناس ناسٌ (كالبُنوك) ؛ هذه مُسْتَوْدَعَات للمال تحفظه وتُخرِج منه وتُثَمِّرُه ، وتلك مستودَعاتٌ للفضائل تحفظها وتخرج منها وتَزيدها . وإفلاسُ رجلٍ من أهل المال ، هو إطلاقُ النكبةِ مُسَدَّسَها على رجل تقتله ؛ ولكن إفلاس (بنكٍ) هو إطلاقُ النكبةِ مِدفَعَها الكبير على مدينةٍ تُدَمرها .

* * *

قلت لنفسي : فما أشدَّ الألَمَ في تحويل هذا الجسد إلى شِبْهِ رُوحٍ مع

الروح ! تلك هى المعجزةُ التى لا توجَد فى غير الأنبياء ، ولكنّ العملَ لها يجعلها كأنها موجودة . والأسد المحبوسُ محبوسةٌ فيه قُوّتُه وطباعُه ؛ فإن زال الوجودُ الحديدىُّ من حوله أو وَهَنَت ناحيةٌ منه ، انطلق الوحش . والرجل الفاضلُ فاضلٌ ما دام فى قَفَصِه الفكرىّ ، وهو ما دام فى هذا القفص فعليه أن يكونَ دائمًا نَموذَجًا معروضًا للتنقيح الممكن فى النفس الإنسانية : تُصيبُه السيئةُ من الناس لتختبرَ فيه الحسنة ، وتباوه الخيانةُ لتجدَ الوفاء ، ويَكْرُثُه البُغضُ ليقابله بالحب ، وتأتيه اللعنةُ لتجدَ المغفِرة ؛ وله قلب لا يتعبُ فيبلغُ منزلةً إلا ابتدأ التعبَ ليبلغ منزلةً أعلى منها ، وله فكر كلّما جَهَد فأدركَ حقيقةً كانت الحقيقةُ أن يَجهد فيدركَ غيرها .

وقالت لى النفْس : إن مَن فاق الناسَ بنفسه الكبيرة كانت عَظَمتُه فى أن يفوقَ نفسَه الكبيرة ؛ إن الشىء النهائىَّ لا يُوجَد إلا فى الصغائر والشرّ ، أما الخيرُ والكمالُ وعظائمُ النفس والجمالُ الأسْنَى ، فهذه حقائقُ أزليّة وُجِدَتْ لنفسها : كالهواء يتنفّسه كُلّ الأحياء على هذه الأرض ولا ينتهى ، ولا يُعْرَفُ أين ينتهى ؛ وكما ينبعث النور من الشمس والكواكب إلى هذه الأرض ، يُشْبِه أن تكون تلك الصفاتُ منبعثةً إلى النفوس من أنوار الملائكة ، وبهذا كان أكبرُ الناس حظًّا منها هم الأنبياء المتّصلين بتلك الأنوار .

ومن رحمة الله أن جعل فى كل النفوس الإنسانية أصلاً صغيراً يجمع فكرةَ الخير والكمال وعظائِم النفس والجمالِ الأسْنَى ، وقد تَعظمُ فيه هذه الصفاتُ كلُّها أو بعضُها ، وقد تَصغُر فيه بعضُها أو كلها : ألاَ وهو الحبّ .

لا بدّ أن تمرّ كلُّ حياةٍ إنسانية فى نوع من أنواع الحب ؛ من رقّة النفسِ ورحمتِها ، إلى هوى النفس وعشقِها .

وإذا بلغ الحبُّ أن يكون عشقًا ، وَضَع يده على المفاتيح العصبية للنفس ، وفتَح للعظائم والمعجزاتِ أبوابَها ؛ حتى إنه ليجعلُ الخرافَة الفارغةَ معجزةً دقيقة ، ويملأ الحياةَ بمعان لم تكن فيها من قبل ، ويصبح سرُّ هذا الحبِّ لا ينتهى ؛ إذ هو سرٌّ لا يُدْرَك ولا يُعرف .

اجْهدْ جهدَكَ يا صاحبي ، فما هو قفَصُك الفكرىُّ ذلك الشعاعُ الذى

يحبسك ، ولكنه صَقْلُ النفسِ لتتلقى الأنوار ، ولا بدّ للمرآة من ظاهرٍ غير ظاهرِ الحجَر لتكونَ به مرآة .

* * *

قلتُ لنفسي : فما أشدّه مضَضًا أُعانيه ! إن أمرى ليذهب فُرُطًا[1]. أكلما ابتغيتُ من الحياة مَرحًا أطرَبُ له وأهتزّ ، جاءتنى الحياةُ بفكرة أستكِدُّ فيها وأدأب ؟ أهذا السرورُ الذى لا يزال يقعُ بين الناس هو الذى لا يكاد يقع لى ؟ وهل أنا شجرةٌ فى مَغْرِسها : تنمو صاعدةً بفروعها ، ونازلةً بجذورها ، غير أنها لا تبرحُ مكانها ؟ أو أنا تمثالٌ على قاعدته : لا يتزحزحُ عنها إلا ساعةَ لا يكون تمثالاً ، ولا يَدعُها حتى تَدعَه معانى العظَمة التى نُصب لها ؟

قالت لى النفس : ويحك ! لا تطلب فى كونِكَ الصغيرِ ما ليس فيه ؛ إن الناسَ لو ارتفعوا إلى السماء وتقلّبوا فيها كما يَسيحُ أهلُ قارّةٍ من الأرض فى قارّةٍ غيرها ، وابتغَوْا أن يحملوا معهم مما هناك تَذكاراً صغيراً إلى الأرض — لوجدوا أصغرَ ما هنالك أكبرَ من الأرض كلها ؛ فأنت سائحٌ فى سماوات .

أنت كالنائم : له أن يَرى وليس له أن يأخذ شيئًا مما يرى إلا وَصْفَه ، وحكمتَه ، والسرورَ بما التذّ منه ، والألَمَ بما توجّع له .

لن تكونَ فى الأرض شجرةٌ بِرِجْلين تذهبُ هنا وههنا ، ولكن الشجرة ترسل أثمارَها يتناقلُها الناس ، وهى تُبدِع الثمارَ إبداعَ المؤلف العبقرىّ ما يؤلفه بأشدّ الكدّ وأعظمِ الجهْد ، مُطْلِقةً ضميرَها فى الفكرة الصغيرة ، تَعقِدُها شيئًا شيئًا ، ثم تعود عليها بالزيادة ، ولا تزال كلّ وقت تعود عليها حتى تستفرغَ أقصى القوة ؛ ثم يكونُ سرورها فى أن تَهبَ فائدتها ، لأنها لذلك وُجِدَتْ .

إن فى الشجرة طبيعةً صادقةً لا شهوةً مكذوبة ؛ فالحياةُ فيها على حقيقتها ، وأكثرُ ما تكون الحياةُ فى الإنسان على مَجازِها ؛ وشرطُ المجاز الخيالُ والمبالغةُ والتلوين؛ ولكن متى اختار اللهُ رجلاً فأقرّ فيه سرًّا من أسرار الطبيعة الصادقة ، ووهب له العاطفةَ القادرةَ التى تَصنعُ ثمارَها — فقد غَرسه شجرةً فى مَنْبتها لا مفرّ ولا مَنْدوحه ، وقد يُخيِّلُ له ضعفُ طبيعته البشرية أحيانًا أن نَضرةَ المجد التى تعلوه وتتألّقُ حوله كشعاع الكوكب ، هى تَعبُهُ وضجَره ، أو أثرُ

---

(١) أى مجاوزاً فيه عن الحد .

انخذالِه وألمِه ومسكنَتِه ؛ وهذا من شقاء العقل ؛ فإنه دائماً يضيف شيئاً إلى شيء ، ويخلِط معنًى بمعنى ، ولا يترك حقيقةً على ما هى ؛ كأن فيه ما فى الطفل من غريزة التقليد ؛ والعقلُ لا يرى أمامه إلا الإلهية ، فهو يقلدها فى مُداخلَة الأشياء بعضِها فى بعض ، لإيجاد الأسرار بعضِها من بعض .

ومن ثَمّ كانت الحقيقةُ الصريحةُ الثابتةُ مَدْعاةً للملَل العقلىّ فى الإنسان ، لا يكادُ يُقيم عليها أو يتقيد بها ، فما نال شيئاً إلا ليطمعَ فى غيره ، وما فاز بلذّة إلا ليزهَدَ فيها ، وأجَلُّ ما أحبَّه الإنسان أن يناله ، فإذا ناله وقع فيه معنى موته ، وبَدَأ فى النفس عُمراً آخرَ من حالة أخرى ، أو مات ولم يَبْدَأ ؛ فلا بدّ لهذا الإنسانِ مع كل صوابٍ من جزءٍ من الخطأ ، فإن هو لم يجد خطأً فى شىء ائتَفَكَ لنفسه [1] الخطأَ المضحكَ فى شِبه روايةٍ خيالية .

. إنه لشِعر سخيف بالغُ السخافة أن يُتَخَيَّل الغريقُ مفكراً فى صَيْدِ سمكةٍ رآها . . . ولكنّ هذا من أبلغ البلاغةِ عند العقل الذى يبحث عن وهم يضيفُه إلى هذه الحقيقة ليضحكَ منها ، كما يبحث لنفسه أحياناً فى أجمل حقائقِ اللذة عن ألم يتألم به ليَعْبَسَ فيه !

* * *

قلت لنفسى : فهل ينبغى لى أن أُحرِقَ دمى لأنى أفكّر ، وهل أظلّ دائماً بهذا التفكير كالذى ينظر فى وجهِ حسناءَ بمنظار مكبر : لا يريه ذلك الوجهَ المعشوقَ إلا ثُقوباً وتخريماً كأنه خشبةٌ نُزعت منها مساميرُ غليظة . . . ! فلا يجدُ المسكينُ هذه الحقيقةَ إلا ليفقدَ ذلك الجمال ؟ وهل بُدٌّ من الشبه بين بعض الناس وبين ما اوْتَصَدَ له من عمل يحيا به ؛ فلا يكون الحوذىُّ حُوذيّاً إلا لشَبَهٍ بين نفسه وبين الخيل والبغال والحمير . . . ؟

وقالتْ لى النفس : إن فأسَ الحطَّاب لا تكونُ من أداة الطبيب ؛ فخذ لكل شىء أداتَه ، وكن جاهلاً أحياناً ، ولكن مثلَ الجهل الذى يَصْنَع لوجهِ الطفل بشاشتَه الدائمة ؛ فهذا الجهلُ هو أكبر علمِ الشعور الدقيق المرهَف ، ولولاه لهلك الأنبياء والحكماء والشعراء غمّاً وكمَداً ، ولكانوا فى هذا الوجود ، على

---

(١) كذب واخترع ، ومنه حديث الإفك .

هذه الأرض ، بين هذه الحقائق — كالذى قُيِّد وحُبِس فى رهَج تثيره القدم والخُف والحافر : لا يتنفَّس إلا الغبارَ يُثار من حوله إلى أن يُقْضَى عليه .

اجهلْ جهلَك يا صاحبى فى هذه الشهوات الخسيسة ؛ فإنها العلمُ الخبيثُ الذى يفسد الروح ، واعرفْ كيف تقول لروحك الطفلة فى ملائكيَّتها حين تُساوِرُكَ الشهوات : هذا ليس لى ؛ هذا لا ينبغى لى .

إن الروحَ الكبيرةَ هى فى حقيقتها الطفلُ الملائكىّ .

وعِلمُ خسائس الحياة يجعلُ للإنسان فى كل خسيسة نفساً تتعلقُ بها ، فيكونُ المسكينُ بين نفسين وثلاث وأربع ، إلى ثلاثين وأربعين كلهن يتنازعْنَه ، فيضيعُ بهذه الكثرة ، ويُصبحُ بعضُه بلاءً على بعض ، وتَشْغَلُه الفُضول ، فيعودُ لها كالمزْبَلة لما أُلقِيَ فيها ، ويُمْحَقُ فى نفسه الطبيعية حسُّ الفرح بجمال الطبيعة ، كما يُمْحَق فى المزبلة معنى النظافة ومعنى الحسِّ بها .

هذه الأنفسُ الخياليةُ فى هذا الإنسان المنكود ، هى الأرواحُ التى يَنْفُخُها فى مصائبه ، فتجعلُها مصائبَ حيَّةً تعيشُ فى وجوده وتعملُ فيه أعمالَها ؛ ولولاها لماتت فى نفسه مطامعُ كثيرة ، فماتت له مصائبُ كثيرة .

انظر بالروح الشاعرة ، ترَ الكونَ كله فى سمائه وأرضه انسجاماً واحداً ليس فيه إلا الجمالُ والسحرُ وفتنةُ الطرب ؛ وانظر بالعقل العالمِ ، فلن ترى فى الكون كلِّه إلا موادَّ علم الطبيعة والكيمياء .

ومَدَى الروحِ جمال الكونِ كلِّه ؛ ومَدَى العقلِ قطعةٌ من حجَر ، أو عظْمة من حيوان ، أو نَسيجةٌ من نبات ، أو فِلْذَةٌ من معدن ، وما أشبهها .

اجْهل جهلك يا صاحبى ؛ فى كل حُسْنٍ غَزَلٌ بشرط ألاّ تكونَ العاشقَ الطامع ، وإلاّ أصبْتَ فى كل حسنٍ هَمّاً ومَشْغَلة . . . !

* * *

قلتُ لنفسى : إلى الآن لم أقلْ لكِ ذلك المعنى الذى كتمتهُ عنكِ .

وقالت لى النفس : وإلى الآن لم أقل لكَ إلا جوابَ ذلك الذى كتمتَه عنى . . .

الانتحار *

١

حدَّثَ المُسَيَّبُ بن رافع الكوفيُّ قال : بينا أنا يوما فى مسجد الكوفة ، ومعى سعيدُ بنُ عثمان ، ومجاهد ، ودوادٌ الأزْدِىّ ، وجماعةٌ — أقبلَ فتًى فجلس قريبًا منا ، وكان تلقاءَ وجهى ؛ لا أمُدُّ نظرى إلا انطلقَ فى سَمْتِه ووقف عليه ، وكنا نتحدّثُ ، فرأيتهُ يتسمّعُ إلى حديثنا ؛ فلما تكلَّم سعيدٌ — وكان خافتَ الصوت من علّة به ، وكنا نسميه النملة الصَّخّابة — رأيتُ الفتى يتزحّفُ قليلاً قليلاً حتى صار بحيث يقعُ فى سَماعه حَسِيسُ نَمْلتِنا .

وكان سعيد يقول : اجتَزْتُ أنا والشّعبىُّ [١] أمس بعمرانَ الخيّاط ، فمازَحه الشيخُ فقال له : عِندنا حِبٌّ [٢] مكسور ، تَخيطُه ؟ قال : نعم ، إن كان عندك خيط من ريح ! فقلتُ أنا : فاذهبْ فجئنا بالمِغْزَل الذى يغزِلُ الهواء لنصنعَ لك الخيط .

قال مجاهد : هذا ليس بشىء فى تَنادُرِ شيخنا وما يتّفقُ له ؛ أخبرَنى أن رجلاً جاءهُ فى مسألة ، فدخل عليه البيت وهو جالس مع امرأته ؛ فقال الرجل : أيُّكما الشعبىّ ... ؟ فأومأ الشيخ إلى امرأته وقال : هذه ... !

قال المُسَيَّب : وضحكنا جميعًا ، وأخذ نظرى الغلامَ فإذا هو ناكِس حزناً وهمًّا ، وكأنه لا يتسمّعُ إلينا ليسمع ، بل ليشغلَ نفسَه عن شىء فيها ، فتتوزَّعَ خواطرُه ، فيتبدّد اجتماعُها على همِّه بصوتٍ من هنا وصوتٍ من هنا ، كما يفعل المحزونُ فى مغالبة الحزن ومُدافعته : يَشْغَلُ عنه بصرَه وقلبَه وسمعَه جميعًا ، فيكون الحزنُ فيه وكأنه بعيدٌ منه .

---

* انظر سبب إنشائه هذه المقالات الست فى « عود على بدء » من كتاب « حياة الرافعى » .

(١) هو الإمام العظيم (عامر بن شراحيل الشعبى) توفى سنة ١٠٣ للهجرة أو حولها . عن بضع وثمانين سنة ، وكان فى عصره أحد العلماء الأربعة فى الإسلام : سعيد بن المسيب فى المدينة (ذكرناه فى قصة زواج) ، والحسن البصرى فى البصرة (ذكرناه فى قصة : بنته الصغيرة) ؛ ومكحول فى الشام ، والشعبى هذا فى الكوفة . وكان يشبه فى زمانه ابن عباس فى زمانه .

(٢) الحب (بكسر الحاء) : هو الزير ، يستقطر الماء من أسفله فيخرج صافياً ، ويقال لرشحه : قطر حب .

فقلت فى نفسى : أمرٌ أماتَ الضحكَ فى هذا الفتى وكسر حِدّتَه وشبابَه. ثم تحوّلتُ إليه وقلت: رأيتُكَ يابنىّ مقبلاً علينا كالمنصرِف عنا؛ فما بالُكَ لم تضحك وقد ضحكنا جميعًا ؟

قال : إليكَ عنى يا هذا ؛ فأين منى الضَّحكُ وأنا على شَفِير القبر ، ورُوح التراب مالىءٌ عينىَّ فى كل ما أرى ، وكأنّ حُفرتى ابتلعت الدنيا التى أنا فيها لتأخذَنى فيها ، وأنا الساعةَ ميتٌ حىٌّ ؛ رجلٌ فى الدنيا ورجل فى الآخرة !

قلت : فأعلمنى ما بك يا بنى ؛ فلقد احتسبْتُ ولداً لى كان فى مثل سِنِّكَ وشبابك ولم أُرزق غيرَه ، فقلْ بعده مريضٌ به ، يتوسمُهُ مُفَرَّقًا فى لِداتِه ، مُتوهّماً أن وجوهَهم تجمعه بملامحه؛ فأنا من ذلك أحبّهم جميعًا وأطيل النظر إليهم والتأمُّل فى وجوههم، ولستأرى أحداً منهم إلا كان له ولقلبى حديث! فإن رأيتُه حزينًا مثلك تَقطَّعتْ له من إشفاقٍ ورحمة ، وطالعَتْنى فتاىَ فى مثلِ همِّه وحزنه وانكسارِه ؛ فيعود قلبى كالعين التى غشَّاها الدمع ، تحمل أثرَ الحزنِ ومعناه وسرَّه ؛ فبُثْنى ما تجدُ يا بنىَّ ، فلعل لى سبباً إلى كَشْفِ ضُرك أو إسعافِك بحاجتك؛ ولعلك تكون قد حزنتَ من أمرٍ قريب المتناوَل هيِّنِ المحاوَلةَ، لم يجعله عندك كبيراً أنه كبير ، ولكنْ أنك أنت صغير .

قال الفتى : مهلاً يا عمّ ، فإن ما نزل بنا مما تنقطع عنده الحيلة ولا تَنْقاد فيه الوسائل ، ولا علاجَ منه إلا بالموت يأخذنا ويأخذه !

قلت : يا بنىّ ، هذه كلمة ما أحسبُ أحداً يقولها إلا من أُخِذَ للقتل بجنايته ولم يَعفُ أهلُ الدم ، فهل جنيتَ أوجنى أبوك على أحد ؟

قال : إن الأمر قريبٌ من قريب ، فإنى تركتُ أبى الساعةَ مُجْمِعًا على إزهاقِ نفسه ، وقد أغلقَ عليه الدارَ واستوثَقَ من الباب !

قال المسيَّب : فكأنما لدغتنى حيةٌ بهذه الكلمة ، وأكبرتُ أن يكون رجلٌ مسلمٌ يقتلُ نفسَه : فتَناهَضْتُ ، ولكنّ الغلامَ أمسكَ بى وقال : إنه لا يزال حيًّا ، وسيقتل نفسَه متى أظلم الليلُ وهَدَأت الرِّجل .

قلت : الحمد لله ، إن فى النور عقلاً ، ولكن ما الذى صار به إلى ما قلت ، وكيف تركته لِقَدَرِه وجئت ؟

قال الفتى : إنه قال لى : يا ولدى ، ليس لك أبٌ بعدى ؛ فإن أردتَ اللحاقَ بى فارجع مع الليل لتُسْلِمَ أنفسَنا ، وإن آثرتَ الحياةَ فارجع مع الصبح لتُسلِمَنى إلى غاسلى !

قلت : أفآمِنٌ أنت ألا يكونَ أبوك قد أخرجك عنه لأن عينَيْك تُمْسِكُ يدَه وتردُّه عما يَهُمُّ به ، حتى إذا خلا وجهُه منك أزهق نفسَه ؟

قال : لم أدَعْه حتى أقسمَ أن يحيا إلى الليل ، وحتى أقسمتُ أن أرجع لأموتَ معه ؛ فإن لم تمسكه يمينُه أمسكه انتظارى ، وقد فرغَتِ الحياةُ منا فلم يبقَ إلا أن نفرغَ منها ؛ ومن كان فيما كنا فيه ثم انحدر إلى ما انحدرنا إليه ، لم يُرِ الناسَ من نفسه ضَعةً ولا استكانة : وإنما خرجتُ لأسألَ هذا الإمام (الشعبىّ) وجهًا من الرأى فيمن يقتل نفسه إذا ضاقت عليه الدنيا ، ونزلتْ به النازلاتُ ، وتعذّر القُوت ، واشتدّ الضُّرّ ، وتَدَلَّت به المسكنةُ إلى حَضِيضِها ، وأُلحِئَ إلى أحوالٍ دَقَّتْه دَقّ الرَّحَى لما تدور عليه ، ولم يَعُدْ له إلا رأىٌ واحد فى معنى الدنيا : هو أنه مكذوب مزَوَّر على الدنيا .

قلت : يا بنىّ ، فإنى أراك أديبًا ؛ فمن أبوك ؟

قال : هو فلان التاجر ، ظهر ظهورَ القمر ومُحِقَ محاقه ، وهو اليوم فى أحلَك الليالى وأشدها انطماسا ؛ جَهَدَه الفقر ، ويا ليته كان الفقر وحدَه ، بل انتهكتْه العِلَل ، وليتها لم تكن إلا العِللَ مع الفقر ، بل أخذ الموتُ امرأتَه فماتت همًّا به وبى ، ولم يكن له غيرى وغيرُها ، وكان كلٌّ من ثلاثتنا يحيا للاثنين الآخرين ، فهذا ما كان يجعل كلاًّ منا لا يفرَغُ إلا امتلاً ، ولما ذهبَت الأمُّ ذهبت الحقيقةُ التى كنا نقاتل الأيامَ عنها ، وكانت هى وحدها تُرينا الحياةَ بمعناها إن جاءتنا الحياةُ فارغة من المعنى ، وكنا من أجلها نفهم الأيام على أنها مجاهَدَةُ البقاء ؛ أما الآن فالحياةُ عندنا قَتْلُ الحياة . . . !

قلت : يا بنىَّ ، فإنك والله مع أدبك لَحكيم ، وإنى لأنفَسُ بك على الموت ، فكيف ردّتك حياةُ أمك عن قتل نفسك ولا تردُّك حياةُ أبيك ؟

قال : لو بقى أبى حيًّا لبقيت ، ولكن الدهر قد انتزع منه آخِرَ ما كان يملك من أسبابِ القوّة ، حين أخَذَ القلبَ الشفيق الذى كان يجعله يرتعد إذا

فكَّر فى الموت : فهو الآن كالذى يحاربُ عن نفسه تِلْقاء عدوٍّ لا يرحمه ؛ إن عجز عن عدوِّه فالرأىُ قتلُ نفسِه ليستريحَ من تنكيل العدو به .

* * *

قال المسيَّب بنُ رافع : وأدركتُ أن الفتى يُريد من سؤال الشيخ تَحِلَّةً يطمئنُّ إليها أن يموتَ مسلماً إذا قتل نفسَه كالمضطرّ أو المُكْرَه ؛ فأشفقتُ أن أكسرَ نفسَه إذا أنا حدّثتُه أو أفتيتُه ؛ وقلت : هذا مريض يحتاج العلاجَ لا الفُتْيا ؛ وكان إمامُنا (الشعبيُّ) حكيما لَحِناً فَطِناً ، سَفَر بين أمير المؤمنين (عبد الملك) وعاهلِ الروم ، فحسدَنا العاهلُ أن يكون فينا مثلُه . وقلتُ : لعل الله يُحدِث به أمراً . فأخذتُ بيد الفتى إليه ، ومشيتُ أكلمه وأُرفِّه عن نفسه . وقلت له : أما تدرى أنك حين فرغْتَ من سرور الحياة فرغتَ من غرورها أيضاً ، وأن الزاهد المنقطعَ فى عُرْعُرَة الجَبل ينظر من صَوْمعته إلى الدنيا ، ليس بأحكَمَ ولا أبصرَ ممن ينظر من آلامه إلى الدنيا ؟

يا بنىّ : إن الزاهد يحسب أنه قد فرَّ من الرذائل إلى فضائله ، ولكن فراره من مجاهَدة الرذيلة هو فى نفسه رذيلةٌ لكل فضائله . وماذا تكون العفَّةُ والأمانةُ والصدقُ والوفاء والبرُّ والإحسانُ وغيرُها ، إذا كانت فيمن انقطع فى صحراء أو على رأس جبل ؟ أيزعم أحدٌ أن الصدق فضيلةٌ فى إنسان ليس حوله إلا عشرة أحجار ؟ وايمُ الله إن الخالىَ من مجاهَدَةِ الرذائل جميعاً ، لَهُوَ الخالى من الفضائل جميعاً !

يا بنىّ : إن من الناس من يختارهم الله فيكونون قَمْح هذه الإنسانية : يَنْبُتون ويُحصَدون ويُطحَنون و يُعجَنون ويُخبَزون ، ليكونوا غذاءَ الإنسانية فى بعض فضائلها . وما أراك أنت وأباك إلا من المختارين ، كأن فى أعراقكما دم نبىّ يُقْتَل أو يُصْلَب !

قال المسيَّب : وانتهينا إلى دار الشعبىّ ، فطرقتُ الباب ، وجاء الشيخ ففتح لنا . وسلّمنا وسلّم ، ثم بَدَرْتُ فقلت : يا أبا عمرو ، إن أبا هذا كان من حاله كيْت وكيت ، فرادَفَتْ عليه المصائبُ ، وتوالت النكباتُ ، وتواترت الأسقام . . . ثم اقتصصْتُ ما قال ابنُه حرفاً حرفاً ، ثم قلت : وإنه الآن مُوشِكٌ

أن يُزهِقَ نفسَه وسيَتبعه ابنُه هذا ؛ وقد (هداه الله إليك) فجاء يسألك : أيموت مسلماً من ألجئَ وأكْرِه واضطُرّ واسْتَضاق واختلَّ ، فتَحسَّى سُمًّا فَهلكَ ، أو توَجّأ بحديدة فقَضَى ، أو ذَبَح نفسَه بنَصْل فخَفَتَ ، أو حزّ فى يده بسكين فما رقأ دمُه حتى مات ، أو اختنق فى حبلٍ ففاضت نفسُه ، أو تردّى من شاهق فطاح . . . . !

وأدرك الشيخ معنى قولى : (هداه الله إليك) ، ومعنى ما أكثرتُ من الألفاظ المترادفة على القتل وما استقصيتُ من وجوهه ؛ فعلم أنى لم أسأله الفُتْيا والنَّص ، ولكنى سألته الحكمة والسياسة ؛ فقال : هذا والله رجلٌ كريم ، أخذته الأنَفَةُ وعزّةُ النفس ، وما أنا الساعةَ بمعزَلٍ عن همِّه ، فنذهب نكلّمه والله المستعان .

ومشينا ثلاثتنا ، فلما شارَفْنا الدارَ قال الفتى : إنه لا يفتح لى إذا رآكما ، وربما اسْتَفزّ بنفسه فأزهَقها ، وسأتَسوّر الحائطَ وأتدلّى ثم أفتح لكما فتدخلان وأنا عنده .

* * *

ودخلنا ، فإذا رجلٌ كالمريض من غير مرض ، خوّارٌ مسلوبُ القوّة ، انزعج قلبه إلى الموت وما به جُرْأة ، وإلى الحياة وما به قوّة ؛ وصَغر إليه نفسَه أنها أصبحت فى معاملة الناس كالدرهم الزائف لا يقبله أحد ، وثابر عليه داءُ الحزن فأضناه وتركه رُوحًا تتقعقعُ فى جلدها ، فهى تهم فى لحظة أن تَشبَ وتندلق.

وسلّم الشيخُ وأقبل بوجهه على الرجل ، ثم قال : « بسم الله الرحمن الرحيم ، والصابرين فى البأساء والضرّاء وحينَ البأس . أولئك الذين صدَقوا وأولئك هُم المتقون » .

فقطع عليه الرجل وقال كالمحنق : أيها الشيخ ، قد صبرنا حتى جاء مالا صبر عليه ؛ وقد خلَونا من معانى الكلام كله ، فما نقدر عليها إلا لفظةً واحدةً نملك معناها ، هى أن ننتهى !

ومدّ الشيخُ عينه فرأى كُوّةً مسدودةً فى الجدار ، فقال لى : افتحْ هذه ودَع الهواء يتكلم معنا كلامَه . فقمت إليها فعالجتها حتى فتحتها ، ونفذ منها رَوْحُ

الدنيا ، وقال الشيخ للرجل : أصغِ إلىّ ، فإذا أنا فرغتُ من الكلام فسَلْ نفسك :

أعلمتَ أن رجلاً من المسلمين قد مَرِض ، فأعْضَلَ مرضُه فأثبتَه على سريره ثلاثين سنةً لا يتحرك ، وطَوَى فيه الرجُلَ الذى كان حيًّا ونشر منه الرجلَ الذى سيكون ميْتًا ، فبقى لا حيًّا ولا ميتًا ثلاثين سنة . . . ؟

قال الرجل : وفى الدنيا من يعيش على هذه الحال ثلاثين سنة ؟

قال الشيخ : صَحِّح الكلامَ واسألْ : أيَصبر على هذه الحال ثلاثين سنةً ولا يقول : (جاء مالا صبر عليه) ! وأىُّ شىء لا صبر عليه عند الرجل المؤمن الذى يعلم أن البلاءَ مالٌ غير أنه لا يوضَع فى الكيس بل فى الجسم ؟

أفتدرى مَن كان الصابرَ ثلاثين سنةً على بلاء الحياة والموت مجتمعَين فى عظامٍ مُمَدَّدةٍ على سريرها ؟ إنه إمامُنا (عمرانُ بنُ حُصَين الخُزاعىّ)[1] الذى أرسله عمرُ بن الخطاب يُفقِّه أهلَ البصرة ، وتولىَّ قضاءها ، وكان الحسن البَصرىُّ يحلف بالله ما قدِمَها خيرٌ لهم من عمران بن حُصين . ولقد دخلتُ عليه أنا وأخوه (العلاء) ، فرأيناه مُثْبَتًا على سرير الجريد كأنما شدَّ بالحبال وما شُدّ إلا بانتهاك عَصَبِه وذَوَبانِ لحمه ووَهَنِ عظامِه ؛ فبكى أخوه ، فقال : لِمَ تبكى ؟ قال : لأنى أراك على هذه الحال العظيمة ! قال لاتَبكِ ؛ فإن أحبَّه إلى الله تعالى أحبُّه إلىّ . ثم قال : إن هذه الأرض تحمل الجبالَ فلا يشعر موضع منها بالجبل القائم عليه ، إذ كان تماسُكُ الأرضِ كلِّها قد جَعَل لكلِّ موضعٍ منها قوةَ الجميع ، ولولا هذا لَدَكّ الجبلُ موضعَه وغارَ به ؛ وكذلك يحملُ المؤْمنُ مثلَ الجبال من البلاء على أعضائه لا ينكسر لها ولا يتهدَّم ؛ إذ كانت قوةُ روحِه قوّةً فى كل موضع ، فالبلاءُ محمول على هِمّةِ الروح لا على الجسم ، وهذا معنى الخبر : « إن المؤمن بكلِّ خير على كلِّ حال ، إن رُوحَه لتُنزعُ من بين جنبيه وهو يَحمد اللهَ عزَّ وجل ! » .

ثم قال : ولكن ذاك هو المؤمن ، فمن آمن بالله فكأنما قال له : « امتَحِنّى! » وكيف تراك إذا كنتَ بطلاً من الأبطال مع قائد الجيش ، أمَا تفرض عليك

---

[1] (١) توفى سنة ٥٣ من الهجرة .

شجاعتُك أن تقول للقائد: « امتحِنّى وارْمِ بى حيث شئت ! » وإذا رمَى بك فرجعْتَ مُشْخَنًا بالجراح ونالك البَتْرُ والتشويه ، أتُراها أوصافًا لمصائبك ، أم ثناءً على شجاعتك ؟

ثم قال : إذا لم يكن الإيمان بالله اطمئنانًا فى النفس على زَلازِلها وكَوارِثها ، لم يكن إيمانًا ، بل هو دعوى بالفِكْر أو باللسان لا يعْدُوهما ، كدعوى الجبان أنه بطل ، حتى إذا فَجأه الرَّوْعُ أحدَثَ فى ثيابه من الخوف . . . ومِن ثم كان قتلُ المؤمن نفسَه لبلاء أو مرض أو غيرِهما كفراً بالله وتكذيبًا لإيمانه ، وكان عملُه هذا صورةً أخرى من طيش الجبان الذى أحدث فى ثيابه !

والإيمانُ الصحيحُ هو بَشَاشةُ الروح ، وإعطاءُ الله الرِّضى من القلب ، ثقة بوعده ورَجَاءً لما عنده ، ومن هذين يكون الاطمئنان . وبالبشاشة والرضى والثقة والرجاء ، يصبح الإيمانُ عقلاً ثانيًا مع العقل ؛ فإذا ابْتُلِىَ المؤمنُ بما يذهب معه الصبرُ ويطيشُ له العقل ، وصار من أمره فى مثل الجنون — بَرَزَ فى هذه الحالة عقلُه الرُّوحانىُّ وتولى سياسةَ جسمه حتى يُفيقَ العقلُ الأول . ويجىء الخوفُ من عذاب الله ونقمته فى الآخرة ، فيَغْمرُ به خوفَ النفس من الفقر أو المرض أو غيرهما فيقتلُ أقواهما الأضعف ، ويُخرجِ الأعزُّ منهما الأذلَّ .

فالاطمئنان بالإيمان هو قتلُ الخوف الدُّنيوىّ بالتسليم والرضى ، أو تحويلُه عن معناه بجعل البلاء ثوابًا وحسَنات ، أو تجريده من أوهامه باعتبار الحياة سائرةً بكل ما فيها إلى الموت ؛ وهو بهذا عقلٌ روحانىٌّ له شأن عظيم فى تصريف الدنيا ، يترك النفسَ راضيةً مَرْضِيَّة ، تقول لمصائبها وهى مطمئنة : نعم . وتقول لشهواتها وهى مطمئنة : لا .

وما الإنسان فى هذا الكون ؟ وما خيره وشرُّه ؟ وما سخطُه ورضاه ؟ إنْ كلُّ ذلك إلا كما ترى قبضةً من التراب تتكبَّر وقد نسيتْ أنه سيأتى من يكنسُها . . . !

* * *

قال الشيخ : وانظر ، أما تُبْتلَى الشجرةُ الخضراءُ فى بعض أوقاتها بمثل ما يُبْتَلى به الإنسان ، غير أن لها عقلاً روحانيًا مستقرًا فى داخلها يمسك الحياةَ

عليها ويتربَّصُ حالاً غير الحال؛ ومهما يكنْ من أمرِ ظاهرِها وبلائِه فالسعادةُ كلُّها في داخلها ، ولها دائمًا ربيعٌ على قدْرها حتى في قُرِّ الشتاء .

فالعقلُ الروحانيّ الآتي من الإيمان ، لا عملَ له إلا أن ينشئ للنفس غريزةً متصرِّفةً في كل غرائزها ، تُكَمِّل شيئًا وتنقص من شيء . وتُوَجِّه إلى ناحية وتصرِفُ عن ناحية ؛ وبهذه الغريزة تسمو الروح فتكون أكبرَ من مصائبها وأكبرَ من لذّاتها جميعًا .

وتلك الغريزةُ هي نفسُها معنى الرضى بالقدَر خيره وشرِّه ، وهي تأتي بالتأويل لكل هموم الدنيا ، فتضعُ في النكبات معانيَ شريفةً تنزع منها شرَّها وأذاها للنفس ؛ وليست المصيبةُ شيئًا لولا تأذِّي النفس بها . وإذا وقع التأويلُ في معاني النكبات أصبحت تعمل عملَ الفضائل ، وتغيرتْ طبيعتُها ، فيعود الفقر بابًا من الزهد ، والمرضُ نوعًا من الجهاد ، والخيبةُ طريقًا من الصبر ، والحزن وجهًا من الرجاء ، وهلمّ جرًّا .

والنفسُ وحدها كنزٌ عظيم ، وفيها وحدها الفرحُ والابتهاجُ لا في غيرها ، وما لذّاتُ الدنيا إلا وسائلَ لإثارة هذا الفرح وهذا الابتهاج ، فإن وُجدا مع الفقر بطلتْ عِزَّةُ المال وأصبح حجراً من الحجر ؛ والبلبلُ يتغرَّد بحنْجرته الصغيرة ما لا تُغْنِي فيه آلاتُ التَّطْريب كلُّها . وفي النفس حياةُ ما حوْلها ، فإذا قَويتْ هذه النفس أذلت الدنيا ، وإذا ضعفتْ أذلَّتها الدنيا !

* * *

قال المسيَّب : ثم سكت الشيخ قليلاً ، وكنت أرى الرجل كأنما يغتسل بكلامه ، وقد أشرق وجهه وتنضّر وانقلب إلى روحه التي كان منصرفًا عنها ، فعادت مصائبه تضغطُ روحًا لينةً كما تضغط اليد على الماء ، وأيقن أن النكبةَ كلّها هي أن ينظر الإنسان إلى الحياة بعين شهواته ، فيُنكَبَ أولَ ما ينكبُ في صبره ويقينه .

ثم قال الشيخ ، ولقد رأيتُ بعينيْ رأسي معجزةَ (العقل الروحانيّ) وكيف

يصنع : رأيت عروة بن الزبير[١] وهو شيخ كبير ، عند الوليد بن عبد الملك ، وقد وقعت فى رجْله الأُكْلة : فأشاروا عليه بقطعها لا تُفسد جسدَه كلَّه ، فدُعِيَ له من يقطعها ، فلما جاء قال له : نسقيك الخمر حتى لا تجدَ لها ألما . فقال عروة : لا أستعين بحرامِ الله على ما أرجو من عافية ! قال : فنسقيك المُرْقِد . فقال عروة : ما أحِبّ أن أُسلَبَ عضواً من أعضائى وأنا لا أجد ألمَ ذلك فأحتسبُه !

ثم دخل رجالٌ أنكرهم عروة ، فقال : ما هؤلاء ؟ قالوا : يُمسكونك ، فإن الألم ربما عَزَبَ معه الصبر . قال أرجو أن أكفيَكم ذلك من نفسى !

قال الشيخ : فانظر أيها الضعيف الذى يريد قتل نفسه كيف صَنع عروة ، وكيف استقبل البلاء ، وكيف صبر وكيف احتمل . إنه انصرف بحسّه إلى النفس فانبسطت روحُه عليه ، وأخذ يكبِّر ويهلِّل ليبقى مع روحه وحدها ، وخرج من دنيا ظاهرِه إلى دنيا باطنِه ، وغُمِرَتْ حواسه وأعصابُهُ بالنور الإلهى من معنى التكبير والتهليل ، فقطعَ القاطعُ كعبَه بالسكين وهو لا يلتفت ، حتى إذا بلغ العظمَ وضعَ عليها المنشار ونشرها وعروةُ فى التكبير والتهليل ؛ ثم جىء بالزيت مغليًّا فى مغارف الحديد فحُسِمَ به مكانُ القطع ، فغُشىَ على عروةَ ساعة ثم أفاق وهو يمسح العرَق عن وجهه ، ولم يُسمع منه فى كل هذه الآلام الماحقة أنة ولا آهةٌ ، ولم يقل قبلها ولا بعدها ولا بين ذلك : « جاء مالا صَبرَ عليه ...! ».

* * *

قال المسيَّب : وأُرْهِف بأسُ الرجلِ الضعيف وقَوِى جأشُه ، وانبعثت فيه الروحُ إلى عُمر جديد ، ونشأ له اليقينُ من عقله الروحانىّ ، وعرف أن مالا يمكن أن يدرَك ، يمكن أن يترَك .

وجاء هذا العقل الروحانى فرّ بالمنشار على اليأس الذى كان فى نفسه فقطعه ، فما راعنا إلا أن وثب الرجل قائمًا يقول : الله أكبر من الدنيا ، الله أكبر من الدنيا !

ثم أكبَّ على يد الشيخ وهو يقول : صدقت ؛ « إنْ كلُّ ذلك إلا كما

(١) توفى سنة ٩٣ للهجرة .

ترى قبضةً من التراب تتكبر ، وقد نسيتْ أنه سيأتى من يكنسها ! » .

* * *

ماذا يصنع الإنسان إذا غلط فى مسألة من مسائل الدنيا إلا أن يتحرَّى الصواب ، ويجتهد فى الرجوع إليه ، ويصبر على ما يناله فى ذلك ؟ وماذا يصنع الإنسان إذا غلطت فيه مسألة ... ... ؟

الانتحار

٢

قال المسيَّب بنُ رافع : وقام الشعبيُّ إلى الرجل فاعتَنقه فرَحًا بما آلَ أمرُه إليه ، بعد إذ رأى النورَ يجرى على لونه ويترقرقُ فى ديباجته ؛ كأنما وقع الصلحُ بين وجهه وبين الحياة . ثم قال له : نعَمْ أخو الإسلام أنت ، فاستعذْ بالله من خِذْلانه ، فإنه ما خذَلكَ إلا وضْعُكَ نفسَك بإزاءِ الله تعارِضُه أو تُجاريه فى قدرته ، فيَكِلُكَ إلى هذه النفس ، فتنتهى بك إلى العجز ، وينتهى العجزُ بك إلى السخط ؛ ومتى كنتَ عاجزاً ساخطًا ، محصوراً فى نفسك ؛ موكولاً إلى قدرتك ، كنتَ كالأسد الجائع فى القفْر ، إذا ظن أن قوّته تتناول خلْقَ الفريسة ؛ فيدعو ذلك إلى نفسك اليأسَ والانزعاجَ والكآبةَ ؛ وأمثالَها من هذه المُهلِكات تقْدَحُ فى قلبك الشكَّ فى الله ، وتُثبتُ فى رُوعِك شرَّ الحياة ، وتُهدى إلى خاطرك حماقات العقل ، وتقرِّر عندك عجزَ الإرادة ؛ فتنتهى من كل ذلك ميتًا قد أزهقتْك نفسُك قبل أن تُزْهِقَها !

ولو كنتَ بدَلَ إيمانك بنفسك قد آمنتَ بالله حق الإيمان ، لسلّطك الله على نفسك ولم يسلطْها عليك ؛ فإذا رمتْك المطامعُ بالحاجة التى لا تقدر عليها ، رميتَها من نفسك بالاستغناء الذى تقدر عليه ؛ وإذا جاءتك الشهواتُ من ناحية الرغبة المقْبلة ، جئتَها من ناحية الزُّهد المنصرف ، وإذا ساورَتْك كبرياءُ الدنيا أذْلَلْتَها بكبرياء الآخرة .

وبهذا تنقلب الأحزانُ والآلامُ ضُروبا من فرَحِ الفوز والانتصار على النفس وشهواتها ، وكانت فنونًا من الخِذْلان والهمّ ، وتعود موضعَ فخرٍ ومباهاة ، وكانت أسبابَ خِزْيٍ وانكسار « وعزيمةُ الإيمان إذا هى قويتْ حصَرَت البلاءَ فى مقداره ، فإذا حصرتْه لم تزل تَنقُصُ من معانيه شيئًا شيئًا ، فإذا ضعفتْ هذه العزيمة جاء البلاءُ غامراً مُتفَشّيًا يُجاوزُ مقدارَه بما يَصْحَبُه من الخوف والرَّوْع ، فلا تزال معانيه تَزيد شيئًا شيئًا بما فيه وبما ليس فيه .

وللإيمان ضوءٌ في النفس ينير ما حولها ، فتراه على حقيقته الفانية وشيكاً أن يزول ؛ فإذا انطفأ هذا الضوء انطمست الأشياء ، فتوهمها النفس أوهاماً متباينةً على أحوالها المختلفة ؛ كما يرى الأعمى بوهمه : لا عينُه مع الأشياء تكون في طبيعتها ، ولا أشياؤه عند عينه تكونُ في حقيقتها .

* * *

قال المسيِّب : وكانت الشمسُ قد طفَّلَتْ للمغيب ؛ فقال الإمام للرجل : قم فتوضأ وأسْبغ الوضوء ، وسأعلِّمك أمراً تنتفع به في دينك ودنياك : فإذا قمتَ إلى وُضوئك فأيقِنْ في نفسك واعْزِمْ في خاطرك على أن في هذا الماء سرًّا روحانياً من أسرار الغَيب والحياة ، وأنه رمزٌ للسماء عندك ، وأنك إنما تتطهَّر به من ظلُمات نفسك التي امتدَّت على أطرافك ؛ ثم سَمِّ اللهَ (تعالى) مُفيضاً اسمَه القادرَ الكريمَ على الماء وعلى نفسك معاً ، ثم تَمثلْ أنك غسلتَ يديك مما فيهما ومما تَتعاطاه بهما من أعمال الدنيا ، وأنك آخذٌ فيهما من السماء لوجهك وأعضائك ؛ وقرِّرْ عند نفسك أن الوضوء ليس شيئاً إلا مَسحةً سماويةً تُسبِغها على كل أطرافك ، ليشعرَ بها جسمُكَ وعقلك ؛ وأنك بهذه المسحةِ السماوية تستقبلُ اللهَ في صلاتك سماوياً لا أرضياً .

فإذا أنت استشعرتَ هذا وعملتَ عليه وصار عادةً لك ، فإن الوضوء حينئذ ينزل من النفس منزلةَ الدواء ، كلما اغتممتَ أو تكرَّهتَ أو تَسخطت أو غَشيك حزنٌ أو عَرض لك وَسْواس ؛ فما تتوضأ على تلك النية إلا غسلتَ الحياةَ وغسلتَ الساعةَ التي أنت فيها من الحياة (١). وترى الماءَ تحسبه هدوءاً ليِّناً لينَ الرِّضى ، وإذا هو ينسابُ في شعورك وفي أحوالك جميعاً .

قال المسيِّب : وقمتُ أنا فجدَّدتُ وضوئي على هذه الصفة بتلك النية ؛ فإذا أنا عند نفسي مستضيءٌ برُوحٍ نَجمية لها إشراقٌ وسناء ، وإذا الوضوءُ في أضعف معانيه هو ما عَلمنا من أنه الطهارةُ والنظافة ، أما في أقوى معانيه فهو إفاضةٌ من السماء فيها التقديسُ والتزكيةُ وغَسلُ الوقتِ الإنساني مما يخالطه كلما مرَّت ساعات ، وابتداؤُه للروح كالنبات الأخضر ناضراً مطلولاً مترَطباً بالماء.

---

(١) هذه في رأينا حكمة تكرار الوضوء وتلك هي أسراره عندنا .

ثم صلى بنا الشيخُ ، وأمرنى بالمبيت مع الرجل ، كأنما خَشِى البَدَوَاتِ أن تَبدُوله فَتنقُض عَزْمَه ، أوهو زادنى عليه لأُغيِّر شخصه وأبدِّل وحدته التى كان فيها ، أو كأنّ الشيخ لم يأمن على الرجل أن يكون إنسانُه الروحىُّ قد تنبّه بأكمله فوضعنى كالتنبيه له .

وجاءنا العشاءُ من دار الشيخ فطعمنا ، ثم قام الرجل فتوضأ وصلينا العَتَمة وجلسنا نتحدث ، فاستنبأته نبأه ، فقال : مهلاً . ثم نهض فتوضأ الثالثةَ وقال : تالله ما أعرِفُ الوضوءَ بعد اليوم إلا ملامَسةً بين السماء والنفس ، وما أعرِف وقته من الروح إلا كساعة الفجر على النبات الأخضر .

* * *

قال المسيَّب : وأصبحنا فغدونا على الإمام ؛ ثم لزمنى الرجلُ فى بعض أمورى ، ثم وافينا المسجدَ صلاةَ العصر لحضور درس الشيخ ؛ وكان الناسُ كالحبّ المتراصِف على العُنقود ، لا أدرى من ساقَهم وجَمَعهم ؛ كأنما علمت الكوفةُ أن رجلاً مسلماً كفَرَ بالله كفْرَةً صَلْعاءَ ، وأنه سيحضُر درس الشيخ ، وسيحضر الشيخُ من أجله ، فهبّتْ الرياحُ الأربع تسوق أهلها إلى المسجد من أقطارها .

وجلس الشيخ مجلسَ الحديث فقال :

رَوَينا أن رجلاً كانت به جِراحَةٌ ، فأتى قَرَناً له فأخذَ مِشْقصاً[١] فذَبحَ به نفسَه ؛ فلم يُصَلِّ عليه النبىّ (صلى الله عليه وسلم) ، وترك جنازتَه مطرودةً تقتحم مَتْلفةَ الآخرة كما اقتحمتْ متلفةَ الدنيا !

روينا فى الحديث عن النبىّ (صلى الله عليه وسلم) أنه قال : « الذى يخنقُ نفسه يخنقُها فى النار ، والذى يَطْعُنُ نفسَه يطعُنُ نفسَه فى النار ، والذى يقتحم يقتحم فى النار ! »

روينا عنه (صلى الله عليه وسلم) : « من قَتلَ نفسَه بشىء عُذِّب به يومَ القيامة ! »

روينا عنه (صلى الله عليه وسلم) قال : « كان رجلٌ به جِراحٌ فقتل نفسه ،

---

(١) القرن (بفتحتين) : جعبة النشاب . والمشقص : سهم فيه نصل عريض .

فقال الله : بَدَرَنى عبدى بنفسه فحرَّمتُ عليه الجنة ! » .

قال الشعبىّ : يقول الله : « بَدَرَنى عبدى بنفسه . . . » أىْ بدرنى وتألّه فَجَعَلَ نفسَه إله نفسه ، فقبضَها وتَوفّاها ، فكان ظالما .

بَدَرَنى وتَألّه فى آخرِ أنفاسه لحظةَ ينقلبُ إلىّ ، فكان مع ظُلمه مغروراً أحمق !

بدرنى وتألّه حين ضاق ، فَهوّرَ نفسَهُ فى الموت من عجزه أن يُمسِكَها فى الحياة ، فكان عاجزاً مع ظُلمه وغُروره وحُمْقه !

بدرنى وتألّه على جهله بسرّ الحياة وحكمتها ، فلم يَسْتَحِ هذا المخلوقُ الظالم المغرور فى حمقه وعجزه وجهله — لم يستح أن يجيئنى فى صورة إله !

بَدَرَنى وتألّه ، فَطبَع نفسَهُ طابَعهَا الأبدىَّ من غىٍّ وتمرّد وسفاهة ، وأرسَلها إلىّ مقتولةً يرُدُّها علَىّ .

بدرنى وتألّه كأنما يقول : إن له نصفَ الأمر ولى النصف : أنا أحييْتُ وهو أمات . . . !

بَدَرَنى عَبْدى بنفسه فحرَّمتُ عليه الجنة !

قال الشعبىّ : وإنما تحرم الجنةُ على من يقتل نفسَهُ ، إذ ينقلبُ إلى الله وعلى روحه جِنايةُ يده ما تُفارقُها إلى الأبد : فهو هناك جيفةٌ من الجيَف مسمومةٌ أبداً ، أو مخنوقةٌ أبداً ، أو مذبوحةٌ أبداً ، أو مهشَّمةٌ أبداً ، يقول الله له : أنت بَدَرْتَنى بنفسك ، وجريتَ معى فى القَدَر مجرًى واحداً ، فستخلد نفسُك فى الصورة التى هى من عملك ، وما قتلتَ إلا حسَنَاتِك .

قال الشعبىّ : ولو عرف قاتلُ نفسه أنه سيصنع من نفسه جيفةً أبديَّة ، فمن ذا الذى يعرف أنه إذا فعل كذا وكذا تحوَّل حماراً وبقى حماراً ، فيرضَى أن يتحول ويُسرعَ ليتحوّل ؟

مِن ذلك نظر النبىُّ (صلى الله عليه وسلم) إلى جنازة ذلك الرجل الذى قتل نفسه ، كما ينظر إلى ذبابة توجَّهت بالسبِّ إلى الشمس والكواكبِ والأفلاكِ كلها ، ثم جاءته تقول له : اشهدْ لى .

• • •

قال الشيخ : ومِمَّ يقتل الإنسانُ نفسه ؟ أمَا إن الموتَ آتٍ لا ريب فيه ولا مَقْصِرَ لِحَيٍّ عنه ، وهو الخيبةُ الكُبرى تُلْقَى على هذه الحياة ؛ فما ضررُ الخيبة الصغيرة فى أمرٍ من أمور الحياة ؟

إن المرء لا يقتل نفسه من نجاحٍ بل من خيبة ، فإن كانت الخيبةُ من مال فهى الفقر أو الحاجة ، وإن كانت من عافية فهى المرضُ أو الاختلال ، وإن كانت من عِزَّة فهى الذل أو البؤس ، وإن كانت مما سوى ذلك – كالنساء وغيرهن – فهى العجز عن الشهوة أو التخيلُ الفاسد .

وليس يخيبُ الإنسانُ إلا خيبةَ عملٍ أو إرادة ، وإلا فالفقرُ والحاجة ، والمرضُ والاختلال ، والذلُّ والبؤس ، والعجز عن الشهوة وفسادُ التخيل ، كل ذلك موجودٌ فى الناس ، يحمله أهلُه راضين به صابرين عليه ، وهو الغبار النفسىُّ لهذه الأرض على نفوس أهلها . وياعجباً ! إن العُميانَ هم بالطبيعة أكثرُ الناس ضحكًا وابتسامًا وعبثًا وسخريةً ، أفتريدون أن تخاطبكم الحياةُ بأفصحَ من ذلك ؟

ليست الخيبةُ هى الشر ، بل الشرُّ كله فى العقل إذا تبلد فجمد على حالةٍ واحدة من الطمع الخائب ، أو فى الإرادة إذا وَهَنَت فبقيتْ متعلقةً بما لم يُوجَد . أفلا ترون أنه حين لا يُبالى العقلُ ولا الإرادة لا يبقى للخيبة معنًى ولا أثرٌ فى النفس ، ولا يخيب الإنسانُ حينئذ ، بل تخيب الخيبةُ نفسُها ؟

لهذا يأبى الإسلامُ على أهله الترَفَ العقلىَّ والتخيُّلَ الفاسد ، ويشتدُّ كلَّ الشدة فى أمر الإرادة ، فلا يترخص فى شىء يتعلق بها ، ولا يزال يُنميها بأعمالٍ يومية تشدُّ منها لتكونَ رقيبةً على العقل حارسةً له ، فإن للعقل أمراضًا كثيرة يقيس فيها درجات من الطيش حتى يبلغَ الجنونَ أحيانًا ؛ فكانت الإرادة عقلاً للعقل ؛ هى لِينُه إذا تصلَّب ، وهى حركتُه إذا تبلد ، وهى حِلْمُه إذا طاش ، وهى رضاه إذا سَخِط .

الإرادة شىء بين الروح والعقل ، فهى بين وجودَين ؛ ولهذا يكون بها الإنسان بين وجودَين أيضًا ، فيستطيع أن يعيشَ وهو فى الدنيا كالمنفصل عنها ، إذ يكون فى وجوده الأقوى وجود روحه ، وأكبرُ همِّه نجاحه فى هذا الوجود .

وهذا النجاح لا يأتى من المال ، ولا تُحقِّقه العافية ، ولا تُيسِّره الشهوات ، ولا يُسنِّيه التخيلُ الفاسد ؛ ولا يكون من متاع الغرور ، ولا مما عُمرُه خمسون سنة أو مائة سنة ؛ بل يأتى مما عُمْرُه الخلود ومما هو باقٍ أبداً فى معانيه من الخير والحق والصلاح ؛ فههنا يُعين المرضُ بالصبر عليه مما لا تعين الصحة ، ويُفيد الفقرُ بحقائقه ما لا تفيد الثروة ؛ وهنا يكون العقل الإنسانى عاملاً أكثر مما هو متخيِّل ، وقانعاً أكثر مما هو طامع ؛ وههنا لا موضعَ لغلبة الشهوة ، ولا كبرياء النفس ، ولا حُبَّ الذات ؛ وهذه الثلاثُ هى جالبةُ الشقاء على الإنسان حتى فى أحوال السعادة ، وبدونها يكون الإنسانُ هانئاً حتى فى أحوال الشقاء .

بالإرادة المؤمنةِ القوية ينصرفُ ذكاءُ المؤمن إلى حقائقِ العالم وصلاحِ النفسِ بها ، وبغير هذه الإرادة ينصرف الذكاءُ إلى خيال الإنسان وفسادِ الإنسان . . .

وإذا انصرف الذكاء إلى حقائقِ الدنيا كان العقل سهلاً مَرِناً مِطواعاً ، واستحال عليه أن يفهم فكرةَ قتل النفس أو يُقرَّها ، فإن هذه الفكرةَ الخبيثة لا تَستطْرِق إلى العقل إلا إذا تحجَّر وانحصر فى غرض واحدٍ قد خاب وخابت فيه الإرادةُ ففرغَت الدنيا عنده .

ولو أن امرأً تم عزمُهُ على قتل نفسه ثم صابَر الدنيا أياماً ، لا نْفَسَح عزمُه أوْ رَكَّ ؛ إذ يلين العقلُ فى هذه المدة نوعاً ما ، ويجعلُ الصبرُ بينه وبين المصيبة مسافةً ما ، فتتغير حالةُ النفس هَوْناً ما ؛ فالصبرُ كالتروُّح بالهواء على العقل الذى يكاد يختنق من احتباسه فى معنى واحد مُقْفَلٍ من جوانبه « ومَثَلُ العقل فى هذه الحال مَثَلُ القائم فى إعصارٍ لفَّه بالتراب لفًّا وسدَّ عليه مَنافذَ الهواء ، وحبسه فى هذا التراب الملتفِّ حَبْسَ الحشرةِ فى جوف القصَبة ؛ فهو على اليقين أنها حالةُ ساعةٍ طارئةٍ فى الزمن لا حالةُ الزمن ؛ وأن الهواء الذى جاء بهذا الهمّ هو الذى يذهب بهذا الهمّ .

وكما أن الأرض هى شىء غيرُ هذا الإعصار الثائر منها ، فالحياة كذلك هى أمرٌ آخرُ غيرُ شقائها .

* * *

قال الإمام : وفى كتاب الله آيتان تدلان على أنه كتابُ الدنيا كلها ، إذ وضع لهذه الدنيا مثالين : أحدهما المثالُ الروحىّ للفرد الكامل ، والآخر المثال الروحىّ للجماعة الكاملة .

أما الآية الأولى فهى قوله تعالى : « لقد كان لكم فى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِر » .

وأما الثانية فهى قوله تعالى : « مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله والذين مَعَهُ أشِدّاءُ على الكُفّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ » .

فى رجاء الله واليوم الآخر يتسامى الإنسانُ فوق هذه الحياة الفانية ، فتمرُّ همومُها حولَه ولا تصدِمه ، إذ هى فى الحقيقة تجرى من تحته فكأنْ لا سلطانَ لها عليه ؛ وهذه الهموم تجد فى مثل هذه النفس قُوًى بالغةً تصرِّفها كيف شاءت ، فلا يجىء الهمُّ قوةً تسحق ضعفًا ، بل قوة تمتحن قوةً أخرى أو تُثيرها لتكون عملاً ظاهراً يقلِّده الناسُ وينتفعون منه بالأسوة الحسنة ، والأسوة وحدها هى علم الحياةُ .

وقد ترى الفقير من الناس تحسبه مسكينًا ، وهو فى حقيقته أستاذ من أكبر الأساتيذ يلقى على الناس دروسَ نفسه القوية .

وفى رجاء الله واليوم الآخر يبطل أكبرُ أسباب الشرِّ فى الناس ، وهو نظَرُ الإنسانِ لِمَنْ هو أحظى منه بفتنة الدنيا نظراً لا يبعث إلا الحقدَ والسخط ، فينظر المؤمن حينئذ إلى ما فى الناس من الخير والصلاح والإيمان والحق والفضيلة ، وهذه بطبيعتها لا تبعث إلا السرور والغبطة . ومَن جعلها فى تفكيره أبطل أكثر الدنيا من تفكيره ؛ وبها تسقط الفروقُ بين الناس عاليهم ونازليهم ؛ كالرجل الفقير العالم إذا قدم على الغنىِّ العالم ؛ جمع بينهما الاتفاق العقلىُّ وسقط ما عداه .

وفى رجاء الله واليومِ الآخر يعيش الإنسان عُمْرَه الطويل أو القصير كأنه فى يوم يُصبح منه غاديًا على الحشر والحساب ؛ فهو متصلٌ بالخلود غيرُ مَعْنِىٍّ إلا بأسبابه ؛ وبهذا تكون أمراضُه وآلامُه ومصائبُه ليست مكارِهَ من الدنيا ، بل هى تلك المكارِهُ التى حُفَّت الجنةُ بها ؛ ولا يضرُّه الحرمان لأنه قريب الزوال ، ولا يغُرُّه المتاع لأنه قريب الزوال أيضًا .

وفى رجاء الله واليوم الآخر يَسُود الإنسان على نفسه ؛ ومن كان سيِّدَ نفسِه كان سيدَ ما حولها يُصَرِّفه بحكمهِ ، ومن كان عَبْدَ نفسِه صرَّفَه بحكمه كلُّ ما حوْله .

قال الشعبيّ : وأما المثالُ الروحيُّ للجماعة الكاملة ، فهو فى وصف المؤمنين بأنهم « رُحَمَاءُ بينهم » ؛ فهذا هذا ، ما أحسبه يحتاج إلى بَسْطٍ وبيان .

إن أكثر ما يضيق به الإنسان يكون من قِبَلِ من حوله ممَّن يُعايِشُهُم ويتصل بهم لا من قِبل نفسِه ، فإذا قام اجتماعُ أمةٍ على أنهم (رُحَمَاءُ بينهم) تقرَّرت العظَمةُ النفسيَّةُ للجميع على السواء ؛ ومن كانوا كذلك لم يَحْقِروا الفقيرَ بفقره ، ولم يُعظموا الغنيَّ لغناه ، وإنما يُحَقِّرُون ويعظِّمون لصفات ساميةٍ أو حقيرة . وبين هؤلاء يكون الفقيرُ الصابرُ أعظمَ قدراً من الغنيِّ الشاكر ، وإعظامُ الناسِ لفضيلةِ الفقير هوَ الذى يجعل فقرَه عند نفسه شيئاً ذا قيمة فى الإنسانية .

ومتى تَصححتْ آراءُ الجماعةِ فى هذه المعانى المؤلمةِ للناس بَطَلَ ألمها واستحالت معانيها ، وصار لا يَبلَى معنًى من معانى الحياةِ فى إنسانٍ إلا وضعَ إيمانُه معنًى جديداً فى مكانِه ، وتصبح الفضيلةُ وحدُها غايةَ النفس فى الجميع ؛ وبذلك يَصبر الفردُ على مصائبه ، لا بقُوَّته وحده ، ولكن بجميع القوَى التى حوله . أفلا ترَوْنَ أن إعجاب الناسِ بالشجاعةِ وتعظيمَهم صاحبَها يضع فى ألَم السلاحِ لذةً يحُسُّها لحمُ الشجاعِ البطل ؟

* * *

قال المسيَّب بن رافع : فقام رجلٌ من المجلس ، فقال . أيها الشيخ ، وإذا فَسد الناس وغَلُظَتْ قلوبهُم ، وتقطَّعتْ بينهم الأسباب ، ولم يعودوا (رُحَمَاءُ بينهم) ، وشَمِتوا بالفقير ، وتهزَّءوا بالمُبتلَى وطرحوه فى ألسنتهم كما يَطرَح الشاعر فى لسانهِ رجلاً يهجوه لا يكفُّ عنه — فما عسى أن يصنعَ المسكينُ حينئذ وكلُّ شيء يدفعه إلى قتل نفسه ؟

وقال الشعبيّ : ههنا الرجاءُ فى الله واليومِ الآخر ، وهو شعورٌ لا يُشترَى بمال ، ولا يُلتمسُ من أحد ، ولا يَعْسُرُ على من أراده ؛ والفقيرُ والمُبتلَى

وغيرُهما إنما يَصنع كلٌّ منهم مِثالَه السامى ؛ فالصبر على هذا العَنَت هو صبرٌ على إتمام المِثال ، وإذا وقع ما يسوءك أو يَحزُنُكَ فابحث فيه عن فكرته السامية ، فقلَّما يخلو منها ، بل قلما يجىء إلا بها[١] .

قال المسيَّب : فقام آخر فقال : وكيف يصنع امرُؤٌ آلتْ أحوالُ الدنيا إلى ما يُخيفه ، أو بَلَغ الهمُّ مبلَغه من قلبه فهمَّ أن يقتلَ نفسه ؟

قال الشعبىّ : فليجعل الخوفَ خَوْفَيْنِ : أحدهما خوفُه عذابَ اللهِ خالداً مخلَّداً فيه أبداً؛ فَيذْهَبُ الأقوى بالأضعف . وإذا ابتُلى فليضمَّ إلى نفسه مَن هو أشدُّ بلاءً منه ؛ ليكون همُّه أحدَ همَّيْن ، فيذهبَ الأثقلُ بالأخفّ .

إن الإنسانَ ونفسَه فى هذه الحياة كالذى أُعطى طفلاً نَزِقًا طَيَّاشًا عارمًا متمرِّداً ليؤدِّبَه ويُحْكِمَ تربيتَه وتقويمَه فيثبت بذلك أنه أُستاذٌ ، فيعطَى أجرَ صبرِه وعمله ، ثم يضيقُ الأستاذُ بالطفل ساعة فيقتله . أكذلك التأديب والتربية ؟

(١) فى كتابنا (المساكين) كلام كثير فى هذه المعانى .

الانتحار

٣

قال المسيَّبُ بنُ رافع : وكان الإمامُ قد شَغَل خاطرَه بهذه القصة فأخذت تَمُدُّ مدَّها فى نفسه ، ومكَّنت له من معانيها بمقدار ما مكَّن لها فى هَمِّه، وتفتَّق بها ذهنُه عن أساليبَ عجيبة يتهيأ بعضُها من بعضٍ كما يلدُ المعنى المعنى. فلما قال الرجُلان مَقالهما آنفًا وأجابهما بتلك الحكمةِ والموعظةِ الحسنة ، انْقدَح له من كلامهما وكلامه رأىٌ فقال :

يا أهلَ الكوفة : أنشدكم اللهَ والإسلامَ أيُّما رجل منكم ضاق بروحه يومًا فأراد إزهاقَها إلا كشف لأهل المجلس نفسَه وصَدَقَنا عن أمره ؛ ولا يَجِدَنَّ فى ذلك ثَلْبًا ولا عابًا ، فإنما النكبةُ مذهبٌ من مذاهب القَدَر فى التعليم ؛ وقد يكونُ ابتداءُ المصيبة فى رجلٍ هو ابتداءَ الحكمة فيه لنفسه أو لغيره ؛ وما من حزينٍ إلا وهو يشعر فى بعض ساعات حزنه أنه قد غُيِّبَتْ فيه أسرارٌ لم تكن فيه، وهذا من إبانة الحقيقةِ عن نفسها وموضعها كما يُلألأ فى سيفٍ بَريقُه .

وعقلُ الهمِّ عقلٌ عظيم ، فلو قد أريدَ استخراجُ علمٍ يَعلمه الناسُ من اللذات والنِّعم؛ لكان من شرح هذا العلم من الحمير والبغال والدوابِّ ما لا يكون مثلُه ولا قرابُه فى العقلاء ، ولا تَبلغه القُوى الآدميةُ فى أهلها ؛ بَيدَ أنه لو أريد علمٌ من البؤس والألم والحاجةِ لما وُجد شرحُه إلا فى الناس ، ثم لا يكون الخاصُّ منه إلا فى الخاصة منهم .

وما بانَ أهلُ النعمةِ ولا غَمَروا المساكينَ فى تَطاوُلِهم بأعناقهم إلا من أنهم يَعلُون أكتافَ الشياطين ؛ فالشيطانُ دابَّةُ الغنىِّ الذى يجهلُ الحقَّ عليه فى غناه ويحسبُ نفسه مُخَلَّى لشهواته ونعيمه ؛ كما هو دابةُ العالم الذى يجهل الحقَّ عليه فى علمه ، ويزعمُ نفسَه مخلًّى لعقله أو رأيه ، وما طال الطويلُ بذلك ولا عن ذلك قَصُرَ القصير ، وهل يصحُّ فى الرأى أن يقال هذا أطولُ من هذا لأن الأول فوق السُّلَّم والآخر فوق رجليه . . . ؟

* * *

قالى المسيَّب : فقام شيخٌ من أقصى المجلس وأقبل يتخطَّى الرقابَ والناسُ يَنْفرجون له حتى وقف بإزاء الإمام ؛ وتَفرّستُه وجعلتْ عينى تَعْجمُهُ ، فإذا شيخٌ تبدو طَلاقَةُ وجهه شبابًا على وجهه ، أبلجُ الغُرّة مُتهلّل عليه بشاشةُ الإيمان وفى أساريره أثرٌ من تقطيب قديم ، ينطق هذا وذاك أن الرجلَ فيما أتى عليه من الدهر قد كان أطفأ المصباحَ الذى فى قلبه مرةً ثم أضاءه . وعجبتُ أن يكون مثلُ هذا الشيخ قد همَّ بقتل نفسه يومًا ، وأنا أرى بعينىَّ نفسَه هذه مُنْبثِقةً فى الحياة انبثاقَ النَّخلةِ السَّحوقِ .

وتكلم هذا الرجل فقال :

أمَّا إذ ناشدتَنا اللهَ والإسلامَ وميثاقَ العلم ووحىَ الأقدار فى حكمتها ، فإنى محدِّثُك بخبرى على وصفه ورَصْفه : أملقتُ منذ ثلاثين سنةً ووقف بى من الدهر ما كان يجرى ، وأصبحتُ فى مزاولة الدنيا كعاصرِ الحَجَرِ يريد أن يشربَ منه ، وعجزتْ يدى حتى لَظُفُرُ دَجاجة فى نبشها الترابَ عن الحبَّة والحشرَةِ أقدرُ منى ؛ وطرَقَتْنى النوائبُ كأنما هى تُساكِنُنى فى دارى ، وأكلنى الدهرُ لحمًا ورمانى عظامًا ، فما كان يقفُ علىَّ إلا كلابُ الطريق ؛ ولى يومئذ امرأةٌ أعقبتُ منها طفلاً ويلزُمنى حقُّهما ولا أستطيعه ؛ وكان بيننا حُبٌّ فوق المعاشرة والألفة قد تركنى من امرأتى هذه كالشاعر الغَزِلِ من صاحبته ، غير أن الشعر فى دمى لا فى لسانى .

فلما نَهَكَتْنى المصائبُ وتناولَتْنى من قريب ومن بعيد ؛ قلت للمرأة ذاتَ يوم وقد شَحِبَتْ وانكسر وجهُها وتَقبَّضَ من هُزاله : وايمُ الله يا فلانة لو جاز أن يُؤكلَ لحمُ الآدمىّ لذبحتُ نفسى لتأكلى وتَدِرِّى على الصبىِّ ؛ ولقد هممتُ أن أركبَ رأسى وأذهبَ على وجهى لتَفقدانى فتفقدا شُؤمى عليكما ؛ ولكن ردَّنى قلبى ، وهو حَبَسَنى فى هذه الدنيا الصغيرة التى بينكما ، فليس لى من الأرض مَشْرِقٌ ولا مغربٌ إلا أنتِ وهذا الصبىّ . ولستُ أدرى والله ما نصنع بالحياة وقد كنا من نباتها الأخضرَ فرَجعنا من حَطبها اليابس ؛ وعادت الشمسُ لا تَغْذوها بل تمتص منها ما بقى ، ولا تستضىء لها ، ولكن تَسْتَوْقِدُ عليها !

إن من فَقَد الخيرَ ووقع فى الشر ، حَرِىٌّ أن يكون قد أصاب خيراً عظيما إذا قتل نفسَه فخلَص من الشر والخير جميعـًا ، لا يُكْدِى ولا يَنْجَح ، ولا يألمَ ولا يلَذّ ؛ وكما أنكرته الدنيا فلينكرْها . أمـَا إنه إن كان القبرُ فالقبرُ ولكن فى بطن الأرض لا على ظهرها كحالنا ؛ وإن كان الموتُ فالموتُ ولكن بمرّة واحدة وفى شىء واحد لا كهذا الذى نحن فيه أنواعـًا أنواعـًا . قد ماتت أيامـُنا ، وتركنا نعيش كالموتى لا أيامَ لهم ، وزاد علينا الموتى فى النعمة والراحة أنهم لا يتطفّلون على أيام غيرهم فيُطْرَدوا عن يوم هذا و يوم ذاك .

قال : فاستعبرَت المرأةُ باكيةً ، ولما فرغتْ من كلام دموعها قالت : كأنك تريد أن تَفْجَعَنا فيك ؟ قلتُ : ما عَدَوْتِ ما فى نفسى ؛ ولكن هل بقى فىَّ من تُفْجَعين فيه ؟ أما ذهب منى ذاك الذى كان لك زوجا وكاسبـًا ، وجاء الذى هو همُّك وهمٌّ هذا الصبىّ من رجلٍ كالحفرة لا تنتقل من مكانها وتأخذُ ولا تُعطِى ؟

أمْ واللهِ لكأنى خُلقتُ إنسانـًا خطـأً ، حتى إذا تبيَّنَ الغلطُ أُريد إرجاعى إلى الحيوان فلم يأتِ لا هذا ولا ذاك ، وبقيتُ بينهما ؛ يمرُّ الناس بى فيقولون إنسانٌ مِسكين : وأحسب لو نطقت الكلابُ لقالت عنى كلبٌ مِسكين . يا عجبا ! عجبـًا لا ينتهى ! أصبحت الدنيا فى يدنا من العجز واليأس كأنما هى بَعْرَةٌ نَجْهَدُ فى تحويلها يا قوتةً أو لؤلؤة . . . .

فقالت المرأة : والله لئن حَيِيتَ على هذا إن هذا لكفرٌ قبيح ، ولئن مُتَّ عليه إنه لأقبحُ وأشد .

فقلت لها : ويحكِ وماذا تَنظر العينُ المبصِرةُ فى الظلام الحالكِ إلا ما تنظرُ العمياء ؟

قالت : ولِمَ لا تنظر كما ينظر المؤمنُ بنور الله ؟

قلت : فانظرى أنت وخبِّرينى ماذا ترَيْن . أترَيْن رغيفـًا ؟ أترينْ إدامـًا ؟ أترَيْنَ ديناراً ؟

قالت : والله إنى لأرى كلَّ ذلك وأكثرَ من ذلك . أرى قمراً سيكْشِفُ هذه السُّدْفَةَ المظلِمةَ إن لم يَطْلُع فكأنْ قَدْ .

قال : فغاظتني المرأةُ ورأيتُها حينئذ أشدَّ عليَّ بِقلَّة ذات عقلِها من قلَّة ذات يدي ؛ ولولا حيّ إياها ورحمتي لها لأوقعتُ بها . واستحكم في ضميري أن أرْهِقَ نفسي وأدَعَها لما كُتِب لها .

وقلت : إنَّ جُبنَ المرأة هو نصفُ إيمانِها حين لا يكون نصفَ عقلها ، وللقدَر يدٌ ضعيفةٌ على النساء تَصْفَعُهن وتمسحُ دموعَهن ، وله يدٌ أخرى على الرجال ثقيلةٌ تصفع الرجلَ وتأخذ بحلقه فتعصِرُه .

* * *

قال : وكنتُ قد سمعتُ قولَ الجاهلية في هذه الخليقة ؛ أرحامٌ تَدْفَع ، وأرضٌ تَبْلَع . فحضَرني هذا القولُ تلك الساعةَ وشُبِّه لي ، واعتقدتُ أن هذا الإنسانَ شيء حقيرٌ في الغاية من الهوان والضَّعة : حملتْه أمه كُرْهًا ، وأثْقَلتْ به كُرها ، ووضعته كُرهًا ؛ وهو من شُؤمه عليها إذا دَنَا لها أن تَضَعَ لم يخرج منها حتى يَضْرِبهَا المخاضُ فتتقلَّبُ وتصيح وتتمزَّقُ وتَنْصَدع ؛ وربما نَشِبَ فيها فقتلها ، وربما التوى فيُبْقَرُ بطنُها عنه . وإذا هي ولدته على أيِّ حاليْها من عُسْرٍ وتطريقٍ بمثل المطَارقِ المحطِّمة ، أو سَرَاحٍ ورَواحٍ كما يتيسَّر — فإنما تلده في مَشيمَة ودماءٍ وقذَرٍ من الأخلاط كأنما هو خارجٌ من جُرْح . ثم تتناولُه الدنيا فتضَعُه من معانيها في أقبحَ وأقذرَ من ذلك كله . ثم يستوفي مُدَّته فيأخذُه القبرُ فيكون شرًّا عليه في تمزيقه وتعفينه وإحالته .

قال : وحضَرني مع كلمة الجاهلية قَولُ ذلك الجاهل الزِّنديق الذي يُعرفُ (بالبَقْليّ) — إذ كان يزعم أن الإنسان كالبَقْلة ، فإذا مات لم يَرْجِع . وقلت لنفسي : إنما أنت بَقْلةٌ حمقاءُ ذاويةٌ في أرضٍ نَشَّاشةٍ (١) ، فقتلهَا مِلْحُ أرضها أكثرَ مما أحياها .

قال : وثُرتُ إلى المُدْية أريد أن أتوجَّأ بها ، فتُبادِرني المرأةُ وتحولُ بيني وبينها ؛ وأكاد أبطُشُ بها من الغيظ ، وكانت روحُ الجحيم تزْفِرُ من حولي ،

---

(١) الأرض النشاشة : هي السبخة التي فيها الملح والماء .

لو سَمِعوا سمعوا لها شَهيقًا وهى تفور ؛ فما أدرى أىُّ مَلَكٍ هبط بوحْى الجنة فى لسانى امرأتى .

قلت لها : إنها عَزْمةٌ منى أن أقتلَ نفسى .

قالت : وما أريد أن أنْقضَها ولستُ أرُدُّك عنها وستُمْضيها .

قلت : فخلِّى بين نفسى وبين المُدية .

قالت : كلنا نفسٌ واحدةٌ أنا وأنت والصبىّ فلْنَقْضِ معًا ؛ وما بنفسى عن نفسك رغبةٌ ولا ندعُ الصبىّ يتيمًا يصفعُه من يُطْعِمه ، ويضرِبه ابنُ هذا وابنُ ذاك إذ لا يستطيعُ أن يقول فى أولاد الناس أنا ابنُ ذلك ولا ابنُ هذا .

قلت : هذا هو الرأى .

قالت : فتعالَ اذبح الطفل . . . .

* * *

قال المسيَّب بن رافع : وما بلغ الرجلُ فى قصته إلى ذبح صغيره حتى ضجَّ الناسُ ضجةً مُنكَرة ؛ وتوهم كلٌّ أب منهم أن طفلَه الصغيرَ مُمدَّدٌ للذبح وهو ينادى أباه ويشُقُّ حَلْقهُ بالصُّراخ : يا أبى يا أبى ؛ أدركْنى يا أبى .

أما الإمامُ فدَمَعتْ عيناه وكنتُ بين يديه فسمعتُه يقول : إنَّا لله ، كيف تصنعُ جهنمُ حطبَها ؟

وأنا فما قَطُّ نسيتُ هذه الكلمة ، وما قطُّ رأيتُ من بعدها كافراً ولا فاسقًا فاعتبرتُ أعمالَه إلا كان كلُّ ذلك شيئًا واحداً هو طريقةُ صَنعته حَطبًا ... كأن الشيطانَ لعنه الله يقول لأتباعه ؛ جَفِّفوه ...

وكانت هُنَيْهاتٌ ، ثم فاءَ الناسُ ورجعوا إلى أنفسهم وصاحوا بالمتكلم : ثم ماذا ؟

* * *

قال الرجل : ففتحتُ عينى وقلبى معًا ورَمقْتُ الطفلَ المسكينَ الذى لا يملك إلا يديه الضعيفتين ؛ ونظرتُ إلى مَجْرَى السكينِ من حلقِه وإلى مَحزِّها فى رقبته اللّينة ؛ ورأيتُه كأنما تَفرَّقَ بصرُه من الفزَع على كل جهة ، ورأيته يتضرَّع لى بعينيه الباكيتين ألاّ أذبَحه ، ورأيته يتوسلُ بيديه الصغيرتين كأنه عرف أنه

منى أمام قاتِله ، ثم خيِّل إلىَّ أنه يتلوَّى وينتفض ويصرُخُ من ألم الذبح تحت يد أبيه ؛ تحت يد أبيه التَّعِس .

يا ويلتاه ! لقد أخذنى ما كان يأخُذنى لو تهدَّمت السماءُ على الأرض ، وحسبتُ الكونَ كله قد انفجر صُراخًا من أجل الطفل الضعيف الذى ليس له إلاَّ ربُّه أمام القاتل .

فَهرْوَلْتُ مسرعا وتركتُ الدارَ والمرأةَ والصبىَّ وأنا أقول يا أرحمَ الراحمين . يا من خلق الطفلَ عالَـمُهُ أمُّه وأبوه وحدهما وباقى العالم هباءٌ عنده . يا من دبَّر الرضيعَ فوهبه مُلكًا ومملكةً وغنًى وسروراً وفرحا ، كلٌّ ذلك فى ثَدْى أمِّه وصدرِها لا غير . يا إلهى : أنْسِنى مثلَ هذا النسيان ، وارزقْنى مثلَ هذا الرزق ، واكفُلْنى بمثل هذا التدبير فإنى منقطعٌ إلا من رحمتك انقطاعَ الرضيع إلا من أمِّه .

* * *

قال الرجل : ولقد كنتُ مغروراً كالجيفة الراكدة تحسبُ أنها هى تفور حين فارت حشَراتُها . ولقد كنت أحقرَ من الذباب الذى لا يجد حقائقَه ، ولا يلتمسُها إلا فى أقذرِ القذر .

وما كدت أمضى كما تسوقُنى رِجلاى حتى سمعتُ صوتًا نَديًّا مطلولاً يُرَجِّع ترجيعَ الوَرْقاء فى تَحْنانِها وهو يرتِّل هذه الآية :

« واصْبِرْ نفسَك مع الذين يَدْعون ربَّهم بالغَداة والعَشِىِّ يُريدون وجهَه ولا تَعْدُ عيناكَ عنهم تريد زينةَ الحياةِ الدنيا ولا تُطعْ من أغفلنا قلبَه عن ذِكْرِنا واتَّبع هواه وكان أمرُه فُرُطا » .

قال : فوقفت أسمع وماذا كنت أسمع ؟ هذه شُعَلٌ لا كلمات ، أحرقتْ كلَّ ما كان حولى ولمسَتْ مِصباحَ رُوحى المنطفئ فإذا هو يتوهَّجُ ، وإذا الدنيا كلها تتوهج فى نوره ، وارتفعتْ نفسى عن الجَدْبِ الذى كنتُ فيه وكأنما لفَتْنى سحابةٌ من السُّحب ، ففى روحى نسيمُ الماء البارِد ورائحةُ الماء العذْب .

لعن الله هذا الاضطرابَ الذى يُبتَلى الخائفُ به . إننا نحسبه اضطراباً وما هو إلا اختلاطُ الحقائقِ على النفس وذَهابُ بعضِها فى بعض ، وتَضَرُّبُ الشرِّ فى الخير والخير فى الشرِّ حتى لا يَتبينَ جنسٌ من جنس ، ولا يُعرَفُ حَدٌّ من حد ،

ولا تمتازَ حقيقة من حقيقة . وبهذا يكون الزمنُ على المبتَلى كالماء الذى جَمدَ لا يتحركُ ولا يتَسايرُ . فيلوحُ الشرُّ وكأنه دائمًا لا يزال فى أوله يُنذِرُ بالأهوال ، وقد يكون هَوْلهُ انتهى أو يُوشك .

قال الرجل : وكنت أرى يأسى قد اعترَى كلَّ شىء ، فامتدَّ إلى آخر الكون وإلى آخر الزمن ؛ فلما سكَن ما بى إذا هو قد كان يأسَ يومٍ أو أيامٍ فى مكانٍ من الأمكنة ؛ أما ما وراء هذه الأيام وما خلْف هذا المكانِ ، فذلك حكمهُ حكمُ الشمسِ التى تطلُع وتغيب على الدنيا لإحيائها ، وحكمُ الماءِ الذى تَهْمِى السماءُ به ليسقىَ الأرضَ وما عليها ، وحكمُ استمرارِ هذه الأجرام السماوية فى مَدَارها لا تُمسكها ولا تَزِنُها إلا قوةُ خالقها .

أين أثرُ الإنسانِ الدنىء الحقيرِ فى كل ذلك ؟ وهل الحياةُ إلا بكل ذلك ؟ وما الذى فى يد الإنسان العاجزِ من هذا النظام كلِّه فيَسُوغَ له أن يقول فى حادثةٍ من حوادثه إن الخير لا يبتدئُ وإن الشر لا ينتهى ؟

تعتَرِى المصائبُ هذا الإنسانَ لتمحوَ من نفسه الخِسَّةَ والدناءة ، وتكسرَ الشرَّ والكبرياء ، وتَفثأ الحدَّةَ والطيش ؛ فلا يكون من حُمقه إلا أن يزيدَ بها طيشًا وحدَّة ، وكبرياء وشرًّا ، ودناءةً وخسة ، فهذه هى مصيبة الإنسان لا تلك. المصيبةُ هى ما ينْشأ فى الإنسان من المصيبة .

* * *

قال : وردَّدت الآية الكريمةَ فى نفسى لا أشبعُ منها ، وجعلتُ أُرتِّلها أحسنَ ترتيلٍ وأطرَبه وأشجاه ؛ فكانت نفسى تهتزُّ وترتجُّ كأنما هى تبدأ تنظيمَ ما فيها لإقرار كل حقيقة فى موضعها بعد ذلك الاختلاط والاضطراب .

صبرُ النفسِ مع الذين يمثِّلون روحانيتَها تمثيلاً دائمًا بالغَداة والعشِىِّ ، وعلى نور الحياة وظلامها ، يريدون وَجه الله الذى سبيلُه الحبُّ لا غيرُه من مال أو متاع . وتقييدُ العينين بهذا المثَل الأعلى كما يكون الأمرُ فى الجمال والحب ؛ والربطُ على الإرادة كيلا تتَفَلَّتَ فتُسِفَّ إلى حقائر الدنيا المسماة هزُءاً وتهكمًا زينةَ الدنيا ، تلك التى تشبه حقائقَ الذباب العالية . . . فتكونُ قَذرةً نجسةً ، لكنها مع ذلك زينةُ الحياة لهذا الخَلْق الذُّبابى . . .

تلك والله هى أسبابُ السعادة والقوة . أما المصائبُ كلها ، فهى فى إغفالِ القلب الإنسانى عن ذكر الله .

* * *

قال : ولما صحَّت تَوبتى ، وقَوِىَ اليقينُ فى نفسى ، كَبُرَت روحى واتسعت ، وانبعثت لها بواعث من غير حقائق الذباب ، وأشرق فيها الجمالُ الإلهىُّ ساطعاً من كل شىء ، وكان الصبحُ يطلعُ علىَّ كأنه وِلادةٌ جديدة ، فأنا دائما فى عُمر طفل ، وجاءنى الخير من حيث أحْتَسبُ ولا أحتسب ، وكأنما نمتُ فانتبهتُ غنيًّا وعَمِلَ القلبُ الحىُّ فى الزمن الحىّ .

ولقد أفدْتُ من الآية طبيعةً لم تكن فىَّ ، ولا يثبتُ معها الشرُّ أبداً ، فأصبح من خِصالى أن أرى الحاضرَ كلَّه متحركًا يمرُّ بما فيه من خيره وشره جميعًا ، وأسْتَشْعِرَ من حركته مثلما ترى عيناى من قِطَارِ الإبلِ يهتزُّ تحت رِحاله وهو يُغِذُّ السَّير .

لم أُبْعِدْ قليلاً وأنا أمشى مطمئنًّا تائبًا متوكلاً حتى دعانى رجلٌ ذو نعمة ومُروءة وجاه ، وكأنما كلَّمه قلبُه أو كامه وجهى فى قلبه فاستَنْبأنى ، وبَثَثْتُه حالى واقْتَصَصْتُ قِصتى . فقال : سيُحييك الله بالطفل الذى كدتَ تقتله فارجع إلى دارك . ثم وجَّه إلىَّ دنانير وقال : اتَّجِر بهذه على اسم الله وبركته فسينمو فيها طفلٌ من المال يبلغَ أشُدَّه . وقد صدق إيمانُه وإيمانى ، فبارك لى الله ونما طفلُ المال وبلَغَ وجاوزَ إلى شبابه .

* * *

قال المسيَّب : وجلس الرجل وكان كالخطيب على المنبر ، فقال الإمام : ما أشبه النكبَةَ بالبَيضة تُحسَبُ سجنًا لما فيها ، وهى تحوطُه وتربيِّه وتُعينُه على تمامه ، وليس عليه إلا الصبرُ إلى مدة ، والرضى إلى غاية ، ثم تَنْقُفُ البيضةُ فيخرجُ خلقًا آخر .

وما المؤمنُ فى دنياه إلا كالفَرْخ فى بَيضته ، عملُه أن يتكوَّن فيها ، وتمامُه أن ينبثقَ شخصُه الكاملُ فيخرجَ إلى عالَمِهِ الكامل .

الانتحار

٤

قال المسيَّب بنُ رافعُ : ومدَّ الإمامُ عينَه وقد رُفِعَ له شخصٌ من المجلس ؛ ثم جلّى بنظره كأنما يتطلّعُ إلى عجيبةٍ كالحق إذا بطَل ، والصدق إذا كذَب ؛ ثم ردَّ بصرَه علَيَّ كأنه يُعجِّبُني من عجبِه ؛ ثم سجَا طرْفُه كأنما أنكرَ رأىَ عينيه فهو يلتمسُ رأىَ قلبه . وتبيّنتُ في وجهه انقباضًا خيَّل إلىَّ أن الشيطانَ جاءه بهذا الرجل يُفْحِمُهُ به يُريه كيف يجعلُ أحدَ المؤمنين الصالحين يتحمَّس في دينه ليرجعَ بعد ذلك أصلاً لاغِنى عنه في إنشاء قصةِ كُفْر !

هذا هو ضيفُنا (أبو محمد البَصْرى *) يتَخَوَّضُ الناسَ ليجىءَ فيحدِّثَنا حديثَه في قتْل نفسه والإثم بِربِّه ؛ فلو قيل لى : إن قَوْسَ السماء بأحمرِه وأصفرِه وأزرقِه وأخضرِه ، قد وقع إلى الأرض واصطبغ من ألوانه أوحالاً وأقذاراً ؛ لكان هذا كهذا في تعاظُمِه وإنكارِه والعجَب منه ؛ فأبو محمد من الرجالِ الحُمْسِ [1] الذين لو كفَر أحدُهم ثم قيل « إنه كفر » ، لقَصَّر اللفظُ أن يبلغَ الحقيقةَ أو يصفَ شُنْعتَها ، كما يقَصِّر لفظُ الجنون عن وصف حكيمٍ تألّى أن يعملَ عملاً يَخرجُ به من الكون ، فلايبقى في أرضٍ ولا سماء ولا تناله يدُ الله ! إن في لفظ الكفر مع ذاك ، وفي لفظ الجنون مع هذا — شيئًا من نفاق العقل وتأدُّبِه في أداء المعنى الأخرقِ الذى لا يُشْبِهُهُ جنونٌ ولا كفر .

ونعوذُ بالله من خِذلانه ؛ فلقد يكونُ الرجلُ المؤمنُ في تشدُّده وإيغاله في الدين — كالذى يصنعُ حبلاً يَفتِلُه فتلاً شديداً فيُمِرُّه على طاقٍ بعد طاق ، ليكونَ أشدَّ له وأقوى ، ثم يُجاذبه الشيطانُ حبْلَه ، فإذا هو كان في الوهَن مثلَ

---

* يعنى المؤلف بأن محمد البصرى هذا صديقنا الأستاذ (م) ومن أجله أنشأ هذه المقالات وقد سبقت إشادتنا إلى حادثته وخبره وما فعل بنفسه — فانظر كل ذلك فى موضعه من كتابنا (حياة الرافعى) وأكثر ما يأتى فى هذا الفصل على لسان « أبي محمد البصرى » فهو من قوله بحروفه إلا قليلا من قليل .

(١) أى المتحمسين فى دينهم .

العنكبوت اتخذتْ بيتًا فى سَقْف حدّاد ؛ فرأته يصبُّ الحديدَ المصهورَ يجعله سلسلةً حَلْقةً فى حلْقة ، فذهبتْ تحكيه وتُرسِلُ من لُعابها خيطًا فى خيط تزعمه سلسلة . . . !

إن مع كل مؤمن شيطانَه يتربَّصُ به ، فلهذا ينبغى للمؤمن أن يكونَ فى كل ساعة كالذى يشعر أنه لم يؤمن إلا منذ ساعة ، فهو أبداً محترِسٌ متهيِّئٌ متجددُ الحواسّ مُرْهَفُها يستقبل بها الدنيا جديدةً على نفسه بين الفترة والفترة : ومن هذا حِكمةُ أن يؤذنَ المؤذّن،وأن تُقام الصلاةُ مراراً فى اليوم ، فكلما بدأ وقتٌ قال المؤمن : الآن أبدأ إيمانى أطهرَ ما كان وأقوى .

* * *

وقال الإمام : هِيه يا أبا محمد ! فقال البَصْرى وقد رأى الكراهةَ فى وجه الإمام : لا يُفْزِعنّك أيها الشيخ ؛ فإن الله تعالى قد يجعل ما يحبه هو فيما نكره نحن ؛ وليس للأقدار لغةٌ فتجرىَ على ألفاظنا ؛ وقد نُسمى النازلةَ تنزل بنا خساراً وهى ربح ، أو نقولُ مصيبةٌ جاءت لتبديل الحياة ، ولا تكون إلا طريقةً تَيسَّرتْ لتبديل الفكر . إنما لغةُ القدَر فى شىء هى حقيقةُ هذا الشىء حين تظهر الحقيقة ؛ وكأيّن من حادثة لا تُصيب امرأً فى نفسه إلا لتقعَ بها الحربُ بين هذه النفس وبين غرائزها . فتكونَ أعمالُ الطبيعة المعاديةِ أسبابًا فى أعمال العقل المنتصر .

وكثيرٌ من هذا البلاء الذى يُقْضَى على الإنسان ، لا يكون إلا وسائلَ من القدَر يُرَدّ بها الإنسانُ إلى عالَم فكرهِ الخاصّ به؛ فإن هذه الدنيا عالَمٌ واحد لكل مَن فيها ، ولكن دائرةَ الفكر والنفس هى لصاحبها عالَمُه وحدَه . والسعيدُ من قرَّ فى عالَمه هذا واستطاع أن يحكم فيه كالملِك فى مملكته ، نافذَ الأمر فى صغيرتها وكبيرتها ؛ والشقىُّ من لا يزال ضائعًا بين عوالم الناس ، ينظر إلى هذا الغنىّ ، وإلى ذاك المجدود ، وإلى ذلك الموفّق ؛ وهو فى كل هذا كالأجنبىّ فى غير بلده وغير قومه وغير أهله ، إذْ كلُّ شىء يصبح أجنبيًّا عن الإنسان ما دام هو أجنبيًّا عن نفسه .

لقد كنتُ ضالاًّ عن نفسى وعالَمِها ، فكنتُ فى هذه الدنيا أستشعر شعورَ

اللِّص ، أشياؤه هي أشياءُ الناس جميعًا ؛ واللصُّ ينظر إلى أموال الناس بعينَي شاعرٍ متحبّبٍ كَلِف ، وهي تنظر إليه بعينَيْ مُقاتِلٍ متربّصٍ حَذِر .

كنتُ والله إن ضِقْتُ بالناس أو وَسِعْتُهم ؛ رأيتُ في ذلك معنًى من ضيق اللص وسَعَته ؛ هو على أيِّ حالَيه لا ينظر في أعماق نفسه إلا شخصًا متواريا تحت الظلام يتسلّلُ في خَشْيَة وحذَرٍ !

وكنتُ نَزِقًا حديدَ الطبع سريعَ البادرة ؛ ومَن فَقَدَ عالم نفسه وكان في مَثَلِ اللص الذي ذكرتُ ؛ فإن هذه الطباع تكون هي أسلحته يَدْفَع بها أو يعتدى . وما قطُّ تمكّن إنسانٌ من نفسه وأحاط بها ونفذ فيها تصرُّفه ؛ إلا كان راضياً عن كل شيء إذ يتصل من كل شيء بجهته السامية لا غيرها ، حتى في اتصاله بأعدائه من الناس وأعدائه من الأشياء ؛ فما يرى هؤلاء ولا هؤلاء إلا امتحانًا لفضائله وإثباتًا لها . وقد يكون عدوُّك في بعض الأمور عينًا لك في رؤية نفسك ؛ ففيه بَركةُ هذه الحاسّةِ ونعمتُها .

ولو نحن كنا مسلمين إسلامَ نبيِّنا (صلى الله عليه وسلم) ، وإسلامَ المقتدين به من أصحابه — لأدركْنا سرَّ الكمالِ الإنساني ؛ وهو أن يَقَرَّ الإنسانُ في عالمَ نفسه ويجعلَ باطنَه كباطن كل شيءٍ إلهي ، ليس فيه إلا قانونُه الواحدُ المستمرُّ به إلى جهة الكمال ، المرتفعُ به من أجل كماله عن دوافع غيره ؛ فنَظَرُ الإنسان إلى نقص غيره هو أولُ نقْصه . والمؤمنُ كالغصن ؛ إن أثمر فتلك ثمارُ نفسه ، وإن عَطَلَ لم يَشْحَذْ ولم يحسُدْ واستمرَّ يعمل بقانونه .

ولقد نشأتُ في مَغْرِسٍ كريم ، على صورة من الحياة تُشبه صورةَ الثمرة الحُلوة ، اجتمع لها من طبيعة مَغرسها ومَرْتَبتها ما تتعيَّن به من حلاوة ونَكْهة ومَذاق ؛ فلما عَقَلْتُ وعرفتُ الناسَ بعدُ فجاريتُهم وخالطتهم ، رَأَيتُني منهم كالتفّاحة ملقاةً في البصَل . . . وكانت التفاحةُ حمقاءَ فزادت حُمقاً ، وكانت حديدةً فزادت حِدّة ، وظنّت أن الحكمة قد مَسَخَتْ في الدنيا وبدّلتْ خَلقت البصَلَة بعد أن خلقت التفاحة ؛ وما علمَت الحرقاءُ أن الكمالَ في هذه الحياة مجموعُ نقائص ، وأن للجمال وجهين : أحدُهما الذي اسمهُ القبح ؛ لا يُعرف هذا إلا من هذا ؛ وأن البصلة لو أدركتْ ما يريد الناسُ من معناها ومعنى

التفاحة لَسَمَّتْ نفسَها هى التفاحَة ، وقالت عن هذه إنها هى البصلة !

ولما رأت تفاحتى أنها عاجزةٌ أن تجعلَ الشجرَ كله فى مثل مرتبتها ومغرسها — قالت : إن الأمرَ أكبرُ من طبيعتى ، وما دام سرّ الكون مُغْلَقًا فلا تعريفَ له إلا أنه سرٌّ مغلَق ، وليَبْقَ كلُّ شىء فى طبيعة نفسه ، فعلى هذا يَصلُح كلُّ شىء ولو فى نفسه وحدها .

* * *

قال أبو محمد : ولكن بقيتْ وَحْشَةُ الدنيا وجَفوتُها ، إذ لم أكن اهتديتُ إلى عالَمى ، ولا تأكَّدَتْ عقيدتى بنفسى ؛ فكان كل ما حولى مُنْبجسًا فى رُوحى بِشرِّه ، وكانت الدنيا بهذا كالمتطابِقة فى رأيى على معنى واحد ، وزادنى أنى كنتُ رجلاً عَزَبًا متعفِّفًا ؛ وما أشبَه فراغَ الرجولة من المرأة بفراغ العقل من الذكاء ؛ هذا هو العقلُ البليد ، وتلك هى الرجولةُ البليدة !

والمرأة تُضاعِفُ معنى الحياة فى النفس ، فلا جَرَمَ كان الخَلاءُ منها مضاعَفةً لمعنى الموت ؛ عَلِمَ هذا مَن عَلِم وجَهِلَه مَن جَهِل ، فكنت أعيش من الكون فى فراغٍ ميّت ، وكنت أُحِسُّ فى كل ما حولى وحشةً عقليةً تُشعرُنى أن الدنيا غيرُ تامّة ؛ وكيف تتمُّ فى عينى دنيا أراها غيرَ الدنيا التى فى قلبى ؟

وعرفْتُ أن كلَّ يومٍ يمضى على الرجل العَزَب المتعفِّف لا يمضى حتى يهيئُ فيه مرَض يومٍ آخرَ . ومن هذه الأيام المريضةِ المتهالِكة ، تُعِدُّ الحياةُ انتقامَها من هذا الحىِّ الذى نَقَضَ آيتَها وافتَاتَ عليها ، وجَعلَ نفسَه كالإله لا زوجةَ له ولا صاحبة !

وايْمُ اللهِ إن الشيطانَ لا يفرح بالرجل الزانى وبالمرأة الزانية ما يَفرح بالرجل العَزَب وبالمرأة العزباء ؛ لأنه فى ذينك رذيلةٌ فى أسلوبها ، أما فى هذين فالشيطانُ رذيلةٌ فى أسلوب فضيلة . . ! هناك يُلِمُّ الشيطانُ ويمضى ، وهنا يأتى الشيطانُ ويُقيم !

وقد عشتُ ما عشتُ بقلب مُغلَقٍ وعقلٍ مفتوح ؛ وليتنى كنت جاهلاً مُغلقًا عقلُه ، وكان قلبى مفتوحًا لأفراح هذا الكونِ العظيم !

ومضت أيامى يَضْرِبُ بعضُها فى بعض ، ويُمرِضُ بعضُها بعضًا حتى

انتهت مُنتهاها ، وجاء اليومُ المُدْنَفُ الهالكُ الذى سيموت . . .

أصبحتُ فقلت لنفسى : كم تعيشين ويحكِ فى أحكام جسدٍ مُختلّ لا تَصْدُقُ أحكامُه ، وما أنتِ معه فى طبيعتك ولا هو معكِ فى طبيعته ؛ ففيم اجتماعُكما إلا على بلائى ونكَدى ؟

لم تصطلحا قطّ على واجبٍ ولا لذّة ، ولا حلال ولا حرام ؛ فأنتما عدُوّان لا همّ لكليهما إلا إفسادُ المسرّةِ التى تَعرِضُ للآخَر . وما أدرى بمن يسخَرُ الشيطانُ منكما ؟ فالعابدُ الذى يُوَسْوِسُ باللذاتِ يتمنّى اقترافَها ، كالفاجر الذى يُواقِعُها ويقتحمُها !

ويحكِ يا نفس ! إنى رأيت هذه الدنيا الحرقاءَ لم تُقدّم لى إلا رغيفًا وقالت : املأ بهذا بطنَك وعقلَك وعينيك وأذنيك ومشاعرَك . آه ، آه ! مُمْكِنٌ واحدٌ معه أربعةُ مستحيلات(١) ؛ إن هذا لا يُلبثُنى أن يذهبَ منى بالأربعة التى تُمسكنى على الحياة : الأملِ والعقلِ والإيمانِ والصبر .

لقد استوى فى هذه الكآبة صغيرُ همّى وكبيرُه ، وما أرانى إلا قد أشرفتُ على الهلَكةِ التى لا باقيةَ لها ، فإن وجهى المتكلّحَ المتقبّضَ يدُلُّ منى على أعصابٍ مُحتضرَة نَهكتْها أمراضُها ووساوسُها ، وإنما وجهُ الإنسان فى قُطوبه أو تَهلُّلِه هو وجهُه ووجهُ دنياه تَعبسُ أو تبتسم .

وتالله لقد عجزتُ عن كِفاح الدنيا بهذه الأعصاب المريضةِ الواهنة ؛ فإن حِبالةَ الصيّد — صيدِ الوحش — لا تكون من خَيط الإبرة . . . ! وأرانى أصبحت كإنسان حجَرىّ ليس فى طبيعته الالتواءُ إلى يمينِ الحياة ويسارِها ؛ ويُخيَّلُ إلىّ من صلابتى أنى الأسد ، ولكنى أسدٌ من حجَر ، لا تَفرِضُ قوّتُه الفرارَ منه على أحد !

* * *

قال أبو محمد : ورأيتُ نفسى فى هذا الحوار كالميّتة ، لا تُجيب ولا تعترض ولا تُنكِر ، وكنتُ أظنّها تُراوِدُنى على الحياة أو تردُّنى عن غَوايتى ؛ فلأنى سكونُها جزَعا ، وأيقنتُ أن الشيطانَ بينى وبينها ، وأنه أخذ بمَنافذِها ، فأردتُ

(١) الرغيف يملأ البطن فهذا هو الممكن ولكن عمله فى الباقيات مستحيل .

الصلاةَ فتثقلْتُ عنها ورأيتني لا أصلح لها ، بل خُيِّل إلىَّ أنى إذا قمتُ إلى الصلاة فإنما قمتُ لأتهزّأ بالصلاة !

وجعل الشيطانُ يأخذنى عن عقلى ويردُّنى إليه ، ثم يأخذنى ويردُّنى ، حتى توهمتُ أنى جُننْت ، وكأنما كان يريد اللعينُ بقيَّةَ إيمانى يجاذبُنى فيها وأُجاذبه ، فلم ألبثْ أن مسَّنى خبالٌ وألقيتُ هذه البقيةَ فى يديه !

ثم أفقتُ إفاقةً سريعة ، فرأيت (المصحفَ) يرقُبنى قريب ، فعُذْتُ به وعطفتُ عليه وقلتُ له : امنع الضربةَ عن قلبى . بَيْدَ أنى أحسستُ أنه خصمى فى موقفٍ لا ظهيرى ؛ كأنى جعلته مصحفًا عند زنديق ، فكان كلُّ إيمانى الذى بقى لى فى تلك اللحظة أنى ضعفْتُ عن حمل المصحف كما ثقلتُ عن الصلاة ، فبقى الطاهر طاهراً والنجسُ نجساً .

ولم تكن نفسى فىَّ ولا كنتُ فيها ؛ فرأيتُ الدنيا على وجه لا أدرى ما هو ، غير أنه هو ما يمكنُ أن يكونَ معقولاً من تخاليط مجنونٍ تركه عقلُه من ساعة : بقايا شعورٍ ضعيف ، وبقايا فهمٍ مريض ، تتصاغرُ فيهما الدنيا ، ويتحاقرُ بهما العقل .

فلما انتهيتُ إلى هذا لم أعقلْ ما عملت ، وكانت المُوسى قد أصابت من يدى عِرْقا ناشزاً مُنْتَبِراً ، ففار الدَّمُ وانفجر منه مثلُ الينبوع ضُرِبَ عنه الصخرُ فانشقَّ فانبثق .

وتحقَّقْت حينئذ أنه الموتُ فنظرتُ فرأيت . . .

* * *

قال المسيَّبُ راوى القصة : وتجهَّم وجهُ الرجل فأطرق وسكت ، وكان على وجهه شَفَقٌ مُحْمَرٌّ فأظلم بغتةً عند ما قال : « فنظرْتُ فرأيت » .

وارتجَّ المسجدُ بصيحةٍ واحدة : فرأيتَ ماذا ؟ رأيتَ ماذا ؟

وبعثَت الصيحةُ أبا محمد فقال : رأيتُ ثلاثةَ وجوه أشرفَتْ من المصحف تنظر إلىَّ كالعاتبة ، وكان أوسطُها كالقمر الطالع ، لو تمثَّلتْ آياتُ الجنة كلها وجهًا لكانته فى نضرته وبشاشته . وغمْغَمَت الوجوهُ الثلاثةُ بكلمات لم أسمعْ

منها شيئًا ، ولكنّ نظرَها إلىّ كان يؤدّى لى معانيَها ، وكأنها تقول : « أكذلك المؤمن . . . ؟ » .

ثم غابت وتخلّت عنى وبرزت ثلاثةُ وجوهٍ أخرى ، كأنها نقائضُ تلك ، وأعوذ بالله من أوسطِها ، لو تمثّلت آياتُ الجحيم كلُّها وجهًا لكانته فى نُكْرِه وهَوْله ، وخُيِّل إلىّ أن الوجهَ الأصغرَ منها وجهُ سُورةٍ من سُوَر المصحف ، ففكّرتُ ، فوَقَعَ لى مما قام فى نفسى من اللّعنة أنها : « تَبَّتْ يَدَا أبى لَهَبٍ وتَبَّ . . . » .

وطَمَسَ الظلامُ هذه الرؤيا وتَغيّمتِ الدنيا ، فأيقَنْتُ أن آثامى قد أقبلتْ علىّ ظُلمةً بعد ظُلمَةٍ ، والتمعَ شىءٌ أحمر ، فنظرتُ فإذا الدّمُ يتخايلُ فى عينىّ كأنه شُعَلٌ تتلوّى ، فجزِعْتُ أشدَّ الجزع ، وحسبتُها **طرائقَ ممتدّةً** لرُوحى تذهب بها إلى الجحيم .

وماتت كلُّ خواطرى بعد ذلك إلا فكرةً واحدة **بقيتْ حيّةً تأكلُ فى قلبى** أكلَ النار ، وهى : « كيف تجرأتُ فوضعتُ **بينى وبين الله حُمُقى ؟ »** .

* * *

ويقولون : إن أختى قد رأتنى أتَشَحّطُ فى دمى فصاحت ، وجاء الناس على صوتها ، وكان فيهم طبيب ، فبعد لأىٍ ما استطاع حبْسَ الدم ، واحتال حيلتَه حتى أسَفَّ الجُرحَ دواءً وضَمَدَه ؛ فجعلتُ أثوبُ نَفَسًا بعد نَفَس ، وراجعتُ قليلاً قليلاً . . .

ثم طافت الحياةُ على عينىّ ففتحتهما ، فإذا الأشياءُ تبدو لى وليس فيها حقائقُ ولا معانٍ ، كأنها تتَخلّقُ جديدةً تحت بصرى ، وكأنها خارجةٌ لساعتها من يد الله !

وتماثلْتُ شيئًا بعد ساعات ، فأحسستُ أن نفسى قد رجعتْ إلىّ ساخرةً منى تقول : كيف رأيتَ عَمَلَ العقلِ أيّها العاقل ؟

وبدأت الحياة تتجدّد ، فأقسمتُ بينى وبين نفسى أن أجدّد إيمانى بالله . ولم أكد أفعل حتى أحسستُ أن قوّةَ الوجودِ كلّها مستقرّةٌ فى روحى ، وخُيّل إلىّ أنى

أنا وحدى القوىُّ على هذه الأرض قُوّةَ جبالِها وصخورها ، على حين كان جسمى ممدّداً كالميّت لا يتماسَكُ من الضعف !

فأيقنتُ حينئذ ما أعرفه قط من الدنيا ولم أشعر به قطّ فى الحياة ولم يأتنى به علمٌ ولا فِكر : أيقنت أنها مُعجزةُ الإيمان الجديد الغضِّ ، المتّصِل بالله لتوّه كإيمان الأنبياء دونٍ أن تلمَسه شهوة ، أو تعترضَه خاطرة ، أو تكدّرَه ذرّةٌ واحدة من فكرٍ أرضيٍّ دَنِسَ .

* * *

قال المسيّب : ثم جلس المتحدّث ، وكان الناسُ فى آخر كلامه كأنما غادروا الدنيا ساعةً ، ورجعوا إليها على مثل حالته ومثلِ إيمانه ؛ فسكت الإمام ولم يتكلم ، ليدعَ كلَّ نفسٍ تكلمُ صاحبها .

الانتحار

٥

قال المسيَّبُ بنُ رافع : وأطرقَ الناسُ قليلاً بعد خَبَرِ (أبي محمد البَصْري) ؛ إذ كان كلٌّ منهم قد جَمَعَ بالَه لِما سمع ، وأخذ يَحْدِسُ ، في نفسه ويراجعُها الرأيَ ، وكان المجلسُ قد امتدَّ بنا منذ العصر وما يكاد النهارُ يُشْعِرُنا بإدباره ، حتى اعتَرَضَتْ في شمسه الغُبرةُ التي تَعتريها إذا دَنَتْ أن تَغرُب. وكان إلى يساري فتًى رَيَّانُ الشباب ، حسَنُ الصورة ، وَضيءٌ مُشرِقٌ ، له هيئةٌ وسَمْت ، أقبلَ على الأيام ، وأقبلت الأيامُ عليه .

فسمعني أطِنُّ على أُذن (مجاهدِ الأزْديّ) ؛ وكنت أعرفُه شاعراً في كلامه وشاعراً في قلبه ؛ فقلت له : إنه لم يبقَّ من النهار يا مجاهد إلا مثلُ صبرِ المحبِّ دَنا له المَوْعِد ؛ ولم يبقَ من الشمس إلا مثلُ ما تَتلفَّفُ صاحبتُه ، تأخذُ عليها ثوبَها وغَلائلَها ، ولكن بعد أن تُسقطها من هنا ومن هنا ، لترى جمالَ جسمها هنا وهنا !

فاهتزَّ الفتى لهذه الكلمات ، وسالت الرقَّةُ في أعطافه ، وقال : يا عمّ ، أما ترى ما بقي من النهار كأنه وجهُ باكٍ مَسَحَ دموعَه وليس حوله إلا كآبةُ الزمن . . . ؟

قلت : كأن لك خبراً يا فتى ، فإن كان شأنُك مما نحن فيه فقُصَّه علينا وعَلِّلْنا به سائرَ الوقت إلى أن تجِبَ الشمس، ولعلك طائرٌ بنا طَيرةً فوق الدنيا .

قال : فَمَهْ ؟

قلت : تقومُ فتتكلم ، فإني أرى لك لساناً وبياناً .

قال : أو يَحْسُنُ أن أتكلم في المسجد عن صَرْعةِ الحب وصريعِه ، وعاشقة وعاشق ؟

فبادر مجاهدٌ فقال : ويحك يا فتى ! لقد تَحَجَّرْتَ واسعاً ؛ إن المؤمن

ليصلّي بين يدى الله وكتابُ سيئاته فى عنقه منشورٌ مقروء . وهل أوقاتُ الصلاة إلا ساعاتٌ قلبيّة لكلّ يومٍ من الزمن ، تأتى الساعةُ مما قبْلها كما تأتى توبة القلب مما عملَ الجسم ؟ إنما يتلقّى المسجدُ من يدخلُه لساعتِه التى يدخله فيها ، ولو أنه حاسَبه عن أمسِ وأوّلَ منه وما خلاَ من قبل ، لطرَدَه من العتَبة ! إن المسجد يا بنىّ إنما يقول لداخلِه : ادخلْ فى زمنى ودَعْ زمنَك ، وتعالَ إلىّ أيها الإنسانُ الأرضىّ ، لتتحقّقَ أن فيكَ حاسّةً من السماء ، وجئْنى بقلبك وفكرك ، ليَشْعُرا ساعةً أنهما فىّ لا فيك[1] . ولسنا الآن يا بنىّ فى مُتَحدَّثِ كنَدِيِّ القوم يتطارحون فيه أخبارَهم ، بل نحن فى مجلسِ عالمٍ تكلمتْ فيه رقَبةُ هذا ورقبةُ هذا بما سمعتَ ؛ فقُم أنتَ فاذكرْ عِلمَ قلبِكَ وقُصَّ علينا خبرَ طيش الحبّ والشباب الذى يُشبه الكلامُ فيه أن يكون كلامًا عن الصعود إلى القمر والتّبخسِ من هناك على البرْق !

* * *

قال المسيّب : فانتهضَ الفتى ، ورأيت مجاهداً يتنهّد كأنما انصدعتْ كبِدُه : فقلت : ما بالُك ؟ قال : إن شبابى قد مرّ علىّ الساعةَ فنَسَمْتُ منه فى برْدَةِ هذا الفتى ، ثم فقدتُه فقداً ثانيًا فهرِمْتُ هرَمًا ثانيًا ، وجاءنى الحزنُ من إحساسى بأنى شيخٌ ، حزْنَ مَن همّ أن يدخلَ بابَ حبيبٍ ثم رُدّ . . . !

وتحدّث الفتى ، فإذا هو يديرُ بين فكّيه لسانَ شاعرٍ عظيم ، يتكلم كلامَه بنفسَين : إحداهما بشَريةٌ تصنع المعنى واللفظ ، والأخرى علْويةٌ تُلقِى فيها النارَ والنور .

قال : إن لى قصةً أيها الشيخ ، لم يبقَ منها إلا الكلامُ الذى دُفنتْ فيه معانيها ؛ وقد تأتى القصةُ من أخبار القلب مُفْعَمَةً بالآلام والأحزان ، لا يُراد بآلامها وأحزانها إلا إيجادُ أخلاقٍ للقلب يعيشُ بها ويتبدّل . والذى قُدّر عليه الحبُّ لا يكون قد أحبّ غيرَه أكثرَ مما يكون قد تعلم كيف ينسى نفسَه فى غيره ، وهذه كما هى أعلى درجاتِ الحبّ ؛ فهى أعلى مراتب الإحسان .

---

(١) ستأتى فلسفة المسجد فى مقالات أخرى مما يجمع هذا الكتاب ، وانظر مقالة (الله أكبر).

ومتى صَدق المرءُ في حبّه كانت فكرتُه فكرتَين : إحداهما فكرةٌ ، والأخرى عقيدة تجعلُ هذه الفكرةَ ثابتةً لا تتغيَّر ؛ وهذه كما هي طبيعةُ الحب فهي طبيعةَ الدّين .

ولا شيءَ في الدنيا غيرُ الحب يستطيع أن يَنْقُلَ إلى الدنيا ناراً صغيرة وجَنةً صغيرةً ، بقدْر ما يكفي عذابَ نفسٍ واحدةٍ أو نعيمَها ! وهذه حالة فوق البَشرية .

والفضائلُ عامَّتُها تعمل في نقل الإنسان من حيوانيته ، وقد لا تَنقل إلا أقلَّه ويبقَى في الحيوانيَّة أكثرُه : ولكنَّ الحبَّ الصادقَ يقتلع الإنسانَ من حيوانيته بمرَّةٍ واحدة ، بَيْدَ أنه لا يكون كذلك إلا إذا قَتَلَه بآلامه ؛ فهو كأعلى النسْكِ والعبادة .

كان من خَبَرى أنى دُعيتُ يومًا إلى ما يُدْعي لمثله الشبابَ في مجلس غناءٍ وشراب . يالَهُ من مجلس ! وقد قال تعالى : « إنّ اللهَ لا يَستَحيِي أن يَضرِبَ مَثلاً ما بَعُوضةً فما فوْقَها » ، والبعوضةُ في قصتى أنا كانت امرأة نَصرانيَّة . . . قَيْنَةَ فلان المغنّية الحاذقة المحْسنة المتأدّبة ، تحفَظ الخبرَ وتروى الشعر ، وتتكلم بألفاظ فيها حَلاوةُ وجهها ، وتخلُقُ النّكتة إذا شاءت خَلْقَ الزهرة المتفتّحة عليها سَقِيطُ الندَى ؛ وتجِدُّ بالحديث ما شاءت وتَهزْل ، فتجعل للكلام عقلاً وشهوةً تُضاعفُ بهما مَن تحدّثه في شهواته وعقلهِ !

وستجرى في قصتها ألفاظُ القصةِ نفسِها ، لا أتأثَّمُ من ذلك ولا أتذمَّم ؛ فقد ذكر اللهُ الخمرَ بلفظ الخمر ولم يَقُل : « الماء الذى فيه السُّكْر » ، ووَصفَ الشيطانَ ولم يقل : « الملَك الذى عمِل عملَ المرأةِ الحسناء في تكبُّرِها » ، وذكر الأصنامَ بأنها الأصنام ، ولم يُسمِّها : « حاملة السماء التي يصنعها الإنسان بيديه » وحكايةُ ما بين الرجل والمرأة هي كلامٌ يقبِّل بعضُه بعضًا ويلتزِمُ ويتعانَق !

قال المسيب : فتبسم إمامُنا ونظرتْ عيناه تسألان سؤالا . أما مجاهدٌ الأزدىّ فكان من هِزّةِ الطَّرَب كأنه على قَتَب بَعير ، وقال : لله دَرُّه فتًى ، إن هذا لبيانٌ كحيلُ العَين . . .

ثم قال الفتى : وذهبتُ إلى المجلس وقد جعلتْه هذه المغنّيةَ من حواشيه وأطرافه

كأنه تفسيرٌ لها هي . أما هي فجعلت نفسَها تفسيراً لكلمةٍ واحدة هي : « اللذّة . . . »

قال المسيَّب : وطرِب مجاهدٌ طرباً شديداً ، وسمعتُه يُخافت بصوته يقول : « لله درُّها امرأة ؛ هذه ، هذه عَدُوّةُ الحُورِ العِين ! » .

ثم قال الفتى : وتَطرَّبَ جماعةُ أهلِ المجلس إلى الشرب ، وما ذقتُ خمراً قطّ ، ولن أتذوقَها ولو شربها الناسُ جميعاً ، ولن أذوقَها ولو انقطع الغيثُ ولم تَمْطُر السماءُ إلا خمراً ؛ فإني مذ كنت يافعاً رأيتُ أبي يشربُها ، وكانت أمي تلومه فيها وتشتدُّ في تعنيفه وتحتَدِم ، وكانا يتشاحنان فينالُها بالأذى ويَنْدَرِئُ عليها بالسبّ وفُحْشِ القول . وسَكِر مرة وغلبه السكرُ حتى ثارت أحشاؤه ، فذَرَعَه القَيْءُ فتوهَّمني وِعاءً ، وجاء إليّ وأنا جالسٌ فأمسك بي وقاءَ في حِجْرى ، حتى أفرغ جوفَه ؛ وثارت أميّ لتنتزِعَه وأنشأتْ تُعالجه عني فتَصارَعَ جنونُه وعقلُها حتى كفَأته على وجهه كالإناء ؛ فالتوى كالحيَّة بطناً لظهرٍ ، واستجْمع كالقُنفذ في شَوكه ، ثم لكَزَها برجله أسفلَ بطنِها فانقلبت ، وأصاب رأسُها إجّانةَ[١] العجين فتثلَّم تثليمَ الإناء كأنما شُدِخَ ضرباً بحجَر ، وانتثَر دماغُها على الأرض أمامَ عينيّ ، ورأيتها لم تزد على أن دَفَعَتْ بإحدى يديها في الهواء ، وضمتّ بالأخرى إلى صَدْرِها ، تتوهم أنها تحميني وتدفعُه عني ؛ ثم سَكنتْ ، ولو لم تمت من الشَّجَّةِ في رأسِها لماتتْ من الضربة في بطنها !

* * *

قال المسيَّب : وأطرق الفتى هُنَيهةً وأطرق الناسُ معه ؛ فرفع مجاهد صوتَه وقال : رحمها الله ! فقال الناسُ جميعاً : رحمها الله

ثم قال الفتى : وكان عامَّةُ مَن في المجلس يعرفون ذلك مني ، ويعرفون أنه لو ساغ لإنسانٍ أن يشربَ دمَ أمِّه ما شربتُ أنا الخمر . فقالوا للمغنِّية : إن هذا لا يدخلُ في ديوانِنا[٢] . فنظرَتْ إليّ ، وهربْتُ أنا من نظرتِها بإطراقة ؛ ثم

---

(١) هي ما يعجن فيه العجين وتغسل فيه الثياب ، وقد يوضع فيها الماء ليتوضأ منه ، وتتخذ من حجر أو خزف أو غيرهما .

(٢) تعبير قديم كانوا يريدون به الشرب كأنه ديوان ملك .

قالت : تَشربُ على وجهى ؟ فقلتُ لها : إن وجهَك يقول لى : لا تشربْ . . . فتضاحكَتْ وقالت : أهو يقول لك غيرَ ما يقول لهؤلاء ؟ فهربتُ من كلامها بإطراقة أخرى، ووَصلَت الإطراقتان ما بينى وبين قلبها ؛ وتنبَّه فيها مثلُ حُنوِّ الأمّ على طفلها إذا آذته بلسانها فأطرق ساكتًا يشكوها إلى قلبها !

والتفتت لمن حضر وقالت لهم : لست أطِيبُ لكم ولا تنتفعون بى إلا أن تشربوا لى وله ُ ولأنفسكم ، وانحطّ عليهم الساقى ، فشربوا أرطالاً وأرطالاً ، وهى بين ذلك تغنّيهم وقد أقبلت عليهم وخلا وجهُها لهم من دُونى وإنما تُخالِسُنى النظرةَ بعد النظرة .

فوسوسَ لى شيطانى أنْ تَشدّدْ مع هذه بمثل عَزْمتِكَ مع الخمر فإنما هما شىءُ واحد . ولكنى كنتُ أُحِدُّ النظرَ إليها ، فمرّةً أوامِقُها نظرةَ المحبِّ للحبيب ، ومرةً أغْضِى عنها بنظرةٍ لا تنظرُ ؛ وكأنى بذلك كنت آخذها وأدَعُها ، وأصِلُها وأهجرُها . فقالت لى كالمُنكِرَة علىّ : ما بالُك تنظر إلىّ هكذا ؟ ولكن هيئةَ وجهها جعلتْ المعنى : لا تنظرْ إلىّ إلا هكذا . . . !

وأسرع الشرابُ فى القوم وأفرطَ عليهم السُّكْر؛ فبقيتْ لى وحدى وبقيتُ لها وحدها ؛ ثم تناولتْ عودَها وضمّتْه إليها ضمًّا شديداً أكثرَ من الضمّ ... وألمسْتْه صدرَها ونَهديها ، ثم رنتْ إلىّ بمعنًى ، فما شككْتُ أنها ضمّةٌ لى أنا والعود ؛ ثم غنّتْ هذا الصوت :

ألا قاتَلَ اللهُ الحمامةَ غُدْوةً
على الغصنِ ، ماذا هيَّجتْ حين غنّتِ ؟
فما سكتتْ حتى أوَيْتُ لصوتِها ،
وقلتُ : تُرى هذى الحمامةُ جُنّتِ ؟

* * *

وما وَجْدُ أعرابيةٍ قَذفتْ بها
صُروفُ النوى من حيث لم تَكُ ظنّتِ ...
إذا ذكَرتْ ماءَ العِضاهِ وطيبَه ،
وبَرْدَ الحِمى من بَطنِ خَبْتٍ ، أرنّتِ ...

بأكثر مني لَـوعةً ، غيرَ أنني
أُجمْجِمُ أحشائي على ما أجنَّتِ !

وغَنَّته غِناءً من قلبٍ يئنُّ ، وصدرٍ يتنهد ،وأحشاءٍ لا تُخفي ما أجنَّتْ ؛ وكانت ترتفع بالصوت ثم كأنما يهمي الدمعُ على صوتها ، فيرتَعِش ويتنزّل قليلاً قليلاً حتى يئن أنينَ الباكية ، ثم يعتلجُ في صدرها مع الحب ، فيتردد عاليًا ونازلاً ، ثم يرفضُّ الكلامُ في آخره دموعًا تجري .

* * *

قال المسيَّب : فنظر إليَّ مجاهد وقال : عدُوَّةُ الجنةِ واللهِ هذه يا أبا محمد ، لا تقبلُ الجنةُ من يكون معها . تقول له : كنتَ مع عدُوّتي !

ثم قال الفتى : وكان القوم قد انتَشَوْا ، فاعتراهم نصفُ النوم وبقي نصفُ اليقَظةِ في حواسِّهم ، فكل ما رأوْه منا رأوه كأحلام لا وجود لها إلا خلف أجفانهم المُثْقَلة سكراً ونُعاساً . ووثبت المغنيةُ فجاءت إلى جانبي والتصقتْ بي ، وأسرع الشيطانُ فوسوسَ لي : أنِ احذرْ فإنك رجلُ صِدْق ، وإذا صدقتَ في الخمر فلا تكذبنَّ في هذه ، ولئن مَسستَها إنها لضَياعُكَ آخرَ الدهر !

فعجبتُ أشدَّ العجب أن يكون شيطاني أسلم وأُعِنْتُ عليه كما أعين الأنبياء على شياطينهم . ولكن اللعينَ مضى يصُدُّني عن المرأةِ دون معانيها ، وكان مني كالذي يُدني الماءَ من عَيْني القتيل المتلهِّبِ جَوفُه ثم يجعله دائمًا فَوْتَ فمه ، ولقد كنتُ من الفُحولةِ بحيث يبدو لي من شدةِ الفَورةِ في دمي وشبابي أني أجمع في جسمي رجالاً عِدَّة ، ولكن ضَرَبني الشيطانُ بالخجل فلم أستطع أن أكونَ رجلاً مع هذه المرأة .

وعجبتْ هي لذلك وما أسرعَ ما نطق الشيطانُ على لسانها بالموعظة الحسنة . . . ! فقالت أحببتُك ما لم أحِبَّ أحداً ، وأحببتُ خجَلكَ أكثرَ منك ، فما يسرُّني أن تأثم فيَّ فتدخلَ النارَ بحبي ، ولو أنك ابتعتَني من مولاي ؟ فقلت : بكم اشتراكِ ؟ قالت : بألف دينار ! قلت : وأين هي مني وأنا لو بعتُ نفسي ما حصَلتْ لي ؟

فتمَّمَ الشيطانُ موعظتَه ، وقالت وأشارت إلى قلبها : إن قلبي هذا قَبِلَك

غنيًّا كنتَ أو فقيراً، وأحسَّ بك وحدك حُبَّ العذراء أوّلَ ما تحبّ ، وأنا — كما ترانى — أعيش فى السيئات كالمُكْرَهة عليها ، فسأعمل على أن تكون أنت حسنَتِى عند الله ، أذهبُ إليه حاملةً فى قلبى حُبى إياك وعفّى عنك ، ولئن كانت عفةُ من لا يشتهى ولا يجدُ تعدُّ فضيلةً كاملة ، إن عفةَ من يجدُ ويشتهى لتُعدُّ دينًا بحاله . ولا يزالُ حبى بِكراً ، ولا أزال فى ذلك عذراءَ القلب ، وهؤلاء قد نزعوا الحياءَ عنى من أجْل أنفسهم ، فألْبِسْنيه أنتَ من أجلك خاصة ؛ وإن قوة حبى كالذى سيتألم بك ويتعذّب منك لِطُولِ ما يصبرُ عنك ، ستكون هى بعينها قوةً لفضيلتى وطهارتى .

ثم تناولتْ عودَها وسوّته وغنتْ :

فلو أنّا عـلى حَجَرٍ ذُبِحْنا جَرى الدّمَيان بالخبر اليقينِ(١)

وجعلتْ تتأوّه فى غنائها كأنها تُذْبح ذبحًا ، ثم وضعت العودَ جانبًا وقالت : ما أشقانى ! إذا اتفقت لى ساعةُ زواجى فى غير وقتها فجاءت كالحلم يأتى بخيال الزمن فلا يكون فيه من الأشياء إلا خيالُ الأشياء .

ثم سألتنى : ما بالكَ لم تشرب الخمر ولم تدخل فى الديوان ؟ فبدرَ شيطانى المؤمن . . . وساق فى لسانى خبرَ أمى وأبى ، فانْتَضحَت عيناها باكيةً وتمّ لها رأىٌ فىّ كرأيى أنا فى المسكر ؛ وكان شيطانُها بعد ذلك شيطانًا خبيثًا مع أصحابها ، وبِطْرِيقًا زاهداً معى أنا وحدى !

ورأيتها لا تجالسنى إلا مُتَزايِلةً كالعذراء الخفرة إذا انقبضتْ وغطت وجهَها ، وصارت تخافنى لأنها تُحبنى ، وهَيَّبَنى الشيطانُ إليها فعادت لا ترى فىّ الرجلَ الذى هو تحت عينيها الثَّيِّبتين . . . ولكن القِدّيسَ الذى تحت قلبِها البِكر .

ولم يَعْبُدْ جمالى هو الذى يُعجبها ويُصْبِيها ، بل كان يعجبها منى أنى صنعة فضيلتها التى لم تَصنع شيئًا غيرى . . .

---

(١) كانت العرب تزعم أنه إذا قتل اثنان فجرى دمياهما على طريق واحد ثم التقيا ، حكم عليهما أنهما كانا متحابين ، فإن لم يلتقيا حكم عليهما أنهما كانا متشانئين . وما أجملها خرافة وأشعرها .

وانطلق الشيطانُ بعد ذلك فيَّ وفيها بدهائه وحُنْكَتِه وبكلِّ ما جرَّب في النساء والرجال من لَدُن آدمَ وحوَّاءَ إلى يومي ويومها! . . . فكان يجذبني إليها أشدَّ الجذب، ويدفعها عنيّ أقوى الدفع، ثم يُغريني بكل رذائلها ولا يغريها هي إلا بفضائلي. وألْقي منها في دمي فكرةَ شهوةٍ مجنونةٍ متقلِّبة، وألقى مني في دمها فكرةَ حكمةٍ رزينةٍ مستقِرَّة. وكنت ألقاها كلَّ يومٍ وأسمع غناءها؛ فما هو بالغناء ولكنه صوتُ كلِّ ما فيها لكلِّ ما فيَّ، حتى لو التصقَ جسمُها بجسمي وسارَّ البدَنُ البدنَ، وهمَسَ الدمُ للدم، لكان هو هذا الغناء الذي تغنّيه.

وأصبحت كلما استقمت لحبها تَلَوَّتْ علَيَّ؛ إذ لست عندها إلا الأملَ في المغفرة والثواب، وكأنما مُسِخْتُ حبْلاً طولُه من هنا إلى الجنة لتتعلَّق به. وعاد امتناعُها مني جنونًا دينيًّا ما يفارقُها، فابتلاني هذا بمثل الجنون في حبها من كلَفٍ وشغَف.

وانحصرتْ نفسي فيها، فرجعت معها أشدَّ غباوةً من الجاهل ينظر إلى مَدِّ بصره من الأفق فيحكم أن ههنا نهايةَ العالَم، وما ههنا إلا آخرُ بصرِه وأوّلُ جهلِه. وانفلتَ مني زمامُ روحي، وانكسر ميزانُ إرادتي، واختلَّ استواءُ فكري، فأصبحتُ إنسانًا من النقائض المتعادية أجمعُ اليقين والشكَّ فيه، والحبَّ والبغضَ له، والأملَ والخيبةَ منه، والرغبةَ والعزُوفَ عنها، وفي أقلِّ من هذا يتَخْطفُ العقل، ويتَدَلَّه من يتدلَّه.

ثم ابتُليتُ مع هذا اللَّمَمِ بجنون الغيظ من ابتذالها لأصحابها وعفتها معي، فكنتُ أتطاير قِطعًا بين السماء والأرض، وأجِدُ عليها وأتنكّرُ لها، وهي في كل ذلك لا تزيدني على حالة واحدة من الرّهبانية؛ فكان يَطير بعقلي أن أرى جسمها ناراً مشتعلة، ثم إذا أنا رُمته استحال ثلجًا، وقَرَّحَت الغَيرة قلبي وفتَّتَت كبِدي من عابدةِ الشيطان مع الجميع، الراهبةِ مع رجلٍ واحدٍ فقط! . . .

ورجعت خواطري فيها مما يُعقَلُ وما لا يُعقل؛ فكنت أرى بعضَها كأنه راجعٌ من سفرٍ طويل عن حبيبٍ في آخر الدنيا، وبعضَها كأنه خارجٌ من دار حبيبٍ في جِواري، وبعضَها كأنه ذاهبٌ بي إلى المارستان . . . !

ورأيتُنا كأننا فى عالَمين لا صلةَ بينهما ، ونحن معًا قلبًا إلى قلب ، فذهبَ هذا بالبقية التى بقيت من عقلى ؛ ولم أرَ لى مَنْجاةً إلا فى قتْلِ نفسى لأ زهقَ هذا الوحش الذى فيها .

وذهبتُ فابتعتُ شَعيرات من السمِّ الوَحِيِّ الذى يُعْجِلُ بالقتل ، وأخذتُها فى كفى وهممتُ أن أقْمَحَها وأبتلعها ، فذكرتُ أمى، فَظَهَرَت لخيالى مشدوخةَ الرأسِ فى هيئة موتها ، وإلى جانبها هذه المرأةُ فى هيئة جمالها ، وثَبَتَتْ على عينى هذه الرؤيا ، وأدْمَنتُ النظرَ فيها طويلاً فإذا أنا رجلٌ آخرُ غيرُ الأوّل ، وإذا المرأةُ غيرُ تلك ، وطَغتْ عبرة الموت على شهوةِ الحياة فمحتْها ، وصَحّ عندى من يومئذٍ أن لا علاج من هذا الحب إلا أن تُقرَن فى النفس صورةِ امرأة ميتة إلى صورةِ المرأةِ الحيَّة ، وكلما ذُكِرَتْ هذه جِيءَ لها بتلك ، فإذا استمر ذلك فإن الميّتَة تُميتها فى النفس وتُميت الشهوةَ إليها ، ما من ذلك بُدٌّ ، فايجرِّبه من شك فيه .

وانفتح لى رأىٌ عجيب، فجعلتُ أتأمل كيف آمن شيطانى ثم كَفر بَعْدُ ، على أن شيطانها هى كَفَر فى الأول ثم آمن فى الآخر ؟ فوالله ما كنتُ إلا غبيًّا خاملَ الفطنة ، إذ لم يَسْنَحْ لى الصوابُ حتى كدت أزهق نفسى وأخسر الدنيا والآخرة ؛ فإن الشيطان – لعنه الله – إنما ردّنى عن الفاحشة وهى ذنب واحد ، ليرمينى بعدها فى الذنوب كلها بالموت على الكفر !

وردَّ إلىّ هذا الخاطرُ ما عَزَبَ من عقلى . ومَن ابْتُلِىَ ببلاء شديد يزلزل يقينَه ثم أبصر اليقين ، جاء منه شخص كأنما خُلِقَ لساعته ؛ فلعنْتُ شيطانى واستعذْتُ بالله من مكره ، وألقيت السمَّ فى التراب وغيَّبتُه فيه ، وقلتُ لنفسى : ويحكِ يا نفس ! إن الحياة تعمل عملاً بالحى ، أفترضَين أن تعمل الحياةُ بأبطالها ورجالها ما عرفتِ وما علمتِ ، ثم يكون عملُها بك أنت القعودَ ناحيةً والبكاءَ على امرأة ؟

أيتها النفس ، ما الفرق بين سرقة لحم من دكان قصَّاب ، وبين سرقة لحم امرأةٍ من دار أبيها ، أو زوجِها ، أو مولاها . . . ؟

أيتها النفس ، إن إيمانَ أسلافِنا معنا ؛ إن الإسلامَ فى المسلم .

* * *

قال المسيَّب : وهنا طاش مجاهد واستخفه الطرب ، فصاح صيحةَ النصر : الله أكبر ! وجاوبه أهلُ المسجد فى صيحة واحدة : الله أكبر ! ولم يكد يهتف بها الناس حتى ارتفعت صيحة المؤذّن لصلاة المغرب . الله أكبر . . .

الانتحار

٦

تتمة

قال المسيَّب بنُ رافع : وانفضَّ مجلسُ الشيخ ، ودَرَجَتْ بعده أعوامٌ فى عدَّة الشهور من حَمْل المرأة ، بلغت فيها أمورُ الناس مبلَغها من خير الدنيا وشرّها ، مما أعرفُ وما لا أعرف ؛ ودخلْتُ البصرة أنا ومجاهدٌ الأزدىّ ، نسمع الحَسَنَ[1] ونأخذ عنه ؛ فإنّا لسائران يومًا فى سِكّة بنى سَمُرَة ، إذ وافقْنا الفتى صاحبَ النصرانية مُقبِلاً علينا ، وكنا فقدناه تلك المدة ، فأسرعَ إليه مجاهد فالتزمَه وقال : مرحبًا مرحبًا بذى نَسَب إلى القلب . وسلَّمتُ بعده وعانقته ، ثم أقبلنا نسأله ، فقلت له : ما كان آخِرُ أوّلِك ؟ قال مجاهد : بل ما كان آخرُ أولها هى ؟

فضحك الرجل وقال : ألنَّصرانيةَ تعنى ؟ قال : آخرُها من أولها كهذا منى ؛ وأومأ إلى ظله فى الأرض ممدوداً مشبوحًا مختلطًا غيرَ متميز ؛ كأنه ثوبٌ منشورٌ ليس فيه لابسُه ، وكنا فى الساعة التى يصير فيها ظلُّ كلِّ شىءٍ مِثليْهِ فهو مَزْجُ المَسْخ بالمسْخ . . .

قال مجاهد : ما أفظَّ جوابَك وأثقلَه يا رجل ! كأنك والله تاجر لا صلةَ له بالأشياء إلا من أثْمانها ؛ فنظرُه إلى فَراهةِ الدابة من الدّواب وإلى فراهة الجارية من الرقيق سواء .

قال الرجل : فأنا والله تاجر ، وأنا الساعةَ على طريق الإيوان[2] الذى يلتقى فيه تجارُ العراقِ والشام وخُراسان ؛ وقد ضربتُ فى هذه التجارات وحَسُنتْ بها حالى وتأثَّلتُ منها ؛ غير أن قلبَ التاجر غيرُ التاجر ، فليس يَزِنُ ولا يَقبِض ، ولا يبيع ولا يشترى . أما « تلك » فأصبحتْ نسيانًا ذهب لسبيله فى الزمن !

---

(١) الحسن البصرى : الإمام العظيم .

(٢) هذه الكلمة خير ما يعبر بها عن (البورصة) ، وكذلك كانوا يستعملونها .

قال مجاهد : فكيف كنتَ تراها وكيف عدْتَ تنظر إليها ؟

قال : كنت أنظر إليها بعينيّ وأفكارى وشهواتى ؛ فكانت بذلك أكثرَ من نفسها ومن النساء ، وكانت ألوانًا ألوانًا ما تنقضى ، فلما دخل بينى وبينها الزمنُ والعقل ، أبعدَها هذا عن قلبى وأبعدها ذاك عن خيالى ؛ فنظرتُ إليها بعينيّ وحدهما ، فرَجعتْ امرأة ككل امرأة ؛ وبنزولها من نفسى هذه المنزلةَ ، رجعتْ أقلّ من نفسها ومن النساء ، وهذه القلّةُ فيما عرفتُ لا تُصيب امرأةً عند محبِّها إلا فعلتْ بجمالها مثلَ ما تفعله الشيخوخةُ بجسمها ، فأدبَرَتْ به ثم أدبرتْ واستمرتْ تُدْبر !

وأنتَ فإذا أبصرتَ امرأةً شيخةً قد ذهبَت التى كانت فيها . . .وأخطرْتَ فى ذهنك نيَّةً مما بين الرجال والنساء ، فهل تُراك واجداً الشهوةَ والميلَ إلا النَّفْرةَ والمعْصية ؟ إن هذا الذى كان الحبَّ والهوى والعشقَ ، هو بعينه الذى صار الإثم والذنبَ والضلالة !

قال مجاهد : كأنك لما ذهبتَ تقتلُ نفسَك من حبها قتلتَها هى فى نفسك ؟

قال : يا رحمةً قد رَحِمْتُ بها نفسى يومئذ ! أمَا والله إن الذى يقتل نفسَه من حب امرأةٍ لَغبيّ . ويحهُ ! فليتخلّص من هذا الجزء من الحياة لا من الحياة نفسها . وقد جعل الله للحب طرَفين : أحدُهما فى اللذّة ، والآخرُ فى الحماقة ؛ ما منهما بدّ . فهذا الحبّ يُلقِى صاحبَه فى الأحلام ويُغَشّى بها على بصره ، ثم إنْ هو اتجه بطرَفه السعيد إلى حظّه المقبِل واتفقت اللذّةُ للمحب ، أيقظته اللذةُ من أحلامه ؛ وإن اتجه الحبُّ بطرفه الشقىّ إلى حظّه المُدْبر ، وقعت الحماقاتُ فنونًا شتّى بين الحبيبين ، وفعلتْ آخراً فعلَ اللذة ، فأيقظَت العاشقَ من أحلامه أيضًا . وهذا تدبيرٌ من الرحمة فى تلك القوّة المدمِّرةِ المسماةِ الحبّ . أفلا يدلّ ذلك على أن اللذةَ وهمٌ من الأوهام ما دام تحققُها هو فناءَها ؟

خذْ عنى يا مجاهد هذه الكلمة : « ليس الكمالُ من الدنيا ولا فى طبيعتها ، ولا هو شىءٌ يُدْرَك ، ولكنّ من عظمَةِ الكمال أن استمرار العمل له هو إدراكُه » .

قال مجاهد : لقد علمتَ بعدَنا علمًا ، فمن أين لك هذا وعمن أخذت ؟

قال : عن السماء !

قال : ويلك ! أين عقلُك ، فهل نزل عليك الوحى ؟

قال الرجل : لا ، ولكن تعاليا معى إلى الدار فأحدثكما .

* * *

قال المسيِّب : وذهبنا معه ؛ فأُتينا بطعام نظيف فأكلنا ، وأشعرتنا الدارُ أن ربَّها قد وقع فيما شاء من دنياه وتواصلتْ عليه النعمة ؛ فلما غسلنا أيدينا قال مجاهد : هيهِ يا أبا . . . يا أبا مَن ؟ قال : أبو عُبَيد . قال : هيهِ يا أبا عبيد . . .

فأفكَر الرجلُ ساعةً ثم قال : عهدُكما بى منذ تِسعٍ فى مجلس الإمام الشعبىِّ بالكوفة ؛ وقد كنتُ فى بقيةٍ من النعمة أتجمَّلُ بها ، وكانت تُمسكُنى على موضعى فى أعين الناس ؛ فما زالت تلك البقية تَدِقُّ وتنفَضُّ حتى نكِد عيشى ووقعْتُ فى الأيام المقعَدَةِ التى لا تمشى بصاحبها ، وانقلب الزمنُ كالعدوِّ المُغيرِ جاء ليصْطَلِمَ ويُخرِبَ ويُفسِد ، فأثَّر فىَّ أقبحَ آثاره ، فبعتُ ما بقى لى وتحملتُ عن الكوفة إلى البصرة ، وقلت : إن لم تتغيّر حالى تغيَّرت نفسى ، ولا أكون فى البصرة قد انتهيتُ إلى الفقر ، بل أكون قد بدأتُ من الفقر كما يبدأ غيرى ، وأدعُ الماضىَ فى مكانه وأمضى إلى ما يستقبلُنى .

فالتمستُ رُفْقَةً فالتأمْنا عشرين رجلاً ، فلما كنا فى الطريق ، سلبَنا اللصوصُ وحازوا القافلةَ وما تَحويه ، ونجوتُ أنا راكباً فرسى وعُمْرى ، وأدركتُ حينئذ أن الحياة وحدها مُلْكٌ عظيم ، وأنها هى الأداةُ الإلهيَّة ، والباقى كلُّه هو من أنفسنا لأنفسنا والأمرُ فيه هيِّنٌ والخَطْبُ يسير .

وقلت : لو أن اللصوصَ قد مرُّوا بنا كما يمرّ الناسُ بالناس لما نكَبونا ، ولكنهم عرضوا لنا عُروضَ اللصِّ للمال والمتاع لا للناس ، فوضعوا فينا الأيدىَ الناهبة ؛ ومن هذا أدركتُ أن ليس الشرُّ إلا حالةً يتلبَّس بها من يستطيع أن يتخلصَ منها . فإذا كان ذلك فأصلُ السعادة فى الإنسان ألا يعبأَ بهذه الحالات متى عَرَضت له ؛ وهو لا يستطيع ذلك إلا إذا تمثل الشرَّ كما يراه واقعاً فى غيره ؛ فالمرأة العفيفةُ إذا عرضَتْ لها حالة من الفُجور ، ونظرتْ إلى نفسها وحظِّ

نفسها ، فقد تعمّى وتـزِل ؛ ولكنها إذا نظرت إلى ذلك فى غيرها وإلى أثره على الفاجرة ، كانت كأنما زادت على نفسها نفسًا أخرى تُريها الأشياء مجردةً كما هى فى حقائقها

قال : ومضيت على وجهى تتقاذفنى البقاعُ والأمكنةُ ، وأنا أعانى الأرضَ والسماء ، وأخشى الليلَ والنهار ، وأكابدُ الألمَ والجوع ، حتى دخلتُ البصرةَ دخولَ البعير الرازح ، قَطَعَ الصحراءَ تأكلُ منه ولا يأكل منها ، فأنضاه السفر وحَسَره الكَلالُ ونَحتَه الثِّقَل الذى يحمله ، فجاء ببِنْيةٍ غيرِ التى كان قد خرج بها . وكانت أيامى هذه عمراً كاملاً من الشقاء ، جعلتنى أوقن أن هؤلاء الناسَ فى الحياة إنْ هم إلا كالدَّواب تحت أحمالها : لا تختار الدابةُ ما تحملُ ولا من تحمل ، ولا يُترَكُ لها مع هذا أن تختارَ الطريق ولا مدةَ السير ؛ وليس للدابة إلا شيئان : صبرُها وقُوتُها ؛ إن فقدتهما هلكتْ ، وإن وَهَنَا فيها كان ضعفُها بحسب ذلك .

إن هناك أوقاتًا من الشقاء والبؤس تقذف بالإنسان وراء إنسانيته وإنسانيةِ البشر جميعًا ، لا تبالى كيف وقع وفى أىّ وادٍ هلَك ، فلا ينفع الإنسانَ حينئذ إلا أن يعتصمَ بأخلاق الحيوان ، فى مثل رضاه الذى هو أحكمُ الحكمة فى تلك الحال ، وصبرِه الذى هو أقوى القوّة ، وقناعتِه التى هى أغنى الغنى ، وجهلِه الذى هو أعلمُ العلم ، وتوكّلِه الذى هو إيمانُ فطْرته بفطرته . لا يبالى الحيوان مالاً ولا نعيمًا ، ولا متاعًا ولا منزلةً ، ولا حظًّا ولا جاهًا ، ولن تجدَ حمارَ الملكِ يعرفُ من الملك أكثرَ مما يعرف حمارُ السَّقَّاءِ من السقّاء ؛ ولعلك لو سألتَهما وأطاقا الجوابَ لقال لك الأوّل : إن الذى فوق ظهرى ثقيلٌ مَقيتٌ بغيض ؛ ولقال لك الثانى : إن الذى يركبه خفيفٌ سهلٌ سَمْح !

ولكنّ بلاءَ الإنسان أنه حين يُطَوِّحُهُ البؤسُ والشقاءُ وراء الإنسانية ، لا ينظر لغير الناس ، فيزيده ذلك بؤسًا وحسرة ، ويَمحقُ فى نفسه ما بقى من الصبر ، ويقلبُ رضاه غيظًا ، وقناعتَه سخطًا ، ويبتليه كلُّ ذلك بالفكرة المهلِكة أعجزها أن تُهلك أحداً فلا تجد من تُدَمِّره غيرَ صاحبها ؛ فإذا هى

وجدتْ مَساغاً إلى الناس فأهلكتْ وعاثَتْ وأفسدتْ ، جعلتْ صاحبَها إما لصاً أو قاتلاً أو مجرماً ، أيَّ ذلك تيسر !

* * *

قال : وكنتُ أعرف فى البصرة فلاناً التاجر من سَراتِها ووجوهِ أهلها ، فاستطرقْتُه ؛ فإذا هو قد تحوّل إلى خُراسان ، وليس يعرفنى أحدٌ فى البصرة ولا أعرف أحداً غيرَه ؛ فكأنما نُكِبتُ مرةً ثانية بغارةِ شرٍّ من تلك ، غير أنها قطعت علىّ فى هذه المرة طريقَ أيامى ، وسلبتْنى آخرَ ما بقِى لنفسى ، وهو الأمل !

ورأيتُ أنه ما من نزولى إلى الأرض بُدّ ، فأكونَ فيها إنساناً كالدابة أو الحشَرة : حياتُها ما اتفق لا ما تريد أن يتفق ؛ وأنه لا رأْى إلا أن أسخَر من الشهوات فأزهدَ فيها وأنا القوىُّ الكريم ، قبل أن تسخرَ هى منى إذا جئتها وأنا الطامعُ العاجز !

وفى الأرضِ كفاية كلِّ ما عليها ومن عليها ، ولكن بطريقتها هى لا بطريقةِ الناس ؛ وما دامت هذه الدنيا قائمةً على التغيير والتبديل وتحوُّلِ شىءٍ إلى شىء ، فهذا الظّبىُ الذى يأكله الأسدُ لا تعرفُ الأرضُ أنه قد أُكِلَ ولا أنه افتُرِسَ ومُزّق ، بل هو عندها قد تحول قوةً فى شىءٍ آخر ومضى ؛ أما عند الناس فذلك خَطْبٌ طويل فى حكاية أوهامٍ من الخوف والوجَل ؛ كما لو اخترعتَ قصةً خرافية تحكيها عن أسد قد زَرَعَ حِمصاً . . . فتعهَّده فأنبتَه فحصَده فأكلَه ، فذهبَ الزرعُ يحتجُّ على آكِلِه ، وجعل يشكو ويقول : ليس لهذا زرعْتَنى أنت ، وليس لهذا خرجتُ أنا تحت الشمس ، وليس من أجل هذا طلعت الشمسُ علىّ وعليك !

والإنسانُ يرى بعينيه هذا التغييرَ واقعاً فى الإنسانية عامتِها وفى الأشياء جميعِها ؛ فإذا وقع فيه هو ضجَّ وسَخِط ، كأن له حقاً ليس لأحدٍ غيره ، وهذا هو العجيبُ فى قصة بنى آدم ، فلا يزالُ فيها على الأرض كلماتٌ من الجنة لا تقالُ هنا ولا تُفهَم هنا ؛ بل مَحلُّ الاعتراضِ بها حين يكونُ الإنسان خالداً لا يقع فيه التغيير والتبديل . ومن هذا كان خيالُ اللذةِ فى الأرض هو دائماً باعثَ الحماقةِ الإنسانية .

قال أبو عُبيد : وذهبتُ أعتَملُ بيديّ وجسمى على آلام من الفاقة والضُّرّ ، ومن الخيبةِ والإخفاق ، ومن إلجاءِ المسكَنة ، وإحواج الخَصَاصة ؛ فلقد رأيتُنى وإنّ يدى كيدِ العبد ، وظهرى كظهر الدّابة ، ورجلى كرجل الأسير ، وعنقى كعنق المغلول ، ويطلعُ قرصُ الشمس على الدنيا ويغيبُ عنها وما أعتمِلُ إلا بقُرص من الخبز ، ولقد رأيتنى أبذُلُ فى صيانة كلِّ قطرةٍ من ماء وجهى سحابةً من العرَق حتى لا أسأل الناس ، ويا بؤسًا لى إن سألتُ وإنْ لم أسأل !

وما كان يُمسكنى على هذه الحياة المُرَمَّقَةِ ، تأتى رَمقًا بعد رَمَق فى يومٍ يوم – إلا كلامُ الشعبيّ الذى سمعتُه فى مسجد الكوفة ، وقولُه فيمن قتل نفسَه ؛ فكان كلامهُ نوراً فى صدرى يُشرق منه كلِّ يوم مع الصبح صبحٌ لإيمانى . ولكن بقيتْ أيامُ نعمتى الأولى ولها فى نفسى ضَرَبانٌ من الوجَع كالذى يجده المجروح فى جرحه إذا ضَرَبَ عليه ، فكان الشيطانُ لا يجد منفذاً إذًا إلا منها . وفقدت الصديقَ وَعونَه ، فما كان يُقبِل علىّ صديقٌ إلا فى أحلامى من وراء الزمن الأول !

قال مجاهد : والحبيب ؟

فتبسَّم الرجل وقال : إذا فرغَت الحياةُ من الذى هو أقلُّ من الممكن ، فكيف يكون فيها الذى هو أكثرُ من الممكن ؟ إن جوعَ يوم واحد يجعل هذه الحياةَ حقيقةً جافيةً لاشعرَ فيها ، ويترك الزمنَ وما فيه ساعةٌ واحدةٌ مُعطَّرة . . . والبؤسُ يقَظةٌ مؤلمة فى القلب الإنسانىّ تُحرَم عليه الأحلام ؛ وما الحبُّ من أوّلهِ إلى آخره إلا أحلامُ القلوب بعضِها ببعض !

* * *

قال أبو عُبَيد : وتَضَعْضَعْتُ لهذه الحياة المخزيةِ وأبْرَمَتْنى أيامُها ، وحملتُ فىَّ الميّتَ والحىّ ، ورأيتُ الشيطانَ – لعنه الله – كأنما اتخذنى وِعاءً مُطَّرَحًا على طريقه يُلقِى فيه القُمامة . . . ، وظهر لى قلبى فى وساوسهِ كالمدينة الخَرِبةِ ضَرَبَها الوباء ، فأعمرُ ما فيها مَقبَرتُها ؛ وعاد البؤسُ وَقاحَ الوجهِ لا يستحى ، فلا أراه إلا فى أرذلِ أشكاله وأبردِها ؛ ولقد يكون البؤسُ لبعض الناس على شىء من الحياء فيأتى فى أسلوبِ معتذِرٍ كالمرأة الدميمةِ فى نقابها .

وقلت لنفسي : ما هو والله إلا القتل ، فهذا عُمرٌ أراه كالأسيرِ أقيم على النِّطع وسُلَّ عليه السيف ، فما ينتقم منه المنتقِمُ بأفظعَ من تأخير الضربة ، وما يرحمه الراحمُ بأحسنَ من تعجيلها !

وبتُّ أؤامِرُ هذه النفسَ في قتلها وأحدِّثها حديثَ الموت ، فسدَّدتْ رأيي فيه وقالت : ما تصنعُ بجسمٍ كالمتعفِّن أصبح كالمقبور لا أيامَ له إلا أيامُ انقراضه وتفتيته ؟ بَيْدَ أني ذكرتُ كلام (الشعبيّ) في ذلك المجلس وأنا أحفظه كلَّه ، فجعلتُ أهُذُّه[1] ما أترك منه حَرْفًا ، واتخذته متكلمًا مع نفسي لا كلامًا ، كنتُ كلَّما غلبني الضعفُ رفعتُ به صوتي وأُصغيتُ كما أصغي إلى إنسان يُكلِّمني فرأيتُ الشيطانَ بعد ذلك كاللصِّ إذا طمع في رجل ضعيفٍ منفردٍ ، ثم لما جاءه وجد معه رجلاً ثانيًا قويًّا فهرب !

قال أبو عُبيد : ونالني رَوْحٌ من الاطمئنان وجدتُ له السكينةَ في قلبي فنمت ، فإذا الفزعُ الأكبر الذى لا ينساه من سمع به ، فكيف الذى رآه بعينيه ؟

رأيتُني ميِّتًا في يد غاسِله يُقلِّبه ويغسله كأنه خِرْقة ؛ ثم حُمِلتُ على النعش كأن الحاملين قد رفعوني يقولون : انظروا أيها الناس كيف يصير الناس ؛ ثم صلى عليَّ الإمامُ الشعبيّ في مسجد الكوفة ، ثم دُلِّيتُ في قَعْرٍ مُظْلِمَةٍ وهِيلَ الترابُ عليّ ، وتركت وحيداً وانصرفوا !

وما أدري كم بقيتُ على ذلك ؛ ثم رأيتُ كأنما نُفِخَ في الصُّور وبُعْثِرت الأمواتُ جميعًا ، فطِرنا في الفضاء ، وكانت النجومُ غباراً حولنا كتراب العاصفة في العاصفة ؛ وإذا نحن في عَرَصَات القيامة وفي هول الموقف !

وتوجَّهتُ بكلِّ شعرة في جسمي إلى الرجاء في رحمة الله ؛ ورأيتُ أعمالي رؤيةً أحزنَتْني ، فهي كمدينةٍ عظيمةٍ كلُّ أهلها صعاليكُ إلا قليلا من المستورين ، أرى منهم الواحدَ بعد الواحدِ في الساعة بعد الساعة ندَروا وتَبَعثَروا وضاعوا كأعمالي الصالحة !

وذكرتُ أني كدتُ أقتل نفسي فراراً بها من العُمر المؤلم ؛ فنظرتُ ،

---

(١) الهذ : الإسراع في القراءة .

فإذا الزمنُ قد ظهر فى أبديَّتِـهِ ، ورجع الماضى حاضراً بكل ما حـَوَى كأنه لم يمض ، وإذا عمرى كلَّه لا يكاد يبلغ طرفةَ عين من دهر طويل ، فحمدتُ الله أنى لم أفتـَدِ ألمَ اللحظة القصيرةِ القصيرة ، بعذاب الأبدِ الخالدِ الخالدِ الخالد .

وجِيءَ على أعين الخلْق بأنعمِ أهل الدنيا وأكثرِهم لذَّات فى تاريخ الدنيا كلِّه ، فصاح صائحٌ : هذا أنعمُ مـَن كانَ على الأرض منذ خـَلـَقها الله إلى أن طواها . ثم غـُمِسَ هذا المنَعَّمُ فى النار غـَمْسَةً خفيفةً كنَبْضَةِ البرْق ، وأخْرِجَ إلى المحشَر ، وقيل له والناسُ جميعًا يسمعون : هل ذُقتَ نعيمًا قطّ ؟ قال : لا واللهِ .

ثم جِيءَ بأتعسِ أهل الأرض وأشدِّهم بؤسًا منذُ خـُلقت الأرض ، فغـُمِسَ فى الجنة غـَمْسَةً أسرعَ من النسيم تحرَّكَ ومر ، ثم أُخـْرِجَ إلى المحشر وقيل له : هل ذُقت بؤسًا قطّ ؟ قال : لا والله .

وسمعنا شهيقَ جهنمَ وهى تفور تكاد تـَميَّزُ من الغيظ ؛ فأيقنت أن لها نفْسًا خـُلقت من غضَبِ الله . وخرج منها عنُقٌ عظيم هائل ، لو تضرَّمت السماء كلها ناراً لأشبهته ، فجعل يلتقطُ صِنْفًا صِنفًا من الخلق ، وبدأ بالملوك الجبابرة فالتقطهم مرَّةً واحدة كالمغناطيس لترُابِ الحديد ؛ وقـَذفَ بهم إلى النار ؛ ثم انبعثَ فالتقط الأغنياءَ المفسِدين فأطارَهم إليها ؛ ثم جعل يأخذ قومًا قومًا ، وقد ألجمنى العرَقُ من الفزع ؛ ثم طِرتُ أنا فيه ، ونظرتُ ، فإذا أنا مـُحتَبسٌ فى مـُظلمة نارية كالهاوية ، ليس حولى فيها إلا قاتلو أنفسِهم . ولو أن بحار الأرض جـُعلَ فيها البحرُ فوق البحر فوق البحر ، إلى أن تجتمع كلُّها فيكون العمق كبعْدِ ما بين الأرض والسماء ، ثم تـُسْجـَرُ ناراً تـَلـَظَّى ، لكانت هى الهاويةَ التى نحن فى أعماقها ؛ وكنت سمعت من إمامنا الشعبى : أن عـُصاةَ المؤمنين الموحـِّدين إذا ماتوا على إيمانهم كانوا فى النار أحياءً وجوارحـُهم مـَوْتى ؛ لأن هذه الجوارحَ قد أطاعت الله وسبَّحته فكرُمـَت بذلك حتى على جهنم ، ثم يعذَّبون عذابًا فيه الرحمة ، ثم يـُخرَجون وينتظرهم إيمانهم على باب النار ، فكان إلى جانبى رجلٌ قتلَ نفسه ، فسمع قائلاً من بعيد يقول لمؤمِن : اخرج فإن إيمانك ينتظرك . فصاح الذى إلى جانبى : وأنا ، أفلا ينتظرنى إيمانى ؟ فقيل له : وهل جئت به ؟

ورأيت رجلاً ذَبَحَ نفسه يريد أن يصرخ يسأل اللهَ الرحمة ، فلا يخرجُ الصوتُ من حلقه ، إذ كان قد فَرَاه وبقى مَفْرِيًّا ! وأبصرتُ آخرَ قد طعن فى قلبه بمدية ، فهو هناك تسلخُ الزبانية قلبه تبحث هل فيه نيةٌ صالحة ، فلا تزال تسلُخ ولا تزال تبحث !

ورأيت آخر كان تحسَّى من السم فمات ظمآنَ يتلظَّى جوفُه ، فلا تزال تَنْشأ له فى النار سحابةٌ رَوِيةٌ تَبْرُقُ بالماء ، فإذا دنتْ منه ورَجاها ، انفجرتْ عليه بالصواعق ثم عادت تَنشأ وتنفجر !

وقال رجل : إنما كنت مجنونًا ضعيفًا عاجزاً فأزهقتُ نفسى . فنودِىَ : أو ما علمتَ أن اللهَ يحاسبك على أنك عاقلٌ لا مجنونٌ ، وقوىٌّ لا ضعيف ، وقادرٌ لا عاجز ؟ كنتَ تعقل بالأقلّ أنك ستموت ، وكنت تقوَى على أن تصبر ، وكنت تقدر أن تترك الشرّ .

وقال رجل عالم قد حزَّ فى يده بسكين فمات : « لم يكن الكمالُ من الدنيا ولا فى طبيعتها ولا هو شىء يدرك » . فصرخ فيه صوتٌ رهيب : « ولكنَّ من عظَمة الكمال أن استمرارَ العمل له هو إدراكه ! » .

* * *

قال أبو عُبيد : ثم انتصب بإزائى شيطانٌ ماردٌ أحمر ، يلتمعُ التماعَ الزجاج فيه الخمر ، فقام فى وجهى وقال : بماذا جئت إلى هنا يا عدوَّ الخمر ؟ فما كان إلا أن سمعت النداء : شفعَتْ فيك الخمرُ التى لم تشربها ، اخرج ، إن إيمانك ينتظرك

فصحت : الحمد لله ! وتحرك بها لسانى ، فانتبهت .

لقد علمت أن الصبرَ على المصائب نعمة كبرى لا يُنعِم الله بها إلا فى المصائب .

وحى القبور *

ذهبتُ فى صُبح يوم عيد الفطر أحملُ نفسى بنفسى إلى المَقْبَرَة ، وقد مات لى من الخواطرِ مَوْتَى لا مَيِّتٌ واحد ؛ فكنت أمشى وفىَّ جِنَازَةٌ بمُشَيِّعِيها ؛ من فكرٍ يَحملُ فكراً ، وخاطرٍ يَتْبعُ خاطراً ، ومعنًى يَبكى ، ومعنًى يُبكَى عليه .

وكذلك دأبى كلما انحدرتُ فى هذه الطريق إلى ذلك المكان الذى تأتيه العيونُ بدموعها ، وتمشى إليه النفوسُ بأحزانها ، وتجىء فيه القلوبُ إلى بقاياها . تلك المقابرُ التى لا يُنَادَى أهلُها مِن أهليهم بالأسماء ولا بالألقاب ، ولكن بهذا النداء : يا أحبابَنَا ، يا أحزانَنَا !

ذهبتُ أزورُ أمواتى الأعزاءَ وأتصلُ منهم بأطراف نفسى ، لأحيا معهم فى الموت ساعةً أعْرِضُ فيها أمرَ الدنيا على أمر الآخرة ، فأنسى وأذكر ، ثم أنظرُ وأعتبرُ ، ثم أتعرَّف وأتَوسَّم ، ثم أسْتبْطِنُ مما فى بطن الأرض ، وأستَظْهِرُ مما على ظهرها .

وجلستُ هناك أُشْرِفُ من دهرٍ على دهر ، ومن دنيا على دنيا ، وأخرَجت الذاكرةُ أفراحَها القديمةَ لتجعلَها مادةً جديدةً لأحزانها ؛ وانفتح لى الزمنُ الماضى فرأيتُ رَجْعَةَ الأمس ، وكأن دهراً كاملاً خُلق بحوادثه وأيامه ، ورُفع لعينىَّ كما تُرفَع الصورةُ المعلقةُ فى إطارها .

أعرف أنهم ماتوا ، ولكنى لم أشعر قطّ إلا أنهم غابوا ؛ والحبيبُ الغائبُ لا يتغيَّرُ عليه الزمانُ ولا المكانُ فى القلب الذى يحبه مهما تَراخَتْ به الأيام ؛ وهذه هى بقيةُ الروح إذا امتزجت بالحب فى روحٍ أخرى : تترك فيها مالا يُمحَى لأنها هى خالدة لا تُمحَى .

ذهب الأمواتُ ذَهَابَهم ولم يقيموا فى الدنيا ؛ ومعنى ذلك أنهم مرُّوا بالدنيا

* أنشأها فى صبيحة يوم العيد وانظر « عود على بدء » من كتاب حياة الرافعى

ليس غير ، فهذه هي الحياة حين تعبِّر عنها النفسُ بلسانها لا بلسان حاجتها وحِرصها .

الحياةُ مدةُ عمل ، وكأن هذه الدنيا بكل ما فيها من المتناقضات ، إن هي إلا مَصْنَعٌ يُسَوَّغُ كلٌّ إنسان جانبًا منه ، ثم يقال له : هذه الأداةُ فاصنع ما شئتَ ، فضيلتَك أو رذيلتَك .

* * *

جلستُ فى المقبرة ، وأطرقتُ أفكر فى هذا الموت . يا عجبًا للناس ! كيف لا يستشعرونه وهو يَهدمُ من كل حىّ أجزاءً تحيط به قبل أن يهدمَه هو بجملته ؛ وما زال كلُّ بُنْيان من الناس به كالحائط المُسَلَّطِ عليه خَرابُه ، يتَآكَّلُ من هنا ويتناثرُ من هناك ! ؟

يا عجبًا للناس عجبًا لا ينتهى ! كيف يجعلون الحياةَ مدةَ نزاع وهى مدةُ عمل ، وكيف لا تبرحُ تَنْزُو النَّوازِى بِهم فى الخلاف والباطل ، وهم كلما تَدَافَعوا بينهم قضيةً من النزاع فضربوا خَصْمًا بخصم وردّوا كيْداً بكيد ، جاء حكمُ الموت تكذيبًا قاطعًا لكل من يقول لشىء : هذا لى ؟

أمَا واللهِ إنه ليس أعجبُ فى السخرية بهذه الدنيا من أن يُعطَى الناسُ ما يملكونه فيها لإثبات أن أحداً منهم لا يملك منها شيئًا ، إذ يأتى الآتى إليها لحمًا وعظمًا ، ولا يرجع عنها الراجعُ إلا لحمًا وعظمًا ، وبينهما سفاهةُ العظمِ واللحمِ حتى على السِّكين القاطعة . . .

تأتى الأيامُ وهى فى الحقيقة تَفِرُّ فِرارَها ؛ فمن جاء من عمره عشرون سنةً فإنما مضت هذه العشرون من عمره . ولقد كان ينبغى أن تُصَحِّحُ أعمالُ الحياة فى الناس على هذه الأصل البَيِّنِ ، لولا الطباعُ المدخولةُ ، والنفوسُ الغافلةُ ، والعقولُ الضعيفةُ ، والشهواتُ العارمة ؛ فإنه ما دام العمرُ مُقْبِلاً مُدْبِراً فى اعتبار واحد ، فليس للإنسان أن يتناولَ من الدنيا إلا ما يُرضيه محسوبًا له ومحسوبًا عليه فى وقت معًا ؛ وتكونُ الحياةُ فى حقيقتها ليست شيئًا إلا أن يكونَ الضميرُ الإنسانىُّ هو الحىَّ فى الحىّ .

* * *

وما هى هذه القبور ؟ لقد رجعتْ عند أكثر الناس مع المَوْتَى أبنية ميتة ؛ فما قطُّ رأوها موجودةً إلا لينسَوْا أنها موجودة ؛ ولولا ذلك من أمرهم لكان للقبر معناه الحىُّ المُتَغَلْغِلُ فى الحياة إلى بعيد ؛ فما القبرُ إلا بناءٌ قائمٌ لفكرة النهاية والانقطاع ؛ وهو فى الطَّرَف الآخر رَدٌّ على البيت الذى هو بناءٌ قائم لفكرة البَدْء والاستمرار ؛ وبين الطَّرَفين المَعْبَدُ وهو بناءٌ لفكرة الضمير الذى يحيا فى البيت وفى القبر ، فهو على الحياة والموتِ كالقاضى بين خَصمين يُصْلح بينهما صُلحًا أو يَقضى .

القبرُ كلمةُ الصدق مبنيةً متجسِّمةً ، فكل ما حولها يَتَكَذَّبُ ويتأوَّل ، وليس فيها هى إلا معناها لا يَدْخُلُه كذبٌ ولا يعتريه تأويل . وإذا ماتت فى الأحياء كلمةُ الموت من غرور أو باطلٍ أو غفلة أو أثرة ، بقى القبرُ مُذَكِّراً بالكلمة شارحًا لها بأظهرِ معانيها ، داعيًا إلى الاعتبار بمدلولها ، مبيِّنًا بما ينطوى عليه أن الأمرَ كله للنهاية .

القبرُ كلمةُ الأرض لمن ينخدعُ فيرى العمرَ الماضىَ كأنه غيرُ ماض ، فيعملُ فى إفراغ حياته من الحياة[١] بما يملؤها من رذائله وخسائسه ؛ فلا يزال دائبًا فى معانى الأرض واستجماعِها والاستمتاع بها ، يتلو فى ذلك تِلْوَ الحيوانِ ويقْتَاسُ به ، فشريعتُه جَوْفه وأعضاؤه ؛ وترجعُ بذلك حيوانيتُه مع نفسه الروحانية ، كالحمار مع الذى يملكُه ويعلِفه ، ولو سُئل الحمارُ عن صاحبه من هو ؟ لقال : هو حِمارى . . . .

القبرُ على الأرض كلمةٌ مكتوبةٌ فى الأرض إلى آخرِ الدنيا ، معناها أن الإنسانَ حىٌّ فى قانون نهايته ، فلينظرْ كيف ينتهى .

* * *

إذا كان الأمر كله للنهاية ، وكان الاعتبارُ بها والجزاء عليها ، فالحياةُ هى الحياةُ على طريقة السلامة لا غيرِها ؛ طريقةِ إكراه الحيوان الإنسانىّ على ممارسة الأخلاقيةِ الاجتماعية ، وجعلِها أصلاً فى طباعه ، ووزن أعمالهِ بنتائجها التى تنتهى بها ، إذ كانت روحانيتُه فى النهايات لا فى بداياتها .

---

(١) أى من إنسانية الحياة .

فى الحياة الدنيا يكون الإنسانُ ذاتًا تعملُ أعمالَها ؛ فإذا انتهت الحياةُ انقلبت أعمالُ الإنسان ذاتًا يخلَدُ هو فيها ؛ فهو من الخير خالدٌ فى الخير ، ومن الشر هو خالدٌ فى الشر ؛ فكأن الموتَ إنْ هو إلا ميلادٌ للروح من أعمالها ؛ تولد مرتين : آتيةً وراجعة .

وإذا كان الأمرُ للنهاية فقد وجب أن تَبطلَ من الحياة نهاياتٌ كثيرة ، فلا يترك الشرُّ يمضى إلى نهايته بل يُحْسَم فى بدئه ويُقتل فى أول أنفاسه ، وكذلك الشأنُ فى كل ما لا يَحسنُ أن يبدأ ، فإنه لا يجوز أن يمتدَّ : كالعداوة والبغضاءِ ، والبخل والأثرة ، والكبرياءِ والغرور ، والخداع والكذب ؛ وما شابكَ هذه أو شابَهَها ، فإنها كلَّها انبعاثٌ من الوجود الحيوانىّ وانفجارٌ من طبيعته ؛ ويجب أن يكون لكل منها فى الإرادة قبرٌ كى تَسْلَم للنفس الطيبة إنسانيتُها إلى النهاية .

* * *

يا من لهم فى القبور أموات !

إن رؤيةَ القبر زيادةٌ فى الشعور بقيمة الحياة ، فيجب أن يكونَ معنى القبر من معانى السلام العقلىّ فى هذه الدنيا .

القبر فمٌ ينادى : أسرعوا أسرعوا ، فهى مدة لو صُرِفت كلها فى الخير ما وَفَتْ به ؛ فكيف يضيع منها ضَياعٌ فى الشر أو الإثم ؟ لو وُلد الإنسان ومشى وأيفَعَ وشبَّ واكتَهلَ وهَرِمَ فى يوم واحد ، فما عساه كان يُضيع من هذا اليوم الواحد ؟ إن أطولَ الأعمار لا يراه صاحبه فى ساعة موته إلا أقصرَ من يوم .

ينادى القبر : أصلحوا عيوبكم ، وعليكم وقتٌ لإصلاحها ؛ فإنها إن جاءت إلى هنا كما هى ، بقيت كما هى إلى الأبد ، وتركَها الوقتُ وهرب .

هنا قبر ، وهناك قبر ، وهنالك القبرُ أيضًا ؛ فليس ينظر فى هذا عاقلٌ إلا كان نظره كأنه حكمُ محكمة على هذه الحياة كيف تنبغى وكيف تكون .

فى القبر معنى إلغاءِ الزمان ، فمن يفهم هذا استطاع أن ينتصرَ على أيامه ، أن يُسْقِطَ منها أوقاتَ الشر والإثم ، وأن يُميتَ فى نفسه خواطرَ السوء ؛ فمن

معانى القبر ينشأ للإرادة عقلُها القوىُّ الثابت ؛ وكل الأيام المكروهة لا تجد لها مكانًا فى زمن هذا العقل ، كما لا يجد الليلُ محلاً فى ساعات الشمس .

ثلاثةُ أرواح لا تَصلُح روحُ الإنسان فى الأرض إلا بها :

روحُ الطبيعة فى جمالها ، وروحُ المعبد فى طهارته ، وروحُ القبر فى موعظته .

عروسٌ تزَف إلى قبرها*

١

كان عمرُها طاقَةَ أزهارٍ تُسمى أيامًا .

كان عمرُها طاقَةَ أزهارٍ يَنْتَسِقُ فيه اليومُ بعد اليوم كما تَنبُتُ الورقةُ الناعمةُ فى الزهرة إلى ورقةٍ ناعمةٍ مثلِها .

أيامُ الصِّبَا المَرِحَةُ حتى فى أحزانِها وهمومِها ؛ إذ كان مجيئُها من الزمن الذى خُصَّ بشباب القلبِ ، تبدو الأشياءُ فى مَجارى أحكامِها كالمسحورة ؛ فإن كانت مُفرِحَةً جاءت حاملةً فرَحَيْن ، وإن كانت مُحْزِنَةً جاءت بنصف الحزن .

تلك الأيامُ التى تعملُ فيها الطبيعةُ لشباب الجسم بِقُوًى مختلفة : منها الشمسُ والهواءُ والحركة ، ومنها الفرَحُ والنسيانُ والأحلام !

* * *

وشبَّتْ العذراءُ وأُفرِغَتْ فى قالَب الأنوثةِ الشمسىِّ القمرى ، واكتسى وجهُها ديباجةً من الزَّهَر الغَضّ ، وأودعتها الطبيعةُ سِرَّها النسائىَّ الذى يجعلُ العذراءَ فنَّ جمال لأنها فنُّ حياة ، وجعلتْها تِمثالاً للظَّرف : وما أعجبَ سِحرَ الطبيعةِ عند ما تُجَمِّلُ العذراءَ بظرفٍ كظرف الأطفال الذين ستلدُهم من بَعد ! وأسبغَتْ عليها معانىَ الرقة والحَنَان وجمال النفس ؛ وما أكرمَ يدَ الطبيعةِ عند ما تَمْهَرُ العذراءَ من هذه الصفات مَهرَها الإنسانى !

وخطبت العذراءُ لزوجها ، وعُقد له عليها فى اليوم الثالث من شهر مارس فى الساعة الخامسة بعد الظهر .

وماتت عذراءَ بعد ثلاثِ سنين ، وأُنزِلَتْ إلى قبرها فى اليوم الثالث من شهر مارس فى الساعة الخامسة بعد الظهر !

---

* هى زوج ولده سامى . وانظر خبره وخبرها فى « عود على بدء » من كتاب (حياة الرافعى) .

وكانت السنواتُ الثلاثُ عُمْرَ قلبٍ يُقطِّعُه المرض ، يتنظّرون به العُرْس ، وينتظر بنفسه الرَّمْس !

يا عجائبَ القدَر ! أذاك لحنٌ موسيقىٌّ لأنينٍ استمرَّ ثلاثَ سنوات ، فجاء آخرُه موزونًا بأوّله فى ضبطٍ ودقّة ؟

أكانت تلك العذراء تحملُ سرًّا عظيمًا سيُغيِّر الدنيا ، فردت الدنيا عليها يومَ التهنئةِ والابتسامِ والزينة ، فإذا هو يومُ الوَلْوَلَةِ والدموع والكفن ؟

٢

واهًا لك أيها الزمن ! مَن الذى يفهمك وأنت مُدّةُ أقدار ؟

واليومُ الواحدُ على الدنيا هو أيامٌ مختلفةٌ بعدد أهلِ الدنيا جميعًا ، وبهذا يعود لكل مخلوق سِرٌّ يومِه ، كما أن لكل مخلوق سرَّ روحِه ، وليس إليه لا هذا ولا هذا .

وفى اليوم الزمنىِّ الواحدِ أربُعمائةِ مليون يوم إنسانىّ على الأرض ! ومع ذلك يُحصيه عقلُ الإنسان أربعًا وعشرين ساعة ؛ يا للغباوة . . . !

وكلُّ إنسان لا يتعلّق من الحياة إلا بالشعاع الذى يُضىء المكانَ المظلمَ فى قلبه ، والشمسُ بما طلعَت عليه لا تستطيع أن تُنير القلبَ الذى لا يضيئُه إلا وجهٌ محبوب .

وفى الحياة أشياء مكذوبةٌ تكبِّر الدنيا وتُصغِّر النفس ، وفى الحياة أشياء حقيقية تَعظُم بالنفس وتَصغُر بالدنيا ؛ وذَهَبُ الأرض كلّه فقرٌ مُدْقعٌ حين تكون المعاملةُ مع القلب .

أيتها الدنيا ، هذا تحقيرُك الإلهىُّ إذا أكبرك الإنسان !

* * *

ويا عَجبا لأهل السوء المغترِّين بحياة لا بدَّ أن تنتهى ! فماذا يرتقبون إلا أن تنتهى ؟ حياةٌ عجيبةٌ غامضة ؛ وهل أعجَبُ وأغمضُ من أن يكون انتهاءُ الإنسان إلى آخرها هو أولَ فكرهِ فى حقيقتها ؟

فعند ما تَحينُ الدقائقُ المعدودةُ التى لا تَرقُمُها الساعةُ ولكن يرقمها صدرُ المُحْتَضَر . . . عند ما يكون مُلْكُ الملوكِ جميعًا كالتراب لا يَشترى شيئًا ألبتَّة . . .

. . . ماذا يكون أيُّها المجرمُ بعدما تَقْتَرِفُ الجناية ، ويقومُ عليك الدليل ، وترى حولك الجندَ والقضاة ، وتقفُ أمامك الشريعةُ والعدل ؟

* * *

أعمالُنا فى الحياة هى وحدَها الحياة ، لا أعمارُنا ، ولا حظوظُنا . ولا قيمةَ للمال ، أو الجاه ، أو العافية ، أو هى معًا — إذا سُلِبَ صاحبُها الأمنَ والقرار ! والآمِنُ فى الدنيا من لم تكن وراءه جريمةٌ لا تزال تجرى وراءه . والسعيد فى الآخرة مَن لم تكن له جريمة تُطارِدُه وهو فى السماوات .

كيف يمكن أن تخدعَ الآلةُ صاحبَها وفيها (العدّادُ) : ما تتحرّكُ من حركة إلا أشعَرَتْه فعَدَّها ؟ وكيف يمكن أن يكْذِبَ الإنسانُ ربَّه وفيه قلبُ : ما يعملُ من عمل إلا أشعره فعدَّه ؟

٣

ورأيتُ العروسَ قبل موتها بأيام .

أفرأيتَ أنتَ الغِنَى عند ما يُدْبِرُ عن إنسان ليترُكَ له الحسرةَ والذكرى الأليمة ؟ أرأيتَ الحقائقَ الجميلةَ تذهبُ عن أهلها فلا تتركُ لهم إلا الأحلامَ بها ؟ ما أتعبَ الإنسانَ حين تتحوّل الحياةُ عن جسمه إلى الإقامة فى فكره !

وما هى الهمومُ والأمراض ؟ هى القبرُ يستبطىء صاحبَه أحيانًا فينفضُ فى بعض أيامه شيئًا من ترابه . . . !

رأيتُ العَروسَ قبل موتها بأيام ، فيالله مِن أسرار الموت ورهبتها ! فرَغَ جسمُها كما فرغتْ عندها الأشياءُ من معانيها ! وتخلّى هذا الجسمُ عن مكانه للرُّوح تَظهرُ لأهلها وتقفُ بينهم وقفةَ الوَداع !

وتحوّل الزمنُ إلى فكرِ المريضة ؛ فلم تَعُدْ تعيشُ فى نهار وليل ، بل فى فكر مُضىء أو فكر مظلم !

يا إلهى ! ما هذا الجسمُ المتهدِّمُ المقبِلُ على الآخرة ؛ أهو تمثالٌ بَطَلَ تعبيرُه ، أم تمثالٌ بدأ تعبيرُه ؟

لقد وثِقَتْ أنه الموت ، فكان فكرُها الإلهيُّ هو الذى يتكلم ؛ وكان وجهُها كوجه العابد : عليه طَيفُ الصلاةِ ونورُها . والروحُ الإنسانية متى عبَّرت لا تعبر إلا بالوجه .

ولها ابتسامةٌ غريبةُ الجمال ؛ إذ هى ابتسامةُ آلامٍ أيقنتْ أنها مُوشِكةٌ أن تنتهى ! ابتسامةُ روح لها مثلُ فَرحِ السجين قد رأى سجَّانَه واقفًا فى يده الساعة يرقُبُ الدقيقةَ والثانية ليقول له : انطلِقْ !

* * *

ودخلتُ أعودُها فرأتْ كأننى آتٍ من الدنيا . . . ! وتَنسَّمتْ منى هواءَ الحياة ، كأننى حديقةٌ لا شخص !

ومَن غيرُ المريض المُدْنَف ، يعرفُ أن الدنيا كلمةٌ ليس لها معنًى أبداً إلا العافية ؟ مَن غيرُ المريضِ المُشْفِى على الموت ، يعيشُ بقلوب الناس الذين حوله لا بقلبه ؟

تلك حالةٌ لا تنفع فيها الشمسُ ولا الهواء ولا الطبيعةُ الجميلة ، ويقوم مقامَ جميعِها للمريض أهلُه وأحبَّاؤُه !

وكان ذَوُوها من رهبة القدر الدانى كأنهم أسرى حَرْبٍ أُجلِسوا تحت جِدارٍ يريد أن ينقضَّ ! وكانت قلوبهُم من فزعها تَنبِضُ نبضًا مثلَ ضَرَبات المَعَاول .

وباقتراب الحبيبِ المحتَضَر من المجهول ، يُصبح من يحبُّه فى مجهولٍ آخر ، فتختلط عليه الحياةُ بالموت ، ويعود فى مثل حَيرةِ المجنون حين يُمسكُ بيده الظلَّ المتحرِّكَ ليمنعَه أن يذهب ! وتَعْروه فى ساعة واحدة كآبةُ عمرٍ كامل ، تُهيِّئُ له جلالَ الحسِّ الذى يشهد به جلالَ الموت !

* * *

وحانت ساعةُ ما لا يُفْهم ، ساعةُ كلِّ شيءٍ ، وهى ساعةُ اللاشيءِ فى

العقل الإنساني ! فالتفتت العروسُ لأبيها تقول : « لا تحزَنْ يا أبي . . . » ولأمها تقول : « لا تحزني يا أمي . . . ! »

وتبسمت للدموع كأنما تحاولُ أن تكلمـَها هي أيضًا ؛ تقول لها : « لا تبكي . . . ! » وأشفقت على أحيائها وهي تموت ، فاستجمعت روحـَها ليبقـَى وجهُها حيًّا من أجلِهم بضعَ دقائق ! وقالت : « سأغادركم مبتسمةً فعيشوا مبتسمين ، سأتركُ تذكاري بينكم تذكارَ عروس ! . . . »

ثم ذكـَرتِ الله وذكـَّرتهم به ، وقالت : « أشهد أن لا إله إلا الله » . وكررتـْها عشراً ! وتملأتْ روحـُها بالكلمة التي فيها نورُ السماوات والأرض ، ونطقت من حقيقةِ قلبها بالاسمِ الأعظمِ الذى يجعلُ النفسَ منيرةً تتلألأ حتى وهيَ في أحزانها .

ثم استقبلت خالقَ الرحمةِ في الآباء والأمهات ! وفي مثل إشارةِ وَداعٍ من مسافرٍ انبعث به القِطار ، ألقت إليهم تحيةً من ابتسامتها وأسلمت الروح !

٤

يا لَعجائب القدر ! مشينا في جنازة العروس التي تـُزفُّ إلى قبرها طاهرةً كالطفلة ولم يبارِكْ لها أحد ! فما جاوزنا الدار إلا قليلاً حتى أبصرتُ على حائط في الطريق إعلانـًا قديمـًا بالخط الكبير الذى يصيح للأعين ؛ إعلانـًا قديمـًا عن (رواية) هذا هو اسمُها : « مبروك . . . ! »

واختـَرقنا المدينةَ وأنا أنظر وأتقصـَّى ، فلم أرَ هذا الإعلانَ مرةً أخرى ! واختـَرقنا المدينةَ كلـَّها ، فلما انقطع العـُمرانُ وأشرفنا على المقبرة ، إذا آخرُ حائطٍ عليه الإعلان : « مبروك . . . ! »

موت أم *

رجعتُ من الجنازة بعد أن غبّرتُ قدمىَّ ساعةً فى الطريق التى ترابُها ترابٌ وأشعة ، وكانت فى النعش لؤلؤةٌ آدميةٌ محطّمةٌ ، هى زوجةُ صديق طحطحتْها الأمراضُ ففرّقتها بين علل الموت ، وكان قلبُها يُحييها فأخذ يُهلكُها ، حتى إذا دنا أن يَقْضِيَ عليها رحمها الله فقضى فيها قضاءَه . ومن ذا الذى مات له مريضٌ بالقلب ولم يره من قلبه فى علّته كالعصفورة التى تتهتّكُ تحت عينى ثعبانٍ سلط عليها سمومَ عينيه ! .

كانت المسكينةُ فى الخامسة والعشرين من سنّها ، أما قلبُها ففى الثمانين أو فوق ذلك ؛ هى فى سن الشباب وهو متهدّمٌ فى سن الموت .

وكانت فاضلةً تقيةً صالحة ، لم تتعلم ولكنَّ علّمَها التقوى والفضيلة . وأكملُ النساء عندى ليست هى التى ملأت عينيها من الكتب فهى تنظر إلى الحياة نظراتٍ تَحِلُّ مشاكلَ وتخلق مشاكل ؛ ولكنها تلك التى تنظر إلى الدنيا بعينٍ متلألئة بنور الإيمان تُقِرُّ فى كل شىء معناه السماوى ، فتؤمنُ بأحزانها وأفراحها معًا ، وتأخذ ما تُعطَى من يد خالقها رحمةً معروفة أو رحمةً مجهولة . هذه عندى تسمى امرأة ، ومعناها المعبدُ القُدسى ؛ وتكون الزوجةَ ، ومعناها القوةُ المُسْعِدة ؛ وتَصيرُ الأمَّ ، ومعناها التكمِلةُ الإلهيةُ لصغارها وزوجِها ونفسِها .

ومهما تبلغ المرأةُ من العلم فالرجلُ أعظم منها بأنه رجل ، ولكنَّ المرأةَ حقَّ المرأةِ هى تلك التى خُلقت لتكونَ للرجل مادةَ الفضيلة والصبرِ والإيمان ، فتكون له وحيًا وإلهامًا وعزاءً وقوة ، أى زيادةً فى سروره ونقصًا من آلامه :

ولن تكونَ المرأةُ فى الحياة أعظمَ من الرجل إلا بشىء واحد ، هو صفاتُها التى تجعل رجلَها أعظمَ منها .

* * *

---

* هى زوج صديقنا الأستاذ حسنين مخلوف . وانظر « عمله فى الرسالة » من كتاب « حياة الرافعى » .

ومشيتُ من البيت الذى ألبستْه الميتةُ معنى القبر ، إلى القبر الذى ألبسَ الميتةَ معنى البيت . وأنامنذ مشيتُ فى جنازة أمى (رحمها الله) لا أسير فى هذه الطريق مع الأحياء ، ولكن مع الموتى ، فأتبعُ من الميتِ صديقًا ليس رجلاً ولا امرأة ، لأنه من غير هذه الدنيا ؛ وأمشى فى ساعةٍ ليست ستين دقيقةً ، لأنها خرجت من الزمن ؛ ولا أرى الطريقَ من طرق الحياةِ ، لأننى فى صحبة ميت ؛ وتُصبح للأرضِ فى رأيى جغرافيةٌ أخرى عَمِيَ الناسُ عنها لشدة وضوحها ، كالألوهية خفيتْ من شدة ما ظهرتْ .

يقولون : إن ثلاثة أرباع الأرضِ يَغمرها البحر . أما أنا فأرى فى تلك الساعة أن ثلاثة أرباع الأرض لا يغمرها البحر الذى وصفوا ، ولكن خِضَمٌ آخرُ زخّار مُتَضَرِّب ، هو ذلك البحرُ الترابىُّ العظيمُ المسمى « المقبرة » .

يقولون : إن الحياةَ هى . . . هى ماذا – ويْحكم – أيها المغرورون ؛ أفلا ترَوْن هذه الصلةَ الدائمةَ بين بطنِ الأم وبطن الأرض ؟

* * *

لعمرى كيف تجعلُ هذه الحياةُ للناس قلوبًا مع قلوبهم ، فيحسُّ المرء بقلب ، ويعملُ بقلب آخر : يعتقد ضررَ الكذب ويكذب ، ويعرف مَعَرَّة الإثم ويأثم ، ويُوقن بعاقبة الخيانة ثم يخون ؛ ويمضى فى العمر منتهيًا إلى ربه ، ما فى ذلك شك ، ولكنه فى الطريق لا يعمل إلا عملَ مَن قد فرَّ من ربه . . ؟

هبَّت الريحُ فى السَّحَرِ على روضةٍ غناءَ فطابت لها ، فعقدتْ عُقدتَها أن تتخذَ لها بيتًا فى ذلك المكان الطيب لتقيم فيه . . . يا لها حكمةً من التدبير ! تزعم الريحُ الإقامةَ على حين كلُّ وجودِها هو لحظةُ مرورِها ، وتحلُم بالقَرار فى البيت وهى لا تملك بطبيعتها أن تقف .

يا لها حكمةً سامية ، لا يسكنُها من المعنى إلا أسخفُ ما فى الحُمق ! .

* * *

همَدَ الحىُّ وانطفأت عيناه ، ولكنه تحرك فى تاريخه مما ضيَّقَ على نفسه أو وسَّع ، وأصبح ينظر بعينٍ من عمله إما مُبْصِرةٍ أو كالعمياء ؛ فلو تكلم يصف الحياةَ الدنيا لقال : إن هذه النجومَ على الأرض مصابيحُ مأتمٍ أقيم بليل .

وما أعجبَ أن يجلس أهلُ المأتم فى المأتم ليضحكوا ويلعبوا !

ولو نطق الموتى لقالوا : أيها الأحياء ، إن هذا الحاضرَ الذى يمر فيكونُ ماضيَكم فى الدنيا ، هو بعينه الذى يكون مستقبلَكم فى الآخرة ، لا تزيدون فيه ولا تنقصون . وإن الدنيا تبدأ عندكم من الأعلى إلى الأدنى : من العظماء إلى الفقراء ؛ ولكنها تنقلب فى الآخرة فتبدأ من الفقراء إلى العظماء ؛ وأنتم ترسمونها بخطوطِ المطامع والحظوظ ، ويرسمها الله بخطوط الحرمان والمجاهدة ؛ إن التامَّ على الأرض مَن تمَّ بمتاعها ولذاتها ، ولكن التامَّ فى السماءَ من تمَّ بنفسه وحدها .

* * *

يا أسفا ! لن يقولَ الميتُ للحى شيئًا ، ومن يدرى ؟ لعلنا ونحن نُلْحِدُ للموتى ونُنْزِلهم فى قبورهم ، يرَون بأرواحهم الخالدة أننا نحن موتاهم المساكين ، وأننا مدفونون فى القبر الذى يسمونه «الكرة الأرضية» ! وهل الكرةُ الأرضيةُ من اللانهاية إلا حفرةٌ برجْلِ نملة لتُدْفَن فيها نملة . . .

الحياة . . . أتريد أن تعرفَها على حقيقتها ؟ هى المُبْهَمَاتُ الكثيرةُ التى ليس لها فى الآخِرِ إلا تفسيرٌ واحد : حلالٌ أو حرام .

* * *

ورجعنا مع الصديق إلى بيته ، وله خمسةُ أطفال صغارٍ لو أنهم هم الذين انتُزِعوا من أمهم لترك كلٌّ واحد على قلبها مثل المِكْواةِ المحمِيِّ عليها فى النار إلى أن تحمَرَّ ؛ ولكنَّ أمهم هى التى نُزِعت منهم ، فكان بقاؤهم فى الحياة تخفيفًا لسَكْرةِ الموت عليها . وغَشِيتْها الغَشيةُ فماتت وهى تضحك ، إذ تراهم نائمين تحت جَناح الرحمة الإلهية الممدود ، وقالت : إنها تسمع أحلامَهم . وكانوا همْ عقلَها فى ساعة الموت !

تبارك الذى جعلَ فى قلب الأمِّ دنيا من خلْقِه هو ، ودنيا من خلْقِ أولادها !

تبارك الذى أثابَ الأمَّ ثوابَ ما تُعانى ، فجعل فرحَها صورةً كبيرة من فرح صغارِها !

* * *

وجاء أكبرُ الأطفالِ الخمسة ، وكأنه ثمانيةُ أرطالٍ من الحياة لا ثمانيةُ أعوامٍ من العمر ؛ جاء إلينا كما يجيء الفزَعُ لقلوبٍ مطمئنة ، إذ كان فى عينيه الباكيتين معنى فقد الأم !

وطغَتْ عليه الدموعُ فتناول منديلَه ومسحَها بيده الصغيرة ، ولكنَّ روحَه اليتيمةَ تأبى إلا أن ترسمَ بهذه الدموعِ على وجهه معانىَ يُتْمِها !

وظهرَ الانكسارُ فى وجهه يعبِّرُ ببلاغةٍ أنه قد أحسَّ حقيقةَ ضعفِه وطفولتِه بإزاء المصيبة التى نزلتْ به ، وجلس مستسلِماً تترجم هيئتُه معانىَ هذه الكلمة : « رفقاً بى! » .

ثم تطير من عينيه نظراتٌ فى الهواء ، كأنما يحسُّ أن أمَّه حوله فى الجو ولكنه لا يراها !

ثم يُرخِى عينيه فى إغماضةٍ خفيفةٍ ، كأنما يرجو أن يرى أمَّه فى طَوِيتِّه !

ولا يُصَدِّق أنها ماتت ، فإن صوتَها حى فى أذنيه لا يزال يسمعه من أمس !

ثم يعود إلى وجهه الانكسارُ والاستسلام ، ويتململ فى مجلسه ، فينطقُ جسمُه كله بهذه الكلمة : « يا أمى ! » .

* * *

أحسَّ — ولا ريب — أنه قد ضاع فى الوجود ، لأن الوجودَ كان أمَّه .

ولمس خشونةَ الدنيا منذ الساعة ، بعد أن فقدَ الصدرَ الذى فيه وحده لينُ الحياة لأن فيه قلبَ أمه وروحَها .

وشعر بالذل ينسابُ إلى قلبه الصغير ، لأن تلك التى كان يملك فيها حقَّ الرحمة قد أُخِذَتْ منه وتركَتْه بلا حقٍّ فى أحد ؛ وليس لأحد أمَّان !

ولبِسته المَسكَنَةُ ، لأن له شيئاً عزيزاً أصبح وراء الزمانِ فلن يصلَ إليه !

ولبسته المسكنةُ ، لأنه صار وحدَه فى المكان كما هو وحدَه فى الزمان !

وارتسم على وجهه التعجب ، كأنه يسألُ نفسَه : « إذا لم تكن أمى هنا ، فلماذا أنا هنا ؟! » .

ثم تَغَرْغَرَتْ عيناه فيُخرِجُ منديلَه ويمسح دمعَه بيده الصغيرة ، ولكن

روحَه اليتيمةَ تأبى إلا أن ترسمَ بهذه الدموعِ على وجهه معانىَ يُتْمِها !

* * *

ونهض الصغيرُ ولم ينطق بذاتِ شَفَة ؛ نهض يحمل رجولتَه التى بدأت منذ الساعة !

انتهت — أيها الطفلُ المسكينُ — أيامُك من الأمّ ؛ هذه الأيام السعيدةُ التى كنتَ تعرف الغدَ فيها قبل أن يأتىَ معرفتَك أمسِ الذى مضى ؛ إذ يأتى الغدُ ومعك أمُّك !

وبدأتْ — أيها الطفلُ المسكين — أيامُك من الزمن ، وسيأتى كلُّ غدٍ محجَّبًا مرهوبًا ؛ إذ يأتى لك وحدك ، ويأتى وأنت وحدك !

الأمّ . . . ؟ يا إلهى ، أىُّ صغيرٍ على الأرض يجدُ كفايتَه من الروح إلا فى الأمّ ؟ !

قصة أب *

حدثني المسكينُ فيما حدَّث وهو يصف ما نزل به قال :

رأيتُ الناسَ قد أنعم الله عليهم أن يكونوا آباءً فَنَسَأ بالولَدِ في آثارهم ، ومدَّ بالنسل في وجودهم ، وزاد منه في أرواحهم أرواحًا ، وضمّ به إلى قلوبهم قلوبًا ، وملأ أعينَهم من ذلك بما تَقَرُّ به قُرَّةَ عينٍ كانت لم تجد ثم وَجَدَت ؛ فهم بهؤلاء الأطفال يملكون القوّةَ التي تُرجِعُهُم أطفالاً مثلَهم في كل ما يسرُّهم ، فيكبَرَ الفرَحُ في أنفسهم وإن كان في ذات نفسه ضئيلاً صغيراً ، ويعظُم الأملُ في أشيائهم وإن كان هو عن شيء حقيرٍ لا يُؤْبَهُ له .

وتلك حقيقةٌ من حقائق السعادة لا أسْمَى ولا أعظمَ منها إلا الحقيقةُ الأخرى : وهي القوةُ التي يتحولُ بها الكونُ في قلب الوالدين إلى كنزٍ من الحب والرحمة وجمالِ العاطفةِ ، بسحْرٍ من ابتسامةِ طفلٍ أو طفلة ، أو بكلمةٍ منهما أو حركة ، على حينِ لا يتحوّلُ مثلَ ذلك ولا قريبًا منه بمال الدنيا ، ولا بِمُلكِ الدنيا .

رأيتُ الناسَ قد أنعم الله عليهم أن يكونوا آباءً ، ولكنه ابتلاني بأن أكون أباً ، وأخرج لي من أفراح قلبي أحزانَ قلبي ! ولقد كنت كرجلٍ ملك داراً يستمتعُ بها ، فتمنى أن يُشْرِعَ(١) في جانب منها غرفة يزَخرِفها ، فلما تم له ذلك وبلغ المقْتَرَحَ ، انهدمت الدارُ وبقيت الغرفة قائمة !

عَمْرَكَ اللهَ ، أيشعرُ هذا الرجلُ في نكبته بالغرفة أم بالدار ؟ وهل تراه زاد أو نَقَص ؟ وياليتهما بيتٌ وغرفةٌ من بيت ؛ فإن الحجارةَ تحيا بالبناء إذا ماتت بالهدم ، ولكن مَن ذا يُحيي الزوجةَ ماتت بعد أن وضعت بِكرَها الأولَ والآخِرِ !

إنها طفلة وُلِدَتْ وكأنما أُخرِجتْ من تحت الرَّدمِ ، إذ وُلدت تحت ماضٍ من الحياة منهدِمٍ ، وهل فرقٌ بين هذا وبين أن تكونَ أمُّها قد ولدتها في الصحراء

---

* هو الصديق الأديب عبد الله عمار . وانظر « عمله في الرسالة » من كتاب « حياة الرافعي » .

(١) أي يفتح غرفة إلى الشارع .

ثم أُكرِهتْ أن تدعَها وحدها فى ذلك القَفرِ تصرخُ وتبكى ! فالمسكينةُ على الحالين منقطعةٌ أولَ ما انقطعتْ من حنانِ الأم ورحمتها .

طفلةٌ وُلدت صارخةً ، لا صرخةَ الحياة ، ولكن صرخةَ النوْح والندْب على أمها .

صرخةٌ حزينةٌ معناها : ضعونى مع أمى ولو فى القبر !

صرخةٌ ترتعِدُ ، كأن المسكينةَ شعرتْ أن الدنيا خاليةٌ من الصدر الذى يُدفئها !

صرخةٌ تتردد فى ضَرَاعةٍ ، كأنها جملةٌ مركّبةٌ من هذه الكلمات : « يا ربِّ ارحمنى من حياةٍ بلا أم ! » .

* * *

قال المسكين وهو يبكى امرأتَه :

ولما ضَرَبها المخاضُ ، ضاعفتْ قوّتَها من شعورها أنها ستكون بعد قليلٍ مضاعَفَةً بمولودها ، وستكون روحين لا روحًا واحدة ، وتلد لى الحياةَ والحبَّ الإلهيّ معًا ، وتأتى لقلبى بمثل طفولته الأولى التى يستحيلُ أن تأتى الرجلَ إلا من زوجه . كلُّ ذلك ضاعف قواها ساعةً وشدَّ منها ؛ ولكن ما أسرعَ ما تبيَّنَت أنه الموتُ ، إذ عَضَلتْ وعَسُرَ خروج مولودِها .

وجاءها الجراحيُّ بمِبْضَعه ، وكأنها رأته ذابحًا لا طبيبًا ، فجعلت تعبِّر بعينيها ، إذ لم تملك فى آلامها القاتلةِ غيرَ لغةِ هاتين العينين .

كانت بنظرةٍ تبكى علَىَّ وعلى بؤسى ، وبأخرى تبكى على بؤس مولودها وشقائه ؛ وبنظرةٍ تودّعنى ، وبأخرى تدعو الله لى جزاءَ ما أحسنتُ إليها ؛ وبنظرةٍ تتوجعُ لنفسها ، وبأخرى تتألم من أنها ترانى أكادُ أُجَن :

نظرات نظرات . . .

يا إلهى! لقد خُيِّل إلىَّ أن ملَكَ الموت واقفٌ بين عشرين مرآةً تُحيط به ، فأنا أراه موتًا متعدداً لا موتًا واحداً ، وكلُّ نظرةٍ من عينىْ زوجتى إلىَّ كانت منها هى نظرةً ، وكانت عندى أنا مرآةَ الروح للروح .

ولكنها لم تنس أنها تموت لوضْع مولودها ، وأن هذه الآلامَ الدموية الذابحة هى الوسيلةُ لأن تترك لى بقيةً حيةً منها ؛ فيا للرحمة والحنان والحب ! لقد ابتسمت لى وهى تموت ؛ وهى تلد ؛ وهى تُذبَح !

* * *

ليست رحمةُ المرأةِ المحبة خيالاً إلا إذا كانت حرارةُ الشمسِ التي تُحيي الدنيا خيالاً أيضًا ؛ إن هذا القلبَ النِّسوىَّ المستقرَّ فوق أحشاءٍ تحملُ الجنينَ صابرةً راضيةً فرِحةً بآلامها ، وتغذوه وتُقاسمه حياةَ نفسها ـ هذا القلب يحملُ الحبَّ أيضًا صابراً راضيًا فرِحًا بآلامه ، ويغذوه ويقاسمه حياةَ نفسه .

وللرحمة الإلهيّةِ أدلة كثيرةٌ تدل الإنسانَ عليها دلالاتٍ مختلفة ؛ فالشمسُ تدل عليها بالضوء الذى تَطْعَمُهُ الحياة ، والهواء يدل عليها بالضوء الذى تتنفّسه الحياة ، والماء يدل عليها بالضوء الذى تَشربه الحياة ، وهكذا إلى أن يأتىَ فى الآخر قلبُ المرأة فيدلَّ على رحمة الله بالحب الذى تقومُ به الحياة .

ابتسامةُ الحب غالَبت زفراتِ الموت التى تَعْتَلِجُ من تحتِها حتى غلبتْها ، وأعادت الحياةَ لحظةً إلى وجه زوجتى لأراها آخرَ ما أراها فى صورة المُحِبة لى ، فكان كلٌّ جمالِ نفسِها منتشراً على ذلك الوجه ، وظهرت فيه روحُها وعواطفُها تودِّعني وَداعًا حزينًا متبسمًا يتكلم ؛ يتكلمُ بعجزه عن الكلام .

ابتسامةٌ لا ريب أن فيها أشياءَ ليست من جمال هذه الدنيا ولا من حقائقِها ؛ فكأنما التمعتْ بأشعةٍ من الخُلد تَرِفُّ رفيفَها على وجه الحبيب ليُظهِرَ ساعةَ الموتِ أن حبّه أقوى من الموت .

* * *

قال المسكين : ونَشَرَ الطبيبُ ذا بطْنها فكانت طفلة ، وما كانت زوجتى تقتَرح أن يكونَ الجنينُ غيرَها ، بل كانت مستيقِنةً أنها تضعها أنثى ، وصَنعتْ لها ثيابَها ، ووشّتْها بزينة الأنوثة ، وعرضتْ أسماءَ البنات فاختارت اسمَها أيضًا ، وكنت أكره ذلك منها وأريدُ ولداً لا بنتًا ، فكانت تُغايظِني بعملها وإضرارِها غيظ دُعابةٍ لا غيظَ جفَاء .

ومضت لا تذكر إلا بنتها مدةَ الحَمْل ، ولا تتكلم إلا عن بنتها ، وقد كنت أعجب لذلك ؛ فلما قضى الله فيها قضاءَه ، علمت أن ذلك أمرٌ من أمر الروح ، فكان الإلهامُ فيها أنها على بابِ قبرها ، وأنها لن ترى طفلتَها ، ولن تعيشَ لها ، فعاشت أيامَ الحَمْلِ مع ذكراها : تضمُّ ثيابَها إلى صدرها ،

وتحملُها على يدها ، وتُناغيها وتقبّلها ، وتأخذها من الوهم وتردّها إليه ؛ وكذلك نَعِمَتْ المسكينةُ بالمسكينة !

لكِ الله يا معجزةَ الرحمة ، يا نفسَ الأم !

* * *

ولما قيل : ماتت . جعل يكلمني المتكلمُ ولا أعقِل ؛ فإن الكلمةَ التي تأتي بالمصيبة المتوقَّعَة طال ارتقابُها ، لا تأتي بمعان لغوية كغيرها من الكلام ، بل بأسلحةٍ تَضربُ في النفس وفي العقل ، وتُثْخِنُهما جِراحا وفتْكا .

وجعلني موتُها كأني ميتٌ يحمل نفسَه ، ما حولَه إلا المشيّعون ؛ وأحسست كأن قوةً أخذتْ بإحدى رجليَّ فوضعتها في الآخرة وتركت الثانيةَ في الدنيا ، ولَحِقَني من الجزع ما اللهُ عالمٌ به ، وَوَجِدْتُ أحرَقَ الوجْد ، وبكيتُ أحرَّ البكاء ؛ وجعلتْ أفكاري تنحدِرُ من رأسي إلى حلقي فأختنقُ بها ثم لا يُنفِّسُ عني إلا الدمع ، كأن أعضائي اختلّتْ مما ضغَطَني من الحزن ، فأنا أتنفسُ برِئتيَّ وعينيَّ .

بموتها شعرتُ بها ؛ ولعلّه من أجلِ ذلك لا يشعرُ الإنسانُ بلذة الحب كاملةً إلا في آلام الحب وحدها ، وكانت في حياتها تضع من روحها في سروري ، وهذا هو سرُّ المرأة المحبوبة : يجد مُحبُّها في كل سرورٍ لمحاتِ روحانية ؛ وكذلك فعلتْ بعد موتها ، فجعلتْ روحَها في أحزاني ؛ ولولا أنّ روحَها في أحزاني لقتلتْني المصيبة .

وكنت أدْلِفُ وراء النعشِ وقد بَطَلَ في نفسي الشعورُ بالدنيا ، وكان الناسُ يمشُون حولي بما فيهم من الحياة ، وكانوا ذاهبين إلى المقبرة على أنهم سائرون كما يذهبون إلى كل مكان ؛ أما أنا فكنتُ أمشي بما فيَّ من الحب منكسِراً منْخذِلاً متَضَعْضِعًا ، لأني وحدي سائرٌ وراءَ ما لا يُلْحَق .

وثَقُلَ الناسُ على قلبي ، ورجع كلٌّ أمرِهم عندي إلى العَيب والنقيصة ، إذ كان لي عقلٌ طاريءٌ من الحالة التي أنا فيها ليس مثله لأحدٍ منهم ، وكنت وحدي المصابَ بينهم ، فكنتُ وحدي بينهم العاقل .

أنا أمشي لأنتهيَ إلى آخرِ مصيبتي ، وهم يمشون لينتهوا إلى آخرِ الطريق ؛ وشتَّانَ ما نحن وشتَّان !

ولما رأيتُ قبرَها ابتدرتْ عيناى تنظران بالدموع لا بالنظَر ، ورأيتُ الترابَ كأنه غُيومٌ ملوَّنةٌ بألوانِ السحُبِ الداكنة تتهيأ فى سمائها تحت الظلام لتُخفِيَ كوكبًا من الكواكب ؛ وظهر لى القبرُ كأنه فَمُ الأرضِ يخاطبُ الإنسانَ بحزم صارمٍ ، يخاطبُ الفقيرَ والغنيَّ ، والضعيفَ والقويَّ ، والملوكَ والصعاليك : « أن كلَّ قوةٍ تُنزَع هنا » .

* * *

قال المسكين : وكما يجدُ الإنسانُ فى أيام المطر رائحةَ النسيم المبتلّ بالماء ، كنتُ أستَروِحُ فى رَجْعَتى إلى الدار رائحةَ نسيم مبتلّ بالدموع ؛ وحضَرْتُ المأتمَ وعزّانى الناسُ ، فكنت فيهم كالمأسور بينهم : لا أتمنى إلا أن يَدَعونى فأنجوَ على وجهى ، ولا أرى إلا أنهم يجرِّعوننى الوجودَ غُصَصًا كما تجرعتُ الفقدَ غُصةً غُصة ؛ إلى أن تفرقوا مع سواد الليل فانكفأتُ إلى الدار ، فإذا كلُّ شىء قد تغيَّر ولمسه الموتُ لَمْسَة ، وإذا الدارُ نفسُها كالعينِ المقروحةِ من آثارِ البكاء : ما ثَمَّ شىءٌ إلا ليطالعَنى بأن مسراتى قد ماتت !

ولاح الصبحُ لعينيَّ الساهرتين صبحًا فاتراً تبيَّنتُ فيه الخجل ، كأنه يقول : « لم أطلُعْ لك » ، فانسللتُ من البيت ، وذهبتُ أمشى فى دنيا هى الكآبةُ المضيئةُ سَخِرت الأقدارُ منها بإظهارها فى هذا الضوء مَظهرَ وجهِ العجوزِ المتصابيةِ فى زينةٍ لا تزيدها إلا قبحًا !

ومضيتُ على وجهى لا غايةَ لى ، أضرِبُ فى كل جهة كأنما أريد أن أهربَ من نفسى ! وما خطر لى قط أنى فى يوم جديد ، بل كنتُ عند نفسى لا أزالُ أمس ، وتغيَّر عندى الزمانُ والمكان : فأحدُهما ساعةُ موتٍ لا تترك ما فيها ، والآخرُ قبرُ ميِّتةٍ لا يردُّ ما فيه .

آه من الوقت الذى ينتهى فيه الموجودُ ليعذِّبَنا بالتذكُّرِ أنه كان موجوداً !

* * *

قال المسكين ثم أعادتنى قدمايَ إلى البيت لأرى طفلتى — وما كنت رأيتها —

ولقد كانت ولادتُها أولَ الوفاةِ لها ، وأولَ الحياة لى أيضًا ؛ إذ لولاها لانتحرتُ غيرَ شكّ .

يا ويلَتا ! لم تلتقِ عيني بعينِ الطفلة حتى انفجرتْ تبكى . أتبكين لى يا ابنتى أم علىّ ؟

أهذا بكاؤكِ أيتها المسكينة ، أم هو صوتُ قلبكِ اليتيم ؟

أصوتكِ أنتِ ، أم هو روحُ أمكِ تصرخُ ترثِى لى ، وتتوجعُ لفرْطِ ما قاسيت

يا ابنتى ، إنما أنتِ الحقيقة الصغيرة التى خرجتْ لى من كل تلك الخيالات الشعرية الجميلة ، خيالاتِ الأيام السعيدة التى مرّت !

يحتاج الوالدُ من اللحم والدم ! وأراكِ أنتِ يا مسكينة ، خُلقتِ من اللحم والدم والدموع !

بقيةُ حياةٍ ماتت ! فهل معنى ذلك إلا أنكِ بقيةُ موتٍ يحيا ؟

مسكينة ، مسكينة ! لو أن نواميسَ العالم متغيرةٌ لشىء لتغيرتْ من أجل بؤسكِ فردّت لك الأم ؛ ولكنها لن تتغير ، وما بكاؤنا وآلامُنا وتعاستُنا إلا تُراثُ الحياة فى أجسامنا الأرضية ، كلُّ ذلك طبيعةٌ ، ولكنّ بقعةً أنظفُ من بقعة ، وأراكِ يا ابنتى كالبيتِ الذى هُدِمَ أوّلَ ما بُنى يملؤه ترابُه !

لن تتغيرَ النواميس ، فلن تَجدى عطفَ الأم ، ولكن لن يتغيرَ قلبي أيضًا ، فلن تُحرمى عطفَ الأب .

وإذا صبر الناسُ على الحياة فمن أجلكِ يا مسكينة ! من أجل ضعفِكِ وانقطاعِكِ سأعانى الصبرَ لك ، وأعانى الصبرَ لى ، وأعانى الصبرَ عن أمك ، سأصبرُ على الصبر نفسه !

يا ابنتى ، يا ابنتى ، لماذا وضعتْكِ الأقدارُ من هذه الحياة فى الناحية التى ليس فيها إلا قبرٌ مظلمٌ مقفَلٌ على أمكِ ، وأبٌ مسكينٌ مقفَلٌ على آلامه ؟

* * *

قال المسكين : وهكذا كُتِبْتُ من أهل البؤس والهم ، فلم أتزوج إلا لتصنعَ لى حبيبتى دموعى ، ثم لم تمت إلا بعد أن تركتْ لى حبيبةً أخرى ستظل زمنًا طويلا تصنَع لى دموعى !

السَّمكة

حدَّث أحمدُ بنُ مِسكينٍ الفقيهُ البَغدادى قال : حصَلْتَ فى مدينة (بَلْخ) سنة ثلاثين ومائتين ، وعالِمُها يومئذ شيخُ خُراسان أبو عبد الرحمن[١] الزاهد صاحبُ المواعظ والحِكَم ؛ وهو رجل قلبُه من وراء لسانِه ، ونفسُه من وراء قلبِه ، والفلكُ الأعلى من وراء نفسِه ، كأنه يُلَقَّى عليه فيما زعموا .

وكان يقال له عندهم : (لُقمانُ هذه الأمَّة) ؛ لِمَا يُعجبهم من حِكَمِه فى الزهد والموعظة ، وقد حضرتُ مجالسَه وحفظتُ من كلامه شيئًا كثيراً ، كقوله : مَن دخل فى مذهبنا هذا (يعنى الطريق) فليجعلْ على نفسه أربعَ خصالٍ من الموت : موتٌ أبيض ، وموتٌ أسود ، وموتٌ أحمر ، وموتٌ أخضر ؛ فالموتُ الأبيضُ الجوع ، والموتُ الأسودُ احتمال الأذى ، والموتُ الأحمر مخالفةُ النفس ، الموتُ الأخضرُ طرحُ الرِّقاع بعضِها على بعض (يعنى لبس المرقعة والخَلَقِ من الثياب) .

وقلت يومًا لصاحبه وتلميذه (أبى تراب) وجارَيْتُه فى تأويل هذا الكلام : قد فهمنا وجهَ التسمية فى الموت الأخضرِ ما دامت المرقعةُ خضراء ؛ فما الوجهُ فى الأبيض والأسود والأحمر ؟ فجاء بقولٍ لم أرضَه ، وليس معه دليل ، ثم قال : فما عندك أنت ؟ قلت : أما الجوعُ فيُميتُ النفسَ عن شهواتها ويتركُها بيضاءَ نقية ، فذلك الموت الأبيض ؛ وأما احتمالُ الأذى فهو احتمالُ سواد الوجه عند الناس ، فهو الموتُ الأسود ؛ وأما مخالفةُ النفس فهى كإضرام النار فيها ، فذاك الموتُ الأحمر .

قال أحمد بن مسكين : وكنتُ ذاتَ نهارٍ فى مسجد (بلْخ) والناسُ مُتَوافِرون ينتظرون (لقمانَ الأمة) ليسمعوه ، وشغَلَه بعضُ الأمر فراثَ عليهم ، فقالوا : مَن يَعِظنا إلى أن يجىءَ الشيخ ؟ فالتفت إلىَّ أبو تراب وقال : أنت رأيتَ الإمام أحمدَ بنَ حنبل ، ورأيتَ بِشْراً الحافى وفلانًا وفلانًا ، فقم

---

(١) هو حاتم بن يوسف شيخ خراسان وواعظها ، توفى سنة ٢٣٧ للهجرة .

فحدِّث الناسَ عنهم ، فإنما هؤلاء وأمثالُهم هم بقايا النبوَّة . ثم أخذ بيدى إلى الأسطوانة التى يجلسُ إليها إمامُ خراسان فأجلسنى ثَمـَّة وقعد بين يدىّ .

وتطاولَت الأعناق، ورمانى الناسُ بأبصارهم ، وقالوا : البَغْدادى! البغدادى! وكأنما ضُوعِفَتْ عندهم بمجلسى مرةً وبنِسْبتى مرةً أخرى ، فقلت فى نفسى : والله ما فى الموت الأحمر ولا الأخضر ولا الأسود موعظة ، ولو لَبِسَ عزرائيلُ قَوْسَ قُزَحَ لأفسد شعرُ هذه الألوانِ معناه ، وإنما يجبُ أن يكونَ كما يجب أن يكون؛ ولا موعظةَ فى كلامٍ لم يمتلىء من نفسِ قائله ، ليكونَ عملاً فيتحوّلَ فى النفوس الأخرى عملاً ولا يبقى كلاماً ؛ وإنه ليس الوعظُ تأليفَ القول للسامع يَسمعُه ، لكنه تأليفُ النفس لنفسٍ أخرى تراها فى كلامها ، فيكون هذا الكلام كأنه قَرابةٌ بين النفسين ، حتى لكأن الدمَ المتجاذِبَ يجرى فيه ويدورُ فى ألفاظه .

* * *

وكنتُ رأيتُ رؤيا (ببلخ) تتصل بقصة قديمة فى بغداد ، فقصصتها عليهم ، فكانت القصةُ كما حكيتُها : أنى امتُحِنْتُ بالفقر فى سنة تسعَ عشرةَ ومائتين ؛ وانحَسَمَتْ مادتى وقَحِطَ منزلى قَحطًا شديداً جمع علىَّ الحاجة والضُّرَّ والمسكَنة ؛ فلو انكمشتِ الصحراءُ المجدبةُ فصَغُرتْ ثم صغُرت حتى ترجعَ أذرُعًا فى أذرع ، لكانت هى دارى يومئذ فى محلَّة باب البَصرة من بغداد .

وجاء يومٌ صَحْراوِىٌّ كأنما طلعت شمسُه من بينِ الرملِ لا من بينِ السُّحُب ، ومرَّت الشمسُ على دارى فى بغداد مرورَها على الورقة الجافةِ المعلَّقة فى الشجرة الخضراء ؛ فلم يكن عندنا شىء يُسيغُه حَلْقُ آدمىٍّ ، إذ لم يكن فى الدار إلا ترابُها وحجارتُها وأجذاعُها ؛ ولى امرأة ولى منها طفلٌ صغير ، وقد طَوَينا على جوع يَخْسِفُ بالجوف خَسفًا كما تَهْبِطُ الأرض؛ فَلَتمَنَّيْتُ حينئذ لو كنا جُرْذانًا فنَقْرِضَ الخشبَ ! وكان جوعُ الصبىّ يزيدُ المرأةَ ألما إلى جوعها ، وكنت بهما كالجائع بثلاثة بطونٍ خاوية .

فقلت فى نفسى : إذا لم نأكل الخشبَ والحجارة فلنأكلْ بثمنها . وجمعتُ نيتى على بيع الدار والتحوُّلِ عنها ، وإن كان خروجى منها كالخروج

من جِلدى : لا يسمَّى إلا سلخًا وموتًا ؛ وبت ليلتى وأنا كالمُثْخَنِ حُمِلَ من معركةٍ : فما يتقلَّب إلا على جراحٍ تعملُ فيه عملَ السيوف والأسنَّةِ التى عملتْ فيها .

ثم خرجتُ بغَلَس لصلاة الصبح ؛ والمسجدُ يكون فى الأرض ولكنّ السماءَ تكون فيه ، فرأيتُنى عند نفسى كأنى خرجتُ من الأرض ساعة . ولما قُضِيَت الصلاةُ رفع الناسُ أكفَّهم يدعون الله (تعالى) ، وجرى لسانى بهذا الدعاء : « اللهمَّ بك أعوذ أن يكون فقرى فى دِينى ، أسألك النفعَ الذى يُصلِحُنى بطاعتك ، وأسألك بركةَ الرضى بقضائك ، وأسألك القوّةَ على الطاعة والرضا يا أرحمَ الراحمين » .

ثم جلستُ أتأملُ شأنى ، وأطلتُ الجلوسَ فى المسجد كأنى لم أعُدْ من أهل الزمن فلا تجرى علىَّ أحكامه ، حتى إذا ارتفعَ الضُّحَى وابيضَّت الشمسُ جاءت حقيقةُ الحياة ، فخرجتُ أتسبَّبُ لبيع الدار ، وانبعثْتُ وما أدرى أين أذهب ، فما سرتُ غيرَ بعيد حتى لقينى (أبو نصر الصياد) وكنتُ أعرفه قديمًا ، فقلت : يا أبا نصر ! أنا على بيع الدار ؛ فقد ساءت الحالُ وأحوَجَت الخَصاصة ، فأقرِضنى شيئًا يُمسِكُنى على يومى هذا بالقِوام من العيش حتى أبيعَ الدار وأوَفِّيك .

فقال : يا سيدى ! خذ هذا المِنديلَ إلى عيالك ، وأنا على أثَرِك لاحِقٌ بك إلى المنزل . ثم ناولَنى منديلا فيه رُقاقتان بينهما حلوى ، وقال : إنهما والله بركةُ الشيخ .

قلت : من الشيخُ وما القصة ؟

قال : وقفتُ أمسِ على باب هذا المسجد وقد انصرف الناس من صلاة الجمعة ، فمرَّ بى أبو نصر بِشْرٌ الحافى[1] فقال : مالى أراك فى هذا الوقت ؟ قلت : ما فى البيت دقيقٌ ولا خبز ولا درهم ولا شىء يباع . فقال : اللهُ المستعان ؛ احمل شبكتَك وتعالَ إلى الخَندق ؛ فحملتُها وذهبتُ معه ، فلما انتهينا إلى

(١) هو الزاهد العظيم بشر بن الحارث المعروف بالحافى ، توفى سنة ٢٢٧ للهجرة وكان واحد الدنيا فى ورعه وتقواه ؛ وقيل له : (الحافى) لأنه كان فى حداثته يمشى إلى طلب العلم حافياً ، إجلالا لحديث النبى صلى الله عليه وسلم .

الخندق قال لى : توضَّأ وصلِّ ركعتين . ففعلت ، فقال : سَمِّ اللهَ تعالى وألقِ الشبكة . فسمَّيت وألقيتها ، فوقع فيها شيء ثقيل ، فجعلتُ أجره فشَقَّ علَىَّ ؛ فقلت له : ساعدنى فإنى أخاف أن تنقطعَ الشبكة ، فجاء وجرَّها معى ، فخرجت سمكةٌ عظيمة لم أر مثلَها سِمَنًا وعِظَما وفَراهة . فقال : خذها وبعها واشتر بثمنها ما يُصلح عيالَك . فحملتها فاستقبلنى رجل اشتراها ، فابتعتُ لأهلى ما يحتاجون إليه ، فلما أكلتُ وأكلوا ذكرتُ الشيخ فقلت أهدى له شيئًا ، فأخذتُ هاتين الرقاقتين وجعلتُ بينهما هذه الحلوى ، وأتيتُ إليه فطرقتُ الباب ، فقال : من ؟ قلت : أبو نصر ! قال : افتح وضع ما معك فى الدهليز وادخلْ . فدخلتُ وحدثتُه بما صنعت فقال : الحمد لله على ذلك . فقلت : إنى هيأتُ للبيت شيئًا وقد أكلوا وأكلتُ ومعى رقاقتان فيهما حلوى .

قال : يا أبا نصر ! لو أطعمْنا أنفسَنا هذا ما خرجت السمكة ! اذهبْ كُلْه أنت وعيالُك .

* * *

قال أحمد بن مِسكين : وكنتُ من الجوع بحيث لو أصبتُ رغيفًا لحسبتُه مائدة أنزِلت من السماء ، ولكنّ كلمةَ الشيخ عن السمكة أشبعتنى بمعانيها شِبَعًا ليس من هذه الدنيا ، كأنما طَعِمْتُ منها ثمرةً من ثمار الجنة ؛ وطَفِقْتُ أردِّدها لنفسى وأتأملُ ما تَفْتُقُ الشهواتُ على الناس ، فأيقنتُ أن البلاءَ إنما يصيبنا من أننا نفسرُ الدنيا على طولها وعرضها بكلماتٍ معدودة ، فإذا استقرَّ فى أنفسنا لفظٌ من ألفاظ هذه الشهوات ، استقرت به فى النفس كلُّ معانيه من المعاصى والذنوب ، وأخذتْ شياطينُ هذه المعانى تَحومُ على قلوبنا ، فنُصبح مُهَيَّئين لهذه الشياطين ، عاملينَ لها ، ثم عاملين معها ، فتُدْخِلُنا مَدَاخِلَ السُّوء فى هذه الحياة ، وتُقْحِمُنا فى الوَرْطَةِ بعد الورطة ، وفى الهلَكة بعد الهلكة .

وما هذه الشياطينُ إلا كالذباب والبعوضِ والهوَامّ ، لا تحومُ إلا على رائحةٍ تجذبها ، فإن لم تجد فى النفس ما تجتمعُ عليه ، تفرقتْ ولم تجتمع ، وإذا ألمَّتَ الواحدةُ منها بعد الواحدة لم تثبتْ . فلو أننا طردنا من أنفسنا الكلمات التى أفسدت علينا رؤيةَ الدنيا كما خُلِقَتْ ، لكان للدنيا فى أنفسنا شكلٌ

آخرُ أحسنُ وأجملُ من شكلها ، ولكانت لنا أعمالٌ أخرى أحسنُ وأطهرُ من أعمالنا .

فالشيخ لم يكن فى نفسه معنًى لكلمة (التلذُّذ) ، وبطرده من نفسه هذا اللفظَ الواحد ، طَرَد معانىَ الشرِّ كلها ، وصَلَحَ له دينُه ، وخَلَصَتْ نفسُه للخير ومعانى الخير . ولو أن رجلاً وضع فى نفسه امرأةً يعشقُها ، لصارت الدنيا كلُّها فى نفسه كالمخْدَع : ما فيه إلا المرأةُ وحدَها بأسبابِها إليه وأسبابِه إليها . . .

وقد كنتُ سمعتُ فى درس شيخنا أحمدَ بنِ حنبل هذا الحديث : « لولا أن الشياطينَ يَحومون على قلوب بنى آدمَ لنظَروا إلى مَلَكُوت السموات » . فما فهمتُ والله معناه إلا من كلمة الشيخ فى السمكة ، وقد علَّمنيها هذا الصيَّاد العامى ؛ فالشياطينُ تنجذبُ إلى المعانى ، والمعانى يُوجدُها اللفظُ المستقرُّ فى القلب استقرارَ غرَضٍ أو شهوةٍ أو طمع ؛ فإذا خلا القلبُ من هذه المعانى ، فقد أمِنَ مُنَازَعَتَها له وَشَغْلَها إياه ، فيصبحُ فوقها لا بينَها ؛ ومتى صار القلبُ فوق الشهوات ولم يجد من ألفاظها ما يُعْمِيه ويعترِضُ نظرَه إلى الحقائق ، انكشفتْ له هذه الحقائقُ فانكشف له المَلَكُوت ؛ فإذا وقع بعدُ فى واحدة من اللذات ولو (كالرقاقتين والحَلوى) ، استَعْلَتْ الأشياءُ عليه فحجبَتْه ، وعاد بينَها أو تحتَها ، وعَمِيَ عَمَى اللذة ؛ والحِجابُ على البصر كأنه تعليقُ العَمَى على البصر .

وكنتُ لا أزالُ أعجبُ من صبر شيخنا أحمد بن حنبل وقد ضُرِبَ بين يدى المعتصمِ بالسِّياط حتى غُشِي عليه[1] فلم يتحوّلْ عن رأيه ؛ فعلمتُ الآن من كلمة السمكة أنه لم يجعلْ فى نفسه للضرب معنًى الضرب ، ولا عرف للصبر معنى الصبر الآدمىّ ؛ ولو هو صَبَرَ على هذا صبْرَ الإنسان لَجَزِعَ وتحوّل ؛ ولو ضُرِب ضربَ الإنسان لتألَّمَ وتغير ؛ ولكنه وضَع فى نفسه معنًى ثباتِ السنَّة وبقاءِ الدين ، وأنه هو الأمةُ كلُّها لا أحمدُ بن حنبل ، فلو تحوَّل لتحوَّل الناسُ ، ولو ابتَدَعَ لا بتدَعُوا ؛ فكان صبرُه صبرَ أُمةٍ كاملةٍ لا صبرَ رجلٍ فَرد .

---

(١) كان هذا فى سنة ٢١٩ وقد أرادوا الإمام العظيم على القول بخلق القرآن فلم يقل به ، فأفتى القاضى ابن أبى دؤاد بقتله وشغب عليه . ثم ضرب بين يدى المعتصم ، فلما صمم ولم يجب أطلقه المعتصم وندم على ضربه .

وكان يُضرَب بالسياط ونفسُه فوق َمعنى الضرب ، فلو قرَضُوه بالمقاريض ونشروه بالمناشير لما نالوا منه شيئًا ؛ إذ لم يكن جسمُه إلا ثوبًا عليه ، وكان الرجلُ هو الفكرَ ليس غيْر .

هؤلاء قومٌ لا يرَوْن فضائلَهم فضائلَ ، ولكنهم يرَوْنها أمانات قد ائتُمِنُوا عليها من الله لتهقَى بهم معانيها فى هذه الدنيا ؛ فهم يزْرَعون فى الأمم زرعًا بيدِ الله ، ولا يملكُ الزرعُ غيرَ طبيعته ، وما كان المعتصمُ وهو يريد شيخَنا على غير رأيه وعقيدته إلا كالأحمق يقول لشجرة التفاح : أثْمِرى غيرَ التفاح .

* * *

قال أحمدُ بن مِسكين : وأخذتُ الرقاقتين وأنا أقولُ فى نفسى : لعن الله هذه الدنيا ! إن من هَوانِها على الله أن الإنسانَ فيها يلْبَسُ وجهَه كما يلبَسُ نعلَه . فلو أنّ إنسانًا كانت له نظرةٌ ملائكيةٌ ثم اعترض الخلقَ ينظُر فى وجوههم ، لرأى عليها وُحُولاً وأقذاراً كالتى فى نعالِهم أو أقذرَ أو أقبح ، ولعله كان لا يرَى أجملَ الوجوه التى تَستْهِيمُ الناسَ وتتَصبّاها من الرجال والنساء ، إلا كالأحذية العتيقة . . .

ولكنى أحسستُ أن فى هاتين الرقاقتين سرّ الشيخ ، ورأيتُهما فى يدى كالوثيقتين بخير كثير ؛ فقلت : على برَكة الله . ومضيتُ إلى دارى ؛ فلما كنتُ فى الطريق لقيتْنى امرأة معها صبيٌّ ، فنظرتْ إلى المنديل وقالت : يا سيدى ، هذا طفلٌ يتيم جائع ولا صبرَ له على الجوع ، فأطعِمْه شيئًا يرحمك الله . ونظر إلىّ الطفلُ نظرةً لا أنساها ؛ حسبتُ فيها خُشوعَ ألف عابد يعبدون اللهَ (تعالى) مُنْقَطِعين عن الدنيا ؛ بل ما أظن ألفَ عابد يستطيعون أن يرُوا الناسَ نظرةً واحدةً كالتى تكون فى عينِ صبىّ يتيمٍ جائعٍ يسألُ الرحمة . إن شدةَ الهمّ لتجعلُ وجوهَ الأطفال كوجوهِ القدّيسين ، فى عينِ من يراها من الآباء والأمهات ، لعَجزْ هؤلاء الصغارِ عن الشرّ الآدمىّ وانقطاعِهم إلا من الله والقلبِ الإنسانىّ ، فيظهرُ وجهُ أحدِهم وكأنه يصْرُخُ بمعانيه يقول : يا ربّاه يا رباه !

قال أحمدُ بن مِسكين : وخيِّل إلىّ حينئذ أن الجنةَ نزلتْ إلى الأرض تَعْرِضُ نفسَها على من يُشْبِعُ هذا الطفلَ وأُمَّه ، والناسُ عَمْىٌ لا يُبصرونها ،

وكأنهم يمرون بها فى هذا الموطن مرورَ الحميرِ بقصرِ ملِك : لو سُئِلتْ وَتَضَلَّتْ عليه الإصْطَبلَ الذى هى فيه . . .

وذكرتُ امرأتى وابنَها وهما جائعان مُنذْ أمس ، يرَ أنى لم أجدْ لهما فى قلبى معنى الزوجة والولد : بل معنى هذه المرأة المحتاجة ود ها ، فأسقطتُهما عن قلبى ودفعتُ ما فى يدى للمرأة وقلت لها : خذى وأطعمى ابنَك ، ووالله ما أملك بيضاء ولا صفراء ، وإنَّ فى دارى لَمن هو أحوجُ هذا الطعام ؛ ولولا هذه الخَلَّةُ بى لتقدمتُ فيما يُصْلِحُك . فَدَمَعتْ عيناها وأشرق وجهُ الصبيّ ، ولكنْ طَمَّ على قلبى ما أنا فيه فلم أجد للدَّمعة معنى الدمعة ولاللبَسْمة معنى البسمة .

وقلت فى نفسى : أما أنا فأطوِى إن لم أصِبْ مـًا ، فقد كان أبو بكر الصديق يطوِى ستة أيام ، وكان ابنُ عُمر يطوى ، كان فلان وفلان ممن حفظنا أسماءهم وروينا أخبارهم ؛ ولكن مَن للمرأة وابنها بمثل تَقْدِى ونيَّتى ؟ وكيف لى بهما ؟

ومشيتُ وأنا مُنْكَسِرٌ منْقبِض ، وكأنى كنتُ نسيتُ كلمةَ الشيخ : «لو أطعِمنا أنفسَنا هذا ماخرجت السمكة » . فذكرتُها وصرفتُ خاطرى إليها وشَغَلتُ نفسى بتدبُّرها وقلتُ : لو أنى أشبعتُ ثلاثةً بجوع اثنين لحرُمتُ خمسَ فضائل(١) وهذه الدنيا محتاجةٌ إلى الفضيلة ، وهذه الفضيلةُ محتاجةٌ إلى مثل هذا العمل ، وهذا العملُ محتاجٌ إلى أن يكونَ هكذا ، فما يستقيم الأمر إلا كما صنَعت .

وكانت الشمسُ قد انبسطَتْ فى السماء وذلك وقتُ الضُّحى الأعلى ، فملتُ ناحيةً وجلستُ إلى حائط أفكر فى بيع الدار ومن يبتاعها ، فأنا كذلك إذ مرَّ أبو نصر الصياد وكأنه مُستَطَارٌ فرَحا ، فقال : يا أبا محمد ، ما يُجلِسُكَ ههنا وفى دارك الخيرُ والغنى ؟ قلت : سبحانَ الله ! من أين خرجت السمكةُ يا أبا نصر ؟

قال : إنى لَفِى الطريق إلى منزلك ، ومعى ضَرُورةٌ من القُوت أخذتُها لعيالك ، ودَراهمُ استَدَنتُها لك ، إذا رجلٌ يَستَدِلُّ الناسَ على أبيك أو أحدٍ من أهله ،

(١) يريد : جوعه ، وجوع امرأته ، وجوع ابنه ؛ ثم شبع هذه المرأة ، وشبع ابنها . فهذه خمس فضائل .

ومعه أثقالٌ وأحمال ، فقلت له : أنا أدلك . ومشيتُ معه أسأله عن خبرَه وشأنِه عند أبيك . فقال : إنه تاجر من البَصْرة ، وقد كان أبوك أوْدعه مالاً من ثلاثين سنةً ، فأفلس وانكسرَ المال ثم ترك البصرةَ إلى خُراسانَ ، فصلح أمرُه على التجارة هناك ، وأيْسرَ بعد المِحْنَة ، واستَظْهرَ بعدَ الخِذْلان ، وأقبلَ جَدُّه بالثَّراء والغِنىَ ؛ فعاد إلى البصرة ، وأراد أن يتحلَّلَ ، فجاءك بالمال وعليه ما كان يربحُه في هذه الثلاثين سنةً ، وإلى ذلك طَرائفُ وهدايا .

* * *

قال أحمدُ بن مسكين : وأنقلِبُ إلى داري فإذا مالٌ جَمٌّ وحالٌ جميلة ! فقلت : صدق الشيخ : « لو أطعمنا أنفسَنا هذا ما خرجت السمكة . » ! فلو أن هذا الرجلَ لم يلقَ في وجهه أبا نصر ، في هذه الطريق ، في هذا اليوم ، في هذه الساعة ، لما اهتدى إليَّ ؛ فقد كان أبي مغموراً لايعرفُه أحدٌ وهو حي ؛ فكيف به ميتًا من وراء عشرين سنة ؟

وآلَيْتُ لَيعلمَنَّ اللهُ شكرى هذه النعمة ؛ فلم تكن لى همةٌ إلا البحثَ عن المرأة المحتاجة وابنها ، فكفيتهما وأجريتُ عليهما رزقًا ، ثم اتَّجَرْتُ في المال ، وجعلتُ أربُّه بالمعروف والصَّنِيعةِ والإحسان وهو مُقْبِلٌ يزداد ولاينقُص ، حتى تموَّلْتُ وتأثَّلْتُ .

وكأني قد أعجبتنى نفسى ، وسرَّنى أنى قد ملأتُ سِجِلاتِ الملائكة بحَسناتى ، ورجوتُ أن أكونَ قد كُتبتُ عند الله فى الصالحين ، فنمتُ ليلةً فرأيتُنى فى يوم القيامة والخَلْقُ يموجُ بعضُهم فى بعض ، والهولُ هولُ الكون الأعظم على الإنسان الضعيف ، يُسْألُ عن كل ما مسه من هذا الكون . وسمعتُ الصائحَ يقول : يا معشرَ بنى آدم ! سَجَدَت البهائمُ شكراً لله أنه لم يجعلها من آدم . ورأيتُ الناسَ وقد وُسِّعَتْ أبدانُهم فهم يَحملون أوزارَهم على ظُهورهم مخلوقة مجسَّمة ، حتى لكأن الفاسقَ على ظهوره مدينةٌ كلُّها مُخْزِيات !

وقيل : وُضعَت الموازينُ . وجيءَ بى لوزن أعمالى ، فَجُعِلتْ سيئاتى فى كِفة وألقيتْ سجلاتُ حسناتى فى الأخرى ، فطاشَت السجلات ورجَحَت السيئات ، كأنما وزنوا الجبلَ الصخرىَّ العظيم الضخمَ بلُفافةٍ من القطن . . .

ثم جعلوا يُلْقُون الحسنةَ بعد الحسنةِ مما كنت أصنعهُ ، فإذا تحت كل حسنة شهوةٌ خفيةٌ من شهوات النفس : كالرِّياء والغُرور وحبِّ المَحْمَدَة عند الناس وغيرها ، فلم يَسْلَمْ لى شىء ، وهلكتْ عنى حُجَّتى ، إذ الحجةُ ما يُبَيِّنُه الميزان والميزانُ لم يدلَّ إلا على أنى فارغ .

وسمعتُ الصوتَ : ألم يبق له شىء ؟ فقيل : بقِىَ هذا .

وأنظر لأرى ما هذا الذى بقِى ، فإذا الرقاقتان اللتان أحسنتُ بهما على المرأة وابنها ! فأيقنتُ أنى هالك ؛ فلقد كنت أُحْسِنُ بمائة دينار ضَرْبَةً واحدةً فما أغنت عنى ، ورأيتُها فى الميزان مع غيرها شيئًا معلَّقًا ، كالغَمام حين يكون ساقطًا بين السماء والأرض : لا هُو فى هذه ولا هو فى تلك .

ووُضِعَت الرقاقتان ، وسمعتُ القائل : لقد طار نصفُ ثوابهما فى ميزان أبى نصر الصياد . فانخذَلْتُ انخذالاً شديداً ، حتى لو كُسِرْتُ نصفين لكان أخفَّ علىَّ وأهون . بَيْدَ أنى نظرتُ فرأيت كِفة الحسناتِ قد نزلتْ منزِلةً ورَجَحَت بعضَ الرُّجحان .

وسمعتُ الصوت : ألم يبقَ له شىء ؟ فقيل بَقِىَ هذا .

وأنظر ما هذا الذى بقِى، فإذا جوعُ امرأتى وولَدى فى ذلك اليوم ! وإذا هو شىء يُوضَع فى الميزان ، وإذا هو ينزِلُ بكفَّةٍ ويرتفع بالأخرى حتى اعتدلتا بالسَّوِيَّة . وثَبَتَ الميزانُ على ذلك فكنتُ بين الهلاك والنَّجاة .

وأسمعُ الصوت : ألم يبق له شىء ؟ فقيل بقِى هذا .

ونظرتُ فإذا دموعُ تلك المرأة المسكينة حين بكتْ من أثَرِ المعروفِ فى نفسها ، ومن إيثارى إياها وابنَها على أهلى . ووُضِعَتْ غَرْغَرَةُ عينيها فى الميزان فَفَارَتْ ، فطمَّتْ كأنها لُجَّةٌ ، مِن تحتِ اللجة بحر ؛ وإذا سمكةٌ هائلةٌ قد خرجتْ من اللجَّة وقَع فى نفسى أنها رُوح تلك الدموع ، فجعلتْ تعظُم ولاتزال تعظم ، والكفةُ ترجَحُ ولاتزال ترجح ، حتى سمعتُ الصوت يقول : قد نجا !

وصحتُ صيحةً انتبهتُ لها ، فإذا أنا أقول : « لو أطعمنا أنفسَنا هذا ماخرجت السمكة ! » .

الزاهدان *

٢

قال أحمدُ بن مِسكين : انتشر حديثُ السمكةِ فى أهلِ (بلْخ). .
واستفاضَ بينهم ، وكنتُ قَصَصْتُه عليهم يوم السبت ، فلما دار السبتُ من أسبوعِه لقيَنى شيخُهم حاتمُ بن يوسف (لقمانُ الأمة) ومعه صاحبُه أبو تراب ، فقال : يا أحمد ! لكأنك فى هذه المدينة قمرٌ طَلَع بلَيْل فلا يَعِظ الناسَ فى يوم السبت غيرُك ؛ ومن سمع فكأنه عايَن ، وليس على ألسنةِ أهلِ بلخ منذ تحدثتَ إلا بِشْرٌ وابنُ حنبل ، ولا على بالِ أحدٍ منهم إلا موعظتُك وحديثُك .

والكلامُ عن الصالحين فى مثلِ ما وصفتَ وحكيتَ قُرْبٌ من حقائقِهم ، وسُموٌّ إلى معانيهم ؛ وليس فى القول بابٌ له موقعٌ كموقع القصة عن هؤلاء الذين يخلُقهم الله فى البشرية خلقَ النور : يُضىء ماحوله من حيثُ يُرى ، ويعملُ فيما حوله من حيث لايُرى ، وفى ظاهرِه الجمالُ والمنفعة ، وفى باطنِه القوةُ والحياة . ولستُ أقول لك اذهبْ فحدِّث الناس ، ولكنى أقول اذهب فأعْطِ الناسَ عقلاً من الحديث .

قال ابنُ مِسكين : فلما صلينا العصرَ ، قدَّمنى أبو تراب فجلستُ فى مجلسى ذاك ، وهتَف بى الناسُ يريدون الحديث عن بِشر الحافى وما سَقَطَ لى من أخباره ، على الطريقة التى حدثتُهم بها من قبل ، فابتدأتُ بذكر موته (رحمه الله) وأن يومَه كأنما اجتمع له أهلُ خمسٍ وسبعين سنة[١] ، إذ خرجتْ جنازتُه بعد صلاة الصبح ، فلم يحصُلْ فى قبره إلا فى الليل مما احتَشَد فى طريقه من الخلق ، حتى لكأن فى نعشه سرًّا من أسرار الجنة يطالِعُهم به الموتُ فخرجوا ينظرون إليه ، وكانوا يصيحون فى جنازته : هذا والله شرفُ الدنيا قبلَ شرفِ الآخرة .

---

* هذا هو الفصل الثانى من قصة السمكة .

(١) مات (رحمه الله) عن خمس وسبعين سنة .

ثم قلت : حدثنى حسينٌ المَغَازلى[١] : أن بِشراً (رحمه الله) كان لا يأكلُ إلا الخبزَ تورُّعا عن الشبهات واكتفاءً لضرورة الحياة بالأقلِّ الأيسر ، وكان يقول فى ذلك : يَدٌ أقصرُ من يد ، ولُقمةٌ أصغر من لقمة . وسئل مرة : بأيِّ شىء تأكل الخبز ؟ فقال : أذكر العافيةَ فأجعلُها إداماً . وقد أعانه على ذلك أنه لم يتزوج ، وكان يرى هذا نقصاً فى نفسه حتى فضَّل الإمامَ أحمد بن حنبل بأشياء : منها أن له أهلا ؛ غيرَ أنه قيل له ذاتَ يوم : لو تزوجتَ تم نُسُكُك . فقال : أخافُ أن تقومَ الزوجةُ بحقى ولاأقوم بحقها . فكانت هذه النية فى نفسه أفضلَ من زواجه .

وكان مع هذا لايؤاكِل أحداً ، ولايسعَى إلى لقاء أحد ، حتى إنه لما رغب فى مؤاخاةِ الزاهدِ العظيم (معروفِ الكَرْخى) ، أرسل إليه (الأسودَ بنَ سالم)وكان صديقاً لهما ، فقال لمعروف : إن بشر بن الحارث يريد مؤاخاتَك وهو يستحيى أن يُشافِهَك بذلك ، وقد أرسلنى إليك يسألك أن تعقدَ له فيما بينه وبينك أخُوَّة يحتَسِبُها ويعتدُّ بها ؛ إلا أنه يشترط فيها شروطاً : أولُها أنه لايحب أن يشتهر ذلك، وثانيها ألا يكون بينك وبينه مُزَاوَرَة ولا مُلاقاة . فقال معروف : أما أنا فإذا أحببتُ أحداً لم أحب أن أفارقه ليلا ولا نهاراً ، وأزوره فى كل وقت ، وأوثِرُهُ على نفسى فى كل حال ؛ وأنا أعقد لبشر أخوةً بينى وبينه ، ولكنى أزوره متى أحببت ، وآمره بلقائى فى مواضع نلتقى فيها إذا هو كره زيارتى .

قال حسين المغازلى : وكان هذا كلُّه من أمر بِشْر معروفا فى بغداد، لايجهله أحد من أهلها ، إذ لم يكن لبغداد إمام غيرَه وغيرَ ابن حنبل ؛ فما كان أكثرَ عجَبى حين كنتُ عنده يوماً وقد زاره (فَتْح المَوْصِلى) ، فقام فجاء بدراهم ملء كفه ودفعها إلىَّ وقال : اشترلنا أطيبَ ما تجد من الطعام ، وأطيبَ ما تجد من الحلوى ، وأطيبَ ما تجد من الطِّيب . وما قال لى مثلَ ذلك قط ، وهو الذى رأى الفاكهة يوماً فقال : ترْكُ هذه عبادة ! وهو القائل لأبى نصر الصياد : لوأطعمنا

---

(١) نسبة إلى عمل المغازل ، وكان حسين هذا صديقاً لبشر ، وكان بشر يعمل المغازل ويعيش من ثمنها ، ومن كلامه لابن أخته عمر : يا بنى ، اعمل بيدك ؛ فإن أثره فى الكفين أحسن من أثر السجدة بين العينين . هكذا كانوا رحمهم الله .

أنفسنا هذا ما خرجت السمكة[١] .

فذهبتُ فاشتريتُ وانتقيتُ وتخيَّرت ، ثم وضعتُ الطعامَ بين أيديهما ، فرأيته يأكلُ معه وما رأيته أكل مع غيره ، ورأيته منبسطاً إليه وما لى عهدٌ كان بانبساطه إلى أحد . وقد كنتُ أخبرتُه فى ذلك النهار بخبر أحمد بن حنبل ، علمتُه من أدريس الحداد : فإنه لما زالت المحنةُ بعد أن ضرب بين يدى المعتصم وصُرِفَ إلى بيته ، حُمل إليه مالٌ كثير من سَرَوات بغداد وأهل الخير فيها ، فردَّ جميعَ ذلك ولم يقبل منه قليلا ولا كثيراً ، وهو محتاجٌ إلى أيسرِه ، وإلى الأقلِّ من أيسره ، وإلى الشيء من أقلّه ، فجعل عمُّه اسحق يَحْسُبُ ما ورد ذلك اليوم ، فكان خمسين ألفَ دينار ، فقال له الإمام : يا عم ، أراك مشغولا بحساب ما لايفيدك . قال : قد رددتَ اليوم كذا وكذا ألفًا وأنت محتاج إلى حبة من دانق . فقال الإمام: يا عم ، لو طلبناه لم يأتنا ، وإنما أتانا لمَّا تركناه .

* * *

قال المغازلى : فنمتُ تلك الليلةَ وأنا أفكر فى صنيع الشيخ ، وقد تعلَّق خاطرى به : كيف انقلبت الحالُ معه ، وأىّ شيء هذه الحال ؟ وجعلتُ أكُدُّ ذهنى لأعرفَ الحقيقةَ العقلية التى سَلَّطَتْ عليه هذه الضرورةَ فتسلَّط النعيمُ على نفسه ، وأنا أعلم أن للقوم علوما روحانيةً ليست فى الكتب ، فمنها ما لايتعلمونه إلا من الفقر ، ومنها ما لا يتعلمونه إلا من البلاء ، ومنها ، ومنها ؛ ولكن ليس منها ما يتعلمونه من اللذات والشهوات ؛ وذهب قلبى إلى أوهام كثيرة ليس فى جميعها طائلٌ ولابها معرفة ، حتى غلبتنى عيناى ، وأنا من وَهَج الفكر نائمٌ كالمريض ، وقد ثَقُل رأسى واختلط فيه ما يعقَل بما لايُعقَل .

فرأيتُ أولَ ما رأيت مَلِكا جباراً يحكم مدينةً عظيمة ، وقد أطلق المنادىَ فى جمعْ كلِّ أطفال مدينته ، فجيء بهم من كل دار ، ثم رأيته قد جلس على سريره وفى يده مِقراضٌ عظيم ، قد اتخذه على هيئة نَصلين عريضين لو وُضعَتْ بينهما رقبةٌ لفَصَلاها عن جسمها ؛ فكان هذا الجبار يتناول الطفل من أولئك فيضع أصابعَ إحدى قدميه فى شِقَّى المقراض فيقرضُها ، فإذا هى تتناثر أسرعَ مما

---

(١) مر هذا فى مقال (السمكة) .

يقرِضُ المِقَصُّ الخيط ، ثم يَرمى بالطفل مغشياً عليه ، ويتناول غيرَه فيبتُر أصابعَه . والأطفال يصرخون ؛ وأنا أرى كلَّ ذلك ولا أملك إلا غيظى على هذا الجبار من حيث لاأستطيع أن أمْضِيَ فيه هذا الغَيظ فأقرضَ عنقَه بمقراضه .

ثم رأيته يأخذ طفلا صغيراً ، فلما جاءت قدمُ الطفل بين شِقَّى المقراض صاح : يارب ، يارب . فإذا المقراضُ يلتوِى فلا يصنع شيئًا ، وكأن فيه حجراً صَلْداً لاقَدمًا رَخْصَة . فتميَّز الجبارُ من الغيظ وقال : مَن هذا الطفل ؟ فسمعتُ هاتفًا يهتف : هذا بشر الحافى ! لايبلغ تاجُ مَلكٍ فى الأرض أن يكونَ لقدمه الحافيةِ نعلاً عند الله !

وكان إلى يمينى رجل يتَوَضّأ وجهُه صلاحا وتقوى ، فقلت له : مَن هذا الطاغية ؟ ولِم اتخَذَ المقراضَ لأقدام الأطفال خاصة ؟

فقال : يا حسين ! إن هذا الجبار هو ذُلُّ العيش ، وهذا وَسْمُه لأهلِ الحياة على الأرض ، يحقِّق به فى الإنسان معنى البهيمة أولَ ما يَدِبُّ على الأرض ، حتى كأنه ذو حافر لا ذو قدَم .

قلت : فما بالُ هذا الطفل لم يعمل فيه المقراض ؟

قال : إن لله عباداً استخصَّهم لنفسه ، أولُ علامته فيهم أن الذلَّ تحت أقدامهم ، وهم يجيئون فى هذه الحياة لإثبات القدرة الإنسانية على حكم طبيعة الشهوات التى هى نفسُها طبيعةُ الذل ؛ فإذا اطَّرح أحدُهم للشهواتِ وزهد فيها ، واستقام على ذلك فى عَقْدِ نيَّةٍ وقوةِ إرادة ، فليس ذلك بالزاهد كما يصفُهُ الناس ، ولكنه رجل قوىّ اختارته القدرةُ ليحمل أسلحةَ النفس فى مَعَاركها الطاحنة ، كما يحملُ البطلُ الأروعُ أسلحةَ الجسم فى معاركه الدامية : هذا يتَعلَّم منه فنٌّ ، وذاك يتَعلَّم منه فنٌّ آخر ، وكلاهما يُرمَى به على الموت لإيجاد النوع المستعزِّ من الحياة ، فأولُ فضائله الشعورُ بالقوة ، وآخر فضائله إيجادُ القوة .

* * *

قال المغازلى : وضرَب النومُ على رأسى ضربةً أخرى ، فإذا أنا فى أرضٍ خبيثة داخِنَةٍ ، قد ارتفع لها دُخان كَثيفٌ أسود يتضرَّبُ بعضُه فى بعض ،

وجعلتُ أرى شُعَلاً حُمراً تذهبُ وتجيء كأنها أجسامٌ حية ، فوقع فى وهمى أن هؤلاء هم الشياطينُ : إبليسُ وجنودُه ، وسمعتُ صارخا يقول : يابُشرَى ! فلتبكِ السماءُ على الأرض ، لقد أكلَ بِشْرٌ الحافى من أطيب الطعام وأطيب الحلوى بعد أن استوى عنده حَجَرُها ومَدَرُها ، وذهبُها وفضتُها! فعارضه صائحٌ أسمع صوتَه ولا أرى شخصَه : ويلك يا زَلَنْبور[1]! إن هذا شرٌّ علينا من عامَّةِ نُسكه وعبادته ؛ فهذا ويحك هو الزهدُ الأعلى الذى كان لايطيقه بِشر ؛ إنه إعناتٌ سلَّطه على نفسه ، فإنى دفعتُ هذا (المغازلىّ) الأعمى القلبِ ليزيِّنَ له ما فعل أحمدُ بن حنبل من رده خمسين ألف دينار على حاجته ، زهداً وورعًا ، وقوةَ عزم ، ونفاذَ إرادة ؛ وقلتُ : عسى أن تتحرك فى نفسه شهوةُ الزهد فيَتَحسَّدُ أو يتغار ، أو تُعْجِبه نفسه فيكونُ لى من ذلك لَمَّةٌ بقلبه فأوسوسُ له ؛ فإنَّا نأتى هؤلاء من أبوابِ الثواب كما نأتى غيرَهم من أبواب المعاصى ، ونتورعُ مع أهل الورَع كما نَتَسخَّفُ مع أهل السُّخف ؛ ولكنَّ الرجلَ رجلٌ وفيه حقيقةُ الزاهد ، فقد أعطى القوةَ على جعل شهوات نفسِه أشخاصًا حيةً يعاديها ويقاتلُها ، فإذا أنا جعلتُ شهوتَه فى اللذة قتلَ اللذة ، وإذا جعلتها فى الكآبة قتل الكآبة ، وليس الزاهدُ العابدُ هو الذى يتقشَّف ويتعفَّف ، ويتخفَّف ويتلفَّف ، فإن كثيراً ما تكونُ هذه هى أوصافَ الذُّل والحمق ، ويكونُ لها عملُ العبادة وفيها إثمُ المعصية . ولكنَّ الزاهدَ حقَّ الزاهِد من أدار فى هذه الأشياء عينًا قد تعلمت النظرَ بحقه والإغضاء بحقه ؛ فهذا لايخطئُ معنى الشر إن لَبَّسناه عليه فى صورة الخير ، ولا معنى الخير إن زوَّرناه فى صورة الشر ، وبذلك يضع نفسَه فى حيث شاء من المنزلة ، لافى حيث شاءت الدنيا أن تضعَه من منازلها الدنيئة .

وما أكلَ بشرٌ هذه الطيِّبات إلا ليُبادِرَ بها وسوستى ويردَّنى عن نفسه وعن اللَّمَّة بقلبه ، فلو أنه أعجبه زهدُ ابنِ حنبل ونظر من ذلك إلى زهدِ نفسه لَحَبِطَ أجرُه ؛ فبهذه الطيبات عالجَ نفسَه علاجَ مريض ، وقد غيَّر على جوفه طعامًا بطعام ، كما يبدّل على جَلده ثوبًا بثوب ؛ ولاشهوةَ للجلد فى أحدهما .

* * *

قال المغازلى : وثقُل النومُ علىّ ثَقلةً أخرى ، فرأيتُنى فى وادٍ عظيم ، وفى

---

(١) هذا اسم بعض ولد إبليس فيما يروى ، وفى بعض النسخ التى بأيدينا أنه خنزب لازلنبور .....

وسطه مثلُ الطَّوْد من الحجارة قد رُكِمَ بعضُها على بعض ؛ ورأيتُنى مع بشر أقص عليه خبرَ أحمد بن حنبل ؛ فقال : انظر ويحك ؛ إن الناسَ يسمونها خمسين ألف دينار ، وهى هنا فى وادى الحقائق خمسون ألفَ حجرٍ لو أصابتْ أحمد لقتلتْه ولكانت قبرَه آخرَ الدهر .

إن المالَ يا بنى هو ما يعملُه المال لاجوهرُه من الذهب والفضة ، فإذا كنتَ بِمَفَازةٍ ليس فيها من يبيعك شيئًا بذهبك ، فالترابُ والذهبُ هناك سواء ؛ والفضائلُ هى ذهبُ الآخرة ؛ فهنا تجدِّد بالمال دنياك التى لاتبقى أكثرَ من بقائك ، وهناك تجدد بالفضائل نفسَك التى تخلدُ بخلودها .

ومعنى الغنى معنىً مُلْتبِسٌ على العقول الآدمية لاجتماع الشهواتِ فيه ، فحين يردّ أحمدُ بنُ حنبل خمسين ألفًا ، يكون هذا المعنى قد صحَّح نفسَه فى هذا العملِ وَجْهًا من التصحيح .

* * *

قال حسين المغازلى : وغطَّنى النوم فى أعماقه غطَّةً أخرى ؛ فإذا أنا فى المسجد فى درس الإمام أحمد وهو يحدث بحديث النبى (صلى الله عليه وسلم) : « إذا عظَّمتْ أمتى الدينارَ والدرهم ، نُزِعَ منها هيْبةُ الإسلام ؛ وإذا تركوا الأمرَ بالمعروف والنهىَ عن المنكر ، حُرِموا بركة الوحى » وهمّ أن يتكلم فى تفسيره[١] ولكنه رآنى فأمسكَ عنه وأقبل علىّ فقال : يا حسين ! إذا اجتزأ شيخُك بالرغيف فهذا عنده هو قَدْرُ الضرورة ؛ فإن أكلَ الطيباتِ فقد عرضتْ حالٌ جعلت هذه الطيباتِ عنده هى قدرَ الضرورة ؛ وفى هذه النفوس السماوية لايكون الجزءُ الأرضىُّ إلا محدوداً ، فلا يكون محصولُه إلا ما ترى من قدر الضرورة .

ولما صغُرَ الجزء الأرضىُّ فى نفوس المسلمين الأولين ملكوا الأرض كلَّها بقوة الجزء السماوىّ فيها ، إذ كانت إرادتُهم فوق الأطماع والشهوات ، وكانت بذلك لاتذلُّ ولاتضعف ولاتنكسر ؛ فالآدميةُ كلُّها تنتهى إلى بعضِ صُوَرٍ ، وهؤلاء هم الذين محلُّهم فى أعلاها .

(١) سيأتى تفسيره فى مجلس آخر من مجالس ابن مسكين .

يا حسين ! ألا وإن ردَّ خمسين ألفَ دينار هو كذلك قدرُ الضرورة .

قال حسين : وذهبتُ أعترض على الإمام بما كان فى نفسى من أن هذا المالَ وإن لم يكن من كسْبه ، فقد كان يتحول فى يده عملاً من أعمال الخير ؛ وأُنْسيتُ أن هذه الصَّدَقاتِ هى أوساخُ الناس وأقذارُ نفوسهم ؛ فلم أكد أفتح فمى حتى رأيتُ الكلام يتحولُ طيناً فى فمى ليذكرنى بهذا المعنى ؛ وكدتُ أختنق فانتفضتُ أتنفَّس ، فطار النومُ والحلمُ .

إبليس يعلّم . . . * [١]

٣

قال أحمد بن مِسكين : ودار السبتُ الثالثُ ، وجلستُ مجلسي للناس وقد انتظمتْ حلْقتَهُم ؛ فقام رجلٌ من عُرْض المجلس فقال : إن الحسَنَ بن شُجاع البلخي تلميذَ الإمام أحمد بن حنبل [٢] ، كان منذ قريب يحدثنا بأحاديثَ عن الشيطان ، حفظنا منها قوله (صلى الله عليه وسلم) : « إن المؤمنَ يُنْضِي شيطانَه كما يُنضى أحدُكم بعيرَه في سفره . » وكان الحسن يقول في تأويله : إن شيطانَ الكافر دَهينٌ سمينٌ كاسٍ ، وشيطان المؤمن مَهزولٌ أشعثُ أغبرُ عارٍ . فهل يأكلُ الشيطان ويدَّهِن ويلبسَ ليكون له أن يجوعَ مع المؤمن ويَعرَى ويتشعَّث ويَغبَرَّ ؟

قال ابن مسكين: فقلت في نفسي : لاحول ولا قوة إلا بالله ! ما أرى السائل إلا شيطانَ هذا السائل ؛ فإن إبليسَ إذا أراد أن يَسْخرَ من العالم ويُسمِعَه طَنْزَه وتهكمه [٣] ، حرَّك من يسأله عنه ماهو وكيف هو ؛ كأنما يقول له : تَنبَّه ويحك على معنايَ ، فأنت تتكلم وأنا أعمل ، وأنت صورةٌ من الردّ علَيَّ ، ولكني حقيقةٌ من الرّد عليك ، وما أنت في محاربتك لي بالوعظ إلا كالذى يريد أن يضربَ عُنُقَ عدوه بمائة اسمٍ وُضِعَتْ للسيف . . .

قال : وكنت قد سمعت خبراً عجيباً عن أبي عامر قَبيصةَ بن عُقْبة الكوفي المحدِّث الحافظ الثقة أحدِ شيوخ أحمد بن حنبل [٤] ؛ وهو الرجلُ الصالح العابد الذى كان يقال له : (راهبُ الكوفة) ؛ من زهده وعبادته واحتباس نفسه في

---

* انظر الفصلين السابقين .

(١) داعبنا إبليس (لعنه الله) مداعبة ثقيلة في كتابة هذا المقال ، وسنقتص للقراء حكايته في مقالة : (دعابة إبليس) .

(٢) توفى ابن شجاع هذا سنة ٢٤٤ هـ ، وكان من حفاظ (بلخ) .

(٣) الطنز : التّهزؤ والتّهكم ، ولعل منه كلمة (طظ) عند العامة .

(٤) توفى سنة ٢١٥ هـ .

داخله كأنما جسده جدارٌ بين نفسه وبين الدنيا ، فقلت والله لأغيظنّ الشيطانَ بهذا الخبر ، فإن أسماء الزهّاد والعبّاد والصالحين هى فى تاريخ الشياطين كأسماءِ المواقع التى تنهزمُ فيها الجيوش ، وما الرجلُ العابد إلا صاحبَ الغمرات مع الشيطان ، وكأنه يحتملُ المكارهَ عن أمة كاملة بل عن البشرية كلّها حيث كانت من الأرض ، فالناسُ يحسبونه قد تخلّى من الدنيا ويظنون التركَ أيسرَ شىء ، وما علموا أن الزهد لايستقيم للزاهد حتى يجعلَ جسمَه كأنه نظامٍ آخرَ غيرِ نظام أعضائه ؛ ولا أشقّ من ذلك على النفس . ومعجزةُ الزاهد أنه مكلفٌ أن يُخرج للناس أقوى القوة من المعانى التى هى عند الناس أضعفُ الضعف ؛ ولو أن ملكًا عظيما تعب فى جمع الدنيا وفتْح الممالك حتى حيزَتْ له جوانبُ الأرض ، لكان عملُه هذا هو الوجهَ الآخرَ لتعبِ الزاهد فى مُجاهدَةِ هذه الدنيا وتركِها .

* * *

قال أحمد بن مسكين : وقصصتُ عليهم القصة فقلت : كان أبو عامر قَبيصةُ بن عُقبة كثيرَ الفكر فى الشيطان ، يودّ لو رآه وناقلَه الكلامَ ؛ وكان يتدبّر الأحاديثَ التى صحّ ورودُها فيه ، ويفسّر معنى الشيطان بأنه الروحُ الحىُّ للخطأ على الأرض ؛ والخطأ يكونُ صوابًا محوّلاً عن طريقته وجهته ، ولهذا كان إبليسُ فى الأصل ملَكا من الملائكة وتحوّل عن طبيعته حين خُلق آدم (عليه السلام) ، أى وُجِدَ فى الكون روحُ الخطأ حين وُجِد فيه الروحُ الذى سُيخطئ .

فلما هبط آدمُ من الجنة وحُرِمَها هو وزوجُه وذريّتُه ، كان إبليسُ (لعنه الله) هو معنى بقاء هذا الحرمان واستمرارِه على الدهر ، فكأن هذه الآدميةَ أُخرجت من الجنة ، وأُخرجت معها قوةٌ لاتزال تَصُدُّها عنها ، ليضطربَا فى الكِفاح مَليًّا من زمنٍ هو عمرُ كل إنسان ، وهذا هو العدلُ الإلهى : لم يعرف آدمُ حقَّ الجنة ، فعُوقب ألاّ يأخذَها إلا بحقها ، وأن يقاتل فى سبيل الخير قوةَ الشر .

وبات أبو عامر ذاتَ ليلة يفكر فى هذا ونحوِه بعد أن فرغ من صلاته وقراءته ، ثم هوّمَ فكان بين اليقظة والنوم ، وذلك حين تكونُ العينُ نائمةً

والعقلُ لايزال منتبهًا ، فكأن العينَ متراجعةٌ تُبصر من تحتِ أجفانها بصراً يُشارِكها فيه العقل .

فرأى شيخُنا أبو عامر صورةَ إبليسَ جاءه فى زِىّ رجل زاهد ، حَسَنِ السَّمْتِ ، طيِّبِ الريح ، نظيفِ الهيئة ، وكاد يُشَبَّهُ عليه لولا أنه قد عرفه من عينيه ، فإن عينى الكاذب تَصْدُقان عنه ، وقد علم الله أن الكاذبَ آدمىٌّ قَفْرٌ كالمتَاهَةِ من الأرض ، فجعل عينيه كالعلاماتِ لمن خاض الفلاة .

وظهر الشيطانُ زاهداً عابداً تقيا نقيا كأنه دِين صحيحٌ خُلِقَ بَشراً ، فَصرَخ فيه أبو عامر : عليكَ لعنة الله ! أمعصيةٌ فى ثوب الطاعة ؟

قال إبليس : يا أبا عامر ! لو لم تقل المعصيةُ إنها طاعةٌ لم يُقَارِفْها أحد . وهل خُلقت الشهواتُ فى نفس الإنسان وغريزته إلا لتقريب هذه المعاصى من النفس ، وجعْلِ كلٍّ منها طاعةً لشىء ما ؛ فتقع المعصية بأنها طاعةٌ لا بأنها معصية ؟ أو لاترى يا أبا عامر أن الحيلةَ مُحكمةٌ فى الداخل من الجسم أكثرَ مما هى محكمة فى الخارجِ عنه ، وأنه لولا أن هذا الباطنَ بهذا المعنى وهذا العملِ لما كان لظاهر الوجود كلِّه فى الإنسان معنىً ولا عمل ؟

قال الشيخ : عليك لعنة الله ! فما أرى الموتَ قد خلق إلا ردًّا عليك أنت ، ليتبيَّنَ الناسُ أنك الممتلئُ الممتلئُ ، ولكنك الفارغ الفارغ ؛ بل كل شهواتك سخرية منك وردٌّ عليك ، فلا طعْم للذة من لذاتك إلا وهى تموت ، وإنما تمامُ وجودِها ساعةَ تنقضِى ؛ ومتى قالت اللذةُ : قد انتهيت . فقد وصفَتْ نفسَها أبلغَ الوصف .

قال إبليس : يا أبا عامر ، ولكن اللذة لا تموت حتى تَلدَ ما يُبقيها حية ، فهى تلد الحنينَ إليها ، وهو لايسكن حتى يعودَ لذة تنقضى وتلد .

قال الشيخ : معانى التراب ، معانى التراب ؛ كلِ نَبْتَةٍ فيها بِذْرتُها ، ولكن (عليك لعنة الله) لماذا جئتنى فى هذه الصورة ؟

قال إبليس : لأنى لا ألبسُ إلا محبةَ القلبِ الآدمى ، ولو لا ذلك لطردتْنى القلوبُ كلّها وبطَلَ عملى فيها ، وهل عملى إلا التلبيسُ والتزوير ؟ أفتدرى يا أبا عامر أنى لا أعترِى الحيوانَ قط.

قال الشيخ : لأن الحيوان لاينظر إلى الشيء إلا نظرةً واحدةً ، هي نظرُه وفهمُه معًا ، فلا محلّ للتزوير مع هذه النظرة الواحدة ؛ وصدق الله العظيم : « هل أُنبئكم على مَنْ تَنزّلُ الشياطين ؟ تَنزّلُ على كلِّ أفّاكٍ أثيم » . فأنت أيها الشيطانُ التزوير ، والتزويرُ موضعُه الكذب ؛ فمن لم يكذبْ فى الفكر ولا فى النظر ولا فى الفهم ولا فى الرجاء ، فليس لك عنده عمل .

قال إبليس : يا أبا عامر ! وهل ترى (رحمك الله) أعجبَ وأغربَ وأدعى إلى الهزء والسخرية من أن أعظم العقلاءِ الزهّادِ العبّادِ ، هو فى جملة معانيه حيوانٌ ليس له إلا نظرةٌ واحدة فى كل شيء ؟

قال الشيخ : عليك وعليك . . . ؛ إن الحيوانَ شيء واحدٌ ، فهو طبيعةٌ مسخّرة بنظامها ، ولكن الإنسان أشياءَ متناقضَةٌ بطبيعتها ، فألوهيتُه أن يُقرّ النظامَ بين هذه المتناقضَاتِ ، كأنما امتُحِنَ فأعطىَ من جسمه كونًا فيه عناصرُ الاضطرابِ ، وحوله عناصرُ الاضطراب ، ثم قيل له دَبِّره .

فضحك إبليس . قال الشيخ : مم ضحكْتَ لعنك الله ؟

قال : ضحكتُ من أنك أعلمتَنى حقيقةَ الإبليسية ، فالزهّادُ هم الصالحون لأن يكونوا أعظمَ الأبالسة . . .

قال الشيخ : عليك لعنة الله ، فما هى تلك الحقيقة التى زعمت ؟

قال إبليس : والله يا أبا عامر ، ما غلا إنسانٌ فى زَعْم التقوى والفضيلةِ إلا كانت هذه هى الإبليسية ؛ وسأعلمك يا أبا عامر حقيقةَ الزهد والعبادة . فلا تقلْ إنها ألوهيةٌ تُقرّ النظامَ بين متناقضَات الإنسان ومتناقضاتِ الطبيعة ؛

قال الشيخ : وتسخَر منى لعنك الله ؟ فمتى كنتَ تعلَم الحقيقة والفضيلة ؟

قال إبليس : أو لم أ كنْ شيخَ الملائكة ؟ فمن أجدرُ من شيخ الملائكة أن يكونَ عالمَها ومعلِّمَها ؟

قال : عليك لعنة الله ؛ فما هى حقيقة الزهد والعبادة ؟

قال إبليس : حقيقتها يا أبا عامر ، هى التى أعجزتنى فى نبيكم .

قال الشيخ : صلى الله عليه وسلم ؛ فما هى ؟

قال إبليس : هى ثلاث بها نظامُ النفس ، ونظامُ العالم ، ونظامُ اللذات

والشهوات : أن تكونَ لك تقوى ، ثم يكونَ لك فكرٌ من هذه التقوى ، ثم يكونَ لكَ نظر إلى العالم من هذا الفكر . ما اجتمعتْ هذه الثلاثُ فى إنسان إلا قَهَرَ الدنيا وقَهر إبليس .

فإن كانت التقوى وحدَها — كتقوى أكثرِ الزهَّاد والرهبان — فما أيسرَ أن أجعلَ النظرَ منها نظرَ الغفلة والجبن والبلادة والفضائلِ الكاذبة ، وإن كان الفكرُ وحدَه — كفكر العلماء والشعراء — فما أهونَ أن أجعلَ النظرَ به نظرَ الزَّيغ والإلحادِ والبهمية والرذائلِ الصريحة .

قال الشيخ : صدق الله العظيم : « إن الذين اتَّقَوْا ربَّهُم إذا مَسَّهم طائفٌ من الشيطان تذكَّروا فإذا هم مُبْصِرون » .

قال إبليس : يا أبا عامر ! ما يضرنى والله أن أفسِّرَ لك ، فإن قارورةً من الصِّبْغ لاتَصْبغُ البحر ، وأنا أعدُّ الزهادَ والعلماء المصلحين فأضَعُ فى الناس بجانب كل واحد منهم مائة ألف امرأة مفتونة ، ومائة ألف رجل فاسق ، ومائة ألف مخلوق ظالم ، فلو أنك صَبَغْتَ البحرَ بملء قارورةٍ حمراء لما صبغتَ البحرَ الإنسانىَّ بالزاهد والمصلح ، ما دام المصلحُ شيئًا غيرَ السيف ، وما دام الزاهد شيئًا غيرَ الحاكم .

قال الشيخ : لعنك الله من شيطانٍ عارِم ، فإذا وضعتَ المصلحَ بين مائة ألف فاسد ، فهل هذه إلا طريقة شيطانية لإفساده ؟

قال إبليس : ومائة ألف امرأة فتَّانة مفتونة يا أبا عامر ، كل واحدة تحسبُ جسمَها . . .

فصرخ الشيخ : اعْزُبْ عنى عليك لعنة الله !

قال إبليس : ولكن الآية الآية يا أبا عمر . لقد لقيتُ المسيحَ وجرَّبْتُه وهو كان تفسيرَها .

قال الشيخ : عليه السلام ! وعليك أنت لعنة الله ! فكيف قال ؟ وكيف صنع ؟

قال إبليس : ألقيتُ به جائعًا فى الصحراء لايجدُ ما يَطْعَمُهُ ، ولايظن أنه يجد ، ولايرجو أن يظن ؛ ثم قلتُ له : إن كنتَ رُوحَ الله وكلمتَه كما تزعمُ ،

فمرْ هذا الحجرَ ينقلب خبزاً . فكان تقيًّا ، فتذكّر فإذا هو مُبْصِر ، فقال : ليس بالخبز وحدَه يحيا الإنسان ، فمثلُ هذا لو مات جوعًا لم يتحوّل ، لأن الموتَ إتمامُ حقيقته السامية فوقَ هذه الدنيا ، ولو مُلِئتْ له الدنيا خبزاً وهو جائع لم يتحوّل ، لأن له بَصَراً من فوقِ الخبز إلى حقيقته السماوية ؛ فليس بالخبز وحده يحيا ؛ بل بمعان أخرى هي إشباعُ حقيقته السماوية التي لاشهوةَ لها .

ثم ارتقيتُ به إلى ذِرْوة جبلٍ وأريتُه ممالكَ الخافِقَين ، كشفتُها كلَّها لعينيه وقلت له : هذا كله لك إذا أنت سجدتَ لي . فكان متقيًا ، فتذكّر فإذا هو مُبصِر : أبصر حقيقةَ الخيال الذى جَسَّمتُه له ، وعلم أن الشيطان يُعطى مثلَ معانى هذه الممالكِ فى جَرعة خمر ، كما يُعطيها فى ساعة لذة ، كما يُعطيها فى شفاء غيظ بالقتلِ والأذى ؛ ثم لايبقَى من كل ذلك باقٍ غيرُ الإثم ، ولا يصحُّ منه صحيح إلا الحرام . ومَن ملَكَ الدنيا نفسَها لم يبقَ لها إذا بقيتْ فهى خَيال فى جَرعة الحياة ، كما هى خيالٌ فى جرعة الخمر .

يا أبا عامر ؛ إن هذا النظر ، الذى وراءه التذكُّر ، الذى وراءه التقوى ، التى وراءها الله — هذا وحدَه هو القوةُ التى تتناول شهواتِ الدنيا فتُصفِّيها أربعَ مرات حتى تعودَ بها إلى حقائقها الترابيةِ الصغيرةِ التى آخرُها القبر ، وآخر وجودِها التلاشِي .

فالبصرُ الكاشفُ الذى يُجرِّد الأشياء من سِحرها الوهمِي ، هذا هو كلُّ السر .

* * *

قال الشيخ : لعنك الله ؛ فكيف مع هذا تفتن المؤمن ؟

قال إبليس : يا أبا عامر ، هذا سؤالٌ شيطانى . . . تريد — ويحكَ — أن تحتالَ على الشيطان ؟ ولكن ما يضرنى أن أفسرَها لك .

ليس الإيمانُ هو الاعتقادَ ولا العملَ ، ولو كان من هذين لما شقَّ على أحد ولصلُحت الدنيا وأهلُها ؛ إنما الإيمانُ وضعُ يقينٍ خفيٍّ يكونُ مع الغريزة

فى مقَرّها ، ويصلُح أن يكونَ فى مقرّها لتَصْدُرَ عنه أعمالُ الغريزة ؛ وهذا اليقينُ لايصلح كذلك إلا إذا كان يقينًا ثابتًا بما هو أكبرُ من الدنيا ، فيرجع إليه الإنسانُ فيتذكر فيُبْصِر . هناك ميراثٌ من الآخرة للمؤمن ، فاليقينُ بهذا الميراثِ هو سرُّ الإيمان .

والعملُ الشيطانىُّ لايكونُ إلا فى إفساد هذا اليقين ومعارضة الخيال العظيم الذى فيه بالحقائق الصغيرة التى تظهرُ للمغفل عظيمة ، كما تُشَبُّ نارٌ أكبرُ من قُرص الشمس ثم يقال للأبله : انظرْ بعينيك ، فيصدّق أنها أكبرُ من الشمس .

ومتى صغُر هذا اليقينُ وكانت الحقائقُ الدنيويةُ أكبرَ منه فى النفس ، فأيسرُ أسبابِ الحياة حينئذ يُفسد المعتقَدَ ويُسقِطُ الفضيلة ؛ وبدرهمٍ واحدٍ يُوجَدُ اللصُّ حينئذ .

أما إذا ثبت اليقين فالشيطانُ مع الإنسانُ يصغرُ ثم يصغُر ، ويَعجز ثم يعجز . حتى ليرجعُ مثلَ الدرهم إذا طمِعَ الطامعُ أن يجعلَ الرجلَ الغنىَّ الكثيرَ المال لِصًّا من اللصوص بهذا الدرهم .

قال الشيخ : لعنك الله ! فإن لم تستطع إفساد هذا اليقين فكيف تصنع فى فتنة المؤمن ؟

قال إبليس : يا أبا عامر ، إن لم أستطع إفسادَ اليقين زدتُه يقينًا فيفسد ، واستحسانُ الرجل لأعماله السامية قد يكون هو أولَ أعماله السافلة ؛ وبأى عجيب يكون الشيطانُ شيطانًا إلا بمثل هذا ؟

* * *

قال أحمد بن مسكين : وغضب الشيخ ، فمدّ يدَه فأخذ فيها عُنُقَ إبليس وقد رآه دقيقًا ، ثم عَصَره عَصْراً شديداً يريد خنْقَه ؛ فقهقه الشيطانُ ساخراً منه . ويتنبه الشيخ ، فإذا هو يشدُّ بيده اليمنى على يده اليسرى . . .

الدنيا والدرهم

٤

قال أحمدُ بن مِسكين : وأزِفَ تَرحُّلى عن (بلخ) ، وتهيأتُ للخروج ، ولم يبق من مدة مَقِيلى بها إلا أيامٌ يجىء فيها السبتُ الرابع ، وكان قد وقعت مُمَارَاةٌ بينى وبين مفتى (بلخ) أبى إسحق إبراهيم بن يوسف الباهلى[1] تلميذ أبى يوسف صاحب الإمام أبى حنيفة ، ويزعمون أنه شحيحٌ على المال ، وأنه يَتَغَلَّلُه من مُسْتَغَلَّات كثيرة[2] ، فكأنما غَشِيَتْه غَمامتى ، فهو لايرى أن أتكلمَ فى الزهد ، ويحسبُ هذا الزهدَ تَمَاوُتَ العبَّاد ، ونَفْضَ الأيدى من الدنيا ، وسُوءَ المصاحبة لما يُنعِم الله به على العبد ، وخذلانَ القوة فى البدن ، وما جرى هذا المجرى من تزوير الحياة بالأباطيل التى زَعَم أنها أباطيلُ الطاعات وما أقربَها من أباطيل المعصية . ولم يكن هذا المفتى قد سمعنى ولاحضَر مجلسى ، ولولا الذى لم يعرفْه من ذلك لقد كان عرف .

وجادلْته فرأيتُه واهنَ الدليل ، ضعيفَ الحجة ، يُخَمِّنُ تخمينَ فقيه ، وينظر إلى الخفايا من حقائق النفوس نظرَ صاحب النص إلى الظاهر ، كأن الحقيقة إذا أُلقيتْ على الناس مضتْ نافذةً كفتوى المفتى . . . ويزعم أن الوعظَ وعظ الفقهاء ، يقولون : هذا حرام . فيكون حرامًا لا يُقارفُه أحد ، وهذا حلالٌ . فيكون حلالاً لايتركه أحد ، وهو كان بعيداً عن حقيقة الوعظ ومَدَاخله إلى النفس وسياستِهِ فيها ، ولايعرف أن الحقيقة كالأنثى : إن لم تُزَيَّنْ بزينتها لم تَسْتَهْوِ أحداً ؛ وأن الموعظةَ إن لم تَتَأدَّ فى أسلوبها الحىِّ كانت بالباطل أشبه ، وأنه لايغير النفسَ إلا النفسُ التى فيها قوةُ التحويل والتغيير ، كنفوس الأنبياء ومن كان فى طريقة رُوحهم ، وأن هذه الصناعةَ إنما هى وضعُ نور البصيرة فى الكلام ، لا وضعُ القياسِ والحجة ، وأن الرجلَ الزاهدَ الصحيحَ الزهد ، إنما

---

(١) توفى مفتى بلخ هذا سنة ٣٣٩ هـ .

(٢) المستغلات : أصول الأموال ، وتغلّل واستغل بمعنى .

هو حياةٌ تلبسُها الحقيقة لتكونَ به شيئًا فى الحياة والعمل . لاشيئًا فى القول والتوهم . فيكون إلهامُها فيه كحرارة النار فى النار : من وَاتَاها أحسَّها .

ولَعمرى ، كم من فقيه يقول للناس : هذا حرام . فلا يزيد هذا الحرامَ إلا ظهوراً وانكشافًا ما دام لاينطقُ إلا نطقَ الكتب ، ولايحسن أن يصلَ بين النفس والشَّرع ، وقد خلا من القوة التى تجعله روحًا تتعلق الأرواحُ بها وتضعهُ بين الناس فى موضعٍ يكون به فى اعتبارهم كأنه آتٍ من الجنة منذُ قريب ، راجعٌ إليها بعدَ قريب .

والفقيهُ الذى يتعلق بالمال وشهواتِ النفس ، ولايجعل هَمَّه إلا زيادة الرزق وحظَّ الدنيا — هو الفقيهُ الفاسدُ الصورةِ فى خيال الناس ، يُفْهِمُهم أولَ شىء ألاَّ يَفْهموا عنه ؛ إذ حِرْصُه فوق بصيرته ، وله فى النفوس رائحةُ الخبز ، وله معنى خمسٌ وخمسٌ عشرة[1] . . . وكأن دنياه وَضَعت فيه شيئًا فاسدًا غريبًا يُفسِدُ الحقيقةَ التى يتكلم بها ؛ ولست أدرى ما هو هذا الشىء ، ولكنى رأيتُ فقهاءَ يعظون ويتكلمون على الناس فى الحرام والحلال وفى نَصٍّ كتاب الله وسنَّة رسوله (صلى الله عليه وسلم) ، ثم لم أجد لكلامهم نفعًا ولاردًّا ، إذ يُلْهِمون الناسَ بأرواحهم غيرَ المعنى الذى يتكلمون فيه ؛ وتَسْخَرُ الحقيقةُ منهم — على خَطَرِهم وجلال شأنِهم — بذاتِ الأسلوبِ الذى تسخَرُ به من لصٍّ يعظ لصا آخر فيقول له : لاتَسرِق . . .

* * *

قال ابنُ مسكين : فلما دار يومُ السبت أقبل الناسُ على المسجد أفواجًا ، وكانوا قد تَعالَموا إزْماعى الرحيلَ عن بلدهم — وجاء (لقمانُ الأمة) فى أشياعه وأصحابه ، وجاء أبو إسحق المفتى فى جماعته ؛ واستقر بى المجلس فنفَذَتْ الناسَ بنظَرى ، فكأنهم من كثرتهم نَبَاتٌ غطَّى الأرض ، فأذكرنى هذا شيخَنا السرىَّ بنَ مُغلِّس السقَطى[2] ، وكان قد لزم دارَه فى بغداد لايخرج منها

---

(١) يريد أنه فى هذه الدنيا (عملية حسابية . . .) وفى أيام ضعفة الدين يكون الفقه استخراج الدراهم من النصوص . . .

(٢) السقط : ردىء المتاع (روبابيكيا) ، وبائعه : السقطى . وهذا الإمام العظيم كان أوحد أهل زمانه فى الورع ، وله كلام إلهى مشرق ، وقد توفى عن سن عالية فى سنة ٢٥٣ هـ .

ولا يراه إلا من قصَد إليه ، وهممتُ أن أجعلَ الموعظةَ فى شرح كلمته المشهورة : « لاتصحُّ المحبةُ بين اثنين حتى يقولَ أحدُهما للآخر : يا أنا » . وما نقلوا عنه من أنه قال مرة لبعض أصحابه : منذ ثلاثين سنةً وأنا فى الاستغفار من قولى : (الحمد لله) . فقال صاحبُه : وكيف ذلك ؟ قال : وقع ببغداد حريقٌ ، فاستقبلنى رجلٌ فقال: نجا حانوتُك . فقلتُ : الحمد لله . فأنا نادمٌ من ذلك الوقت على ما قلت ؛ إذ أردتُ لنفسى خيراً من الناس !

قال ابن مسكين : ولكنى أحببتُ أن أكلم المفتى ومالَ المفتى ؛ فحدثتهم حديث معرفتى بالسرِّىّ : أنى سمعتُ يومًا (غيْلان الخياط) يقول : إن السرى كان اشترى كُرَّلوز[1] بستين ديناراً ، وأثبته فى رزنامجه[2] وكتب أمامه : ربحهُ ثلاثة دنانير[3] ؛ فلم يلبث أن غلا السعرُ فبلغ تسعين ديناراً ؛ فأتاه الدلاّل الذى كان اشترى له فقال : أريد ذلك اللوز . قال الشيخ: خذه . قال: بكم ؟ فقال : بثلاثة وستين ديناراً . وكان الدلال رجلاً صالحًا ، فقال للشيخ : إن اللوز قد صار الكُرُّ بتسعين . قال السرىّ : ولكنى عقدتُ بينى وبين الله عقداً لا أحلُّه ، فلستُ أبيع إلا بثلاثة وستين ديناراً . فقال الدلاّل : وأنا قد عقدتُ بينى وبين الله عقداً لا أحله ، ألاّ أغشَّ مسلمًا ، فلست أشترى منك إلا بتسعين ؛ فلا الدلاّل اشترى منه ، ولا السرىُّ باعه . . !

قال أحمد بن مسكين : فلما سمعت ذلك لم تكن لى همةٌ إلا أن ألقى الشيخَ وأصحبَه وآخذَ عنه ، فلم أُعرِّجْ على شىء حتى كنت فى المسجد الذى يصلى فيه ، فأجده فى حلْقته وعنده ممن كنتُ أعرفهم : عبدُ الله بن أحمد بن حنبل ، وإدريسُ الحداد ، وعلى بن سعيد الرازى ، وحوله خلق كثير وهو فيهم كالشجرة الخضراء بين الهشيم تعلوه نضْرةُ روحه ، وكأنما يُمدُّه بالنور عرقٌ من السماء ، فهو يتلألأ للعين ؛ ولا يملك الناظر إليه إلا أن يُحِسَّ فى ذاتِ نفسه أنه الأدنى ، من رؤيته فى ذاتِ نفسِه أن هذا هو الإنسانُ الأعلى .

---

(١) الكر (بضم الكاف) : مكيال عظيم يقدرون به فى الحساب ، وهو أربعون إردباً مصرياً .

(٢) أى دفتر حسابه . (٣) خمسة فى المائة .

ورأيتُ على وجهه آلاماً تمسَحـُه مِسْحةَ الأشواق لامِسْحَةَ الآلام ، آثارُ ما يجدُه في روحه القوية ، لاكآلام الناسِ التي هي آثار الحرمان في أرواحهم الواهنة الضعيفة فلا تمسح وجوهَهم إلا مِسحَةَ الغم والكآبة .

وما يخطئُ النظر في تمييز آلام السماء على هذه الوجوه السعيدة من آلام الأرض في الوجوه الأخرى ، فإن الأولى تَتَنَدَّى على رُوح الناظر بمثل الطَّلِّ إذا قَطَّرَه الفجر ، والأخرى تَتَثَوَّرُ في روحه كما تَهيجُ الغَبَرَةُ إذا ضربت الريحُ الأرض .

كان الشيخُ في وجودٍ فوق وجودنا ؛ فلا تتلوَّن له الأشياء ولاتعدو عنده ما هي في نفسها ، ولا يحملُ الشيء له إلا معناه من حيث يَصلُح أولا يصلُح ، ومن حيث ينبغي أو لاينبغي . فإنما تتلون الأشياء عند ما يضع الشيطانُ عينَه في عين الناظر إليها ؛ وإنما تزيد وتنقُص في القلب عند ما يكونُ روحُ الشيطان في القلب ؛ وإنما يَشتبِه ما ينبغي وما لا ينبغي عند ما يأتي الشئ من جهتين : جهتِه من طبيعته هو ، وجهتِه من طبيعتنا نحن . وبهذا قد يجمع الإنسانُ المالَ ثم لايجد في المال معنى الغنى ، وقد تتفقُ أسباب النعيم ولايكون منها إلا الذل . وكم من إنسانٍ يجدُ وكأنه لم يجدْ إلا عكسَ ما كان يبغِي ، وآخَرَ لم يجدْ شيئًا ووجد بذلك راحتَه .

* * *

قال ابنُ مسكين : وما كان أشدَّ عجبي حين تكلم الشيخ ، فقد أخذ يُجيب عَمَّا في نفسي ولم أسأله ، كأن الذى في فكرى قد انتقل إليه ؛ فروَى الحديث : « إذا عظَّمَتْ أمتي الدينارَ والدرهم ، نُزِعَ منها هيبةُ الإسلام ؛ وإذا تركوا الأمر بالمعروف والنهيَ عن المنكر ، حُرِموا بَركةَ الوحي » . ثم قال في تأويله :

إن مَلَكَ الوحي ينزل بالأمر والنهي ليُخضعَ صَوْلةَ الأرض بصَولة السماء ، فإذا بقي الأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر ، بقي عملُ الوحي إلا أنه في صورة العقل ، وبقيت روحانيةُ الدنيا إلا أنها في صورة النظام ، وكان مع كل خطأٍ تصحيحُه ؛ فيصبحُ الإنسانُ بذلك تنفيذاً للشريعة بين آمرٍ مُطاع ومأمورٍ مطيع ، فيتعامل الناس على حالةٍ تجعل بعضَهم أستاذاً لبعض ، وشيئًا منهم تعديلاً لشيء ،

وقوةً سنداً لقوة ؛ فيقومُ العزمُ فى وجه التهاون ، والشدة فى وجه التراخى ، والقدرةُ فى وجه العجز ؛ وبهذا يكونون شركاء متعاونين ، وتعودُ صفاتُهم الإنسانيةُ وكأنها جيشٌ عاملٌ يناصرُ بعضُه بعضًا ، فتكونُ الحياة مفسَّرةً ما دامت معانيها الساميةُ تأمرُ أمرَها وتُلهِمُ إلهامَها ، وما دامت ممثَّلةً فى الواجب النافذِ على الكل .

والناس أحرارٌ متى حكمتْهم هذه المعانى ، فليست حقيقةُ الحرية الإنسانية إلا الخضوعَ للواجب الذى يحكم ، وبذلك لابغيره يتصلُ ما بين الملِكِ والسُّوقةِ ، وما بين الأغنياء والفقراء ، اتصالَ الرحمة فى كل شىء ، واتصالَ القسوةِ فى التأديب وحده . فبركةُ الوحى إنما هى جعلُ القوة الإنسانيةِ عملاً شرعيًّا لا غير .

أما تعظيمُ الأمة للدنيا والدرهم ، فهو استعبادُ المعانى الحيوانيةِ فى الناس بعضِها لبعض ، وتقطُّعُ ما بينَهم من التشابُكِ فى لُحْمةِ الإنسانية ، وجعلُ الكبير فيهم كبيراً وإن صَغُرَتْ معانيه ، والصغيرِ فيهم صغيراً وإن كَبِر فى المعانى ؛ وبهذا تموجُ الحياة بعضُها فى بعض ، ولا يستقيم الناسُ على رأىٍ صحيح ؛ إذ يكونُ الصحيحُ والفاسدُ فى مِلْكِ الإنسان لافى عملِ الإنسان ، فيكنز الغنىُّ مالاً ويكنز الفقيرُ عداوةً ، كأن هذا قَتَل مالَ هذا ، وكأن أعمالاً قتلت أعمالاً ، وترجعُ الصفاتُ الإنسانيةُ متعاديةً ، وتُباع الفضائلُ وتشترى ، ويزيد من يزيدُ ولكن فى القسوة ، وينقُصُ من ينقص ولكن فى الحرية ، وتكون المنفعةُ الذاتيةُ هى التى تأمرُ فى الجميع وتنهَى ، ويدخُل الكذبُ فى كل شئ حتى فى النظرِ إلى المال ، فيرى كلُّ إنسانٍ كأنما دِرْهمهُ وديناره أكبرُ قيمةً من دينارِ الآخر ودرهمه ، فإذا أعطى نقَص فغَشَّ ، وإذا أخذ زاد فسَرَق ؛ وتُصبح النفوسُ نفوسًا تجاريَّةً تُساوِمُ قبلَ أن تنبعثَ لفضيلة ، وتُماكِس إذا دُعِيتْ لأداء حق ، ويتعامل الناسُ فى الشرف على أصولٍ من المَعِدة لا من الروح ، فلا يقالُ حينئذ : إن رغيفين أكثرُ من رغيف واحد . كما هى طبيعة العدد ، بل يقال : إن رغيفين أشرفُ من رغيفٍ . كما هى طبيعة النفاق .

أما التجارةُ — وهى التفسيرُ الظاهرُ لمعانى النفوس — فتُصبح بين الغِش والضررِ والمماكَسَة ، وتكونُ يقَظَةُ التاجر من غفلة الشارى ، وتَفسُدُ الإرادةُ

فلا تُحدِثُ إلا آثارَها الزائغة . وما التاجرُ فى الأمة القوية إلا أستاذ لتعليم الصدق والخُلق فى الموضع المتقلِّب ، فكلمتُه كالرقْم من العدد لايحتملُ أزيدَ ولا أنقصَ مما فيه ، ويُمتَحَن بالدنيا والدرهم أشدَّ مما يمتحن العابدُ بصلاته وصيامه . وقد شهد رجلٌ عند عمر بن الخطاب فى قضية ، فقال له عمر : ائتنى بمن يعرفك . فأتاه برجل أثنى عليه خيراً ، فقال له عمر : أنتَ جارُه الأدنى الذى يعرفُ مَدْخلَه ومخرجَه ؟ قال : لا . قال : فكنتَ رفيقَه فى السفر الذى يُستَدل به على مكارم الأخلاق ؟ قال : لا. قال : فعاملتَه بالدينار والدرهم الذى يَستبِينُ به ورَعُ الرجل ؟ قال : لا .

قال عمر : أظنك رأيتَه قائمًا فى المسجد يُهَمْهِمُ بالقرآن ، يَخفِضُ رأسَه طوراً ويرفعه أخرى ؟ قال : نعم .

قال : فاذهب فلستَ تعرفه !

وإنما التاجرُ صورةٌ من ثقة الناس بعضهم ببعض ، وإرادةِ الخير واعتقاد الصدق ، وهو فى كل ذلك مظهرٌ توضَعُ اليدُ عليه كما تَجسُّ اليدُ مرضَ المريض وصحتَه .

فإذا عظَّمت الأمة الدينارَ والدرهم ، فإنما عظَّمت النفاقَ والطمعَ والكذب والعداوةَ والقسوةَ والاستعباد ؛ وبهذا تقيم الدنانير والدراهم حُدوداً فاصلة بين أهلِها ، حتى لتكون المسافةُ بين غنى وفقيرٍ كالمسافة بين بلدين قد تباعَدَ ما بينهما . وإنما هيبةُ الإسلام فى العزة بالنفس لا بالمال ، وفى بذلِ الحياة لافى الحِرْص عليها ، وفى أخلاقِ الروح لا فى أخلاق اليد ، وفى وضع حُدود الفضائل بين الناسِ لا فى وضع حُدود الدراهم ، وفى إزالةِ النقائص من الطباع لافى إقامتها ، وفى تَعَاوُن صفاتِ المؤمنين لافى تَعادِيها ، وفى اعتبار الغنى ما يُعْمَلُ بالمال لا ما يُجمَعُ من المال ، وفى جعلِ أول الثروة العقلُ والإرادةُ ، لاالذهبُ والفضة ..

هذا هو الإسلامُ الذى غلَبَ الأمم ، لأنه قبلَ ذلك غلَبَ النفسَ والطبيعة .

دُعابةُ إبليس *(١)

أمَا إنى سأقصُّ هذه الحكايةَ كما اتفقَتْ ، لا أُزيِّنها بخيال ، ولا أتزَيَّدُ فيها بخبر ، ولا أولِّد لها معنى ؛ فإنما هى حكايةُ خُبْثِ الخبيث : فنَّها حِذْقُه ودَهاؤه ، ورقَّتُها غِلْظتُه وشرُّه ، ومعانيها بلاؤُه ومِحْنتُه ؛ وأعوذُ بالله من الشيطانِ الرجيم ، واللهُ المستعان .

لما فكرتُ فى وضع مقالة(إبليس) من أحاديث (ابن مسكين) ، وأدرتُ رأيى فى نهجها وحدودِها ومعانيها ، جعل فكرى يتقَطَّع فى ذلك ، يذهبُ ويجىء كأن بينى وبينه منازَعة ، أوكأن فى نفسى شيئًا يَثنينى ويقطَعنى عن العَزم ؛ وخُيِّل إلىَّ حينئذ أن (إبليسَ) هذا منفَعةٌ من المنافع . . . وأنه هو قانونُ الطبيعةِ الذى نَصٌّ مادته الأولى : ما أعجبَك فهو لك . ونَصٌّ مادته الأخيرة : ما احتجتَ إليه فثمنُه أن تقدرَ على أخْذِه . . .

وهَجَسَ فى نفسى هاجسٌ : أن (إبليسَ) قائم فى لفظ الحرية كما هو قائم فى لفظ الإثم ، وأنه إن يكنْ فى قلوب الفُسَّاقِ فهو أيضًا فى أدمغة الفلاسفة وإن كان فى سقوط أهل الرذيلة إلى الرذيلة ، فهو كذلك فى سموِّ أهلِ الفن إلى الفن . . . قال الهاجس : وإن (إبليسَ) أيضًا هو صاحبُ الفضيلةِ العملية فى هذا العصرِ المادى ، فهو من ثَمَّ حقيقٌ أن يلقِّبوه « صاحبَ الفضيلة . . . »

ولكنى لم أحفِلْ بهذه الوساوس ولم أعُجْ على شىء منها ، واستعنتُ اللهَ وأمضيْتُ نيَّتى على الكتابة ، وأخذتُ أقلِّبُ الموضوع ، وأنبِّه فكرى له ، وأستَشْرِفُ لما يؤدِّى إليه النظر ، وأتطلَّع لما يجىء به الخاطر ، وألتمسُ ما أبنى عليه الكلامَ كما هى عادتى ؛ فلم يقع لى شىءٌ ألبتة ، كأنما ذهَبَ أولُ ابتداءِ الموضوع فلا أولَ له ولا سبيلَ إلى اقتحامِه ، وكأنه من وراءِ العلم فلا يُبلَغ إليه ، وكأنه من التعذُّر كمحاولة تصوير حماقةِ الحياة كلِّها فى كلمة . وإبليس كلمة فيها حماقةُ الحياة كلها .

---

* انظر « عود على بدء » من كتاب « حياة الرافعى » .

(١) الدعابة : المزاح واللعب ، وكل ما سيرد فى هذه المقالة فهو صحيح لم نخترع منه شيئاً .

* * *

ومن عادتى فى كتابة هذه الفصول التى تنشرها (الرسالة)[١] ، أن أدعَ الفصلَ منها تقلّبه الخواطرُ فى ذهنى أيامَ الثلاثاء والأربعاء والخميس ، وأترك أمره للقوة التى فى نفسى ، فتتولّد المعانى من كل ما أرى وما أقرأ ، وتَنْثال من ههنا وههنا ، ويكون الكلام كأنه شىء حىٌّ أُريدَ له الوجودُ فوُجِد .

ثم أكتب نهار الجمعة ، ومن ورائه ليلُ السبت وليلُ الأحد كالمدد من وراء الجيش إذا نالتْنى فترةٌ أو كنتُ على سفَر أو قطعَتنى عن الكتابة شىءٌ مما يَعْرِض .

وفى أسبوع إبليس (لعنه الله) ، مرت الأيامُ الثلاثةُ وفيها ثلاثةُ ألوان : ضجَرٌ لا رَوْحَ فيه ، وكَسَلٌ لانشاطَ معه ، واضطرابٌ لامِساكَ له . وأطلبُ التفكيرَ يوم الخميس ، فكانت تعترينى خواطرُ مضحِكة : فيعرضُ لى مرة أن أصوِّر إبليسَ امرأةً ليكونَ إبليسَ الجميل . . . وتارة أتوهم أن إبليس يريد أن يكونَ شيخًا كبعض رجال الدين الذين لاتزالُ تطّلعُ على خائنة منهم ، ليقالَ إبليسُ التقىُّ المصلّى . . . وحينًا أظن أنه يريد أن يكونَ كاتبًا مؤلفًا شهيراً ليقال إبليسُ المفكِّر المصْلِح . . . وخطر لى أخيراً أنه يريد أن يكون حاكمًا ملحِداً فاجراً ، ليكون إبليسَ التام لا إبليس الناقص . . .

* * *

ولما ذهبت الأيامُ الثلاثةُ باطلاً ، خُيِّلَ إلىَّ أن إبليسَ (أخزاه الله) يسألنى عن المقالة : إلى أى شىء انقلبتْ . . . ؟ فشقَّ ذلك علَىَّ واغتمَمْتُ به ، غيرَ أنى اطمأننْتُ إلى يوم الجمعة وأن وراءه ليلتين . وكانت قد غربت شمسُ الخميس ، فقلتُ : فلأَخرجْ لأتفرَّجَ مما بى ، وعسى أن أجمعَ نفسى للتفكير إذا جلستُ فى الندىّ ، ولعله يقع ما أستَوْحيه أو ينفتحُ لى بابٌ فى القراءة .

وخرجتُ ، فلم أجاوِز الدارَ حتى ابتدرنى من هبَطَ عليه الخبرُ من القاهرة أن نسيبًا لنا من العظماء توفى أخوه اليوم . فقلت : لاحول ولا قوة إلا بالله ؛ ضاع يومُ الجمعة . إذ لابد من السفر لتشييع الجنازة وحضور المأتم ، ثم قلت : لعل

---

(١) مجلة الرسالة ، وكل مقالات هذا الجزء والجزء الأول كتبت لها ونشرت فيها ، إلا فصولا قليلة .

فى هذا السفر استجماماً ونشاطاً فأستدركَ الأسبوع كلَّه فى يومين ، وإنما الاستكثارُ بالقوة لا بالزمن ، ولايدَ لإبليس فى الموت والحياة ، فليس إلا اطِّراحُه وقلةُ المبالاة به ، وإنما هى خَطَراتٌ من وساوسه .

وأصبحتُ فى القاهرة ، ومشيتُ فى الجنازة قبل الظهر مَسِيرَةَ ساعة كاملة ؛ وكانت الشمسُ ساطعةً تتلألأ ، وأنا مُثْقَلٌ بثياب الشتاء وكنت أتوقع أن يكونَ اليومُ من أيام الريح المجنونة ؛ فلما انتهينا إلى الصحراء، هبّت الريح هبوباً ليناً ، ثم زَفّتْ فكانت إلى الشدّة ما هى ؛ ولكنها ماضية تَسْفى الرملَ فى الأعين فيأخذُ فى أجفانى أُكالٌ وتَهْييج ؛ وليس معى شىء أتّقيها به ؛ غيرَ أنى شغلتُ فكرى برؤية المقابر ، وجعلتها فى نفسى كالمقالة المكتوبة سَطراً وراءَ سطر ؛ وقلت : ههنا الحقيقةُ فى أول تفسيرها ، وغيرُ المفهوم فى الحياة يُفْهَم هنا .

ثم رجعتُ مُنَدّى الجسم بالعرق وعَلَىَّ نَضْحٌ منه ، وكان القميصُ من الصوف ، وبصدرى أثرٌ من النزلةِ الشُّعبية ؛ وإذا تَنَدّى الصوفُ وجب نزعُه وإلا فهى العلةُ ما منها بد .

ثم لم تكن إلا ساعةٌ حتى انْخَرَقَت الريحُ وجعلتْ تَعْصِفُ وبَرَدَ الجوُّ ، فأيقنتُ أنه الزكام ، وقلتُ فى نفسى : هذا بابٌ على حِدَة ، والمقالة ذاهبةٌ لا محالة ، فسيتخلّفُ الذهن ويتبلّد ؛ والشيطانُ كريم فى الشرّ يُعطى من غير أن يُسأل . . .

وثَقُل ذلك عَلَىَّ فكان الغمُّ به علةً جديدة ، بيدَ أنى لم أزل أرجو الفرصة فى أحد اليومين : السبت والأحد . وقلت : إن من البلاءِ الفكرَ فى البلاء ، ولعل من السلامة الثقةَ بالسلامة ؛ فإذا نبّهتُ العزيمةَ رجوتُ أن يتغلغل أثرها فى البدن كلّه فيكون علاجاً فى الدم يَحْدُثُ به النشاط ويُرْهَفُ منه الطبع وتجمُّ عليه النفس . وفى قوة العصَب كهربائيةٌ لها عملُها فى الجسم إذا أحسن المرء بعثَها فى نفسه وأحكم إفاضتَها وتصريفَها على طريقةٍ رياضية ؛ ولَهِيَ الدواء حين يَعجز الدواء ، وهى القوةُ حين تَخذُلُ القوة .

فاعتزمتُ وصمّمتُ ، واحتَلْتُ على الإرادة ، وتكثّرتُ من أسباب الثقة وترصّدتُ لها السوانحَ العقليةَ التى تَسْنَحُ فى النفس ، وقلتُ لإبليس : اجهَدْ

جُهْدَك ، فما تذهبُ مذهبًا إلا كان لى مذهب . ولكنَّ اللعينَ أخطر فى ذهنى قول القائل يسخَر فيه من ذلك الكاتب البغدادى [١] .

لو قيلَ : كم خمسٌ وخمسٌ ؟ لاغتَدى يومًا وليلتَه يَعُدُّ ويَحْسُبُ ،
ويقول : مُعْضِلَةٌ عجيبٌ أمرُها ولئن فهمتُ لها ، لأمْرِىَ أعجبُ
خمسٌ وخمسٌ ستةٌ ، أو سبعةٌ قولان قالهما الخليلُ وثعلبُ . . . .

* * *

ثم أجمعت الرجوعَ من يومى إلى (طنطا) ، لأتقى البردَ بعلاجه إن نالنى أثره ، وكان عَلَىَّ وقت إلى أن يقومَ القطار . فذهبت فقضيت واجبًا من زيارة بعض الأقارب فى ضاحية (الجيزة) ، ثم ركبت الترام الذى أعلم أنه ذاهبٌ إلى محطة سكة الحديد .

وجلست أفكر فى إبليسَ ومقالته ، والترام ينبعثُ فى طريقه نحو ثلث الساعة ، حتى بلغ الموضع الذى ينعرجُ منه إلى المحطة ، وهو بحيالِ (جمعية الإسعاف) ، حيثُ تنشعبُ طرق أخرى ؛ وكنت منصرفًا إلى التفكير مستغرقًا فيه ، طائفَ النظَرات على الجوّ ، فما راعنى إلا اختلافُ منظرِ الطريق ؛ وأنتبهُ ، فإذا الترام يَمْرُقُ مروقَ السهم فى تلك السبيلِ الصاعدةِ إلى (الجيزة) . . . من حيث جئت .

فلعنت الشيطانَ وتلبثت حتى وقف هذا الترام ، فغادرتُه ورجعت مُهَرْولاً إلى ذلك المنشَعَب ، فصادفت ترامًا آخر ، فوثبتُ إليه كأنى أُحْمَل إليه حملاً ، ودفعتُ الأجرة ، وانطلق ، فإذا هو مُنْصَبٌّ فى تلك الطريقِ عينها الذاهبة إلى الجيزة من حيثُ جئت . . . . ولا أستطيع الانحدارَ منه وهو منطلق ، فتَسخّطتُ ولعنتُ الشيطان مرة أخرى ، ورأيت أن عَبثَه قد تَرادَفَ ؛ فلما سكَن الترام رجعتُ مهرولاً إلى ذلك المنشَعَب ولم يبقِ من الوقت غيرُ قليل .

وأنظرُ ثَمَّ ، فإذا ترامٌ وراء ترام ، وإذا قد وقعتْ حادثة لإحدى السيارات واجتمع الناس وسُدَّت الطريق . . . فجعلتُ أغلى من الغيظ ، ولجنتُ هذا

---

(١) قيل هذا الشعر فى وصف مروان الكاتب ، وهو رجل من بغداد ، وكان كاتباً على الخراج فسخر منه الشاعر بهذا الأسلوب البديع .

الدَّعَّابَةَ الخبيث . وأذكرنى اللعينُ نادرةَ الأعرابى الذى عضه ثعلب ، فأتى راقيًا ، فقال له الراقى : ما عضّك ؟ فاستحى أن يقول ثعلب ، وقال : كلب . فلما ابتدأ الرجلُ برُقْيَة الكلب ، قال له الأعرابى : واخْلِطْ بها شيئًا من رُقْيَة الثعالب . . . .

* * *

ثم إنى لم أربدًّا من بلوغ المحطة على قدمىَّ لأتِمَّ على عزيمتى فى مراغمة اللعين ، فأسرعتُ أطوى الأرض وكأنما أخوضُ فى أحشائه ، وكان بصدرى التهابٌ فهاجَ بى ، غير أنى تجلَّدت واتسعْتُ لاحتماله وبلغتُ حيث أردت . ثم ذهبتُ ألتمس فى القطار عربةً خاصة أعرفُها ، كانت من عربات الدرجة الأولى فجعلوها فى الثانية يرفِّهون بها بعضَ الترفيه على طائفة من المسافرين ؛ وأصبتُ فيها مكانًا خاليًا كأنما كان مهيَّأً لى بخاصة . . . فانحططتُ فيه إلى جانب رجل أوربى أحسبُه ألمانيا لتَفاوُتِ خَلْقه وعُنْجُهِيَّتِه ؛ وجلستُ أُنفِّس عن صدرى ، ثم أقبلتُ أسخَر من إبليسَ ونِكايتِه ، وجعلتُ أتعجَّب مما اتفق من هذا التدبير .

وتحرك القطار وانبعثَ ، وكان الأوربى إلى جانبى مما يَلِى النافذةَ وقد تركها مفتوحةً ، فأحسستُ الهواء ينصبُّ منها كالماء البارد وأنا مُتَنَدٌّ بالعرَق ؛ وتربصتُ أن يُغلِقَها الرجلُ فلم يفعل ، فصابرتُه قليلاً فإذا هو ساكنٌ مطمئن يتَرَوَّحُ بالهواء وكأنما يَشربُه ، وتأملتُه فإذا شيخ فى حدود الستين أو فوقَها ، غيرَ أنه على بقيةٍ من قوة مصارع فى اكتنازِ عَضَله واجتماع قوتهِ ووثاقةِ تركيبه ، فأيقنتُ أن الهواءَ من حاجته ، وهممتُ أن أنبهَه أو أقومَ أنا فأغلقَ النافذة ، ولو شئتُ أن أفعل ذلك فعلت ، غيرَ أن الشيطان (أخزاه الله) وَسْوَسَ لى : أن هذا رجل أجنبى غَربى ، وأنت مصرىٌّ شرقى ، فلا يَجمل بك أن تُعلِمَه وتُعلِم الحاضرين أمامكما أنك أنت الأضعفُ على حينِ أنه هو الأسَنُّ ، وكيف لا تَقوم لما يقوم له وقد كنتَ تُباكرُ الماء الباردَ فى صميم الشتاء ، وكنتَ لا تلبس فى أشد أيام البرد غيرَ ثياب الصيف ، وكنت تحمل كذا وكذا ثِقْلا للرياضة ، وتُعانى كذا وكذا من ضروب القوة ، وكنتَ تلوى بيديك عودَ الحديد ، وكنت وكنت . . . .

فتذممتُ واللهِ مما خطر لى ؛ وأنفتُ أن أنبهَ الرجل ، ورأيتُ عملى هذا ضعفًا وفُسولة . ولم أعبأ بالهواء ولا بالعرق ولا بالنزلة الشعبية ولا بالزكام ؛ وتركتُ الأوربى وشأنه ، وأقبلتُ على كتاب كان فى يدى ، وتناسيتُ أن هذه النافذةَ جهةٌ من تدبير إبليس ؛ وكان القطارُ مزدحمًا بالراجعين من المعرض الزراعى الصناعى ، وبعضُ الناس وقوفٌ فلا مطمعَ فى مكان آخر . . .

ولبثتُ ساعةً ونصفَ ساعة فى تيار من هواء (فبراير) ينصبُّ انصبابًا ، ويَعْصِفُ عَصْفًا ، وكأنى أسبحُ منه فى نهرٍ تحت ظلمةِ الليل الماطر ، والناس معجَبُون بى وبالأوربى ، وهذا الأوربى معجَبٌ بى أكثرَ منهم ، وقد رأى مكانى وعرف موضعى ؛ وكان إلى يمينى مجلسٌ بقى خاليًا ولم يُقْدِم أحدٌ على أن يجلسَ فيه خوفاً من الهواء ومن الرجل الأوربى . . .

ثم تراءيتُ أنوارَ محطة (طنطا) ، ولم يبقَ من هذه المحنة غيرُ دقيقتين ؛ فوالله الذى لا يُحْلَفُ بغير اسمه عز وجلَّ، لقد كان إبليسُ رقيعاً جِلْفاً بارداً ثقيلَ المزاح ؛ إذ لم أكَدْ أتهيأُ للقيام ، حتى رأيتُ الرجل الأوربى قد مدَّ يدَه فأغلق النافذة . . . .

* * *

ورجعتُ إلى دارى وأنا أقول : ثم ماذا يا إبليس ؛ ثم ماذا أيها الدُّعْبُب (١) وحاولتُ بجهدى أن أكتبَ أو أقرأ فلم أتحركْ لشىء من ذلك ، وكانت الساعة العاشرة ليلاً ، فصليتُ وأويتُ إلى مضجعى .

ثم أصبحتُ يوم السبت ، فإذا كتابٌ من الأستاذ صاحب (الرسالة) : أنه سيطبع عددين معًا فيريدُ لهما مقالتين ، إذ تُغلقَ المطبعة فى أيام عيد الأضحى . وكان أملى فى المقالة الواحدة مخذولا مما قاسيت ، فكيف لى باثنتين ؟

واختلَطَ فى نفسى همٌّ بهمّ ، وما يُفْسِدُ علَىَّ أمرى شىء مثلُ الضيق ، فإذا تضايقتُ كنتُ غيرَ من كنت ؛ ولكنى تيقظتُ وتنبهتُ وأمّلتُ العافية مما أجدُه من ثِقْلة البرد وضَعْفَته ، وأحدثتُ طمعًا فى النشاط إذا جلستُ للكتابة فى الليل ، فإنى بالنهار أعمل للحكومة .

فلما كان الليلُ لم أجد أمرى على ما أحب ، وجلستُ متفترًا مُعْتَلاً ، وثقلَ

(١) الدعبب والمداعب والدعابة (بتشديد العين) : كلها بمعنى .

رأسى من ضَرْبة النافذة ، وتسلط على ظَنَّ المرض والعجز عن الكتابة ، وانتقَضَ الأمرُ كله فرأيتُنى أشقّ على نفسى بلا طائل ، فكان من صواب التدبير عندى أن أستجِمَّ بالنوم ثم أنهضَ فى السَّحَر للكتابة ؛ فأوصيتُ من يوقظنى ، وحرَّرنا الساعةَ المنبِّهة على تمام الثانية بعد منتصف الليل .

وأحسستُ أنى جائع ، وأن معدتى مشحوذةٌ ، ونسيتُ كلَّ ما أعرف من الطب ؛ وجاءونى بشِواء وحَلْوى وما بينهما ، فحططتُ فيه ولَففْتُ الآخرَ بالأول ، ثم قمتُ أريد النوم ، فإذا الطعامُ كان أشدَّ علىَّ من نافذة القطار ، وكان الذى فى الفكر من المقالة أثقلَ من الذى فى المعدة من الطعام ، وساء الهضمُ فى الدماغ والبطنِ جميعاً !

وجعلتُ أتناوم وأُرخِى أعضائى وأتوهَّم الكرى وأَستَدْنيه بكل ما أعرف من وسيلة ، ثم لاأزداد على ذلك إلا أرَقاً ، وتمرَّد الفكر ، وأحسستُ رأسى يكاد ينفجر ، وصرتُ أتَمَلْمَلُ ولا أتَقارُّ ، وتوهَّمتُ أن لو كان لى عقلان ما استطعتُ كتابةَ المقالة عن إبليس لعنه الله ؛ وأذكرنى الخبيثُ نادرةً مضحكَة : أن رجلا كان يركب حماراً ضعيفًا ، وكان يبعثُه فلا ينبعث ، فجعل يضربه ، فقيل له : ارفُقْ به . فقال إذا لم يقدرْ يمشى فلِمَ صار حماراً . . . . ؟

* * *

وقذفتُ بنفسى من الفراش ونظرتُ فى الساعة ، فإذا هى موشِكَةٌ أن تبلغ الثانية ولم أحِسَّ الرقادَ بعد ، فأسرعت إلى المنبِّهة وحرّرتها على تمام الساعة الرابعة صباحا ، وأيقنتُ أن الشيطانَ يُرهِقُنى طُغيانًا وكَيداً ، فطَفِقْتُ ألعنه ، وما أحسبُه إلا قد رأى اللعن مَدْحاً فهو يستزيدنى . . .

ثم رجعتُ أحاول النومَ ، فما كان هذا الليلُ إلا شيئًا واحداً أولُه آخِرُه إلى أن طلع الفجر .

وجاء يوم الأحد وهو يومُ عُطْلة الأوربيين ، فما أشدَّ عجبى إذ تركنى فيه إبليس كأنهم لايَدَعُون له وقتًا فى هذا اليوم . . .

والآن يزيِّن لى الخبيث أن أختم هذه المقالة . . . .

ولكن لا . لا .

الشيطان* . . .

قال الشيخُ أبو الحسن بن الدَّقَّاق : كان شيخى أبو عبد الله محمد الأزهرىُّ العجمىُّ (رضى الله عنه) رجلاً صاحبَ آياتٍ وخوَارقَ مما فوقَ العقل . كأنما هو سِرٌّ من الأسرار الجارية ِ فى هذا الكونِ ، قد بلغ بنفسه رتبةَ النَّجم فى أفُقِه البعيد ؛ ففيه أهواءُ الإنسان وشهواتُه وطباعُه ، إلا أنها كنُور النجم فى تألُّقِه ولألائه من إشراق روحهِ وصفائها ؛ وقد ارتفع بآدميته فوقَ نفسها ؛ فأصبح فى الناس ومعه سماؤه ، يجعلُها بين قلبه و بين الدنيا .

والرجلُ إذا بلغَ هذا المبلغَ كان حيًّا كالميت ساعةَ احتضاره : ينظرُ إلى كل ما فى الحياة نظرةَ من يترُكُ لامن يأخذ ، ومَن يعتبرُ لامن يَغْتَرُّ ، ومن يَلْفِظُ لامن يتذوّق ، ومن يُدرك السرّ لامن يتعلَّق بالظاهر ؛ و يرى الشهوات كأنها من لغة لايعرفها ، فهى ألفاظ فيها معانى أهلِها لامعانيه ، وإنما تلبسُ كلماتُنا معانَيها من أنفسنا . وفى النفوس مثلُ الهشيم : إذا وقعتْ فيه المعانى المشتعلة استطارَ حَريقًا وتَضَرَّمَ ، وفيها على المجاهَدَةِ مثلُ الماء ؛ فإذا خالطَتْهُ تلك المعانى انطفأتْ به وخمدتْ .

وقد سألتُ الشيخَ مرة : كيف تَحدثُ الكراماتُ والخوارقُ للإنسان ؟ فقال : يا ولدى إن الإنسانَ من الناس المحجوبين يتصرَّفُ فى جسمه ولايكاد يملكُ لروحانيته شيئًا ، فإذا أبلىَ فى المجاهدة ووقَع فى قلبه النور ، تصرَّف فى روحانيته ولايكاد يملكُ لجسمه شيئًا ، فمن أطاق أن يَنسلخَ من بشريته ، واتسعتْ ذاتُه فى معانى السماء بمقدارِ ما ضاقت من معانى الأرض ، وكان مُعَدًّا لأن يتحققَ فى روحانيته ، مُعانًا على ذلك بطبيعة فوق الاعتدال — فقد شاع فى الكون ، وأصاب له وجهًا ومذهبًا إلى تلك القوةً التى تَهدِمُ فى العالم وتبنى ، وتُفرِّق وتَجمع ، وتنقلُ الصُّوَرَ بعضَها إلى بعض ؛ فإن الكونَ كلَّه جوهرٌ واحدٌ

* انظر « عود على بدء » من كتاب « حياة الرافعى » .

هو النور ، حتى الجبلُ هو نورٌ صَخْرِيّ . وحتى البحرُ هو نورٌ مائيّ ، وحتى الحديدُ والذهب والتراب ، كلُّ ذلك نور [١] صرَّفتْه القدرةُ الإلهية تصريفَها المعجز ، فكان على ما نرى : ظاهرٌ مخيَّلٌ يلائم نقصاوعجزنا ، وحقيقةٌ قارّةٌ على غير ما نرى . ومن ذا يعقل أن الصخرَ نورٌ متجمدٌ إذا لم يكنْ له إلا عقلُ عينه وحواسِّه ؟ ومن ذا يُطيق أن يفهم بحواسه وعينهِ قولَ الله تعالى : « وترى الجبالَ تحسَبُها جامدةً وهى تمرُّ مَرَّ السحابِ ، صُنْعَ اللهِ الذى أتْقَنَ كلَّ شىء. » ؟ فالجبالُ جامدةٌ ثابتة ، غيرَ أنها تمرُّ بأرضها وتموجُ فى نفسها ؛ ومتى تأذَّنَ الله أن ينكشفَ نورُ كلامِه للعقل الإنسانىّ ، فستكون هذه الآية عِلْمًا جديداً فى الأرض ، يُثبت أن السحابَ والجبلَ مادةٌ واحدة وصُنعٌ واحد .

ويالها سُخريةً بالإنسان وجهله ! فإنه إذا كانت الحقيقةُ غيرَ ما نرى ، فكل شىء فى الدنيا هو ردٌّ على النظر الإنسانىّ ، ويكاد الجبلُ العظيم يكون كلمةً عظيمةً تقول للإنسان : « كذَبْتَ ! »

فالشأنُ فى الخوارقِ والكراماتِ راجعٌ إلى القدرة أن يُسلِّطَ الإنسانُ الروحانىُّ ما فيه من سرّ النور على ما فى بعض الأشياء من هذا السر ، وتلك هى طاعةُ بعضِ الكونِ لمن ينصرفُ عن المادة ويتصلُ بخالقها .

فإذا بقى فى الرجل الروحانى شىءٌ من أمر جسمِه يقول : « أنا . . . » لم يكن فى الرجل من تلك القدرة ذَرة ؛ فإن هو حاول أن يَخْرِقَ العادَة ، أبى الكونُ أن يعرفَه إلا كما يعرفُ حجراً مُلقى يحاول أن يتصرَّفَ بالجبل الذى هو منه فينقلَه أو يزحزحَه أو يزلزلَه .

ولا خير على الأرض مطلقًا إلا وهو أخْذٌ من حقوق هذه الـ « أنا . . . » فى إنسانها ، ولا شرّ على الأرض مطلقًا إلا وهو إضافةُ حقوق إليها : فحين لايبقى لها حقٌّ فى شىء عند نفسها ، يجبُ لها الحق عندئذ على كل شىء . وهذه هى الكرامة ؛ تُكرِمُ الخليقةُ مَن أكرمه الخالق .

فمن أراد أن تتصلَ نفسُه بالله ، فلا يكنْ فى نفسه شىء من حظ نفسه ،

---

(١) كلمة (النور) هذه هى التى يعبر عنها اليوم بالكهرباء ، وقد ثبت أن الكون كله هو هذه الكهرباء متجمدة على ما شاء الله أن تكون .

ولايؤمنْ إيمانَ هؤلاء العامة : يكون إيمانُهم بالله فكرةً تُذكَر وتُنْسَى ، أما عملُهم فهو إيمانُهم الراسخُ بالجسم وشهواته يُذكر ولايُنسى .

وأنت ترى رجال الروح يأكلون ويشربون ويلبسون ، ولكن هذا كله ليس فيه ذرَّةٌ من أرواحهم ، على خلاف غيرهم من الناس ؛ فهؤلاء كل أرواحهم فى مَطَاعمهم ومناعمهم ؛ ومن ثَمَّ لايَجرى الشيطانُ من الأوّلين إلا فى مَجار ضيقة أشدَّ الضيق لايكادُ ينفذُ منها إلى فكرٍ أو شهوة أو حُلُم من أحلام الدنيا ، أما الآخرون فالشيطانُ فيهم هو تيّارُ الدم ، يَعُبُّ عُبابُه فى الأسفل والأعلى .

* * *

قال أبو الحسن : وكنا يومئذ فى دمشق ، فنبهنى كلامُ الشيخ عن الشيطان إلى ما قرأتُه عن كثيرين ممن رأوا الشيطانَ أو حاوَروه أو صارَعُوه ؛ فقلت للشيخ : إن من حقك علىّ أن أسألكَ حقّى عليك ، وما فى نفسى أحبُّ إلى ولا أعجبُ من أن أرى الشيطانَ وأكلمه وأسمعَه ؛ وأنت قادرٌ أن تنقلَنى إليه كما نقلتنى إلى ما دخلتَ بى عليه من عوالم الغيب .

قال الشيخ : وماذا يردُّ عليك أن تَرى الشيطانَ وتكلمه ؟

قلت سبحانَ الله ! لايُجدى علىّ شيئًا إلا أن أسخَرَ منه .

قال الشيخ : فإنى أخشى ياولدى ، أن يكونَ الشيطانُ هو الذى يريد أن تراه وتسمعَه . . . !

قلت : فإنى أريد أن أسألَه عن سره ، فيكون علمًا لاسخرية .

قال : لو كَشَفَ لك عن سره لما كان شيطانًا ، فإنما هو شيطانٌ بسرِّه لابغيره .

قلت : فأريد أن أرى الشيطان لأكونَ قد رأيت الشيطان !

قال الشيخ : لا حولَ ولا قوة إلا بالله ! لو كنتَ يا أبا الحسن بأربع أرجلٍ لهربتَ من الشيطان بثلاث منها وتركته يجرك من واحدة !

قلت : يا سيدى ، فلو كنتُ حماراً لبطل عملُ الشيطان فى أرجلى الأربع كلها ، إذ لا حاجةَ به إلى إغواء حمار !

فتبسم الشيخ وقال : ولا بد أن تـَرى الشيطانَ وتكلمه ؟

قلت : لابدّ .

قال : إنه هو يقولها ، فـَقـُم !

* * *

قال أبو الحسن : وكان الشيخُ إذا مشى إلى أمر خارق بقيتُ معه غائبـًا عن الحس ، كأنه يـُبـْطـِلُ منىّ ما أنا به أنا ، فأصبحُ ظـِلاًّ آدميـًّا معلقـًا به . ولاتقع الخوارقُ إلا لمن وجد القوةَ المـُكمـِّلةَ لروحه ، وهذه القوة تـُستـَمدُّ من الشيخ الواصل ، فلابد من إمام يأخذ عن إمام ، كأنها سلسلةٌ نفسيةٌ متميـِّزةٌ فى الأرض ، فتتغير الواحدةُ منها بالواحدة ، إذ تقع فى جوّها فتـُورِقُ وتـُثمر ؛ كالشجرة : جـَوٌّ يكسوها ، وجـَوٌّ يـُذْبـِلـُها ، وجوٌّ يسلـُبها سلبـًا ؛ وكذلك تفعلُ النفسُ إذا كان لها جـَوّ .

وخرجنا من دمشق وأنا خلف الشيخ كالمحمول ، فرأيتـْنا وقد أشرفنا على بناء عظيم ، ورأيتُ أقواماً يتلـَقـَّوْنَ الشيخَ ويسلمون عليه ويتبرّكون بمقدَمه ؟ فأنكرَتـْهم نفسي ووجدتُ منهم وَحْشـَةً ، فالتفتَ إلىّ الشيخ وقال : هؤلاء من الجنّ ، وما إليهم قـَصَدنا ، فلا تشتغلْ بما ترى واشتغل بى .

ثم ننتهى إلى البناء العظيم ، فتستقبلـُنا طائفةٌ أخرى ، ويـُدْخِلون الشيخَ وأنا خلفه ، ويمرون بنا على دنيا مخبوءة تـُعجزُ الوصفَ ، مما لاعينٌ رأتْ ، ولا أذنٌ سمعتْ ؛ فيقولون : هذه كنوزُ سليمان وذخائرُه ، ويطوفون بالشيخ يعرضونها عليه كنزاً كنزاً ؛ فرأينا ثـَمّ نعيما ومـُلكـًا كبيراً ، ثم انتهينا آخـِراً إلى مغارة خسيفة كأنها عـِرقٌ من عـُروق جسم الأرض ، يتفـَجـَّرُ منها دوىٌّ كالرعدِ القاصفِ ، إلا أنه فى السمع كخـُوَار الثور ، إلا أنه ثورٌ خـُيـِّلَ إلى أن رأسه فى قـَدر جـَبـَل عظيم ، يتعلق به غـَبـْغـَبٌ[1] فى قـَدْر جبلٍ آخر ، على جسم يـَسـُدُّ الخافقين ، فخـُوارُه كأنه صُراخٌ الأرض ، وإذا أنا بأقبحِ مكان منظراً ، وأنتنه ريحـًا ، كأنه سجنٌ بناؤه من الجـِيـَف .

---

(١) غبغب الثور وغببه : ما تثنى من لحم ذقنه من أسفل .

فقلت : ما هذا ؟ قالوا : هذا سجنُ إبليس ، وهو هنا في هذه المغارة منذُ زمن سليمان عليه السلام .

قلت : أفَمَسْجونٌ هو ؟

قالوا : وإنه مع ذلك مُوقَرٌ بأمثالِ الجبال حديداً يَرْبِضُ به في مَحْبسِه ، فلا يتزحزحُ ولا يتَحلْحَل .

قلت : وإنه مع ذلك قد ملأ الدنيا فساداً ، فكيف به لو كان طليقاً ؟

قالوا : فلو أنه كان طليقاً لاستَحْوَذَ على الناس كافَّةً ؛ فيجتمعُ أهلُ الأرض على شهوةٍ واحدة لاشيء غيرُها ، فيبطلُ مع هذه الشهوة الواحدة كلُّ تدبيرٍ بينهم ، فلا تقومُ لهم سياسة ، ولا يكونُ بينهم وازع ؛ فيرجعون كالكلاب أصابها الكَلَبُ وهاجَ بها ، فأنيابها في لحمها ، لايزال يَعَضُّ بعضُها بعضاً ، فليس لجميعها إلا عملٌ واحد يُسلِمُها إلى الهلاك، ويُصبح ظهرُ الأرض أعْرَى من سَرَاةِ أديم .

وإنما يَصلُحُ الناسُ باختلاف شهواتهم وتَنَافُرِها وتنازُعِها : فبعضها يحكم بعضاً ، وشيء منها ينزَعُ شيئاً ، ومن تخلَّص من نَزوَةٍ قَمَعَ بها نزوةً أخرى ؛ كالمتزوِّج المحْصَنِ : يحكُم بالجلد والرجْم على من ليستْ له امرأةٌ فزنا ؛ وكالغنيِّ الواجد : يحكم على اللصِّ الذى لم يجدْ فسرق ، وهلمَّ جرا .

وما ينشأ الناس في ثلاثة أعمار ، فَيَشِبُّون ويكتهلون ويهرَمُون ، إلا لتختلفَ شهَواتُهم وتختلفَ مقاديرُ الرغبةِ فيها ، فتتحقَّقُ من ثَمَّ تلك الحكمةُ الإلهية في التدبير ويجدُ الشرعُ محلَّه بينهم ، كما يجدُ العِصيانُ بينهم محله .

ولو أن أمةً كلها أطفالٌ أو كُهول أو شيوخ ، لبادتْ في جيل واحد؛ وإنه ليس أسمجَ من الرذيلة تكون وحدَها في الأرض إلا الفضيلةُ تكون وحدَها ، فلابدَّ من شيء يَظهرُ به شيء غيرُه كالضِّد والضد ؛ والمعركةُ إذا انتصر كلُّ من فيها كانت هزلاً وكانت شيئاً غيرَ المعركة .

قال أبو الحسن : وقلتُ لهم : فإذا كان الشيطانُ سجيناً قد ربَضتْ به أثقالُه ، حتى لَهُو في سجنٍ من سجنٍ مبالغةً في كفِّه والتضييق عليه — فكيف يَفتِنُ الناسَ في أرجاء الأرض ويُوسْوِسُ في قلوبهم، حتى لَهو يَدٌ بينٌ كلِّ

يدَين ، وحتى لَـهو العينُ الثالثةُ لعينَي كلٍّ إنسان ؟

قالوا : إن فى روحه النارية قوةً تَـفْصِل منها وتنتشر فى الأرض ، كشُعاع الشمس من الشمس : هذه كُـرَةٌ نارية ميِّـتة معلَّقة على الأجسام مُـرْصَدَةٌ لها ، وتلك كرةٌ نارية حيَّـة معلقة على النفوس مُـرصَدَة لها ، وبهذه وتلك عَـمارُ الدنيا وأهل الدنيا .

قلت : لعلكم أردتم أن تقولوا : خراب الدنيا وأهلِ الدنيا . فغَلِـطتم ، فكان ينبغي أن يجيء بَدَلُ الغلط . . .

فقال أحدهم : يا أبا الحسن ، خـرَق الثوبُ المسمارَ . جاز هنا لأمن اللَّبْسِ أن يكونَ المفعولُ به — وهو الثوبُ — مرفوعًا وفاعلُه — وهو المسمار — منصوبًا ، هل جئتَ — ويحك — تطلبُ النحوَ أو تطلب الشيطان . . . ؟

* * *

قال أبو الحسن : فقطَعَنى الجنيّ — واللهِ — وأخجَلنى ، ونظرتُ خلسةً إلى الشيخ أراه كيف يسخَر منى ، فإذا الشيخ قد امَّلسَ فلا أراه ، وإذا أنا وحدى بين الجنّ وبإزاء هذا الساحر وُضِعت عينُه فى جبهته وشُقَّ فمُه فى قَفاه . . ! فَسُرِّىَ عنى وزال ما أجدُه ، وقلت فى نفسى : الآن أبلغ أربَى من الشيطان ويكونُ الأمرُ على ما أريد، فلا أجدُ من أحتَشِم ولاتَقْطَعُنى هيبةُ الشيخ . . !

ووقع هذا الخاطرُ فى نفسى ، فاستعذتُ بالله ولعنتُ الشيطان وقلت : هذا أولُ عَبَثِـه بى وجعلُه إيایَ من أهلِ الرياء ، كأن لى شأنًا فى حضور الشيخ وشأنًا فى غيابه ، وكأنى مُنافق أُعلِنُ غيرَ ما أُسِرّ ، وقلت : إنا لله ! كِدتَ يا أبا الحسن تتَشَيطن !

ثم همتُ أن أنكصَ على عقبيَّ ، فقد أيقنتُ أن الشيخ إنما تخلَّى عنى لأكونَ هنا بنفسى لابه ، وما أنا هنا إلا به لابنفسى ، فيُوشِك إذا بقيتُ فى موضعى أن أهلك ! بَيْد أن المغارة انكشفت لى فجأة فما ملكتُ أن أنظر ؛ ونظرتُ فما ملكتُ أن أقف ، ووقفتُ أرى ، فإذا دخانٌ قد هاجَ فارتفع يشُور ثورَانـه حتى تملأ المكانُ به ، ثم رقَّ ولطفَ .

واستَضرَمتْ منه نارٌ عظيمة لها وهَجَانٌ شديدٌ يتضطرم بعضُها فى بعض ،

ويُسمَع من صوتها مَعمعَة قوية ، ثم خمَدَت .

وانفجرَ فى موضعها كالسَّدّ المنْبثقِ من ماء كثيفٍ أبيضَ أصفرَ أحمرَ ، كأنه صَديدٌ يتقيّحُ فى دم ، ثم غاض .

وتَنبّعَتْ فى مكانه حمْأةٌ منتِنةٌ جعلت تَربو وتَعظمُ حتى خِفتُ أن تبتلعَنى وأذهبَ فيها ، فسميتُ الله تعالى فغارت فى الأرض .

ثم نظرتُ فإذا كلبٌ أسودُ مُحمْرٌ الحمَاليق ، هائلُ الخلقة مستأسِد ، قد وقفَ على جيفة قَذِرةٍ غاب فيها خطْمه يَعُبُّ مما تَسيل به .

فقلت : أيها الكلبُ ، أأنت الشيطان ؟

وأنظرُ فإذا هو مَسْخٌ شائهٌ كأنه إنسانٌ فى بهيمة قد امتزَجا وطغى منهما شىء على شىء ، أما وجهُه فأقبحُ شىء منظراً ، تحسبُه قد لَبِس صورةَ أعماله . .

ونطق فقال : أنا الشيطان !

قلت : فما تلك الجيفة ؟

قال : تلك دنياكم فى شهواتها ، وأنا ألْتقِمُ قلبَ الفاسق أو الآثمِ منكم ، كما ألتقمُ دودةً من هذه الجيفة .

قلت : عليك لعنةُ الله وعلى الفاسقين والآثمين ، فكيف كنتَ دخانًا ، ثم انقلبتَ ناراً ، ثم رجعت قَيحًا ، ثم صرتَ حمأة ، ثم كنت كلبًا على جيفة ؟

قال : لاتلعن الفاسقين والآثمين ؛ فإنهم العبّاد الصالحون بأحد المعنيين ، وأنت وأمثالكُ عُبّاد صالحون بالمعنى الآخر ، أليس فى الدنيا حياءٌ ووقاحة ؟ فأولئك يا أبا الحسن هم وقاحتى أنا على الله ! أنا منكم فى زهدكم حِرمانُ الحرْمان ، وفقرُ الفقر ، ولقد أهلكتمونى بؤسًا ؛ غير أنى معهم لذّةُ اللذة ، وشهوةُ الشهوة ، وغِنىَ الغنىَ ، لاتتمُّ لذةٌ فى الأرض ، ولاتحلو لذائقها وإن كانت حلالاً ، إلا إذا وضعتُ أنا فيها معنىً من معانىّ أو وقاحةً من وقاحتى! حتى لأجعلُ الزوجةَ لزوجها مثلَ الشعر البليغ إذا استعار لها معنى منى ، وكلُّ ما فسدت به المرأة فهو مَجازى واستعارتى لها أجعلُها به بليغة . . .

وأنتم يا أبا الحسن تقطعون حياتكم كلَّها تجاهدون إثمَ ساعةٍ واحدة من حيـاة عبّادى ، فانظر — رحمك الله — لئن كانت ساعةٌ من حياتهم هى

جهنّمكم أنتم ، فكيف تكون جهنمُ هؤلاء المساكين ؟

إنك رأيتَني دخانًا لأني كذلك أنبعثُ في القلب الإنساني ، فمتى تحركتُ فيه حركةَ الشر كنت كالاحتيال لإضرام النار بالنفْخ عليها ؛ فمن ثَمّ أكونُ دخانًا ، فإذا غَفَل عن صاحبُ القلب تضرّمتُ في قلبه نارًا تطلب ما يُطفئها ؛ ثم يُواقع الإثمَ والمعصية ويقضي نَهْمَتَه فأبرَدُ عن قلبه ، فيكونُ في قلبه مثل الحرق الذي بَرِدَ فتأكّلَ موضعُه فتقيّح ، ثم يختلط قيحُ أعماله بمادته الترابية الأرضية ، فينقلب هذا المسكين حمأةً إنسانية لاتزال تربو وتنتفخ كما رأيت .

قلت : أعوذ بالله منك ! أفلا تعرفُ شيئًا يردّك عن القلب وأنت دخانٌ بَعْدُ ؟

فقهقه اللعين وقال : ما أشدّ غفلتَك يا أبا الحسن ، إذ تسأل الشيطانَ أن يخترع التوبة ! أما لو أن شيئًا يَخترع التوبة في الأرض لاخترعها القبرُ الذي يَدْفِنُ فيه بعضُكم بعضًا كلّ طرفة عين من الزمن ، فتُنزلون فيه الميتَ المسكينَ قد انقطع من كل شيء وتتركونه لآثامه ، وحسابِ آثامه ، والهلاكِ الأبديّ في آثامه ؛ ثم تعودون أنتم لاقترافِ هذه الآثام بعينها !

قلت : عليك وعليك أيها اللعين ؛ ولكن ألا يتبدّد هذا الدخان إذا ضربتْه الريح أو انطفأ ما تحته !

قال : أوّه ! لقد أوجعتَني كأنما ضربتَني بجبل من نار ، إن نبيّكم عرفها ولكنكم أغبياء ؛ تأخذون كلامَ نبيكم كأنما هو كلامٌ لاعمل ، وكأنه كلامُ إنسان في وقته لاكلامُ النبوّة للدهر كلّه وللحياة كلّها ؛ ولهذا غلبتُ أنا الأنبياء على الناس ، فإني أضعُ المعانيَ التي تعمل ، لاالحكمةَ المتروكةَ لمن يعملُ بها ومن لايعمل .

أتدري يا أبا الحسن ، لماذا أعجزني أسلافكم الأوّلون مثل : عُمر وأبي بكر ؟ حتى كان إسلامُهم من أكبر مصائبي ، فتركوني زمنًا — وأنا الشيطانُ — أرتابُ في أني أنا الشيطان . . . ؟

قلت : لماذا ؟

قال : أراك الآن لم تَلْعَنّ ، فلستُ قائلها إلا إذا ترحّمتَ عليّ .

قلت : عليك وعليك من لَعَنَات الله ! قل لماذا ؟

قال : أسائلٌ ويأمر ؟ وطُفَيْليٌّ ويَقْتَرِح ؟ لابد أن تترحَّم !

قلت : يرحمُنا الله منك ! قل لماذا ؟

قال : وهذه لعنةٌ فى لفظةِ رحمة ؛ لا . إلاّ أن تترحَّم علىّ أنا إبليس الرجيم !

قلت : فيُغنِي اللهُ عن علمك ؛ لقد ألهَمْتنيها روحُ النبيّ (صلى الله عليه وسلم) : إن النبوّة كانت هى بأعمالها وصفاتِها تفسيراً للألفاظ على أسمى الوجوه وأكملِها ، فكان روحُ النبي (صلى الله عليه وسلم) لتلك الأرواح كالأم لأبنائها ؛ وقد رأوه لايغضُب لنفسه ولالحظّ نفسِه . وذلك لايستقيم إلا بالقَصْد فى أمر النفس ، وجعلِ ناحيةِ الإسراف فيها إسرافا فى العمل لسعادة الناس . وكلما ارتدَّ الإنسانُ لنفسه وحظوظِها ارتدّ إليك — أيها اللعين — وأقبلَ على شقاء نفسه ، وكلما عمل لسعادة غيره ابتعد عنك — أيها الرجيم — وأقبل على سعادة نفسه ، وترْكُ الغضب وحظوظِ النفس هو الصبر ؛ وصبرُ الأنبياء والصّديقين ليس صبراً على شيء بعينه فى الحياة ، بل هو الصبرُ على حوادث العمر كلّه ، كصبر المسافر إن كان عزيمةً مدةَ الطريق كلَّها ، وإلا كان فساداً فى القوة ووقعَ به الخِذلان .

فهذا الصبرُ المعْتزِمُ المصممِّ ، الذى يُوَطّنُ به الرجلُ نفسَه أن يكونَ رجلاً إلى الآخر — هو تعبُ الدنيا ، ولكنه هو رَوْحُ الجنة مع الإنسان فى الدنيا . والمؤمنُ الصابر رجلٌ مُقْفَلٌ عليه بأقفال الملائكَة التى لايَتَقْتَحِمُها الشيطانُ ولا تفتحُها مصائبُ الدنيا ؛ ولذلك قال النبي (صلى الله عليه وسلم) : « إن المؤمنَ يُنْضِي شيطانَه كما يُنْضِي أحدُكم بعيرَه فى سفره » . كأنه يقول : لو لم يصبر المسافر دائبًا معتزِما مدةَ سفرِه كلَّها لما أنْضَى بعيرَه . ولو لم يصبر المؤمنُ دائبًا معتزِمًا مدة حياته كلَّها لما أنضى شيطانَه .

فصاح الشيطان : أوَّه ، أوَّه ! ولكن قل لى يا أبا الحسن : ما صَبْرُ رجل مؤمن قوىِّ الإيمان ، قد استطاع بقوة إيمانه أن يُفِيقَ من سُكْر الغِنى ، فتخلَّص من نزوَات الشاطين الذهبيةِ الصغيرة التى تسمُّونها الدنانير ؛ وقد أردتَه

على أن يكذبَ ، فرأى الإيمانَ أن يَصْدُق ؛ وجـهـَدتُ به أن يغضَب ، فرأى الحكمةَ أن يهْدأ ؛ وحاولتُ منه أن يطمعَ، فرأى الراحةَ أن يرضَى ؛ وسـَوَّلتُ له أن يَحْسُدَ ، فرأى الفضيلهَ ألاَّ يُبالى؛ وأخذ لنفسه من كل شىء فى الحياة بما يثقُ أنه الإيمانُ والصبرُ والهدوء والرضا والقناعة ؛ وأحاط نفسَه من هذه الأخلاق بالسعادة القلبية واجْتزَأ بها ؛ وقَصَر نظرَه على الحقيقة ؛ ووجد الجمالَ فى نفسه الطيِّبة الصافية ؛ وأجرى ما يُؤلمه وما يَسُرُّه مَجرًى واحداً ؛ ونظر إلى العمرِ كله كأنه يومٌ واحد يَرْقُب مغرِب شمسه؛ وأخذ من إرادته قوةً أنستَه ما لم تُعطِه الدنيا ، فلم يَحْفِلْ بما أعطت الدنيا وما مَنَعتْ ؛ وعاش على فقره بكل ذلك كما يعيش المؤمن فى الجنة : هذا فى قصرٍ من لؤلؤة أو يا قوتةٍ أو زَبَرْجَدَةٍ ، وذاك فى قصر من الحكمة أو من الإيمان أو من العقل .

قال الشيطان : فلما أعجزَنى صلاحا ورضى وصبراً وقناعةً وإيمانًا واحتسابًا ، وكان رجلا عالما فقيها — سوَّلتُ له أن يخرجَ إلى المسجد ليعِظَ الناسَ فينتفعوا به ، ويُبَصِّرهم بدينهم ، ويتكلمَ فى نصٍّ كلام الله ؛ فَعقَد المجلس ووَعَظ ، وانصرفوا وبقى وحده .

فجاءت امرأة تسأله عن بعض ما يحتاج إليه النساء فى الدين من أمر طبيعتهن ؛ وكانت امرأة جزْلةً غَضَّةً رابيةً ، يهتزُّ أعلاها وأسفلُها ، وتمشى قصيرةَ الخَطْو مُتَّاقِلَةً كالمتضايِقة من حَمْلِ أسرار جمالها وأسرار بدنها الجميل ؛ فبَعْض مشيتها يَقَظَةٌ وبعضُها نومٌ فاترٌ تخالطه اليقَظة ؛ ولايراها الرجلُ الفَحْلُ التامُّ الفُحولة إلا رأى الهواء نفسَه قد أصبح من حولها أنثى ، مما تَعْصِفُ به ريحُها العَطِرة عِطرَ زينتها وجسمِها .

وكان الواعظ قد ترمَّل من أشهر ، وكانت المرأة قد تأيَّمَتْ من سنَوات ؛ فلما رآها غَضَّ طرْفَه عنها ؛ ولكنها سألته بألفاظها العذْبة عن أمورٍ هى من أسرار طبيعتها ، وسألته عن طبيعتِها بألفاظها ؛ فسمع منها مثلَ صوت البلَّور ، يتكسَّر بعضُه على بعض .

وتحدَّثتْ له وكأنها تتحدَّثُ فيه : فسمِعَ بأذنهِ ودمِه ، ثم كان غَضٌّ

عينه أقوى لرؤية قلبه وجمع خواطره .

ورأى صوتها يشتهى ؛ وعانقته رائحتها العطرية النفّاذة ؛ وأحاطته بجو كجوّ الفراش ؛ وعادت أنفاسها كأنها وسوسة قبل ؛ وصارت زفراتها كالقدر إذا استجمعت غليانا ؛ وطلعت فى خياله عريانة كما تطلع للسكران من كأس الخمر حورية عريانة ، لها جسم يبدو من اللين والبضاضة والنعمة كأنه من زبد البحر ؟

. . . .

قال أبو الحسن : وكنت كالنائم ، فما شعرت إلا بصوت كصك الحجر بالحجر ، لا كتكسر البلور بعضه على بعض ، وسمعت شيخى يقول : أفسقت . . . ؟

تاريخٌ يتكلَّم . . .*

أيعرفُ القراء أن فى الأحلام أحلاماً هى قِصَصٌ عقليةٌ كاملةُ الأجزاء محكَمةُ الوضع مُتَّسقةُ التركيب بديعةُ التأليف ، تجعلُ المرء حين ينام كأنه أسلم نفسَه إلى (شركة من الملائكة) ، تَسيحُ به فى عالَمٍ عجيب كأنما سُحِرَ فتحوَّل إلى قصة ؟

إن يكنْ فى القراء من لايعلمُ هذا فليْعلَمْه منى ؛ فإنى كثيراً ما أكتبُ وأقرأ فى النوم ، وكثيراً ما يُلْقَى عَلَىَّ من بارع الكلام ، وكثيراً ما أرى ما لو دوَّنْتُه لَعُدَّ من الخوارق والمعجزات .

وهذه القصةُ التى أرويها اليومَ ، كانت المعجزةُ فيها أنىَّ مشيتُ فى التاريخ كما أمشى فى طريق ممتدَّة ؛ فتقدمتُ إلى أهل سنة ٣٩٥ للهجرة وما يليها ، فعشتُ معهم وتَخَبَّرتُ من أخبارهم ، ثم رجعتُ إلى زمنى لأقصَّ ما رأيتُه على أهل سنة ١٣٥٣ . . . **

أمسيتُ البارحةَ كالمغموم فى أحوالٍ ثقيلةٍ على النفس ما تَنطلقُ النفسُ لها ، أوّلُها سوءُ الهضم ؛ ومتى كان البدءُ من هُنا لم تكن الحركةُ فى النفس إلا دائرةً : تَذهب ما تذهبُ ثم لاتنتهى إلا فى سوء الهضم عينِه . فجلستُ فى النَّدِىّ الذى أسْمُرُ فيه أحيانًا ، فكان بِجوِّه وزنٌ أحسستُه كما يُحسُّ الغائصُ فى الماء ثِقَلَ الماء عليه ؛ ودخَّنتُ الكَرْكَرَة[1] فلم تكن هواءً ودُخانًا يتروَّحُ ، بل كانت من ثقلها كالطعام يدخلُ على الطعام ؛ ونظرتُ ناحيةً فأخذتْ عينى رجُلاً فِيلىَّ الخِلْقة ، مُنْطادَ البطن كأنما نُفِخَ بطنُه بالآلات ، يَحمِلُ منه مقدار أربعةٍ من بطون البَدينات الحواملِ كلٌّ منهنَّ فى الشهر التاسع من

---

* يعنى بهذه المقالة والتى بعدها (كفر الذبابة) تركيا الحديثة وزعيمها المغفور له — وانظر «عود على بدء» من كتاب «حياة الرافعى» .

** تاريخ إنشائه هذه المقالة .

(١) الكركرة : اسم وضعناه (للشيشة) أو النارجيلة ، أخذاً من صوتها ، كما صنع العرب فى تسميتهم (القطا) أخذاً من صوت هذا الطير ، وكما هى طريقتهم ؛ وتجمع الكركرة : كراكير ، بالياء للخفة .

حمْلها . . . وكان معى إلى كل هذا البلاء خمسُ صُحُفٍ يوميّة أريدُ قراءتَها . . . !

ثم جئتُ إلى الدار والمعركةُ حاميةٌ فى أعصابى ؛ وما كان سوء الهضمِ منَوِّمَةً فيدعوَ إلى النوم ، فدخلتُ بيتَ كُتُبى وأردتُ كتاباً أىَّ كتاب تنالُه يدى ، فخرج لى كتابٌ فى خُرافات الأوّلين وأساطيرِهم وهَذَيانهم وسوء هضمهم العقلىّ . . . كالكلام عن أدُونيس وأرطاميس وديُونيس وسميراميس وإيسيس وأتوبيس وأترغتيس . . . . فاستعذتُ بالله وقلت : حتى الكتُبُ لها فى هذه الليلة أعصابٌ قد نالتْها الثِّقْلةُ والألم ؟

وبات الليلُ يقظان معى ، وبقيتُ متَمَلْمِلاً أتقلّبَ حتى أخذ الصداعُ فى رأسى ، فانقلب التعبُ نومًا ، وجاء من النوم تعبٌ آخر ، وقُذِفْتُ إلى عالم الأحلام فى قُنبلةٍ تستقرُّ بى حيث تريد لا حيث أريد :

* * *

ورأيتُنى فى قوم لا أعرفُ منهم أحداً قد اجتمعوا جَماهير ، وسمعتُ قائلاً منهم يقول : « الساعةَ يمرُّ مولانا العالى » . فقلت لمن يلينى : « مَن يكونُ مولانا العالى ؟ » قال : « أوَ أنتَ منهم ؟ » قلت : « ممن ؟ » فألهاه عن جوابى تَشَوُّفُ الناس وانصرافُهم إلى رجلٍ أقبلَ راكبًا حماراً أشهب ؟ فصاحوا : « القمر القمر (١) » ورفَع الرجلُ الذى يِنا كبِنى صوتَه يقول : « البركاتُ والعَظَمات لك يامولانا العالى ! » .

قلت : إنا لله ! لقد وقعتُ فى قومٍ من الزنادقة ، يُعارِضون « التحياتُ والصَلَوات والطَّيبات لله » ؛ ثم مرّ صاحبُ الحمار بحذائى ، وغمزه الرجلُ علىّ ، فقال : ما بالكُ لاتقول مثلَه ؟ قلت : أعوذُ بالله من كُفرٍ بعد إيمان . فكأنما أراد أن يَلْطِمَنى فرفع يده ، فصحتُ فيه : كما أنتَ — ويلكَ — وإلا قبضتُ عليك ، وأسلمتك للبوليس ، وشكوْتُك إلى النيابة ، ورفعتُك إلى محكمة الجُنَح!

قال : ماذا أسمع ؟ الرجل مجنونٌ فخذوه ! وأحاط بى جماعةٌ منهم ، ولكنه تَرَجَّل عن حماره وأخذ بيدى ومشينا ، فقلت : من أنت يا هذا ؟

(١) القمر : اسم ذلك الحمار ، وسيمر ذكره فى القصة .

قال : أراكَ من غير هذا البلد ؛ أمَا تَعرف الحاكم بأمر الله ؟ فأنا هو .
قلت : انظُرْ — ويحكَ — ما تقول . فما أظنُّكَ إلا مَمْرُوراً ؛ لقد كتبتُ أمس كتاباً إلى مجلة (الرسالة) أرّختُه ١٣ من ذى الحجة سنة ١٣٥٣ و ١٨ من مارس سنة ١٩٣٥ ، وأرسلتُ به مقالة « الحروفين »[١] . . .

قال : ماذا أسمع ؟ نحن الآن فى سنة٣٩٥ ؛ فالرجل مجنون ، أوْ لا فأنت أيها الرجلُ من معجزاتى . لقد جئتُ بك من التاريخ ، فسترى وتكتب ، ثم تعودُ إلى التاريخ فتكونُ من معجزاتى ، وتقصُّ عنى وتشهدُ لى . . . !

قلت : فإنى أعرف أعمالكَ إلى أن قُتِلْتَ فى سنة ٤١١ . . . !

قال : أوَ إله أنت فتَخلُقَ ستَّ عشرةَ سنةً بحوادثها ؟ لقد كدت من أفنِكَ وغَباوتك تُفسِد علىَّ دعوى المعجزة !

وهاج الصداعُ فى رأسى ، وبلغ سوء الهضم حدَّه ، واشتبكتْ سِينات إيسيس وأتوبيس إلخ بسين إبليس ، ومرتْ بين كلٍّ هذا حوادثُ الطاغيةِ المعتوه المتجبرّ ، فرأيته يبتدع فى كل وقت بِدَعا ، ويخترع أحكاما يُكْرِهُ الناسَ على أن يعملوا بها ، ويعاقبُهم على الخروج منها ، ثم يعودُ فينقضُ أمرَه ، ويعاقِبُ على الأخذ به ، كأن الذى نَقضَ غيرُ الذى أبْرَم ، وكأنه حين يتبلد فيُعجزُه أن يخترعَ جديداً — يَجعَلُ اختراعَه إبطالَ اختراعِه .

ورأيته كأنما يعتدُّ نفْسَهُ مُخَّ هذه الأمة ، فلا بدّ أن يكونَ عقلاً لعقولها ، ثم لابدّ أن يَسْتَعْلِيَ الناسَ ويستبدّ بهم استبدادَ الشريعةِ فى أمرها ونَهْيِها ، فكانت أعمالُه فى جملتها هى نقضَ أعمالِ الشريعة الإسلامية ، وظنَّ أنه مستطيعٌ محوَ ذلك العصرِ من أذهان الناس وقَتْلَ التاريخ الإسلامىّ بتاريخٍ قاتلٍ سفّاك .

وسَوّل له جنونُه أنه خَلَقَ تكذيبًا للنبوة ؛ ثم أفرَطَ عليه الجنونُ فحصَّل فى نفسه أنه خلق تكذيبًا للألوهية ؛ وفى تكذيبه للنبوّة والألوهية يحملُ الأمةَ بالقهر والغلَبة على ألا تصدّقَ إلا به هو ؛ وفى سبيل إثباته لنفسه صَنَعَ ما صَنع ،

(١) مرت هذه المقالة فى الجزء الأول .

فجاء تاريخه لاينفى ألوهيةً ولا نبوّة ، بل ينفى العقلَ عن صاحبه ؛ وجاء هذا التاريخُ فى الإسلام ليتكلم يوماً فى تاريخ الإسلام . . .

* * *

رأيتُنى أصبحتُ كاتباً لهذا الحاكم ، فجعلتُ أشهد أعمالَه وأُدوِّن تاريخَه ، وأقبلتُ على ما أفرَدَنى به وقلتُ فى نفسى : لقد وضعتنى الدنيا موضعاً عزيزاً لم يرتفع إليه أحد من كتَّابها وأدبائها ، فسأكتبُ عن هذا الدهر بعقلٍ بينه وبين هذا الدهرِ ٩٦٨ سنةً صاعدةً فى العلم .

ودوّنتُ عشرةَ مجلَّدات ضخمة انتبهتُ وأنا أحفظها كلَّها ، فإذا هى جُملٌ صغيرة ، جَعلَ الحُلم كلَّ نبذةٍ منها سِفراً ضخماً كما يُخيَّل للنائم أنه عاش عمراً طويلاً وأحدثَ أحداثاً ممتدَّةً ، على حين لاتكون الرؤيا إلا لحظة .

وهذه هى المجلَّداتُ التى قلتُ : إن التاريخ يتكلَّمُ بها فى التاريخ . . .

المجلد الأول

ابتُلِىَ هذا الطاغية بنقيصتين : إحداهما من نفسه ، والأخرى من غيره ؛ فأما التى من نفسه فإنى أراه قد خُلِقَ وفى مُخِّه لُفافَةٌ عَصَبِية من يَهودية جَدِّه رأسِ هذه الدعوة ؛ فهو الحاكم بن العزيز بن المعز بن القاسم المهدى عُبيد الله ، ويقولون إن عبيد الله هذا كان ابنَ امرأة يهودية من حدَّاد يهودى ، فاتفق أن جرى ذكرُ النساء فى مجلس الحسين بن محمد القدَّاح ، فوصفوا له تلك المرأة اليهودية ، وأنها آيةٌ فى الحسُن ؛ وكان لها من الحداد ولد ، فتزوَّجها الرجلُ وأدَّب ابنها وعلَّمه ، ثم عرَّفه أسرارَ الدعوة العلَوية وعَهِدَ إليه بها .

ومن بعض اللفائف العصبية فى المخ ما ينحدرُ بالوراثة مطبوعاً على خيره أو شرّه ، لايدَ للمرء فيه ولا حيلة له فى دفعه أو الانتفاء منه ، فيكونُ قدَراً يَتسلْسل فى الخلْق ليحدثَ غاياته المقدورة ، فمتى فى وقع فى مخ إنسان فالدنيا به كالحبْلَى ولابد أن تتمخَّض عنه .

هذه اللفافةُ اليهودية فى مخّ هذا الطاغية ستُحقَّقُ به قولَ الله تعالى :

« لتجدنّ أشدَّ الناس عداوةً للَّذين آمنُوا اليهود . . . » فهو لن يكونَ العدوَّ للإسلام دون أن يكون الأشدَّ فى هذه العداوة ، ولن يكون فيها الأشدَّ حتى يفعلَ بها الأفاعيلَ المنكَرَة . وما أرى هذه المآذنَ القائمةَ فى الجوّ إلا تخرقُ بمنظرها عينيه من بُغضه للإسلام وانطوائه على عداوته ؛ فويلٌ لها منه ! .

وأما النقيصةُ الثانيةُ فقد ابتُلِىَ بقومٍ فتنوه بآرائهم ومذهبهم ، وهم حمزةُ بن على ، والأخرم ، وفلان ، وفلان . . وقد لفَّقوا للدنيا مذهبًا هو صورة عقولهم الطائشة ، لايجىء إلا للهدم ، ثم لايضعُ أولَ معاوِله إلا فى قُبة السماء ليهدمها . . . ! ولو أنا جمعتُ هذا المذهبَ فى كلمة واحدة لقلتُ : هو حماقةٌ حمقاء تُريد إخراجَ الله من الوجود لإدخال الله فى بعض الطُّغاة !

ويتلقبون فى مذهبهم بهذه الألقاب : العقل ، الإرادة ، الإمام ، قائم الزمان ، علة العلل . . . !

المجلد الثانى

أظهرَ الطاغيةُ أن الله يؤيّدُ به الإسلام، ليتألّفَ الجندَ والشعبَ ويستميلَهم إليه ، وكان فى ذلك لئيمَ الكيْد ، دنِىء الحيلة ، يهودىَّ المكْر ؛ فأمر بعمارة المدارس للفقه والتفسير والحديث والفُتْيا ، وبذَلَ فيها الأموال ، وجعل فيها الفقهاء (والمشايخ) ، وبالغَ فى إكرامهم ، والتَّوْسعَة عليهم ، والتَّخَضُّع لهم ، ودخَل فى ظلال العمائم . . . وأحضَر لنفسه فقيهَين مالكيَّين (اثنين لا واحد) يعلِّمانه ويُفقِّهانه ، وكان أشبهَ بمُريدٍ مع شيخ الطريقة يتَسعَّدُ به ويتَيمَّن ؛ أشرفُ ألقابه أنه خادم العمامة الخضراء ، وأسعدُ أوقاته اليومُ الذى يقول له فيه الشيخ : رأيتُك فى الرؤيا ورأيتُ لك . . . !

وكانت هذه المعاملةُ الإسلاميةُ الكريمةُ من هذا الطاغية ، هى بعينها رِبا اللُّفافة اليهودية فى مُخّه ؛ تُصْلِحُ بإقراضِ مائة ، وفيها نيةُ الخراب بالستين فى المائة . . . ! فإنه ما كاد يتمكَّن من الناس ويعرفُ إقبالَهم عليه وثِقتَهم به ، حتى طَلبتِ اللفافةُ اليهوديةُ رأسَ المال والرّبا ؛ فأمرهم بهدم تلك المدارس وإخرابها ، وأبطلَ العيدَين وصلاةَ الجمعة ، وقتَلَ الفقهاء وقتَلَ معهم فقيهيه

وأستاذَيه ، وعادَ كالمُريدِ المنافق مع شيخ الطريقة ، يقول فى نفسه : إن هناك ثلاثةً تعمل عملاً واحداً فى الصَّيد : الفخّ ، والعمامة ، واللّحية . . . !

إن هذا الطاغيةَ ملكٌ حاكم ، يستطيعُ أن يجعلَ حماقتَه شيئًا واقعًا ، فيقتلَ علماءَ الدين بإهلاكهم ، ويقتلَ مدارسَ الدين بإخرابها ، ولوشاء لاستطاع أن يشنُقَ من المسلمين كلَّ ذى عمامةٍ فى عمامته . ويبلغ من كفره أن يتبجَّحَ ويرى هذا قوةً ، ولا يعلَم أنه لهوانِهِ علَى الله قد جعلَه اللهُ كالذبابة التى تُصيبُ الناسَ بالمرض ، والبعوضةِ التى تقتل بالحمَّى ، والقملةِ التى تَضْرِبُ بالطاعون ، فلو فَخرَتْ ذبابةٌ ، أوتَبجَّحَتْ قملةٌ ، أواستطالتْ بَعوضةٌ ، لجاز له أن يَطِنَّ طنينَه فى العالم . وهل فعلَ أكثرَ مما تفعل ؟

لقد أوْدَى بأُناسٍ يقوم إيمانُهم على أن الموتَ فى سبيل الحق هو الذى يُخْلدُهم فى الحق ، وأن انتزاعَهم بالسيف من الحياة هو الذى يضعُهم فى حقيقتها ، وأن هذه الروحَ الإسلامية لا يَطْمِسُها الطغيانُ إلا ليجلوَها .

إنه والله ما قَتَلَ ولاشَنَقَ ولاعَذَّب ، ولكن الإسلام احتاج فى عصره هذا إلى قوم يموتون فى سبيله ، وأعوزَه ذلك النوعُ السامى من الموت الأولِ الذى كان حياةَ الفكرِ ومادةَ التاريخ ، فجاءت القملةُ تحمل طاعونها . . !

لقد أحياهم فى التاريخ ، أما هم فقتلوه فى التاريخ ، وجاءهم بالرحمةِ من جميع المسلمين ، أما هم فجاءوه باللعنةِ من المسلمين جميعًا !

المجلد الثالث

يرى هذا الطاغيةُ أن الدينَ الإسلامىَّ خُرافةٌ وشَعْوذةٌ عن النفس ، وأن محوَ الأخلاقِ الإسلامية العظيمةِ هو نفسُه إيجادُ أخلاق ، وأن الإسلامَ كان جريئًا حين جاء فاحتلَّ هذه الدنيا ؛ فلا يطردُه من الدنيا إلا جَراءةُ شيطانٍ كالذى توَقَّحَ على الله حين قال : « فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أجمعين » . ولهذا أمرَ الناسَ بسبِّ الصَّحابة ، وأن يُكْتَبَ ذلك على حيطان المساجد والمقابر والشوارع !

أخزاه الله ! أهى روايةٌ تمثيلية يُلْصِق الإعلانَ عنها فى كل مكان ؟ لو سمع لسمع المساجدَ والمقابرَ والشوارعَ تقول : أخزاه الله . . . . !

هذا الفاسقُ لايركبُ إلا حماراً أشهبَ يسمّيه : (القمر) ، وقد جعل نفسَه مُحْتَسِبًا لغايةٍ خبيثة ؛ فهو يدورُ على حماره هذا فى الأسواق ومعه عبدٌ أسود ، فمن وجده قد غشّ ؛ أمرَ الأسودَ ف . . . ! ووقف هو ينظر ويقول للناس : انظروا . . . !

ومن غَلَبةِ الفُسوق على نفسه وعلى شيعته ِ أنّ داعيتَه (حمزة بن على) نَوَّه بالحمار فى كتابه وأومأ إليه بالثناء ، لخصال : منها أن . . .! وكتبَ حمزةُ هذا فى بعض رسائله : أن ما يرتكبه أهلُ الفساد بجوار البساتين التى يمرُّ بها (الفاسق) من المنكَر والفحشاء — إنما يُرتكَب فى طاعته . . . !

هذه طبيعة كلّ حاكم فاسق مُلحد ، يرى فى نفسه رذائلَه عُريانةً ، فلا يكونُ كلامُه وعملُه وفكرُه إلا فُحشًا يتعرَّى ؛ وإن فى هذا الرجل غريزة فسق بهيميّةً متصلةً بطَوْر الحيوان الإنسانىّ الأول ؛ فما من رَيْب أن فى جسمه خليةٍ عصبيّةً مُهْتاجَةً ، ما زالت تَسْبَحُ بالوراثة فى دماءِ الأحياء ، متلفِّفةً على خصائصها ، حتى استقرَّتْ فى أعصاب هذا الفاسق ، فانفجرتْ بكل تلك الخصائص .

ولستُ أرى أكثرَ أعماله ترجعُ فى مَرَدِّها إلا إلى طغيان هذه الغريزة فيه ؛ فهو يحاول هدمَ الإسلام ، لأنه دينُ العفة ودينُ صَوْنِ المرأة ، يُلزمُها حجابَ عِفّتها وإبائها ، ويمنعُها الابتذالَ والخلاعة ، ويُعينها أن تتخلّص ممن يشتهيها ، ولو كان الحاكم . . . إنه يمقتُ هذا الدينَ القوىّ ، كما يمقتُ اللصُّ القانون ؛ فهو دينٌ يَثقُل على غريزته الفاسقة ، ولكلّ غريزة فى الإنسان شعورٌ لامَهْنأَلها إلا أن يكونَ حرًّا حتى فى التوهُّم ؛ وهل يُعجِبُ السكّيرَ شىءٌ أويُرضيه أو يَلَذه ، كما يُعجبه أن يرى الناسَ كلَّهم سُكارى ؛ فَيَنْتشِي هو بالخمر ، وتسكَر غريزته برؤية السكْر ؟

وما زال رأىُ الفُسَّاق فى كل زمن أن الحريةَ هى حريةُ الاستمتاع ، وأن تقييدَ اللذة إفسادٌ لِلّذّة .

المجلد الخامس

يزعم الطاغيةُ أنه يُعِزّ قومَه ، وما أراه يُعزهم ، لكنه يمتحنُ ذلّهم وضعفَهم وهوانَهم على الأمم ؛ يتجرّأُ شيئًا فشيئًا ، مُتَنَظِّراً ما يتَسَهّل، مترقبًا ما يمكن ؛ وهو يرى أن أخلاقَنا الإسلاميةَ هى أمواتُنا دَفنوا أنفسَهم فينا ؛ فمن ذلك يَهدمُ الأخلاقَ ويظنّ عند نفسه أنه يهدمُ قبوراً لا أخلاقًا .

ولقد سَخِرَ منه المصريون بنكتةٍ من ظَرفهم البديع ، وجاءوه من غريزته ، فصنعوا امرأةً من الورق الذى يُشْبِه الجلد ، وألبسوها خُفَّها وإزارها ، حتى لايشكّ من رآها أنها آدمية ، ثم وضعوا فى يدها قِصّة وأقاموها فى طريقه ؛ فلما رآها عَدَلَ إليها وأخذَ من يدها القصةَ وقرأها ، فإذا فيها سَبٌّ له ولآبائه ؛ وسخريةٌ من جنونه ورُعونته المضحكة ؛ فغضب وأمر بقتل المرأة ؛ فكانت هذه سخريةً أخرى حين تحقّق أنها من الورق ، وأخذته النكتةُ الظريفةُ بمثل البرق والرعد ؛ فاستَشاطَ وأمر عبيدَه من السودان بتحريق الدُّورِ ونهبِ ما فيها وسَبْىِ النساء والفُجورِ بهن ؛ حتى جاء الأزواج يشترون زوجاتِهم من العبيد ، بعد أن طارت الزوبعة السوداء فى بياض الأعراض .

اندلعتْ ثورةُ الفجور فى المدينة ، لا من العبيد ، ولكن من الحيوان العتيقِ المستقر فى هذا الطاغية .

المجلد السادس

وهذه رُعونَةٌ من أقبح رُعوناته ، كأن هذا الحيوانَ لايحسبُ نساء الأمة كلَّها إلا نساءه ، فيأمرهن بأمر امرأته ، وكأن النساء فى رأيه إن هُنّ إلا استجاباتٌ عصبيّةٌ تَطْلَق وتُرَدّ .

إن لموجة الفسق فى الغريزة الطاغيةِ جَزْراً ومدًّا يقعان فى تاريخ الفُسّاق ؛ فهذا الطاغيةُ قد جَزَرَتْ فيه الموجة ، فأمر أن يُمنَعَ النساءُ من الخروج ليلا ونهاراً ، لاتطأ أرضَ المدينة قَدَمُ امرأة ، وأمرَ الخفّافين ألا يصنعوا لهنّ

الأخفافَ والأحذيةَ ؛ ولما علم أن بعضَ النساء خرجْن إلى الحمامات هَدَمَ الحمامات عليهن !

ولو مدَّت الموجةُ فى تفسق الفاسق لَفَرَضَ على النساء الخروجَ والاتصال بالرجال والتعرضَ للإباحة .

إن الصلاحَ والفساد كلاهما فساد ما لم يكن الصلاحُ نظافةً فى الروح وسموًّا فى القلب .

المجلد السابع

يزعم الطاغيةُ أنه سيَهدم كلَّ قديم ؛ وإنى لأخشى والله أن يأمرَ الناسَ فى بعض سَطَوَاتِ جنونه : أنَّ كلَّ من كان له أبٌ أو أمٌّ بلغ الستين فليقتلْه ، لتخلُصَ الأمةُ من قديمها الإنسانى . . . !

كأنه لايعرفُ أنه إنما يتسلط على أيام مُعاصريه لا على التاريخ ، ويحكمُ على طاعةقومه وعصيانهم لا على قلوبهم وطباعهم وميراثِهم من الأسلاف ؛ فما هو إلا أن يهلِكَ حتى ينبعثَ فى الدنيا شيئان : نَتْنُ رِمَّتِه فى بطن الأرض ، ونتْنُ أعماله على ظهر الأرض . إن هذا الرجلَ المسلَّطَ ، كالغبارِ المُسْتَطَار لايُكْنَس إلا بعد أن يقَع . . .

ولقد رأى المأفونُ أن أكلَ الناس الملوخيَّا الخضراء والفُقَّاع ، والتُّرمُس والجِرْجيرَ ، والزبيبَ والعنب — هوًى قديمٌ فى طباع الناس ، فنهى عن كل ذلك ، لايُباع ولا يُؤكل ، وظهر على أن جماعةً باعوا أشياء منها فضَربهم بالسِّياط ، وأمر فَطِيف بهم فى الأسواق ، ثم ضَرب أعناقَهم ؛ كأن الذى يحملُ الملوخيَّا الخضراء على رأسه ليبيعَها يلبس عمامة خضراء . . .

أهذا — وَيْحَه — تجديدٌ فى الأمة ، أم تجديدٌ فى المعِدة . . . ؟

المجلد الثامن

لايرضَى الطاغيةُ إلا أن يَمْحَقَ روحانيةَ الأمة كلِّها ، فلا يترك شيئًا رُوحانيًّا له فى أعصاب الناس أثرٌ من الوقار ، وبمن يَسْتظهِرُ — ويْلَه — إذا مُحِقتْ روحانيةُ الأمة وأشرفت نزْعتُها الدينيةُ على الانحلال ؟ كأنه لايعلم أن حقيقةَ الوجود لأمةٍ من الأمم إنما تُستَمدُّ من إيمانها بالمثَل الأعلى الذى يدفعُها فى سِلْمها إلى الحياة بقوّة ، كما يدفعها فى حربها إلى الموت بقوة ؛ وكأنه لايعلم أن التاريخَ كله تُقرِّره فى الأرض بضعةُ مبادئَ دينية .

هذا الحاكم الأخرقُ هو عندى كالذى يقول لنفسه: لم أستطعْ أن أفتح دولة ، فلأفتحْ دولةً فى مملكتى . . . لقد أمر بهدم الكنائس والبِيَع ، حتى بلغ ما هدم منها ثلاثين ألفًا ونيِّفًا .

أىّ مجنونٍ أسخف جنونًا من هذا الذى يحسب النفوسَ الإنسانية كالأخشاب ؛ تَتَقبَّل كلُّها بغير استثناء أن تُدقَّ فيها المسامير . . . ؟

سيعلم إذا نَشِبتْ حربٌ بينه وبين دولة أخرى ، أنه كسرَ أشدَّ سيوفه مضاء حين كسرَ الدين !

المجلد التاسع

هذه هى الطامّةُ الكُبرى ؛ فلا أدرى كيف أكتُبُ عنها : لقد تطاوَل المجنونُ إلى الألوهية فادَّعاها ، وصار يكتب عن نفسه : باسم الحاكم الرحمن !

لو كان أغبى الأغبياء فى موضعه لاتّقَى شيئًا ، لا أقولُ تقوى الدينِ والضمير ، ولكن تقوى النِّفاقِ السياسىَ ؛ فكان يحملُ الناسَ على أن يقولوا عنه : « أبانا الذى فى الأرَضين . . . ! »

وإلا فأىُّ جهلٍ وخبْطٍ ، وأىّ حُمق وتَهوُّر ، أن يكونَ إلٰهٌ على حمار ، وإن كان اسمُ حماره القمر !

سيأخذُه الله بامرأة ؛ ولكل شيء آفةٌ من جنسه ؛ لقد بلغ من وَقاحةِ غريزته أن انْتَقَصَ أخته الأميرة (ستّ المُلك) ، ورماها بالفاحشة ، وهى من أزكى النساء وأفضلِهن ، واتهمها بالأمير (سيف الدين بن الدَّوَّاس) وقد علمتُ أنها تُدبِّر قتلَه ، وأنها اجتمعت لذلك بسيف الدين . فسأُمسِكُ عن الكتابة فى هذا المجلد ، وأدع سائرَه بياضًا حتى أذهبَ إليهما فأعينَهما بما عندى من الرأى ، ثم أعود لتدوين ما يقع من بَعد . . .

* * *

ورأيتُ أنى اجتمعتُ بهما واطمأنّا إلىّ ، فأخذنا نُديرُ الرأى :

قالت الأميرة لسيف الدين فيما قالته : « والرأى عندى أن تُتْبِعَه غلمانًا يقتلونه إذا خرج فى غد إلى جبل المقطم ، فإنه ينفرد بنفسه هناك ! » .

فقلت أنا : « ليس هذا بالرأى ولا بالتدبير » .

قالت : « فما الرأىُ والتدبيرُ عندك ؟» .

قلت : « إن لنا علمًا يسمونه (علم النفس) ، لم يقع لعلمائكم ، وقد صحّ عندى من هذا العلم أن الرجلَ طائشُ الغريزةِ مجنونُها ، وأن الأشعةَ اللطيفةَ الساحرةَ التى تنبعثُ من جسم المرأة هى التى تنفجرُ فى مخّه مرّةً بعد مرة ؛ فإذا خبَتْ هذه الأشعة ، وبطَلت الغريزة ، بطَلَتْ دواعى أعمالهِ الخبيثةِ كلّها ، وكفّ عن محاولته أن يجعَل الأمةَ مملوءةً من غرائز جسمِه وشهواتِه ، لا من فضائلِها ودينِها . فلو أخذتم برأيى وأمضيتُموه فإنه سيُنكِرُ أعمالَه إذا عرضها على نفسِه الجديدة ، وبهذا يُصلح ما أفسد ، وتكون حياتُه قد نطقتْ بكلمتها الصحيحة كما نطقتْ بكلمتها الفاسدة ؛ فإذا . . . » .

قال الأمير : « فإذا ماذا ؟ » .

قلت : فإذا خُصِى . . . » .

فضحكتْ ستُّ الملك ضحكةً رنّتْ رنيناً .

قلت : « نعم إذا خُصِى هذا الحاكم . . . » .

فغلبها الضحكُ أشدَّ من الأول ، ورمتنى بمنديلٍ لطيف كان فى يدها أصَاب وجهى ، فانتبهتُ وأنا أقول :

« نعم إذا خُصِى هذا الحاكم . . . . . . » .

كُفْرُ الذُّبابة * ...

قال كَلِيلة[1] وهو يَعِظ دمْنةَ ويُحذِّرُه ويَقضى حقَّ الله فيه؛ وكان دمنةُ قد داخلَه الغرورُ وزَهاه النَّصر ، وظهر منه الجفاء والغِلْظة ، ولقى الثعالبُ من زيغه وإلحاده عنَتًا شديداً :

. . . واعلم يا دمنةُ أن ما زعمتَه من رأيك تامًّا لا يعتريه النقص ، هو بعينه الناقصُ الذى لم يتمّ ؛ والغرورُ الذى تُثبت به أن رأيك صحيحٌ دون الآراء، لعله هو الذى يُثبت أن غيرَ رأيك فى الآراء هو الصحيح .

ولو كان الأمرُ على ما يتخيَّلُ كلُّ ذى خيال ، لصدَقَ كلُّ إنسان فيما يزعم ، ولو صدَق كلُّ إنسان فيما يزعمُ ، لكذَب كل إنسان ؛ وإنما يدفعُ اللهُ الناسَ بعضَهم ببعض ، ليجىء حقُّ الجميع من الجميع ، ويبقى الصغيرُ من الخطأ صغيراً فلا يكبر ، ويثبُتَ الكبيرُ من الصواب على موضعه فلا يُنْتقَص ، ويصحَّ الصحيحُ ما دامت الشهادةُ له ، ويفسُدَ الفاسد ما دامت الشهادةُ عليه، وما مثَلُ هذا إلا مثَلُ الأرنب والعلماء .

قال دِمنة : وكيف كان ذلك ؟

قال : زعموا أن أرنبًا سمعت العلماء يتكلَّمون فى مصير هذه الدنيا ، ومتى يتأذَّنُ اللهُ بانقراضها ، وكيف تكونُ القارعة ؛ فقالوا : إن فى النجوم نجومًا مُذَنبةً ، لو التف ذنَبُ أحدها على جِرْم أرضنا هذه لطارتْ هَـوَاءً كأنها نفخةُ النافخ ، بل أضعف منها كأنها زَفرةُ صدرٍ مريض ، بل أوهى كأنها نَفْثَةٌ من شفتين . فقالت الأرنب : ما أجهلَكم أيها العلماء ! قد والله خَرِفتم وتكَذَّبتم واستَحْمَقْتُم؛ ولا تزالُ الأرضُ بخيرٍ مع ذَواتِ الأذناب ؛ والدليلُ على جهلكم هو هذا — قالوا : وأرتهم ذَنَبَها . . . !

قال كليلة : وكم من مغرورٍ يُنْزِل نفسَه من الأنبياء منزلةَ هذه الأرنب

---

* انظر « عود على بدء » من كتاب « حياة الرافعى » .

(١) كليلة ودمنة هنا أسلوب من أساليب الأستاذ الرافعى ، يعمد إليه حين يريد تقرير المعانى بالتمثيل والمحاورة . (الرسالة)

وانظر مقالة (فلسفة الطائشة) فى الجزء الأول .

من أولئك العلماء ؛ فيقول : كذَبوا وصدَقْتُ أنا ، وأخطئُوا جميعًا وأصبتُ ، والْتَبَس عليهم وانكشَف لى ، وهم زعموا وأنا المستَيْقِن . ثم لا دليلَ له إلا مثلُ دليل الأرنب الخرقاء من هَنَةٍ تتحرّك فى ذنبها .

وكان يُقال : إنه لايُجاهِرُ بالكفر فى قومٍ إلا رجلٌ هانَ عليهم فلم يَعبئوا به ، فهو الأذلُّ المستضعف ؛ أو رجلٌ هانوا عليه فلم يعبأ بهم ، فهو الأعزُّ الطاغية ؛ ذاك لايخشَونه فيَدَعُونه لنفسة وعليه شهادةُ حُمقِه ، وهذا يخشونه فيتركون معارَضتَه وعليه شهادةُ ظُلمه ؛ وما شرٌّ من هذا إلا هذا .

وقالت العلماء : إن كنتَ حاكمًا تَشْنُقُ من يخالفُك فى الرأى ، فليس فى رأسك إلا عقلٌ اسمه الحبل ؛ وإن كنتَ تَقتل مَن يُنكر عليك الخطأ ، فليس لك إلا عقلٌ اسمه الحديد ؛ وإن كنت تحْبسُ من يعارضُك بالنظر ، ففيك عقلٌ اسمه الجِدار ؛ أما إن كنتَ تُناظِرُ وتجادل ، وتقنِعُ وتقتنع ، وتدعو الناسَ على بَصيرةٍ ولا تأخذُهم بالعَمَى — ففيك العقلُ الذى اسمه العقل .

* * *

قال كليلة : وأنا يا دمنة ، فلوكنتُ قائداً مُطاعًا ، وأميراً مُتَّبَعًا ، لايُعصَى لى أمر ، ولا يُرد علَىَّ رأى ، ولا ينكَر منى ما يُنكَر من المخلوق إذا أخطأ ، ولايقال لى دائمًا إلا إحدى الكلمتين : أصبتَ ، ثم هى دائمًا أصبت ؛ولايَلْقانى أحدٌ من قومى بالكلمة الأخرى ، رَهْبةً من سَخَطى رَهْبَةَ الجُبنَاء ، أورغبةً فى رضاىَ رغبةَ المنافقين ، وزعموا أنهم على ذلك قد صَحَّتْ نِيَّاتُهم وخلَصَ لى باطنُهم جميعًا — فلو كنتُ وكانوا على هذا ، لأحالنى نقصُهم إلى نقصِ العقلِ بعد كماله ، وردَّتنى فُسولتُهم إلى فُسولة الرأى بعد جَوْدته ، فأخْلِقْ بى أن أعتبرَ وضْعَهم إياىَ فى موضع الآلهة ، هو إنزالَهم إياى فى منزلة الشياطين ؛ وإلا كنتُ حقيقًا أن يُصيبنى ما أصاب العَنْزَ التى زعموا لها أنها أنثى الفيل . . . .

قال دمنة : وكيف كان ذلك ؟

قال : زعموا أنه كان فى إحدى خَرائب الهند جماعةٌ من العَظَاء ، وكان فيها عَضْرَفُوطٌ كبير (١) ، فملَّكَتْهُ الجماعةُ وذهبتْ تأتَمِرُ على أمْره وتنتَهى .

---

(١) العظاء : جمع عظاءة وعظاية ، وهى هذه الدويبة التى يقال لها (السحلية) ، والعضرفوط : ضرب من العظاء يكون أكبر منها .

فمرّ بهذه الخربةِ فيلٌ جسيمٌ من الفيَلة الهندية العظيمة ، لم يُحِسّ بالعظَاء ، ولم يميِّز فرْقًا بين هذه الأمة من الحشرات وبين الحصى منثوراً يلتمعُ فى الأرض هنا وهنا ؛ قالوا فغضب العضْرفُوطُ ، وكان قائداً عظيمًا ، ثم تدبّر أمْرَ الفيل ينظر كيف يصنعُ فى مدافعَته ، وكيف يحتال فى هلاكه ؛ فرآه لايتحرك إلا بأقدامه ينقلُها واحدةً واحدة ؛ فقدّر عند نفسه أنه لو أزال قدمَ الفيل عن الأرض زال الفيلُ نفسُه ؛ فجاء فاعترضَ الطريقَ ، ودبَّ دبيبه ؛ فلما رفع الفيلُ قدمَه اهتَبلَ هذه الغفْلةَ منه . . وانْدسّ تحتها ، فاندس مقبوراً فى التراب !

ثم إن العظَاء افتقَدَتْ أميرها . فلما مضى الفيلُ لسبيله ورأتْ ما نزل بها ، نفَرتْ إلى أجحارها ، واستكنَّتْ فيها ترتقِبُ وتَتربَّص ، فدخلتْ إلى الخربة عنْزٌجعلت تتقمم منها وتَرتَعُ فيها ، ورأتها العظَاء فاجتمعنَ يأتَمِرْنْ . . .

فقال منها قائل : هذه أنثى الفيل . فسألتْ عظَايةٌ منهن : وأين النابان العظيمان ؟

قالت الأولى : إن الإناثَ دون الذُكورة فى خلْقها ، والأنثى هى الذكرُ مقلوبًا أو مختصراً أو مشوَّهًا ، ولذلك هنّ يقلِبْنَ الحياةَ أو يختصرْنَها أو يشوِّهْنَها ، أفلا ترَين النابين العظيمين البارزين فى ذلك الفيل الجسيم ، كيف نبتَا صغيرين منقلبين فوق رأس أنثاه . . . ؟

فقالت واحدة : إن جاز قولُك فى الرأى فأين الخُرْطُوم ؟

قالت الأخرى : هو هذه الزّنمةُ المتدلِّيةُ من حلْقها ، وذلك خرطومٌ على قدْرِ أنوثة الأنثى . . . !

قالوا : ثم اجتمع رأيُهن على أن يُملِّكْن أنثى الفيل هذه ؛ وأن يهَبْنَ لها الخربَة وأمَّتَها . وسمعت الماعِزَةُ كلامهن فقالت فى نفسها : لاجَرَمَ أن تكونَ العنزُ فيلةً فى أمةٍ من العظَاء ، فقد قالت العلماء : إنه لاكبيرَ إلا بصغير ، ولاقَويَّ إلا بضعيف ، ولاطاغيةَ إلا بذليل ؛ وإن العظمةَ إن هى إلا شهادةُ الحقارةِ على نفسها ، وإنه رُبَّ عظيمٍ طاغيةٍ متجبِّرٍ ما قام فى الناس إلا كما تقومُ الحيلة ، ولا عاش إلا كما يعيشُ الكَذِب ، ولا حكَم إلا كما يَحكم

الخداع . وهذه الدنيا للمحظوظ كأنها دنيا له وحده، فمتى جاءت إليه فقد جاءت، ولو أنها أدبرتْ عنه من ناحيةٍ لرجعت من ناحية أخرى ، ليثبتَ الحظُّ أنه الحظ .

وتقدَّم العظاء إلى العنز ، فقلْن لها : أيتها الفيلةُ العظيمة ، إن قرينكِ العظيمَ قد مسَّ أميرَنا العضرفوطَ بقدمه فغيَّبه تحت سبعِ أرضين ، وأنت أنثاه وسيدتُه ، فقد اخترناكِ ملكةً علينا ، ووهبنا لك الخربةَ وما فيها .

قالت العنز : فإني أتهيبُ منكن هذه الهيبة ، ونعمَّا صنعتُنَّ ؛ غيرَ أن بينكنّ وبيني ما بين العظاية والفيل . وما بين الحصاةِ والجبل ، فإذا أنا قلتُ ، فأنا قلت ؛ وإذا أنا أمرتُ، فأنا أمرْت ؛ وإذا أنا فعلتُ ، فأنا فعلت . هنا فى هذه الأمةِ كلِّها (أنا) واحدةٌ ليس معها غيرُها ؛ لأن ههنا فى هذا الرأس دماغَ فيلة ، وفى هذا الجسم قوةَ فيلة ، وفى الخربةِ كلِّها فيلةٌ واحدة ؛ فلا أعرفَنَّ منكن على الصواب والخطأ إلا الطاعةَ طاعةَ الأعمى للبصير . ألا وإن أولَ الحقائق أنى فيلةٌ وأنكنَّ عظاء ؛ ومتى بدأ اليقينُ من هنا سقطَ الخلافُ من بينِنا وبَطلَ الاعتراضُ منكن ، وقوّتى حقٌّ لأنها قوّة ، وباطلى كذلك حقٌّ لأنه من قوّتى ؛ وقد قال أسلافُنا حكماء الفيلة : إن القوىّ بين الضعفاء مشيئةٌ مطلقة ، فهو مصلحٌ حتى بالإفساد ، حكيمٌ حتى بالحماقة ، إمامٌ حتى بالخرافة ، عالمٌ حتى بالجهالة ، نبىٌّ حتى بالشعوذة . . . !

قالوا : وتنكرُ عليها عظايةٌ صالحةٌ عالمةٌ كانت ذاتَ رأيٍ ودينٍ فى قومها ، وكنّ يسمِّينها : (العمامة) ، لبياضها وصلاحها وطهارتها ، فقالت : ولا كلُّ هذا أيتها الفيلة ؛ لقد تخرَّصْت غيرَ الحق ؛ فإنك تحكميننا من أجلنا لا من أجلكِ ، وما قولُكِ إلا كلماتٌ تحققُها أعمالُنا نحن ؛ فلكِ الطاعةُ فيما يُصلحنا ، وما كان من غيره فهو ردٌّ عليك ، ورأيُكِ شىء ينبغى أن تكونَ معه آراؤنا ، لتتبينَ الأسبابُ أسبابُ الموافقةِ والمخالفة ، فنأخذَ عن بينةٍ ونتركَ عن بينة ؛ وقد كان يقال فى قديم الحكمة : إنه يجب على مَن يقدِّم رأياً للأمةِ الحازمةِ كى تأخذَ به ، أو يضعُ لها شرعاً ليحملَها عليه ، أو يسنُّ لها سنّةً لتتبعَها — إنه يجب على هذا المتقدِّمِ لتحويلِ الأمَّة أو تحريرها أن

يتقدَّم لأهل الشُّورَى وفى رأسه الرأىُ ، وفى عنقه حَبْل ؛ ثم يتكلَّم برأيه ويَبْسُطُه ويدْفعُ عنه ، ويجادلُهم ويجادلونه ؛ فإن كان الرأىُ حقًّا أخذوا الرأى ، وإن كان باطلاً أخذوا الحبل فشنقوا فيه هذا المتهوّر .

وفى ديننا أن الطاعةَ فى المعصية معصيةٌ أخرى ؛ ولقد كان لنا عَضْر فُوطٌ بحَّاثَةٌ فى الأديان دَرَّاسَةٌ لكتُبها عَلاَّمَةٌ نقَّابٌ ؛ فكان مما علَّمنا : أن المخلوقَ مبنىٌّ على النقص إذ هو ماضٍ إلى الفناء ، فيجب ألاَّ يتمَّ منه شىءٌ إلا بمقدار ، وألاتكونَ القوةُ فيه إلا بمقدار ؛ ولهذا كان العقلُ التامُّ فى الأرض هو مجموعِ العقولِ العظيمة كلِّها ، وكان أتم الآراء وأصحُّها ما أثبتت الآراءُ نفسُها أنه أصحُّها وأتمها . فلا الدينَ اتَّبعْت أنتها الفيلةُ ، ولا اتبعت فينا العقل ، وليس إلا هذا (التفيُّلُ) الكاذب .

فلما سمعت العنزُ ذلك تنفَّشَتْ وغضبتْ ، وقالت : إياكم وهذه الترَّهاتِ من ألسنتكم ، وهذه الأباطيلَ فى عقولكم ؛ لا أسْمَعَنَّ منكم كلمةَ الدين ولا كلمةَ الأنبياء ولا العَضَافيط . . . فذلك وحىٌ غيرُ وَحيِ أنا ؛ وإذا كان غيرَ وحْيِ أنا فأنا لستُ فيه ، وإذا لم أكن أنا فيه فهو لايَصْلُح للحكم الذى شَرْطُه أن الدولةَ ليس فيها إلا أنا واحدة . وذلك إن لم يجعلكم غُرَباءَ عنى جعلنى غريبةً عنكم ، ما بُدٌّ من إحدى الغُرْبتين ، فهو أوّلُ القَطيعة ، والقطيعةُ أوّلُ الفساد . وما دام فى الدين أمرٌ غيرُ أمرى ، ونَهْىٌ غيرُ نَهْيِى ، وتحليلٌ وتحريم لا يتغيران على مشيئتى – فأنا مجنونةٌ إن رضيتُ لكم هذا . . . !

فضَحِكَتِ (العِمامة) وقالت للماعزة : بل قولى : أنا مجنونةٌ بِـ(أنا) ؛ أفلا يجوز وأنتِ خَلْقٌ من الخلْق أنَ يَعْتَرِىَ عقلَكِ شىءٌ مما يعترى العقول ؟ ولسنا ننكر أنك قويةُ الرأى فى ناحية القوة ، حَسَنَةُ التدبير فى ناحية الشجاعة ، متجاوزةُ المقدار فى ناحية الحزْم والحرص على مصالح الدولة ؛ ولكن ألم يقل الحكماء : إن الزيادةَ المسْرفةَ فى جهة من العقل ، تأتى من النقصِ المتحيِّف لجهة أخرى ؛ وإنه رُبَّ عقلٍ كان تامًّا عَبْقَرِيًّا فى أمورٍ ، لأنه ضعيفٌ أبلهُ فى غيرها ؛ يُحسِنُ فى تلك مالا يُحسِنُه أحد ، ويُحكِمُ منها ما لا يُحكِمه أحد ، ثم يَغلَطُ فى الأخرى ما لا يغلَط أحدٌ فيه ؟

قالوا : فجاشَتْ العنزُ وفارَتْ من الغضب فَوْرةَ الجبَّار ، وخُيِّل إليها من عَمَى الغيظ أنها ذهبتْ بين الأرض والسماء ، وأن زَنَمتَها امتدَّ منها خُرطومٌ طويل ، وأن قرْنيها انبعَج منهما نابان عظيمان ؛ وقالت : ويْحكم ! خذوا هذه (العمامة) فاشنقوها ؛ فإنها كما قالت ؛ تقدّمتْ إلينا بالرأى والحبل . . . !

وكان فى العَظَاء ضِعافٌ ومَهازيلُ وجُبناءُ ، ومأكولون لكلّ آكل ؛ فتَشَبَّحَ[1] لهم أن أنثى الفيل هذه . . . ستَخلُفُهم فِيلَةً إن هم أطاعوها ؛ فإذا مَرَدُوا عليها فإنها من صرامة البأس بحيثُ تجعل كلَّ ظِلف من أظلافها جبلاً فوقَهم كأنه ظُلَّةٌ فتَسُوخُ بهم الأرض . ثم إنهم انْخزلوا وتراجَعوا ، وأُخِذَت (العمامةُ) الصالحةُ فشُنِقَتْ ، وحَمِدَ الرأىُ من بعدها ، وانقطع الخلاف والدّينُ والعقلُ الحرّ . . . ؛ وأقبلت دولةُ العَظَاء على العنز تَجرُّ أذيالها .

قالوا : واغترَّت الماعِزةُ وأحسَّتْ لها وجوداً لم يكن ، وعرفتْ لنفسها وهى ما عزةٌ نَباهَةَ شأنِ الفيل القوىّ ، فلَجَّتْ فى عَمَايتها وكفَرتْ بجنسها ، وقالت : لم يخلقنى الله فِيلةً وخلقْتُ نفسى ؛ فأنا لا هو . .

وثبتَ عندها أنها ليست بعنزٍ وإن أشبهتْها كلُّ عنزٍ فى الدنيا ؛ وذهبتْ تقلِّد وتعيشُ على مذاهب الفِيَلة بين العَظَاء ؛ فإذا مشت ارتجَّتْ وتخطَّرَتْ كأنها بِناء يتقلقل ، وإذا اضطجعتْ أنذرت الأرضَ أن تَتمسَّك لاتَدُكَّها بجنبها . . . !

ومرَّ ذلك الفيلُ بهذا الخرابِ مرّةً أخرى ، فلاذَتْ العَظَاءُ كلُّهنَّ بالفِيلة . . . وتأهَّبتْ هذه للقتال ، وتحصَّفَتْ فى المبارَزة والمناجَزة . . . (والمعانَزَة) فنَصبَتْ قرنيها ، وحرّكتْ زنَمتَها ، وطأطأتْ ، وشدَّتْ أظلافَها فى الأرض ، وثبَّتتْ قوائمَها ، وصلَّبتْ عظامهَا ، ونفشتْ شعرَها ، وتَشوّكَتْ كالقُنفذ ، وأصرَّت بكل ذلك إصرارها ، وكانت عنزاً نَطِيحةً منذ كانت تَتبعُ أمَّها وتتلوها ، فكيف بها وقد تَفَيَّلَتْ . . . ؟

ثم إنها ثبتتْ فى طريق الفيل ليرى بعينيه هذا الهولَ الهائل . . فأقبَلَ ،

---

(١) أى خيل إليهم وتمثل .

فمدَّ خرطومَه ، فنالَها به ، فلفَّها فيه ، فقَبضَه ، فرفَعه ، فطوَّحَها ، فكأنما ذهبت فى السماء . . !

وتهَارَبت العَظَاء ولُذْنَ بأجْحارهن ، ثم غَدَوْنَ على رِزقهن ؛ فإذا جِيفةُ العنز غيرَ بعيد ، فَدَبَبْنَ عليها وارتَعَيْنَ فيها ، وعَلمن أنها كانت ماعِزَةً فَبَلَّها جنونُها ، وأدركن أن الكذبَ على الحقائق قد جعل الله له حقائقَ أخرى تقتلُه ، وأن من غَلَبَ أمةَ العَظَاء على أمرها فليست الأيامُ والليالى عَظاء فيغلبَها ؛ وأن تغييرَ المخلوقات ، إنما يكونُ بتحويل باطنها لا بتحويل ظاهرها ، وأن الإناءَ الأحمر يُريك الماءَ محمراً والماءُ فى نفسه لا حُمرةَ فيه ، حتى إذا انكسر الإناء ظهر كما هو فى نفسه ؛ وكلٌّ ما يُخفى الحقَّ هو كهذا الإناء: لون على الحقّ لا فيه ؛ ثم أيقَنَّ أن محاولةَ إخراج أمةٍ كاملةٍ من نزَعاتِ ماعزةٍ مأفونة ، هى كمحاولة استيلادِ الفيلِ من الماعزة . . . !

* * *

قال كليلة : واعلم يا دمنة أنه لولا أن هذه العنزَ الحمقاء قد كفرَتْ كُفْرَ الذبابة ، لما أخذَها اللهُ أخْذَ الذبابة .

قال دمنة : وكيف كان ذلك ؟

قال : زعموا أن ذبابةً سوداءَ كانت من حَمْقَى الذِّبَّان ، قَدرَتِ الحماقةُ عليها أبديَّة ، فلو انقلبتْ نقطةَ حبرٍ فى دَواة لما كُتبتْ بها إلا كلمةُ سُخف .

ووقعت هذه الذبابةُ على وجه امرأة زَنجيَّةٍ ضخْمة ، فجعلتْ تقابلُ بين نفسها وبين المرأة ؛ وقالت : إن هذا لمن أدلّ الدليل على أن العالم فوضى لانظام فيه ، وأنه مُرسَلٌ كيف يتفق على ما يتّفق ، عَبَثًا فى عبث ، ولاريبَ أن الأنبياء قد كذَبوا الناس ، إذ كيف يستوى فى الحكمة خَلْقى (أنا) وخلْقُ هذه الذبابة الضخمةِ التى أنا فوقَها . . . ؟

ثم نظرت ليلةً فى السماء ، فأبصرت نجومَها يتلألأنَ وبينها القمر ؛ فقالت : وهذا دليلٌ آخر على ما تحقق عندى من فَوضى العالم ، وكذِب الأديان ، وعَبثِ المصادَفات ؛ فما الإيمانُ بعيْنه إلا الإلحادُ بعينه ، ووَضْع العقلِ فى شىء هو إيجادُ الألوهية فيه ، وإلا فكيف يستوى فى الحكمة وضعى (أنا) فى الأرض

ورفعُ هذا الذّبانِ الأبيض ويَعْسُوبِه الكبير[١] إلى السماء . . ؟

ثم إنها وقعتْ فى دار فلاّح ، فجعلت تمورُ فيها ذهابًا وجيئةً ، حتى رجعت بقرةُ الفلاّح من مَرعاها ، فبُهتت الذبابةُ وجمدَت على غرّتها من أوّل النهار إلى آخره ، كأنها تزاولُ عملاً ؛ فلما أمْست قالت : وهذا دليلٌ أكبرُ الدليل على فوضى الأرزاق فى الدنيا ، فهاتان ذبابتان قد ثَقبتَا ثُقْبين فى وجه هذه البقر .. واكْتنتّا فيهما تأكلان من شَحمِها فتَعظُمان سِمَنا ؛ والناسُ من جهلهم بالعلم الذّبابىّ يسمونهما عينين . . . وأنا قضيتُ اليومَ كلّه أخمِشُ وأعضُ وألْسَع لأثقُبَ لى ثقبًا مثلَهما فما انتزعتُ شعرة ؛ فهل يستوى فى الحكمة رزق (أنا) ورزقُ هاتين الذبابتين فى وجه البقرة . . . ؟

ثم إنها رأت خُنْفُساء تَدِب دبيبَها فى الأرواث والأقذار ؛ فنظرت إليها وقالت : هذه لاتَصْلُح دليلاً على الكفر ؛ فإنى (أنا) خيرٌ منها ؛ (أنا) لى أجنحة وليس لها ، (وأنا)خفيفةٌ وهى ثقيلة ؛ وما كأنها إلا ذبابةٌ قديمة من ذُباب القرون الأولى ، ذلك الذى كان بليداً لايتحرّكُ فلم تجعل له الحركةُ جَناحًا[٢]. ثم إنها أصْغَتْ فسمعتْ الخنفساء تقولُ لأخرى وهى تحاورها : إذا لم يجد المخلوقُ أنه كما يشتهى فليكْفُرْ كما يشتهى ؛ ياوَيْحنا ! لِمَ لمْ نكن جاموسًا كهذا الجاموس العظيم ، وما بيننا وبينه فرق إلا أنه وَجَدَ من يَنْفُخُه ولم نجد . . ؟

فقالت الذبابة : : إن هذا دليلُ العقلِ فى هذه العاقلة ، ولَعمرى إنها لاتمشى متَثاقلةً من أنها بطيئةٌ مُرهَقَةٌ بعَجزْها ، ولكن من أنها وَقُورٌ متقَلَةٌ بأفكارها ، وهى الدليلُ على أنى (أنا) السابقةُ إلى كشف الحقيقة . . . !

وجَعلت الذبابةُ لا يُسْمعُ من دَنْدَنتِها إلا ، أنا ، أنا ، أنا ، أنا .. . من كُفْرٍ إلى كفرٍ غيرِه ، إلى كفرٍ غيرِهما ؛ حتى كأن السماواتِ كلّها أصبحتْ فى معركة مع ذبابة . . . . . .

---

(١) اليعسوب : أمير النحل والذبان ونحوهما ، خيل للذبابة أن القمر أمير هذا الذباب الأبيض . . . .

(٢) إشارة إلى أن الوظيفة تخلق العضو كما زعموا .

ثم جاءت الحقيقةُ إلى هذا الإلحاد الأحمق تَسعى سَعْيَها ؛ فبينا الذبابةُ على وجه حائط ، وقد أكلت بعوضةً أو بعوضتين ، وأعجبتْها نفسُها ، فوقفت تحكُّ ذراعَها بذراعها – دَنتْ بَطةٌ صغيرة قد انفلقتْ عنها البَيضةُ أمس ، فمدَّتْ مِنقارها ، فالتقطتها .

ولما انطبق المِنقارُ عليها قالت : آمنتُ أنه لا إله إلا الذى خَلَق البطة . . . !

ياشباب العرب !*

يقولون : إن فى شباب العرب شيخوخةَ الهِممِ والعزائم ؛ فالشبانُ يمتدّون فى حياة الأمم وهم ينكمشون .

وإن اللهوَ قد خَفَّ بهم حتى ثَقُلَتْ عليهم حياةُ الجِد. فأهملوا الممكناتِ فرجعتْ لهم كالمستحيلات .

وإن الهزلَ قد هوّن عليهم كلَّ صَعْبةٍ فاختصروها ؛ فإذا هزءُوا بالعدوّ فى كلمة فكأنما هَزَمُوه فى معركة . . .

وإن الشابَّ منهم يكونُ رجلاً تامًّا ، ورجولةُ جسمهِ تحتجُّ على طفولةِ أعماله .

ويقولون : إن الأمرَ العظيم عند شباب العرب ألا يحملوا أبداً تَبِعةَ أمرٍ عظيم .

* * *

ويزعمون أن هذا الشبابَ قد تمَّت الأُلفةُ بينه وبين أغلاطِه ، فحياتُه حياةُ هذه الأغلاطِ فيه .

وأنه أبرعُ مقلّدٍ للغرب فى الرذائل خاصة ؛ وبهذا جعله الغربُ كالحيوان محصوراً فى طعامِه وشرابِه ولذّاتِه .

ويزعمون أن الزجاجةَ من الخمر تعملُ فى هذا الشرق المسكينِ عملَ جندىٍّ أجنبى فاتح . . .

ويتواصَوْن بأن أولَ السياسةِ فى استعباد أممِ الشرق ، أن يُتْرَكَ لهم الاستقلالُ التامُّ فى حرية الرذيلة . . .

ويقولون : إنه لابد فى الشرق من آلتين للتخريب : قوةِ أوربا ، ورذائلِ أوربا .

* * *

* أنشأها فى إبان ثورة فلسطين لحقها سنة ١٩٣٦ .

يا شبابَ العرب ! مَن غيرُكم يكذِّبُ ما يقولون ويزعمون على هذا الشرقِ المسكين ؟

مَن غيرُ الشباب يضع القوةَ بإزاء هذا الضعفِ الذى وصفوه لتكونَ جوابـًا عليه ؟

من غيركم يجعل النفوسَ قوانينَ صارمة ، تكون المادةُ الأولى فيها : قَدَرْنا لأننا أردنا ؟

ألا إن المعركةَ بيننا وبين الاستعمار معركةٌ نفسية ، إن لم يـُقـْتـَلْ فيها الهزلُ قُتل فيها الواجب !

والحقائقُ التى بيننا وبين هذا الاستعمار إنما يكون فيكم أنتم بحثُها التحليلى ، تكْذِبُ أو تـَصْدُق .

* * *

الشبابُ هو القوة ؛ فالشمس لاتملأُ النهارَ فى آخره كما تملؤه فى أوله .

وفى الشباب نوعٌ من الحياة تـَظهرُ كلمةُ الموتِ عنده كأنها أختُ كلمةِ النوم .

وللشباب طبيعةٌ أولُ إدراكـِها الثقةُ بالبقاء ، فأولُ صفاتها الإصرارُ على العزم .

وفى الشباب تـَصْنـَعُ كلُّ شجرة من أشجار الحياة أثمارَها ؛ وبعد ذلك لاتصنع الأشجارُ كلـّها إلا خـَشـَبا . . .

يا شبابَ العرب ! اجعلوا رسالتكم : إما أن يحيا الشرقُ عزيزاً ، وإما أن تموتوا .

* * *

أنقـِذوا فضائلـَنا من رذائلِ هذه المدنية الأوربية ، تـُنقِذوا استقلالـَنا بعد ذلك ، وتنقذوه بذلك .

إن هذا الشرقَ حين يدعو إليه الغرب ، « يدعو لـَمـَن ضَرّه أقربُ من نفعـِه ؛ لـَبـِئْسَ المولـَى ولبئس العـَشير » .

لَبئس المولى إذا جاء بقوته وقوانينه ، ولبس العشيرُ إذا جاء برذائله وأطماعه .

أيها الشرق ! إن الدينارَ الأجنبيّ فيه رصاصةٌ مخبوءة ، وحقوقُنا مقتولةٌ بهذه الدنانير .

أيها الشرق ! لايقولُ لك الأجنبيُّ إلا ما قال الشيطان : « وما كان لى عليكم من سلطانٍ إلا أن دعوتكم فاستجبتمُ لى » .

* * *

يا شبابَ العرب ! لم يكن العسيرُ يَتَعَسَّرُ على أسلافكم الأولين ، كأن فى يدهم مفاتيحَ من العناصر يفتحون بها .

أتريدون معرفةَ السر ؟ السرُّ أنهم ارتفعوا فوق ضعفِ المخلوق ، فصاروا عملاً من أعمال الخالق .

غَلَبوا على الدنيا لما غلَبوا فى أنفسهم معنى الفقر ، ومعنى الخوف ، والمعنى الأرضى .

وعلَّمهم الدينُ كيف يعيشون باللذات السماوية التى وَضعتْ فى كل قلبٍ عظمتَه وكبرياءَه .

واخترعهم الإيمانُ اختراعا نفسيًّا ، علامتُه المسجلةُ على كل منهم هذه الكلمة : لايَذِلّ .

* * *

حين يكونُ الفقرُ قلةَ المال ، يفتقر أكثرُ الناس ، وتنخذلُ القوةُ الإنسانية ، وتَهلِكُ المواهب .

ولكن حين يكونُ فقرَ العمل الطيب ، يستطيع كل إنسان أن يغتنى ، وتنبعثُ القوةُ وتعملُ كل موهبة .

وحين يكون الخوفُ من نقص هذه الحياةِ وآلامها ، تفسِّرُ كلمةَ الخوفِ مائةُ رذيلةٍ غيرِ الخوف .

ولكن حين يكونُ من نقص الحياة الآخرة وعذابها ، تُصبح الكلمةُ قانونَ الفضائل أجمع .

هكذا اخترع الدين إنسانه الكبير النفس الذى لايقال فيه : انهزمت نفسه .

* * *

يا شباب العرب ! كانت حكمة العرب التى يعملون عليها : اطلب الموت توهب لك الحياة .

والنفس إذا لم تخش الموت كانت غريزة الكفاح أول غرائزها تعمل .

وللكفاح غريزة تجعل الحياة كلها نصراً ، إذ لاتكون الفكرة معها إلا فكرة مقاتلة .

غريزة الكفاح يا شباب ، هى التى جعلت الأسد لايسمن كما تسمن الشاة للذبح .

وإذا انكسرت يوماً ، فالحجر الصلد إذا ترضرضت منه قطعة كانت دليلاً يكشف للعين أن جميعه حجر صلد .

* * *

يا شباب العرب ! إن كلمة (حق) لاتحيا فى السياسة إلا إذا وضع قائلها حياته فيها .

فالقوة القوة يا شباب ! القوة التى **تقتل** أول ما تقتل فكرة الترف والتخنث .

القوة الفاضلة المتسامية التى تضع **للأنصار فى** كلمة(نعم) معنى نعم .

القوة الصارمة النفاذة التى تضع للأعداء فى **كلمة**(لا) معنى لا .

يا شباب العرب اجعلوا رسالتكم : إما أن يحيا الشرق عزيزاً ، وإما أن تموتوا .

لَوْ . . . . !

رأيتُنى جالسًا فى مسرحٍ هزلىّ بمدينة اسكندرية ، كما يجلسُ القاضى فى جريمةٍ يحملُ أهلُها بين يديه آثامهَم وأعمالَهم ، ويحملُ هو عقلَه وحُكمَه .

وقد ذهبتُ لأرى كيف يتَساخَفُ أهلُ هذه الصناعة ؛ فكان حكْمى أن السخافةَ عندنا سخيفةٌ جدًّا . . .

رأيتهم هناك ينقُدون العيوبَ بما يُنشئ عيوبًا جديدة ، ويَسْبَحون بأيديهم سباحةً ماهرةً ؛ ولكن على الأرض لا فى البحر ، وتكاد نظرتُهم إلى الحقيقة الهزلية تكون عمىً ظاهراً عما هى به حقيقةٌ هزلية ؛ ولا غايةَ لهم من هذا التمثيل إلا الرَّقاعةُ والإسفافُ والخلطُ والهذَيان ، إذ كان هذا هو الأشبَه بجمهورهم الذى يَحضُرهم ، وكان هو الأقربَ إلى تلك الطباع العامية البليدةِ التى اعتادت من تكلُّف الهزل ما جعلها هى فى ذات نفسها هزلاً يُسْخَر منه .

ولا أسخفَ من تكلف النكتة الباردةِ قد خلَتْ من المعنى ، إلا تكلُّفُ الضحِكِ المصنوع يأتى فى عَقِبها كالبرهانِ على أن فى هذه النكتة معنى .

فالفنُّ المضحكُ عند هؤلاء ، إنما هو السخفُ الذى يوافقون به الروحَ العاميةَ الضئيلةَ الكاذبةَ المكذوبَ عليها ، التى يبلغ من بلاهتها أحيانًا أن تضحكَ للنكتة قبل إلقائها ، لفَرْطِ خفتها ورُعونتها ، وطولِ ما تكلفتْ واعتادت . فما ذلك الفنُّ إلا ما ترى من التخليط فى الألفاظ ، والتضريبِ بين المعانى ، وإيقاعِ الغلَطِ فى المعقولات ؛ ثُم لاثُم بعد هذا . فلا دقةَ فى التأليف ، ولاعمقَ فى الفكرة ، ولاسياسةَ فى جمع النقائض ، ولانَفَاذَ فى أسرار النفس ، ولاجِدَّ يؤخذ من هزلية الحياة ، ولا عظَمةَ تُستخرجُ من صغائرها ، ولافلسفةَ تُعرف من حماقاتها .

والفرق بعيدٌ بين ضحكٍ هو صناعةُ ذهنٍ لتحريك النفس ، وشَحْذِ الطبع ، وتصوير الحقيقة صورةً أخرى ، وبين ضَحكٍ هو صناعة البلاهة للهو والعبث ، والمَجانةِ لاغير .

* * *

وكان معى قريب من أذكياء الطلبة المتخصصين للآداب الإنجليزية ، فلم نلبثْ إلا يسيراً حتى جاء ثلاثةٌ من ضباط الأسطول الإنجليزى ، فجلسوا بحذائنا صفًّا تلوحُ عليهم مَخايِلُ الظَفر ، ولهم وَقارُ البُطولة ، وفيهم أرواحُ الحرب؛ وهم يبدون فى ثيابهم البيض المطرّاة[1] كأنهم ثلاثةُ نُسور هبطتْ من الغمام إلى الأرض ، فلأعينِها نظراتٌ تدور هنا وهناك تُنكِرُ وتَعرف .

وأعجبنى أن أراهم فى هذا المكان الهزلىّ الممتلئ بالضعفاء ، كأنهم ثلاثُ حقائقَ بين الأغلاط ، أو ثلاثُ أغلاط كبيرة . . . وكان أبدعَ ما أراه على هيئة وجوههم وأسرَّه له ، تواضعُ هذا الاستعدادِ الحربىّ وتحوُّله إلى استعدادٍ للسخرية . . . .

ثم تأملتُهم طويلاً ؛ فإذا صَرامةٌ وشهامةٌ ، وسَكينةٌ ووَداعة ، وحُسْنُ سَمْت وحلاوةُ هيئة فى جِلْسة رزينة متوقِّرة ، لايُشبهها فى حسٍّ النفس التى تَعرف معانىَ القوة إلا وضعُ ثلاثةِ مدافعَ مُصَوَّبة .

وجعلتُ أقلّب عينىَّ فى الناس الموجودين ومَلامحهم وهيئاتهم ، ثم أرجعُ البصرَ إلى هؤلاء الثلاثة ، فأرى المصرىَّ كالمقتنع بأنه محدودٌ بمدينة أو قريةٍ لايعرفُ لنفسه مكانًا فى غيرهما ، فهو من ثَم لايَرحل ولايُغامرُ، ولاتتقاذَفُه الدنيا ؛ وأرى الإنجليزىَّ كالمقتنع بأن كلَّ مكانٍ فى العالم ينتظر الإنجليز . . .

وخيِّلَ إلىَّ والله أن رجلاً من هؤلاء الإنجليز الأقوياء المعتدِّين بأنفسهم لايُهاجر من بلاده إلا ومعه نفسُهُ واستقلالُه، وتاريخهُ وروحُ دولته ، وطبيعةُ أرضه ؛ فهو مستيقنٌ أن الله لايرزقه رزقًا أىَّ الرزقِ كان على ما يتفق ، بل رزقًا إنجليزيًّا : أى فيه كفايتُه .

ورأيت شيئًا عجيبًا من الفرق بين طابعَ السِّلم على وجوه ، وبين طابعَ الحرب على وجوهٍ أخرى ؛ ففى تلك معانى السهولة والملايَنة والحرصِ على مادة الحياة ، وفى هذه معانى العزم والمقاومةِ والحرصِ على مجد الحياة لا على مادتها .

---

(١) أى المكوية ؛ والكلمة العربية التى استعملت قديماً فى معنى (المكوجى) هى : المطرى (بتشديد الراء) .

وتبيَّنت أسلوبين من الأساليب الاجتماعية : أحدهما فى فردٍ قد بَنَى أمرَهُ عَلَى أن أُمَّةً تحملُه ، فهو يعيش بأضعف ما فيه : والآخر فى فرد قد وضَعَ الأمرَ عَلَى أنه هو يحمل أمةً فلا يدعُ فى نفسه قوةً إلا ضاعَفَها .

وعرفتُ وجهين من وجوه التربية السياسية : أحدهما بالطنطنة ، والتهويلِ ، والصُّراخ ، واستعارةِ ألفاظِ غيرِ الواقع للواقع ، وتحميلِ الألفاظِ غيرَ ما تحمل ؛ والآخر بالهدوء الذى يَقْهَرُ الحوادث ، والصبرِ الذى يغلب الزمن ، والعقيدة التى تفرض أعمالَها العظيمةَ على صاحبها وتجعلُ أعظمَ أجرِه عليها أن يقومَ بها .

وميَّزتُ بين أثرَين من آثار الأرض فى أهلها : أحدهما فى المصرى السَّمْحِ الوداعِ الألوفِ الحيِىِّ الذى هو كَرَمُ الطبيعة ، والآخر فى الإنجليزىّ العَسِرِ المغامِرِ النَّفورِ الملحِّ على الدنيا كأنه تطفّلُ الطبيعة . . .

* * *

وألقى ابنُ العم الذى كان معى سمعَه إلى هؤلاء الضباط ، وهم من فلاسفة الرأى على ما يظهر من حديثهم ، ثم نقل إلىَّ عنهم ، فقال كبيرُهم : لقد فرغتُ من بحثى الذى وضعته فى فلسفة خُمول الشرقيين ، وأفضيتُ منه إلى حقائقَ عجيبة ، أظهرُها وأخفاها معًا أن أمةً من هذه الأمم لايُمَكّن للأجنبى فيها ، ولا تثقُلُ وَطْأتُه عليهم ، ولايَطول ثَواؤُه فى أرضهم ، ولايحتلّها من يطمع فيها ، ما لم يكن سادتُها وأمراؤُها وكبراؤها كأنهم فيها دولةٌ محتلة .

وهؤلاء الكبراءُ هم آفةُ الشرق ؛ فمن أعظم واجباتنا أن نزيدَ فى تعظيمهم ، وأن نَمدَّهم فى المال والجاه ، ونَبْسُطَ لهم اليمينَ والشمال ، ونُوهِمَهم أن عظَمتَهم هكذا وُلِدتْ فيهم وهكذا وُلدوا بها من أمهاتهم كما ولدوا بأيديهم وأرجلهم . . . وخاصةً عظماءَ رجال الأديان المفتونين بالدنيا ؛ فإننا نصنعُ بغُرور الجميع وسخافاتهم وحرصِهم وطمعِهم أشياءَ اجتماعيةً ذاتَ خطَرٍ لايصنع لنا مثلَها إلا الشياطين ، ومن لنا بالحكم على الشياطين ؟ وهذا ما تنبَّه له (غاندى) ذلك المهزولُ الهندى الذى تُقوَّم دنياه بأربعة شلنات ، ولا يزنُ أكثرَ من بضعة أرطال من الجلد والعظم ، ولابطشَ عنده ولا قوةَ فيه ، وهو مع ذلك جبّارٌ سماوى فى يده البرقُ والرعدُ يُرى ويُسمَع فى أرجاء الدنيا .

قال ضابط اليمين : وبصناعةِ الكبرياء هذه الصناعةَ يكونُ رجلُ الشعب من هؤلاء الشرقيين رجل تقليدِ بالطبيعة ، ورجلَ ذل بالحالة ، ورجلَ خضوع بالجملة ؛ فليس فى نفسه أنه سيدُ نفسه ولا سيدُ غيره ، بل أكبرُ معانيه أن غيرَه سيدٌ عليه فيكون معه دائمًا خيالُ استعبادِه .

وتكلم ضابط اليسار : ولكن المترجم لم يميز أقواله ، لأن ثلاث عشرةَ امرأة كنَّ يصرخْنَ فى الرواية الهزلية بلحن طويل يقلن فى أوله : « عاوزين رِجَّالة تدَلَّعنا . . . » وكانت الموسيقى تصرخُ معهن وتُولوِل كأنها هى أيضًا امرأة محرومة . . .

* * *

ثم أرهفَ المترجم أذنَه فقال كبيرهم : إن لهؤلاء الشرقيين ستَّ حواس : الخمسُ المعروفةُ ، وحاسةُ الخمول الذى خدعتهم عنه الطبيعةُ البليدةُ فسمَّوه الترفَ والهزلَ واللهو ؛ والأمةُ الأوربية التى تحتلّ بلاداً شرقية تجدُ فيها لصغائر الحياة جيشًا أقوى من جيشها ؛ فعشرة آلاف جندى بعَتادهم وآلاتهم ، لا يصنعون شيئًا إلا الاستفزازَ والتحدِّى وإثباتَ أنهم غاصبون ؛ ولكن ما أنت قائلٌ فى عشرة آلاف مكان كهذا المسرح براقصاته وموسساته وخموره ورواياته ، وبهؤلاء الرجال المخنثين الهزليين الرُّقعاءِ الذين هم وحدَهم مُعاهدَةٌ سياسيةٌ ناجحةٌ بيننا وبين شباب الأمة . . . ؟

قال ضابط اليمين : نعم إن فنَّ الاحتلال فنٌّ عسكرىّ فى الأول . ولكنه فنٌّ أخلاقى فى الآخر ؛ ولهذا يجب تعيينُ نقطة اتجاه للشباب تكون مضيئةً لامعةً جذابةً مغريةً ، ولكنها فى ذات الوقت مُحرِقة أيضاً ، وهذه هى صناعةُ إهلاك الشباب بالضوء الجميل ، وما على السياسى الحاذق فى الشرق إلا أن يحمى الرذيلة ، فإن الرذيلةَ ستعرفُ له صنيعَه وتَحميه . . .

فتكلم ضابطُ اليسار ، ولكن صوته ذهب فى عشرين صوتًا من رجال المسرح ونسائه يصيحون جميعًا : « يا حِلوة يا خفَّافى ، يا مجنِّنه الشبان . . . »

* * *

ولما ألممتُ بحوار الضباط الثلاثة قلتُ لصاحبى : استأذِنْ لى عليهم أكلمهم .

ففعل وعرَّفنى إليهم ، وترجم لهم مقالة (يا شباب العرب) وكان يحملها . فكأنما رماهم منها بالجيش والأسطول .

ثم قلت لكبيرهم : لست أنكر أن الإنجليزى لو دخلَ جهنمَ لدخلها إنجليزيا . . . ولا أجحد أن له فى الحياة مثلَ هداية الحيوان ، لأنه رجلٌ عمليٌّ : دليلُ منفعته أنها منفعتُه وحَسْبُ ، ثم لادليلَ غيرُهذا ولا يقبل إلا هذا . فإذا قال الشرقى : حق ، وقال الإنجليزى : منفعتى ، بطَلَت الأدلةُ كلُّها ، ورأى الشرقى أنه مع الإنجليزى كالذى يحاول أن يُقنع الذئبَ بقانون الفضيلة والرحمة .

وقد عرفنا أن فى السياسة عجائب ، منها ما يُشْبِه أن يَلقَى إنسانٌ إنسانًا فيقولَ له : يا سيدى العزيز ، بكل احترام أرجو أن تتلقى منى هذه الصفعة . . .

وفى السياسة مواعيدُ عجيبة ، منها ما يشبه غرسَ شجرةٍ للفقراء والمساكين ، والتوكيدَ لهم بالأيمان أنها ستُثمر رُغْفانًا مخبوزة . . . ثم بعدَ ذلك تُطعَّم فتثمرُ الرغفانَ المخبوزةَ حَشْوُها اللحمُ والإدام .

وفى السياسة محاربةُ المساجد بالمراقص ، ومحاربةُ الزوجات بالمومسات ، ومحاربةُ العقائد بأساتذة حرية الفكر ، ومحاربةُ فنون القوة بفنون اللذة . ولكن لو فهم الشبابُ أن أماكنَ اللهو فى كل معانيها ليست إلا غَدراً بالوطن فى كل معانيه !

ولو عرف الشبابُ أن محاربةَ اللهو هى أولُ المعركة السياسية الفاصلة !

ولو أدرك الشباب أن أولَ حق الوطن عليه أن يحمل فى نفسه معنى الشعب لامعنى نفسه !

ولو رجع الدينُ الإسلامى كما هو فى طبيعته آلةً حربية تصنع من الشباب رجال القوة !

ولو علم الشبابُ أن روحَ هذا الدين ليست : اعتَقِدْ ولا تعتقدْ . ولكن افعلْ ولاتفعل !

ولو أيقن الشبابُ أن فرائض هذا الدين ليست إلا وسائلَ عمليةً لامتلاء النفس بمعانى التقديس !

ولو فهم الشبابُ أنْ ليس فى الكون إلا هذه المعانى تجعلُ النفسَ فوق المادة وفوق الخوف وفوق الذل وفوق الموت نفسه !

ولو بحث الشبابُ النفسَ الإنجليزيةَ القويةَ ليعرفَ بالبرهان أنها نصفُ مسلمةٍ فكيف بها لو كانت مسلمة ؟ . . .

* * *

وكان المترجم ينقل إليهم كلامى ، فما بلغتْ إلى حيث بلغتُ ، حتى شدّ الضابط على يدى وهزّها ؛ فنظرت ، فإذا أنا قد كنتُ نائمًا بعد سهرة طويلة فى ذلك المسرح ، وإذا يدُ المترجم نفسِه هى التى تهزنى لأنتبه . . .

أيها المسلمون !

نهضتْ فِلَسْطِين تَحِلُّ العقدةَ التى عُقِدَتْ لها بين السيفِ ، والمكرِ ، والذهب .

عقدةٌ سياسية خبيثة ، فيها لذلك الشعبِ الحرِّ قتلٌ وتخريبٌ ، وفقر .

عقدةُ الحكم الذى يحكم بثلاثة أساليب : الوعدِ الكذب ، والفَنَاء البطىء ، ومطامع اليهود المتوحشة .

أيها المسلمون ! ليست هذه محنةَ فلسطين ، ولكنها محنةُ الإسلام ؛ يريدون ألاّ يُثبتَ شخصيتَه العزيزةَ الحرة .

كلُّ قرش يُدفع الآن لفلسطين ، يذهبُ إلى هناك ليجاهدَ هو أيضًا .

* * *

أولئك إخوانُنا المجاهدون ؛ ومعنى ذلك أن أخلاقَنا هى حُلَفاؤهم فى هذا الجهاد .

أولئك إخوانُنا المنكوبون ؛ ومعنى ذلك أنهم فى نكبتهم امتحانٌ لضمائرنا نحن المسلمين جميعًا .

أولئك إخوانُنا المضطَهَدون ؛ ومعنى ذلك أن السياسةَ التى أذلَّتهم تسألنا نحن : هل عندنا إقرارٌ للذل ؟

ماذا تكون نكبةُ الأخِ إلا أن تكونَ اسمًا آخرَ لمروءة سائر إخوته أو مَذَلَّتِهم ؟

أيها المسلمون ! كل قرش يدفع لفلسطين ، يذهب إلى هناك ليفرضَ على السياسة احترامَ الشعور الإسلامى .

* * *

اِبتَلَوْهُم باليهود يحملون فى دمائهم حقيقتين ثابتتين : من ذلِّ الماضى وتشريد الحاضر .

ويحملون فى قلوبهم نِقْمتين طاغيتين : إحداهما من ذهَبهِم ، والأخرى من رذائلهم .

ويَخبئون فى أدمغتهم فكرتين خبيثتين : أن يكونَ العربُ أقليَّة ، ثم أن يكونوا بعد ذلك خَدَمَ اليهود .

فى أنفسهم الحِقْد ، وفى خيالهم الجنون ، وفى عقولهم المكر ، وفى أيديهم الذهبُ الذى أصبح لئيماً لأنه فى أيديهم .

أيها المسلمون ! كل قرش يدفع لفلسطين ، يذهب إلى هناك ليتكلمَ كلمةً تردُّ إلى هؤلاء العقل .

* * *

ابتَلَوْهُم باليهود يَمرُّون مرورَ الدنانير بالربا الفاحِشِ فى أيدى الفقراء .

كل مائة يهودى على مذهب القوم يجب أن تكون فى سنة واحدةٍ مائةً وسبعين . . .

حسابٌ خبيث يبدأ بشيء من العقل ، ولاينتهى أبداً وفيه شيءٌ من العقل .

والسياسةُ وراء اليهود ، واليهودُ وراء خَيالهم الدينى ، وخيالُهم الدينىُّ هو طردُ الحقيقة المسلمة .

أيها المسلمون ! كل قرش يدفع لفلسطين ، يذهب إلى هناك ليثبِّتَ الحقيقةَ التى يريدون طردَها .

* * *

يقول اليهود : إنهم شعبٌ مضطهَد فى جميع بلاد العالم .

ويزعمون : أن من حقهم أن يعيشوا أحراراً فى فلسطين ، كأنها ليست من جميع بلاد العالم . . .

وقد صنعوا للإنجليز أسطولاً عظيماً لايسبح فى البحار ، ولكن فى الخزائن . . .

وأراد الإنجليز أن يَتطمئنُّوا فى فلسطين إلى شعبٍ لم يتعودْ قط أن يقول : أنا .

ولكن لماذا كَنَسَتكم كلُّ أمةٍ من أرضها بمكنَسةٍ أيها اليهود ؟

* * *

أجَهِلتم الإسلام ؟ الإسلامُ قوة كتلك التى تُوجِدُ الأنيابَ والمخالبَ فى كل أسد .

قوةٌ تُخرج سلاحها بنفسها ، لأن مخلوقَها عزيزٌ لم يُوجد لِيُؤكلَ ، ولم يُخلق لِيَذلّ .

قوةٌ تجعل الصوتَ نفسَه حين يُزَمْجِر ، كأنه يُعلن الأسديةَ العزيزةَ إلى الجهات الأربع .

قوةٌ وراءها قلبٌ مشتعل كالبركان ، تتحولُ فيه كلُّ قطرةِ دم إلى شرارةِ دم .

ولئن كانت الحوافرُ تهيّئُ مخلوقاتها ليركبَها الراكب ، إن المخالبَ والأنيابَ تهيّئُ مخلوقاتِها لمعنى آخر .

* * *

لو سُئلتُ ما الإسلامُ فى معناه الاجتماعى ؟ لسَألتُ : كم عددُ المسلمين ؟

فإن قيل : ثلثمائة مليون . قلتُ : فالإسلامُ هو الفكرة التى يجب أن يكونَ لها ثلثمائة مليون قوة .

أيجوعُ إخوانكم أيها المسلمون وتشبعون ؟ إن هذا الشِّبَعَ ذنبٌ يعاقِبُ الله عليه .

والغِنَى اليومَ فى الأغنياء المُمْسِكين عن إخوانهم ، هو وصفُ الأغنياء باللؤم لا بالغنى .

كل ما يبذله المسلمون لفلسطين ، يدلُّ دَلالاتٍ كثيرة ، أقلّها سياسةُ المقاومة .

* * *

كان أسلافكم أيها المسلمون يفتحون الممالك ، فافتحوا أنتم أيديكم . . .

كانوا يرمون بأنفسهم فى سبيل الله غيرَ مكْترِثين ، فارمُوا أنتم فى سبيل الحق بالدنانير والدراهم .

لماذا كانت القِبْلةُ فى الإسلام إلا لتعتادَ الوجوه كلّها أن تتحولَ إلى الجهةِ الواحدة ؟

لماذا ارتفعت المآذنُ إلا ليعتادَ المسلمون رفعَ الصوتِ فى الحق ؟

أيها المسلمون ! كونوا هناك . كونوا هناك مع إخوانكم بمعنىً من المعانى .

* * *

لو صام العالم الإسلامىُّ كلّه يومًا واحداً وبَذَلَ نفقاتِ هذا اليوم الواحد لفلسطين ، لأغناها .

لو صام المسلمون كلّهم يومًا واحداً لإعانة فلسطين ، لقال النبيُّ مفاخراً الأنبياء : هذه أمّتى !

لو صام المسلمون جميعًا يومًا واحداً لفلسطين ، لقال اليهودُ اليومَ ما قاله آباؤهم من قبل : إن فيها قومًا جبّارين . . .

أيها المسلمون ! هذا موطنٌ يزيد فيه معنى المالِ المبذولِ فيكون شيئًا سماويًّا .

كل قرش يبذله المسلم لفلسطين ، يتكلم يومَ الحساب يقول : ياربّ ، أنا إيمانُ فلان !

قصة الأيدى المتوضئة . . .

قال راوى الخبر : ذهبتُ إلى المسجد لصلاة الجمعة؛ والمسجدُ يجمعُ الناسَ بقلوبهم لـيُخرِجَ كلَّ إنسان من دنيا ذاتـه، فلا يفكـّر أحدٌ أنه أسمى من أحد؛ ولقد يكون إلى جانبك الصانعُ أو الأجيرُ أو الفقيرُ أو الجاهل ، وأنت الرئيسُ أو العظيمُ أو الغنىُّ أو العالم ، فتنظرُ إليه وإلى نفسك فتحس ُّ كأن خواطرَك متوضّئةٌ متطهـِّرة ، وترى كلمة الكبرياءِ قد فقدت روحـَها ، وكلمةَ التواضع قد وجدت روحـَها ؛ وتشعرُ بالنفس المجتمـعة قد نصبت الحربَ للنفس المنفردة ؛ ولو خطر لك شيء بخلاف ذلك رأيتَ الفقيرَ إلى جانبك توبيخـًا لك ، ونظرتَ إليه ساكتـًا وهو يتكلم فى قلبك ، وشعرتَ بالله من فوقـكما ، واستعلـَنـَتْ لك روحُ المسجدِ كأنها تـَهـُمّ بطردك منه ، وخـُيـِّل إليك أن الأرضَ ستلطم وجهك إذا سجدتَ عليها ، وأيقنتَ من ذاتِ نفسك أن لستَ هناك فى دنياك وليس صاحـُبك فى دنياه ، وإنما أنتما هناك فى إنسانية ميزانـُها بيد الله وحده ؛ فلا تدرى أيكما الذى يـَخـِفُّ وأيكما الذى يثقُل (١) .

قال : والعجيبُ أن هذا الذى لايجهلـُه أحدٌ من أهل الدين ، يعرفـُه بعضُ علماءِ الدين على وجهٍ آخر ، فتراه فى المسجد يمشى مختالاً ، قد تحلـَّى بحلـْيته ، وتكلـَّف لزَهـْوِه ، فلبس الجبةَ تـَسـَعُ اثنين ، وتـَطاوَلَ كأنه المـِئذَنة ، وتـَصَدَّر كأنه القـِبـْلة ، وانتفخ كأنه ممتلىء بالفـُروق بينه وبين الناس ؛ وهو بعد كل هذا لو كشفَ الله تمويهـَهُ لانكشف عن تاجرِ علمٍ بعضُ شروطـه على الفضيلة أن يأكلَ بها ، فلا يجدُ دنيا ذاتـِه إلا فى المسجد ، فهو نوعٌ من كـَذبِ العالم الدينىِّ على دينه .

* * *

قال الراوى : وصَعـِد الخطيبُ المنبرَ وفى يده سيفـُه الخشبىُّ يتوكأ عليه ؛ فما استقر فى الذِّروة حتى خـُيـِّل إلىَّ أن الرجلَ قد دخل فى سـِر هذه الخشبة ؛

(١) استوفينا الكلام عن فلسفة المسجد فى مقالات كثيرة .

فهو يبدو كالمريض تُقيمه عصاه، وكالهَرِم يُمسكه ما يتوكأ عليه ؛ ونظرتُ فإذا هو كذِبٌ صريح على الإسلام والمسلمين، كهيئةِ سيفِه الخشبيّ في كذبِها على السيوف ومعدنِها وأعمالِها .

وتالله ما أدرى كيف يستحل عالمٌ من علماء الدين الإسلاميّ في هذا العصر، أن يخطبَ المسلمين خُطبَةَ جُمعتِهم وفي يده هذا السيفُ علامة الذل والضَّعةِ والتراجُع والانقلاب والإدبارِ والهزل والسخريةِ والفضيحةِ والإضحاك ؛ ومتى كان الإسلامُ يأمرُ بِنَجْرِ السيوف من الخشب ونَحْتِها وتسويتِها وإرهافِ حدها الذى لايقطع شيئًا، ثم وضْعِها في أيدى العلماء يَعْتَكُون بها ذُؤابةَ كل منبر، لتتعلقَ بها العيونُ، وتشهدَ فيها الرمزَ والعلامة، وتستوحِيَ منها المعنويةَ الدينيةَ التي يجب أن تتجسَّم لِتُرى ؟

أي سيف من الخشب معنويةٌ غيرُ معنى الهزلِ والسخافةِ، وبلاهةِ العقل وذلة الحياة، ومسْخِ التاريخِ الفاتح المنتصر، والرمزِ لخضوع الكلمة وصبيانيةِ الإرادة ؟

قال : وكان تمام الهزْءِ بهذا السيف الخشبيّ الذى صنعته وزارةُ أوقاف المسلمين، أنه في طول صَمْصَامةِ عمرو بن معْديكرب الزُّبيدى فارس الجاهلية والإسلام[1]، فكان إلى صدر الخطيب، ولولا أنه في يده لظهر مَقْبِضُه في صدر الرجل كأنه وِسامٌ من الخشب . . .

قال : وكان الخطيب إذا تكلفَ وتصنَّع وظهر منه أنه قد حَمِيَ وثار ثائرُه، ارتجَّ وغَفلَ عن يده، فتضطربُ فيها قبضةُ السيف فَتلكزُه في صدره كأنما تذكِّره أن في يده خشبةً لاتَصلُح لهذه الحماسة . . . ![2]

* * *

قال : وخطب العالمُ على الناس، وكان سيفُه الخشبيّ يخطبُ خطبةً أخرى : فأما الأولى فهي محفوظةٌ معروفةٌ ولا تنتهى حتى ينتهىَ أثرُها، إذ هى كالقراءة لإقامة الصلاة ؛ وكانت في عهدها الأول كالدرسِ لإقامة شأنٍ من

(١) كان طول الصمصامة سبعة أشبار وافية وعرضها شبر .

(٢) القاعدة الشرعية : أن البلد الذى يفتح بالسيف يخطب فيه بالسيف . ولما ضعف المسلمون السيف منهم وأطاعهم الخشب . . . !

شئون الاجتماع والسياسة ، فبينها وبين حقيقتها الإسلامية مثلُ ما بين هذا السيف من الخشب وبين حقيقته الأولى . وأما الخطبة الثانية فقد عقلتُها أنا عن تلك الخشبة وكتبتها ، وهذه هى عبارتها :

ويْحكم أيها المسلمون ! لو كنتُ بقيةً من خشب سفينة نوح التى أنقذ فيها الجنسَ البشريَّ ، لما كان لكم أن تضعونى هذا الموضع ؛ وما جعلكم الله حيث أنتم إلا بعد أن جعلتمونى حيث أنا ، تكاد شرارةٌ تذهب بى وبكم معـًا ، لأن فىَّ وفيكم المادةَ الخشبيةَ والمادة المتخشّبة .

ويْحكم ! لو أنه كان لخطيبكم شىء من الكلام النارىِّ المضطرم ، لما بقيت الخشبةُ فى يده خشبة . وكيف يمتلىء الرجلُ إيمانـًا بإيمانه ، وكيف يصعدُ المنبرَ ليقولَ كلمةَ الدين من الحق الغالب ، وكلمةَ الحياةِ من الحق الواجب — وهو كما ترونه قد انتهى من الذل إلى أن فقد السيفُ روحَه فى يده ؟

أيها المسلمون ! لن تُفلحوا وهذا خطيبكم المتكلمُ فيكم ، إلا إذا أفاحتم وأنا سيفكم المدافعُ عنكم . أيها المسلمون ، غـيِّـروه وغيِّـرونى .

* * *

قال راوى الخبر : ولما قُضيَتْ الصلاةُ ماج الناسُ إذا انبعث فيهم جماعةٌ من الشبان يصيحون بهم يستوقفونهم ليخطبوهم ؛ ثم قام أحدُهم فخطب ، فذكر فلسطين وما نزل بها ، وتغيُّرَ أحوالِ أهلها ، ونكبتَهم وجهادَهم واختلالَ أمرِهم ، ثم استنجد واستعان ، ودعا المُوسِرَ والمُخِفَّ إلى البذلِ والتبرع وإقراضِ الله تعالى ؛ وتقدم أصحابهُ بصناديقَ مختومة ، فطافوا بها على الناس يجمعون فيها القليلَ والأقلَّ من دراهمَ هى فى هذه الحال دراهمُ أصحابها وضمائرُهم .

قال : وكان إلى جانبى رجلٌ قَرَوِىٌّ من هؤلاء الفلاحين الذين تَعرفُ الخيرَ فى وجوههم ، والصبرَ فى أجسامهم ، والقناعةَ فى نفوسهم ، والفضلَ فى سجاياهم ؛ إذا امتزجتْ بهم روحُ الطبيعة الخِصبةِ فتُخرجُ من أرضهم زُروعـًا ومن أنفسهم زروعا أخرى — فقال لرجل كان معه : إن هذا الخطيبَ خطيبَ المسجد قد غشَّنا وهؤلاء الشبانُ قد فضحوه ؛ فما ينبغى أن تكونَ خطبةُ المسلمين إلا فى أخصِّ أحوال المسلمين .

قال : ونبَّهنى هذا الرجلُ الساذَجُ إلى معنى دقيقٍ فى حكمة هذه المنابر الإسلامية ؛ فما يريد الإسلام إلا أن تكونَ كمحطات الإذاعة ، يلتقط كلُّ منبرٍ أخبارَ الجهات الأخرى ويُذيعُها فى صيغة الخطاب إلى الروح والعقل والقلب ، فتكون خطبةُ الجمعة هى الكلمةَ الأسبوعيةَ فى سياسة الأسبوع أو مسألة الأسبوع ؛ وبهذا لايجىء الكلامُ على المنابر إلا حيًّا بحياة الوقت ، فيصبحُ الخطيبُ ينتظره الناسُ فى كل جمعة انتظارَ الشىء الجديد ؛ ومن ثَم يستطيع المنبرُ أن يكونَ بينه وبين الحياة عمل .

قال : وخُيِّل إلىَّ بعد هذا المعنى أن كلَّ خطيب فى هذه المساجد ناقصٌ إلى النصف ، لأن السياسةَ تُكرهه أن يخلعَ إسلاميتَه الواسعة قبل صعوده المنبر ، وألا يصعدَ إلا فى إسلاميته الضيقة المحدودة بحدود الوعظ هو مع ذلك نصفُ وعظ . . . فالخطبةُ فى الحقيقة نصفُ خطبة ، أو كأنها أثرُ خطبةٍ معها أثرُ سيف . . .

قال : وأخرجَ القروىُّ كيسهَ فعزَلَ منه دراهم وقال : هذه لطعام أتبلَّغُ به ولأوبتى إلى البلد ، ثم أفرغ الباقى فى صناديق الجماعة ؛ واقتديتُ أنا به فلم أخرج من المسجد حتى وضعتُ فى صناديقهم كلَّ ما معى ؛ ولقد حسبتُ أنه لو بقى لى درهم واحد لمضى يَسبُّنى ما دام معى إلى أن يخرجَ عنى .

* * *

قال الراوى : ثم دخلتُ إلى ضريح صاحب المسجد أزوره وأقرأ فيه ما تيسر من القرآن ، فإذا هناك رجالٌ من علماء المسلمين ، اثنان أو ثلاثة (الشكُّ فى ثالثهم لأنه حليقُ اللحية) . ثم تَوافَى إليهم آخرون فتمُّوا سبعة ؛ ورأيتُهم قد خلطوا بأنفسهم صاحبَ (اللالحية) ، فعلمتُ أنه منهم على المذهبِ الشائع فى بعض العصريين من العلماء والقضاةِ الشرعيين ، أحسبُهم يحتجُّون بقوله تعالى : « ولقد خلقنا الإنسانَ فى أحسن تقويم » ؛ وكلُّ امرئ فإنما تُبصِّره مرآتُه كيف يظهر فى أحسن تقويم ، أبلحيةٍ أم بلالحية . . . ؟

وأدرتُ عينى فى وجوههم ، فإذا وقارٌ وسَمْتٌ ونورٌ لم أر منها شيئًا فى وجه صاحب (اللالحية) ؛ وأنا فما أبصرتُ قط لحيةَ رجل عالم أو عابدٍ أو فيلسوفٍ

أو شاعرٍ أو كاتبٍ أو ذى فن عظيم ، إلا ذكرتُ هذا المعنى الشعرىَّ البديع الذى ورد فى بعض الأخبار ، من أن لله (تعالى) ملائكةً يُقْسِمون : والذى زيَّن بنى آدم باللِّحى .

وكان من السبعة رجلٌ ترك لحيتَه عافيةً على طبيعتها ؛ فامتدَّتْ وعظُمتْ حتى نَشَرَتْ حولها جوًّا روحانيًّا من الهيبة تَشعرُ النفسُ الرقيقةُ بتيَّاره على بُعد، فكان هذا أبلغَ رد على ذاك .

* * *

قال : وأنصتَ الشيوخُ جميعًا إلى خطب الشبان ، وكانت أصواتُ هؤلاء جافيةً صُلبةً حتى كأنها صَخَبُ معركةٍ لا فنُّ خطابه ، وعلى قدر ضعف المعنى فى كلامهم قَوِىَ الصوت ؛ فهم يصرخون كما يصرخُ المستغيثُ فى صيحاتٍ هاربةٍ بين السماء والأرض .

فقال أحد الشيوخ الفضلاء : لا حول ولا قوة إلا بالله ! جاء فى الخبَرَ : « تَعِسَ عبدُ الدينار ، تَعِسَ عبدُ الدرهم.» ووالله ما تعس المسلمون إلا منذ تعبَّدوا لهذين حرصًا وشُحًّا ؛ « ومَن يُوقَ شُحَّ نفسِه فأولئك هم المفلحون» ، ولو تعارفتْ أموالُ المسلمين فى الحوادث لما أنكرتْهم الحوادث .

فقال آخر : وفى الحديث : « إن الله يحب إغاثة َ اللَّهْفان » ، ولكن ما بالُ هؤلاء الشبان لا يُوردون فى خطبهم أحاديثَ مع أنها هى كلماتُ القلوب ؟ فلو أنهم شرحوا للعامة هذا الحديث : « إن الله يحب إغاثة اللهفان » لأسرع العامة إلى ما يحبه الله .

قال الثالث : ولكن جاءنا الأثر فى وصف هذه الأمة : « إنها فى أول الزمان يتعلم صغارُها من كبارها ، فإذا كان آخرُ الزمان تعلّم كبارُهم من صغارهم» . فنحن فى آخر الزمان ، وقد سُلِّط الصغارُ على الكبار يريدون أن ينقُلوهم عن طباعهم إلى صبيانيةٍ جديدة .

قال الراوى : فقلت لصديقٍ معى : قل لهذا الشيخ : ليس معنى الأثر مافهمت ، بل تأويلُه أن آخرَ الزمان سيكون لهذه الأمة زمنَ جهاد واقتحام ، وعزيمةٍ ومغالبةٍ على استقلال الحياة؛ فلا يصلحُ لوقاية الأمة إلا شبابُها المتعلم القوىُّ

الجريء ، كما نرى فى أيامنا هذه ، فينزلون من الكبار تلك المنزلةَ ؛ إذ تكون الحماسةُ متممةً لقوة العلم . وفى الحديث : « أمتى كالمطر : لايُدرَى أولُه خيرٌ أم آخرُه » .

* * *

قال الراوى : ولم يكد الصديق يحفظ عنى هذا الكلام ويَهُمُّ بتبليغه ، حتى وقعت الصيحة فى المكان ؛ فجاء أحدُ الخطباء ووقف يفعلُ ما يفعله الرعد : لايكرر إلا زمجرةً واحدة ؛ وكان الشيوخ الأجلاء قد سمعوا كلَّ ما قيل ، فأطرقوا يسمعونه مرةً رابعة أو خامسة ؛ وفرغ الشباب من هَديره فتحول إليهم وجلس بين أيديهم متأدبًا متخشِّعًا ووضع الصندوق المختوم .

فقال أحد الشيوخ : لم يَخفَ علينا مكانُك ، وقد بذلتم ما استطعتم ؛ فبارك الله فيك وفى أصحابك .

وسكت الشاب ، وسكت الشيوخ ، وسكت الصندوق أيضًا . . .

ثم تحركت النفسُ بوحْى الحالة ؛ فمدَّ أولهم يدَه إلى جيبه ، ثم دسها فيه ، ثم عَيَّثَ فيه قليلاً[1] ؛ ثم . . . ثم أخرج الساعةَ ينظر فيها .

وانتقلت العدوى إلى الباقين ، فأخرج أحدُهم منديله يتمخَّط فيه ، وظهرت فى يد الثالث سُبحةٌ طويلة ، وأخرج الرابعُ سِواكًا فرَّ به على أسنانه ، وجرَّ الخامسُ كُراسةً كانت فى قَبائه ، ومدَّ صاحبُ اللحية العريضة أصابعَه إلى لحيته يُخَلِّلُها ؛ أما السابعُ صاحبُ (اللالحية) ، فثبتتْ يدُه فى جيبه ولم تخرج ، كأن فيها شيئًا يستحى إذا هو أظهره ، أو يخشى إذا هو أظهره من تخجيل الجماعة .

وسكت الشاب ، وسكت الشيوخ ، وسكت الصندوق أيضًا . . .

قال الراوى : ونظرتُ فإذا وجوهُهم قد لبستْ للشاب هيئةَ المدرِّس الذى يقرر لتلميذه قاعدةً قررها من قبلُ ألفَ مرة لألف تلميذ ؛ فخجل الشاب وحملَ صندوقه ومضى . . .

* * *

(١) أى بحث بأصابعه .

أقول أنا : فلما انتهى الراوى من (قصة الأيدى المتوضئة) ، قلت له : لعلك أيها الراوى استيقظتَ من الحلُم قبل أن يملأَ الشيوخُ الأجلاء هذا الصندوق ، وما ختم عقلكُ هذه الروايةَ بهذا الفصل إلا بما كَدَّسْتَ فيه ذهنك من فلسفةِ تحوُّلِ السيفِ إلى خشبة ؛ ولو قد امتد بك النومُ لسمعتَ أحدهم يقول لسائرهم : بمن ينهض إخوانُنا المجاهدون وبمن يصولون ؟ لهذا قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : « جاهلٌ سخِىٌّ أحبُّ إلى الله من عالمٍ بخيل » .

ثم يملئون الصندوق . . . .

نجوى التمثال[1]

أيها المفترشُ الصخرةَ يشُدُّ ذراعيه أقوى الشدّ كأنما يريد أن يقتلع الصخرةَ فيهما ،
مُتَنَاهِضًا بصدره ليَدل على أنه وإن رَبض فإن الوثبةَ في يديه ،
مُتَمَطِّيًا بصُلْبِه ليُشيرَ من جسمه الهادئ إلى معانيه المفترسة ،
مُقْعيًا على ذَنَبه ومتحفزًا بسائره كأنه قوةُ اندفاعٍ تَهُمُّ أن تَنفلِتَ من جاذبيةِ الأرض .

وأنتِ أيتها الهيفاءُ تمثّلُ الإنسانيةَ المتمدنة فى نَحافتها وهى كهذه الإنسانية ضاربةٌ بذراعَيْ أسد فى غلَظ مدْفعين . . . .

حكيمةٌ فى النظر كأنماتَمدُّ فى سرائر الأمم نظرةَ المتأمل ، ولكنّ يدها كيدِ الحكمةِ السياسية على تركيبٍ عقليّ تحته ُ المخالب . . .

ساكنةٌ كأنها تمثالُ السلام على أنها فى جِوار الأسدِ كالسلام بين الشعوب : تَلْمَح فيه إنسانَ العالم ووحش العالم . . .

يا أبا الهول .

أأنتَ جوابٌ عن ذلك اللغز القديم الذى هو كلامٌ لايتكلم وسكوتٌ لايسكت ،

والذى أشار برأسِ الإنسان على جسمِ اللّيث أنه قوةٌ عمياء كالضرورة ولكنها مبْصِرَة كالاختيار ،

والذى أخرج من فَنَّيِ الغريزة والعقلِ فنًّا ثالثًا لايزال فى الأرض ينتظرُ المرأةَ التى تلد إنسانًا عِظامهُ من الحجَر ؟

وأنتِ يا مصر :

أواقفةٌ ثَمّةَ للشرح والتفسير ، تقولين للمصريّ : إن أجدادَك يسألونك من آلاف السنين بهذا الرمز : أَلاَ معجزةٌ من القوة تمطّ عَضَلاتِ الحجَر ؟

---

(١) تمثال نهضة مصر الذى صنعه المثال مختار رمزاً لهذه النهضة ، وهو أبو الهول متحفزاً تقف إلى جانبه امرأة .

ألا بَسْطَةٌ من العلم تجعلكَ أيها المصرىُّ وكأنك رأسٌ لجسم الطبيعة ؟

ألا فنٌّ جديدٌ ترفعُ به أبا الهولِ فى الجوّ فتزيده على قوة الوحشِ وذكاء الإنسان خِفّةَ الطير ؟

أم تقولين للمصرىّ : إن أجدادَك يُوصونكَ بهذا الرمز أن تكونَ كالظّهرِ الأسدىّ لايُركَب مَطاه ، وكالرأسِ الإنسانىّ لاتُقيِّد حريتُه ، وكالرّبْضَة الجبليةِ لاتَسْهُلُ إزاحتُها ، وكالإبهام المركّب من غامضَين لايتيسر به عَبَثُ العابث ، وكالصراحةِ المجتمعةِ من عنصرٍ واحد لايغلطُ فى حقيقتها أحد ؟

أم تقولين يا مصر : إن تفسيرَ أبى الهول الأولِ أن النهضةَ المصريةَ إنما تكون يوم تُخرِجُ البلاد من يصنع أبا الهول الثانى ؟

* * *

تمثالُ النهضة أم صفحةٌ من الحجر قد صَوّر الشعبُ فكرَه عليها ، ودوّن فيها إحساسَه بتاريخه ، ووصفَ بها إدراكَه حياةَ المعانى السامية ؟

أم هو كتابةُ فصلٍ من التاريخ بقلم الحياةِ وعلى طريقةٍ من بلاغتها ، خشيتْ عليه الفناءَ فدوّنته فى أسلوبٍ من أساليب البقاء الحجرىّ الصّلْد ؟

أم ذاك يومٌ من أيام الأمة أحالَه الفن من زمنٍ إلى مادةٍ ؛ ومن معنى إلى حسٍّ ، ومن خبرٍ إلى مَنْظَر ، وكانوا يتكلّمون عنه فجعله الفنُّ يتكلم عن نفسه ؟

أم هو تعبيرٌ عن تلك المعانى التى خلقتْها نفوسُ هذا الجيلِ تخاطبُ به النفوسَ الآتيةَ لتتمّمَ عليها ، وتضيفَ فيه إلى المعنى سرَّ المعنى ، وتضعَ الكلمةَ الإنسانيةَ على لسان الطبيعة تتكلم بالتمثال كما تتكلم بالجيل ؟

أم تركيبٌ سياسىٌّ إذا فسّرتْه اللغةُ كان معناه أن الثابتَ إذا احتاج إلى من يثبته . . . فلن يمحوَهُ من ينكرُه ، وأن الظاهرَ إن احتاج إلى من يَدلُّ عليه . . . فلن يُخفيَه من لايراه ؟

* * *

بل أراكَ لاهولَ فيك يا أبا الهول الجديد .

أفذاكَ من رقّةٍ داخلتْكَ ورحمةٍ جاءَتك من مَسّ يدِ المرأة . . . ؟

أم الهولُ اليومَ قد أصبح فى العقل والعاطفة ومدّ العينِ النسائية إلى بعيد... ؟

أم لا يتم فى هذه المدينة رأسُ رجلٍ وجسمُ سَبُعٍ إلا . . . إلا بأنامل امرأة ؟

ألا من يُعْلِمنى أهذه المرأةُ منكَ هى تهذيبٌ للإنسان والوحشِ أم تكملةٌ عليهما ؟

ألا من يأتينى بالحكمةِ فيك من وضْع الرجلِ القوىّ رأسًا ولا جسم ، والأسدِ المفترسِ جسما ولا رأس ، ثم لا يكمل دونهما إلا المرأةُ وحدها .

إنما كنتَ يا أبا الهول لغزَ الصمت ، فلما أُضيفت المرأةُ إليك أصبحتَ لغزَ النطق . . . فيا للْهول !

فاتح الجو المصرى[١]

ياطيرَ المثَلِ الأعلى !

لقد انفَلَتَّ من رذيلة الخوفِ وتركتَها فى التراب مَوْطِئَ القَدَم ، وقلتَ لها : ويحكِ ، لقد آن للشبابِ المصرىّ ؛ فهو مُغَامِس فى ماء الصواعق[٢] ، مُتَطَوّح فى اللُّجة الأزليةِ التى تغوصُ فيها الكواكب[٣] ، يطيرُ برُوح الشَّرارة ، ويَهْبِطُ برُوح الغَيث ، ويُلْجِمُ الجوَّ ويُسْرِجُه ، ويتعلم كيف يَشْوِى عدوَّه فى عَيْن الشمس .

وكنتَ بطلاً مُغَامراً فخطوتَ فى طريق الملائكة بهذه الفضيلة وحملكَ الجو ؛ ولو أنك خِفْتَ وكنت على جَنَاحَىْ جِبريل لا على طيارة ، لخافَ جبريلُ على جناحَيه من حَطْمَةِ هذا المعنى الترابىِّ الطاغيةِ الذى يَحكُم على الأحياء بالموتِ بلا موت ، لأنه الذلُّ والخضوعُ والرذيلة .

وحملك الجوُّ إلى قبة السماء ، وهنالك نَظَر العالَمُ فرأى لمصر الناهضةِ عَلَمَها الإنسانىَّ يتنفّسُ تحت الكواكب .

وحملك الجو إلينا ، فلما رفعنا رءوسَنَا لنراك ، رفعناها فى الوقت بين شعوبِ الأرض .

* * *

وضربتَ ياجَنَاحَ مصرَ فى الهواء ، وأعْنَانُ السماءِ[٤] مملوءة بالزَّعْزَع والهَوجاء والعاصِف ، والسماءُ فى فصلها المكْفَهِرّ الذى تخلعُ فيهِ كلَّ ساعة وتلبسُ وتمزّق[٥] وتَطْوِى ، فزدتَ بجُرأتك فى براهينِ القضية المصرية برهانَ قوةِ المخاطَرة ، وأضفتَ إلى منطقها وضعًا جديداً مُفْحِمًا من روح التضحية .

---

(١) كتبت فى أول طيار مصرى قدم إلى مصر من وربا على طيارته ، فى شهر فبراير سنة ١٩٣٠ ، وهو الطيار صدق وطيارته فائزة ، وكان مقدمه يوماً مشهوداً .

(٢) كناية عن السحاب .

(٣) كناية عن أجواز الفضاء .

(٤) نواحيها ، جمع عنان (بالفتح) .

(٥) كناية عن طبيعة الشتاء ، من الغيم والصحو وما بينهما .

وطرتَ بين حياةٍ وموتٍ فجعلتَهما يستويان فى اعتقادك ؛ إذ وصلتَ فكرةَ الموت بسرّ الإيمان ، والحياةَ بسرّ العزيمة .

وكنتَ رَجُلَ أُمَّتِك بإنكارِ ذاتِ نفسك من أجلها .

واتسعْتَ للتاريخ بوضعكَ عُمرَكَ المحدودَ على الطيارة ، وقذفكَ بها وبه فى مَسْبَحِ الأجل .

وتجردتَ للأبدية لتُعطىَ بلادَك : إما شهيدَ مجدٍ فى الآخرة ، وإما شهادةَ فخر فى الدنيا .

وكنتَ على طيارتك الصغيرة المُتَطارِدَةِ تحتَ الريح ، وحولكَ رُوحُ الهَرَمِ الأكبرِ القائمِ بإرادة مصرَ وكأنهُ مِسْمارٌ مدقوقٌ فى كُرَةِ الأرض بين القُطبِ والقطب .

* * *

وأنتِ يا « فائزة » ، يا هذه الصغيرةُ الخارجةُ من مالِ صاحبها وجُهدِه وعزيمته كما تخرجُ القوة من ضَعف ، أعلمتِ إذ أنتِ ترتفعين وتهبطين بين السحُب كما تتواثبُ الفَراشةُ على النوّار فى رَوضة مُزهرة ،

وإذا أنتِ تَفْتُقين وتحُوكين فى مُلاءةِ السحاب كأنك بمُحَرِكِك الدوّارِ تَنْسجين فى السماء بمِغزَل ،

وإذ أنتِ بين صَفْقِ الرياح الهُوجِ[١] ، تحت السماء المُدَجَّجَةِ[٢] ، فى كبّةِ الشتاء[٣] ، كأنّكِ مناظَرةٌ تجرى بين العزيمةِ فى الإنسان والعزيمةِ فى الطبيعة ،

وإذ أنتِ بين ذئابِ الأعاصيرِ ، ونُمورِ السحابِ[٤] ، وسباعِ الغيم ذواتِ اللِّبْدة الكثيفةِ المُتَشَعّثَةِ ، كأنك بصوتكِ وأزيزكِ تُطلقين على وحوش الجو مِدفعًا رشاشًا يتركها صَرْعَى ،

---

(١) اضطراب الرياح المتقلبة .

(٢) المتغيمة .

(٣) كبة الشتاء : شدته ودفعته .

(٤) يقال : ريح متذئبة ؛ إذا كانت تجىء من هنا مرة ومن هنا مرة كما يساور الذئب ، فوضعنا من هنا كلمة ذئاب الرياح ، . والنمر من السحاب : قطع صغار متدان بعضها من بعض ، تشبيهاً بجلد النمر ، فوضعنا منها نمور السحاب .

وإذ تراكِ الريحُ فتقول عنكِ : ريحٌ صنعها الإنسان. ويراك النجم فيقول : نجمٌ أفلتَ من النظام الأرضى . وتراكِ الملائكة فتقول : ويحكِ يا ابنَ آدمَ ، كأنك بما خلَقَه العقلُ تطمعُ منا فى سَجْدَةٍ أخرى كالتى سجدناها لآدمَ يومَ خلقهُ الله .

. . . أعلمتِ إذ أنتِ كذلك يا « فائزة » ، أن التاريخَ المصرىَّ سيحوّلكِ من طيارة إلى آيةٍ كآيةِ بَدْءِ الخَلْق ، لأن فيكِ بَدْءَ الطيَران فى مصر ؟

* * *

سلامًا يافاتحَ الجو المصرى . لقد أجالت الأيامُ قِداحَها فخرجتْ القُرعةُ عليك ، وأوحَى إليك الواجبُ آيةَ : بسم الله مَصْعَدُها ومَجراها .

وطرتَ فإذا أنت بها عابرٌ فوق الحاضر لتجيئنا من جانب المستقبل .

وهبطتَ علينا كأنك فى بَريد السماء كتابُ مَجْدٍ حَىٍّ للوطنية الظافرة .

بل كتابُ قصةٍ رائعة ألّفتْها العواصف من فنَّين : ثورةِ الجو وثورةِ نفسك المصرية . وحكَتْها فى صوتين : زَفيفِ الطيارة وصَرْخةِ ضميرك الوطنى . وجعلتْها فصلين : أنت والمجهول . ألاَ حسبُك مجداً أن يحيا الشعبُ كلُّه بضعةَ أيام فى قصتك !

* * *

فعلى مَهْدِ الجو ، وفى حَرير الشعاع ، وتحت كِلَّةِ السحاب — وُلِدَ لمصر يومٌ تاريخى .

وخرجت التهانئُ التى طال احتباسُها فى القلوب المصرية لايُفْرَجُ عنها لأن سجَّانَها ظُلْمُ السياسة .

واتجهتْ أفراحُ شعبٍ كامل إلى الفتى الجرىء الذى رَمَتْ به همّتُه فوق هاويةِ الموت فتخطاها .

وتلقى شعورُ الأمة رسولَه المِقدامَ الذى لم يكن له ملجأ فى خِطارِه إلاَّ شعورَه بهذه الأمة .

وارتجّ الوادى كلُّه كأنهُ غمدٌ يتقلقلُ حين يُسَلُّ منه السيف .

ثم أهديتْ كلمةُ مصرَ لابنها الذى كتبَ فى جوها الكلمةَ السماويةَ الأولى .
وكانت ساعةٌ تلاشى عندها الزمنُ فارتفعت منه أربعة آلاف سنة وهتَف معنا
الفراعنة : بوركتَ يا « صدقى » !

* * *

لله درُّك أيُّما ابنِ عزيمة ! كأنما كشفتَ أهاويلَ الوحْى وهبطتَ فى
سحابة مُجَلْجِلَة إن لم تحملْ كتابًا مُنْزَلا فكأنما حملتْ شخصًا منزلاً .

ولعلك رسولُ الغَيْمِ العابسِ لهذا الجوِّ المصرىِّ الذى يضحكُ دائمًا ضحكةَ
الفيلسوف الساخر فى حين أصبحت الحياةُ قوةً لا فلسفة . . .

ولعلك مبعوثُ البرقِ والرعدِ لهذا السكونِ النائم الذى يطوى كلَّ يوم فى
طىِّ النسيان ما حَدَثَ فى اليوم الذى قبله . . .

ولعلك نبىُّ الجِدِّية والمرارة لهذه الحلاوة النيليةِ المُفْرِطة التى كاد منها
الشعبُ أن يكون سُكَّرَ أخلاق يُذابُ ويُشْرب . . .

ولعلك تفسيرٌ مصحِّحٌ لعقيدتنا المغلوطة فى القضاء والقدر ، أنَّ القضاء أنْ
تُقْدِمَ بلا خوف ، وأن القدر أن تَشُقَّ بلا مبالاة .

أما واللهِ لقد غمرتَ الشعب بموجة هواءٍ جديدة جئت بها فى جناحيك .
ونفختَ روحَ طيارتك المجيدةِ فى القلوب فجعلتها كلَّها ترفرفُ كأن لك فى
ضلوع كلِّ مصرىٍّ طيارة .

أجنحة المدافع المصرية[١]

استَجْنِحِي[٢] يامَدافعَ مصرَ وطيرى . إن المجدَ يطالبُ منا إنسانَهُ البرْقيّ .

لقد مَدَّتْ لغةُ القوة فى هذا العصر مَدَّها حتى أصبح الطَّيرانُ بعض معانى المشْى ، ولم يَعد العالَمُ يدرى كيف تكون الصورةُ الأخيرةُ التى يستقرُّ فيها معنى إنسانه .

فَلْتَتَمَجَّدْ مصرُ بإنسانِها البَرقيِّ الذى تَخرجُ النارُ بيده من أعْراضِ السحاب ، وتُفَرقِعُ فى أصابعهِ هزّاتُ الرّعد ، ويجعلُ فى قُبّة السماءِ صَلْصَلَةً وجَلْجَلَةً ، ويحمل الاسمَ المصريَّ إلى مُعَلَّقِ النجم ، فيضعُ له هناك التعريف الناريَّ الذى وضعتْه الدول العظمى لأسمائها .

ولتتمجدْ مصرُ بإنسانها البرقيّ الذى يُشْعِرها حقيقةَ العلوِّ العالى ، والعُمقِ العميق، والسَّعَةِ التى لا تُحدُّ ؛ ويزيدُ فى معانى أحيائنا معنًى جديداً لأحياءِ السُّحُب ، وفى معانى أمواتنا معنًى جديداً لموتَى الكواكب .

إنسانٌ برقيٌّ يتممُ بشجاعته فى السماء بُطولةَ فلاّحنا الإنسانِ الشمسيِّ فى الأرض ، ويعلو بكبرياءِ مصرَ فى ذِرْوة العالَمَ ، فتظهر طيّاراتُها العظيمةُ قدرةً فى الجوّ كما ظهرت آثارُها العظيمةُ قدرةً فى الثّرى .

إنها مصر ، مصرُ القادرةُ التى سَحَرت القِدَم بقوتها وفنّها ، فبَقِىَ فيها على حاله وجلالته ، وانهزم الدهرُ عنهُ كأنه قوةٌ على قوة الزمن نفسِها .

فاستَجْنِحِى يا مدافعَ مصر وطيرى . إن المجد يطلب منا إنسانَه البرقى .

* * *

ولما فُتح السِّجِلُّ ذاتَ صباحٍ لتكتبَ مصرُ أسماء الفَوْج الأول من نُسُورها الحربيين ، صاح مجدُها الخالدُ من أعماق التاريخ :

---

(١) كتبت فى احتراق أول طيارة حربية مصرية فى قدومها إلى مصر من أوربا ، وقد احترق فيها الشهيدان : (حجاج ودوس) ، وذلك فى شهر ديسمبر سنة ١٩٣٣ .

(٢) أى اتخذى الأجنحة ، ولم تأت الكلمة فى اللغة بهذا المعنى ، ولكنا استعملناها فيه قياساً على كلامهم .

« أضْرِمى الشّعلةَ الآدميةَ الأولى يا مصر ، وافتحى القبرَ الجوىَّ الأول ، وألحِدى فيه من عنصرَيك المسلمين والأقباط ، وضَعى الحياةَ فى أساسِ الحياة ، واستقبلى عصرَك الجديدَ بأذانِ المسجد ودقِّ الناقوس ليباركَه اللهُ ، ولْيتاقَ الشعبُ أولَ طيّاريه بقلوب فيها رُوحُ المعركةِ ، وأكبادٍ عرفت مَسَّ النار ؛ ولا ينظرَنّ إلى طياراته الأُوَل إلا بعد أن ينظر النعشين فيرى مجدَ الموت فى سبيل الوطن ، ، فتسطعَ نظراتهُ ببريق الكبرياء ، ولَمعةِ العزيمة ، وشُعاعِ الإيمان ؛ ويأتَلِقَ فيها النورُ السماوىُّ الذى يجعلُ الناسَ فى بعض ساعاتهم كواكب ، نورُ صلاةِ الشعب على موتاه الشهداء » .

واستجاب القَدَرُ لصوت المجد ، فالْتَجَّ الظلامُ فى وَضَح الصبح ، وانطفأ سِراجُ النهار فى قبة الفلك ، وأطْبَقَتْ نواحى الجوِّ إطباقَ ليلةٍ تَساقَطَتْ أركانُها وأقبل الضبابُ يَعترِضُ اعتراضَ جَبَل عائم يتَذَبْذَبُ فى بحر ، واستأرَضَ السحابُ فتَخلَّى عن طبيعته السماوية الرقيقة ، وتذامرَتْ العناصرُ على القتال يَحُضُّ بعضها بعضًا ، وتغشَّت السماءُ بوجه الموتِ : كلَّحَ فاربَدَّ وانتفَخ ، وتكسَّرَتْ فيه الغُضونُ كل غَضَنٍ كِسْفَةُ ظلام ، وعاد أوسعُ شىءٍ أضيقَ شىء ، فكان الفضاء كصدر المحتضَرِ : ليس معه إلاّ عمرُ ساعةٍ وأنفاسُها .

وابْتَدَرَتْ إلى مجد الموت الطيارةُ المصريةُ الأولى ، وكان فيها إنكليزيان يقودانها فأباها الموتُ ، فذهبتْ فانتحرتْ أسفًا وتردتْ متحطمة ، وانسلَّ الرجلان من مخالب الردى ، وكانا فى الطيارة كورقتين من النَّبْت فى فَم جَرادةٍ همَّتْ تَقْضِمُهما . . .

وتَستَبِقُ الثانية فإذا فيها وَديعة الكرم من عُنْصُرَى مصرَ : « حجَّاج ودوس »[١] وكان سرًّا من أسرار مصر اجتماعُهما فى مَداحِضِ الغَمام ومزالقِه ، ليكونا هديةَ مصرَ الأولى إلى مجدها الحربى ، ثم ليكونا هديةَ المجدِ إلى إحساس هذا الشعب يُحِسُّ منهما العالمَ المنطوىَ له فى مستقبل النصر .

---

(١) هما فؤاد حجاج ، وشهدى دوس ؛ وكان فى الطيارة الأخرى التى تحطمت المستر بليت ، والمستر سميث .

واعتسفتْ طيارة الشهيدين طريقَ الفناء ومتاهةَ الحياة ، فذهبتْ عنها معارفُ الأرض ، وعُميتْ عليها معالِمُ السماء ، وخرجتْ من تصريف أيدى البطلين إلى تصريف أجلهما ، وأصبحت كأنها تطير فى الأنفاس الباقية لهما ؛ فما تتقدمُ ولا تتأخر ؛ ولم تكن طيارةً تحملهما ، بل جناحاً ممدوداً لهما من رحمة الله .

ثم اجترَّها الموتُ إلى غَوْر ، فانحطَّتْ من الهواء جانحةً كالطائر يطلبُ ملجأً فى العاصفة ، ثم انتهضتْ واثبةً ، وتمطَّرتْ منقلبةً ، فاشتعلتْ فاستعرت فأنضجتْ راكبَيْها ، رحمهما الله !

وكثيراً ما يكونُ منظرُ الحزن فى الحياة هو انهماكَ الحياة فى عمل جديد تُبدعُ منه السرورَ والقوة . احترق البطلان لتتسلَّمَ مصرُ فى نعشيهما رَماداً لن يُبْنَى تاريخُ العزّةِ الوطنية إلاّ بهِ .

فاستجْنِحى يا مدافعَ مصر وطيرى . إن المجدَ يطلب منا إنسانَه البرق .

* * *

صنعت النارُ الآدميةُ الحقيقة ، ووضعت لنا الاسمَ البديعَ الذى نُطلقُه على طيّارينا الأبطال ، فلا تُسمّوهم نُسُورَ الجو ، ولكن سمّوهم « جَمَرات الجوّ »

صنعت نارُنا الحقيقة ، وأوحتْ إلينا أن نستبدل من أنفسنا حالةً بحالة ، وأن نُفاجئ شعورَنا الحالم فنصدمَه بآلام اليقظة المرّة ، وأن نغيِّر قاعدةَ الحياة فى التربية المصرية فلا تكون : العيشَ العيشَ ، ولكن القوةَ القوة .

صنعت النارُ الحقيقة ، وأثبتت لنا أن الحياة إن هى إلا أداةٌ للحى ، وليس الحىُّ أداةً للحياة ، فليتصرَّفْ بها على قوانين الروح وآمالها فيسمُوَ وتسمو ، ولايَدَعْها تتصرفُ على مذاهب أقدارِ المادة وتصاريفها فيُذلّها وتُذلّه . وفى قانون الروح : لاقيمةَ لعالَمِ الأشياءِ إلاّ كما تَصْلُحُ لنا ؛ وفى قانون المادة وضَغْطَةِ الحياة : كما تَصْلُحُ لنا وكما نصلُحُ لها . . .

بلَى ، قد صنعت النارُ الآدميةُ الحقيقةَ ، وأعطتنا قصةَ الحرية كاملةً فى معنىً واحد : وهو أن هذه الحريةَ لعاشقيها كأجمل الجميلات للمتنافسينَ عليها : جمالُها متوحش ، وخلاَعتُها مُفْتَرِسة ، وظَرْفُها سفّاكٌ للدم .

فاستجْنحِي يا مدافعَ مصرَ وطيرى . إن المجدَ يطلب منا إنسانَه البرق .

* * *

وإلى السماء يا « جمَرات الجو » ، فإذا استويتم على السحاب ، فليست الطيارةُ ثَمّ طيارةً ، بل حقيقةٌ حيةٌ عاملةٌ للمجد ، فلتحملْ معناها المصرىَّ من بطَلها المصرى .

وإذا سبحتم فى مَهْبِط القدَر ، فليس الطيَّارُ ثَمّ طياراً ، بل حياةٌ عبقريةٌ أرسلتها مصرُ تستنزلُ للحياة أقداراً سعيدة .

وإذا خُضتم فى المعْرَكِ الضَّنْكِ تتبعثَرُ فيه الآجالُ على الرياح ، فليس الجسمُ المصرىُّ هناك من لحم ودم ، بل ناموساً طبيعيا ماضياً إلى غاية .

وإذا تَقاذَفتم فى بحر الشمس ، فأنتم هناك على شِباكٍ طرحتموها لصيدِ أيام مضيئة تلتمعُ فى تاريخ مصر .

وإذا نفذتم من أقطار السماوات ، فانظروها بأعينكم معالىَ مصر ، وافهموها بقلوبكم ذاتيةَ الوطن المصرىّ تعلو وتعلو ولاتزال أبداً تعلو .

إنما الطيارةُ وسلاحُها وطيَّارُها تأليفٌ من الإنسانيةِ والعناصرِ ، معناه فى العزيمة « لابدَّ » . ومتى هَدَرَت الطيارةُ هَديرَها فإنما تقول للبطل منكم : هَلُمّ من عالٍ إلى أعلى ، إلى أكثرَ علوًّا ، إلى أقصى حدودِ الواجب على النفس حين يأخذ الواجبُ الكلّ وحين تعطى النفسُ الكل .

فاستجْنحى يا مدافعَ مصر وطيرى . إن المجدَ يطلب منا إنسانَه البرق .

الطماطم السياسى . . .

كان (م) باشا * رحمه الله داهيةً من دهاة السياسة المصرية ، يلتوى مرةً فى يدها التواء الحبل ، ويستوى فى يدها مرةً استواء السيف ، ولا يُرى أبداً إلا منكمشاً متحرّزاً كأن له عدوًّا لايدرى أين هو ولامتى يقتحمُ عليه ، ولكنه كغيره من الرؤساء الذين كانوا آلاتٍ للكذب بين طالبِ الحق وغاصبِ الحق – يعرف أن عدوّه كامنٌ فى أعماله .

وكان ذكيًّا أريبًا ، غيرَ أن مُلابَستَه للسياسة الدائرةِ على محْورها ، جعلت نصفَ ذكائه من الذكاء ونصفَه من المكر ؛ فكان فى مُراوغته كأن له ثلاثةَ عقول : أحدُها مصرىّ ، والآخرُ إنجليزى ، والثالثُ خارجٌ من الحالين .

وبهذا تقدّم وعاش أثيراً عند الرؤساء من الإنجليز ، واستمرت مجاريه مُطَّردةً لديهم حتى بلغوا به إلى الوزارة ، إذ كان حسَنَ الفهم عنهم ، سريعَ الاستجابة إليهم ؛ يفهمُ معنى ألفاظهم ، ومعنى النيَّةِ التى تكون وراء ألفاظهم ، ومعنىً آخرَ يتبرعُ هو به لألفاظهم . . . فكان هو وأمثالُه فى رأى تلك السياسة القديمة ، رجالاً كالأفكار : يوضع أحدُهم فى مكانه من الحكم كما توضعُ صيغةُ الشكّ لإفساد اليقين ، أو صيغةُ الوهم لتوليد الخيال ، أو صيغةُ الهوى لإيجاد الفتنة .

* * *

وكان صديقى (فلان) رحمه الله صاحبَ سرّه (السكرتير)، وقد وثقَ به الباشا حتى إنه كان يُعالِنُه بما فى نفسه ، ويبثُّه همومَه وأحزانَه ، ويرى فيه دنيا حرَّةً يخرجُ إليها كلما ضاقت به دنيا وظيفته ، ويستعيرُ منه اليقينَ أحياناً بأنه لا يزال مصريًّا لم يتمَّ بعدُ تحويلُه فى الكرسى . .

فحدثنى الصديقُ بعد موت هذا الباشا قال : إنه دعاه يوماً ليُفاتِحَه الرأىَ

* انظر « عود على بدء » من كتاب « حياة الرافعى » .

فى أمر من أموره ، ثم قال له : إن الرئيس الإنجليزى غيرُ مطمئن إليك لأن حقيقةً من الحقائق الصريحةِ ظاهرةٌ على وجهك ، فأنت تنظر إليه وكأنك تقول له بعينيك إنك مصرىّ مستقل .

قال صاحب السر : لئن كان ذلك ما يغضبه إن الخطْبَ لهيّن . فلستُ أنظر إليه بعد اليوم إلا من وراء نظارة سوداء . . .

فضحك الباشا وقال : يا بنىّ ، هذا الإنجليزىُّ عندنا كالشيطان : « إنه يراكم هو وقَبيلُه من حيث لاتَرَونهم » ، ووالله يا بنىّ إنى لأشدُّ أنفةً منك ، وإن صدرى لشَجِىٌّ مما أنا فيه من هذا الكرب ، ولكننا نحن الشرقيين قد ضِعنا منذ فقدنا الشخصيةَ الاجتماعية .

أتراك تفهم شيئًا لو قلتُ لك : رجلٌ ، أسد ، جبلٌ ، مدينةٌ ، أسطول ؟ إن تركيبنا الاجتماعىَّ شىء كهذا الكلام : فيه من ضخامة اللفظ بقدر ما فيه من انحلالِ المعنى واضمحلاله . ولكل كلمة إذا أفردتْ معنى صحيحٌ يقوم بها وتقومُ به ، غيرَ أنه يتحول فى الجملة إلى معنىً كَلاَ معنى .

أصبح الشرقىُّ يعيشُ فى أمته على قاعدةِ أنه منفردٌ لاصلة بينه وبين الأطرافِ لا فى الزمان ولا فى المكان ، ونسىَ معنى الحديث الشريف : « اعملْ لدنياك كأنك تعيشُ أبداً » . فماذا كان يريد أعظمُ المصلحين الاجتماعيين من قوله : « كأنك تعيش أبداً » ؟ إلا أن يقررَ لأمته أن الفردَ ينبوعُ الأجيالِ المقبِلة كلِّها ، فليعملْ لها ولنفسه كأنها موقوفةٌ عليه وكأنه مستمرٌّ فيها .

هذه حكمةٌ إسلامية دقيقةٌ ، عندنا نحن لفظُها ولسنا نعرف معناها ، وعند الإنجليز معناها ولايعرفون لفظها . أهُم المسلمون أم نحن ؟

وعلى قاعدة الانفراد انفردَ كلُّ شىء ؛ فآثر الشرقىُّ حياتَه على وطنه ، وقدَّم لذتَه على واجبه ، وتعامَلَ بالمال فى مواضع المعاملةِ بالأخلاق ؛ وكان طبيعيًّا مع هذا أن يَختصر الدينَ اختصاراً يجعله مقداراً بين مقدارين ، فلا هو دينٌ ولا هو غيرُ دين ؛ وبذلك يناسبُ فرديتَه ويقعدُ تحت حُكمِه وهو خارجٌ عليه ؛ فترى الرجلَ من هذه الملايين يؤمن بالله وهو يَحلِفُ به كذبًا على درهم ، ويصلى ويَفْجُر فى يوم واحد ، ويتعبَّد فى نفسه ويخونُ سواه فى وقتٍ معًا .

ومتى كانت الحالةُ النفسيةُ للأمة هى هذه الفرديةَ ومصالحَها ودواعيَها ، كان الكذِبُ أظهرَ خِلالِ هذه الأمة ، إذ هو انفرادُ الكاذب بحظه ومصلحته وداعيته ؛ ولايكذبُ عليك إلا من يرجو أن تكونَ مغفلاً ، أو من قدَّر فى نفسه أن المعاملةَ العامةَ فى الأمة هى على قاعدة المغفلين . . . ويكذبون فى هذا أيضًا فيسمونه حِذاقةً وبراعة (وشطارة) .

وإذا عمَّ الكذِبُ فشا منه الهزل ؛ فكلُّ كاذبٍ هازل ، وهل يَجِدُ الكاذبُ وهو يكذبُ إلا إذا كان مجنونًا ؟ ومن الهزلِ ضَرْبٌ هو المباسطة بالكذب ، ومنه ضربٌ من كذب الحقائق ، ومنه مِن كذب الخيال ، وكيفما دارتْ الحالُ لاتجده إلا كذبًا .

ومتى صار الكذِبُ أصلاً يعْمَلُ عليه ، تقرَّر عند الناس أن الكلامَ إنما يقالُ ليقالَ فقط . أفلستَ ترى الرجُلين إذا أخبر أحدُهما صاحبَه بالخبر فيه شىءٌ من الغرابة أو البعد ، لايكلمه الآخَرُ أولَ ما يتكلم إلا أن يسأله : صحيح ؟ صدق ؟

ولا أضرَّ على الأمة من هذه العقيدة — عقيدةِ أن الكلامَ يقالُ ليقالَ فقط — فإنها هى طابَعُ الهزل على أخلاقِ الأمة ، وعلى كل أحوالها ، وعلى حكومتها أيضًا .

ومن الهزل والكذب ترانا مبالغين فى كل شىء ، حتى ليكونُ لنا الواحد كالآحادِ فى غيرنا فنجعلُه مائةً بصِفْرين ، نجىء بأحدهما من اعتيادِنا الكذبَ على الحقيقة ، ونجىء بالآخَرِ من حقيقةِ إفلاسنا .

هذه مبالغةٌ خطرة ، وأخطرُ ما فيها أننا بها نريدُ المبالغةَ فى الدَّلالة على الأشياء ، فتنقلب مبالغةً فى الدلالة علينا نحن ، وعلى كَذِبِ طباعنا ، وعلى فَوضى العقل فينا . نعم وحتى تُثبتُ أننا لاعزمَ لنا ، من كونها مبالغةً لا تدقيقَ فى معناها ؛ وأن لاصبرَ لنا ، من أنها لاثباتَ لحقيقتها المهزومة ؛ وأن لاشدَّةَ لنا فى طلب الحق ، لأننا بها من أهل الغَفلةِ فى وصف الحق ؛ وأننا لانتمثلُ العواقبَ إذ نُرسل الكلامَ إرسالاً ولا نخشى ما يكونُ من عاقبته .

وأيسرُ ما يُفهم من هذه المبالغات التى أصبحت طريقةً من طرق الشعبِ فى التعبير ، أن هذا الشعبَ لايصلح فى شىء إلا بالحكومة ، فهو نفسُه

كالمبالغة ، والحكومةُ له كالتصحيح ؛ وهذه هى العلةُ فى أن الشعبَ الكذوبَ يلجأ إلى حكومته فى كل كبيرة وصغيرةٍ فى العمل ، كما أنها هى العلةُ فى أن حكومتَه تكذبُ عليه بكل صغيرةٍ وكبيرةٍ فى السياسة .

ومن أثر الكذبِ الشعبىّ والمبالغةِ الشعبية ، ما نراه من اهتمام كل فرد بما يقول الناسُ عن أعماله ، فيديرُها على ذلك وإن قلَّت منفعتُها ، وإن فسَدت حقيقتُها ، وإن جلَبتْ عليه من الضرر فى ماله ونفسِه ما هى جالبة ؛ فقاعدتُهم هى هذه : ليس الشأن فى الحياة للعمل فى نفسه ، ولكن فيما يقالُ عنه ؛ فإن لم يُقَل شىء فلا تعملْ شيئًا . . . .

هذه يا بنى أمةٌ لايكون حكّامُها إلا مبالغاتٍ أيضًا . . .

* * *

قال صاحب السر : وارتفع من الطريق صوتُ بائعٍ ينادى على سِلعته : أحسن من التفّاح ياطماطم . . .

فضحِكَ الباشا وقال : هكذا يقولون لنا عن الطماطم السياسى العفِن : إنه ليس تفاحًا وحَسْبُ ، بل هو أحسنُ من التفاح . . .

إن الأمةَ لن تكونَ فى موضعها إلا إذا وضعت الكلمةَ فى موضعها ، وإن أولَ ما يدلُّ على صحة الأخلاق فى أمة كلمةُ الصدقِ فيها ، والأمةُ التى لايحكمها الصدقُ لاتكونُ معها كلُّ مظاهر الحكم إلا كذِبًا وهزلاً ومبالغة .

البك والباشا

وحدثنى صاحبُ سرّ (م) باشا قال : جاء يومًا إلى زيارة الباشا رجلٌ دخل علىّ متهللاً مُشْرِقَ الوجه كأنه مُضَاءٌ من داخله بشمعة . . . ويترنّح عِطْفاه كأنما تهزّه أسرارُ عظَمته ؛ ويمشى متخلّعًا كالمرأة الجميلة التى أثقلها لحمُها وأثقلتها المعانى الكثيرةُ من أعين الناظرينَ إليها ، وعلى شفتيه خيالٌ من فكرةِ هؤلاء الكبراء المغرورين الذين لا يأمرُ أحدُهم رجلاً صغيراً إلا ليُعْلِمَهُ أنه هو كبير . فيكونُ فى الأمر شيئان : الأمرُ واللؤم ؛ وأقبل علىّ فى هيئة شامخة لو نطَقت لقالت : سَبِّح اسمَ ربِّك الأعلى . سبّح اللهَ الذى خلق فى الأسَدِ شعرةً جبّارة خرج منها الأسَدُ كلُّه . . .

سُبحانَ اللهِ ولا إله إلا الله . هذا (فلان باشا) الذى قرأتُ فى الصحف أمس أنهم أنعموا عليه برتبة الباشوية ؛ خلقه الله من تراب وحوّلت الرتبةُ هذا الترابَ الذى فيه إلى ذهب خالص . . . ينظرُ إلىّ وبرغْمه أن تقَفَ عيناه علىّ وعلى الحائط ؛ ولاتجدُ نفسُه المزهوّةُ سبيلاً إلى التعبير عن الرتبة إلا هذا الازدراءَ المنبعِث من شخصه العظيم لمن لم يكن كشخصه . ما بين أمسِ واليومِ زاد هذه الزيادةَ الآدمية ، أوكأنما كانت صورتُه خطوطًا فقط فوُضِعَتْ فيها الألوان . . .

(باشا) ! هذه الباء وهذه الألفُ وهذه الشينُ الممدودةُ ليست حروفا خارجةً من الأبجدية العامة ؛ فإن الأبجدية قد تجعلُ الباء فى بليد مثلاً ، والألفَ فى أبله ، والشينَ الممدودةَ فى شاهد زُور مثلاً مثلاً . . . بل تلك حروفٌ من حروفِ الدولة ، منتزعةٌ من قوةٍ قادرةٍ على أن تجعلَ لحياة صاحبها من الشكل ما يُسْبِغه الفنُّ على الحجَر من شكل تمثالٍ يُنْصَبُ للتعظيم .

قال : وكنت أعرفُ هذا الرجلَ ، وهو رجلٌ أمىٌّ لايُحسن إلا كتابَةَ اسمه كما تكتبُ الدّجاجةُ فى الأرض . . . فكانت الرتبةُ عليه كإطلاق لفظ الحديقة على صخرةٍ من الصخور الصّلْدة ؛ وهذا مما يحتملُه المجاز بعَلاقة ما ؛ ولكنّ الذى لايَسُوغُ فى المجاز ، ولا فى مبالغات الاستعارة ، ولا فى خُرافات المستحيل ،

أن تزعمَ الصخرةُ للناس أن لفظَ الحديقة الذى أطلق عليها قد أنبتَ فيها أشجارَ الحديقة . . . .

* * *

قال صاحبُ السر : واستأذنتُ له على الباشا فسهَّل له الإذنَ وقال : هذا رجل أصبح كالورقة المبصومة بخاتَم الدولة ، فلتكنْ ما هى كائنةٌ فإن لها اعتبارَها . ثم تلقَّاه تلقِّىَ الهازلِ المتهكِّم وقال له : أهنئك بالنَّحْوِى ... مُبَارَكون يا باشا . . . وأقبل عليه وبَسَطَ له وجهَه .

وكان فى الباشا دُعابَةٌ ظريفةٌ يُعرف بها ، وهو كثيرُ النوادر والمُلَح ، وله خَصِيصةٌ عجيبةٌ ، فيكونُ بين يديه كُدْسٌ من الأوراق التى تُعرض عليه ينظرُ فيها ويقرؤها ويتدبَّرها ، وهو فى ذلك يستمعُ إلى محدثه ويُراجعه ويردُّ عليه ، فيُصرِّفُ الناسَ والأوراقَ فى وقت واحد ، ويستعملُ ناحيتين من فكره استعمالاً واحداً لا يُخِلُّ بالإصابة فى شيء من هذه ولا من تلك .

ثم قال للباشا الحديث وعينُه إلى ما بين يديه : هذه أوراقُ سرقة ثورٍ عظيم ، فكم يساوى الثورُ العظيم الآن . . . ؟

قال صاحبنا الذكىُّ الفَطِن : إذا كان من الثيران التى تُعرضُ فى المعارض وتنال المداليات الذهبية فقد يَبْعُدُ سعرُه ويُغَالَى به .

قال الباشا : نعم نعم ، إن من الثيرانِ ثيراناً يُنْعَمُ عليها بالأوسمة ، ولكن هذا الثور الذى سألتك عنه يا باشا هو ثورُ محراث لاثورُ معرض . . .

قال الآخر : إذا كان ثورَ محراث فمثلُه كثيرٌ فلا يكون ثوراً عظيما كما قلتَ وليست له إلا قيمةُ مثله .

قال الباشا : أرانى أخطأت ، ولعن الله العَجَلة ، فهذه أوراق سرقة حمار!

* * *

قال صاحبُ السر : وانصرفتُ عنهما بأوراقى ، وقد رأيتُ يدَ الباشا مملوءةً لصاحبنا بتحيَّات كلُّها صفَعَات ؛ فلم يكن إلا يسيرٌ حتى خرج مبتهجاً يَميدُ السرورُ بعِطْفيه . ثم دعانى الباشا ودفع إلىَّ بِطاقةً بالحاجة التى جاء فيها الرجل ، ثم قال :

يا ليت لنا فى ألقاب الدولة لقبَ (رحمه الله) . . . يُنْعَم به على مثل هذا .

أتدرى يا بنىّ أن هذه الرتبَ وهذه الألقابَ لم تكن فى القديم إلا كوضع علامةِ الشرّ على أهل الشر ليهابَهُمُ الناسُ ، حتى كأنما يُكْتَب على أحدهم من لقب بك أو باشا : مُلْحَق بالدولة . . .

وكان الشعبُ أميًّا جاهلا لا يستطيع الإدراكَ ولا يُحسن التمييز ، فكانت الألقابُ كالقوانين الشخصية الموضوعةِ فى صيغةٍ موجَزة مفهومة متعيِّنة الدّلالة ، وكان كلٌّ من يحملُ لقبًا من الحكومة يستطيعُ أن يقولَ للناس : لقد وضعَت الحكومةُ كلمةَ الأمر فى شفتىّ . . .

وكأن اللقبَ إعلانٌ من الحكومة المستبِدّة لشَعبها الجاهل : إن هذا البك والباشا ممن يحقّ له أن يُحترم .

من الهزل أن يُشترى اسمُ النصر الحربىّ أو يُوهَبَ أو يُعار ؛ وأقبحُ منه فى باب الهزل أن يُنعِم على مثل هذا الأمىّ بلقب باشا . وأنا أعرف أنه قد بذل فى سبيله ما بذل ، وأضاع ما أضاع ، فكأن الذين منحوه إياه لم يفعلوا شيئًا إلا وضعَ توقيعهم على أخْذِ الثمن . . .

ولقد أصبح الرجلُ تحت تأثير الكلمةِ العظيمةِ مخبولاً بسحْرها الوهمىّ ، فحسِبَ ذلك إدخالاً له فى وظيفةِ كل حاكم ، وإشراكاً له فى الحكم متى اقتضتْه مجارى أمورِه وأحوالِه ، أو حاجاتُ أسبابِه وأتباعِه ؛ وها هو ذا قد جاء يطلبُ حقّه ، فإن مثلَه لايفهم من لقب (باشا) إلا أن الحكومةَ قد سوّغَتْ سلطتَه الظهورَ والعملَ ، فمدّتْ باعَه وقوّتْ أمرَه ونوّهتْ باسمه لمصالحها وعمّالها ؛ فهو عند نفسه قد الْتَحَم منذ اليوم بالنسب الحكومى ، وفى كلمة واحدة ، هو قد وُلِدَ من بطن الحكومة . . .

ألا ترى أن الشعبَ لو استردّ سلطتَه الكاملةَ ، وأن الناسَ لو أيقنوا أن الألقابَ ألفاظٌ فارغةٌ من الأمرِ والنهى والوسيلةِ والشفاعةِ ، لما بقى من يَعبأ بها ، ولكان حاملُها هو أولَ من يسخر منها ؟

فهى إذن شَعْبَذَة[1] من الحكومة وتضليلٌ فى مثل هذا الرجل الأمىّ ، وهى ضربٌ من التهويل والمبالغة فى سواه من الكبراء والعظماء ، كأن الوزيرَ

---

(١) الشعبذة والشعوذة بمعنى واحد .

الذى يلقَّب بالباشا ، يجعلُ فيه لقبُه وزيرين ، وكأن مثلَ هذا الأمىّ المغفَّل ، يجعلُ فيه لقبُه شخصًا آخر غيرَ الأمىّ المغفّل . . . .

أنا قلَّما رأيتُ رجلاً يحتاج إلى ألقابٍ يتعظَّم بها إلا وهو لايستحقها ؛ وقلما رأيتُ رجلاً يستحقها إلا وهو لايحتاجُ إليها ؛ فأين يكونُ موضعُ هذه الرتبِ والألقاب ؟

ساكنو الثياب . . .

قال صاحبُ سرّ(م) باشا : وجاءنى يومًا اثنان من شيوخ الدين من ذَوِى هيئاتِهم وأصحابِ المنزلةِ فيهم ، كلاهما هامَةٌ وقَامَةٌ، وجُبَّةٌ وعمامة، ودَرجةٌ من الإمامة ؛ ولهما نسيمٌ يَنفحُ عِطْراً حَسِبتُه من تَرويح أجنحة الملائكة ؛ وعليهما من الوقار كظل الشجرةِ الخضراء فى لَهَبِ الشمس تَفِىء به يَمْنَةً ويَسْرةً . فتوجَّهتُ إليهما بنظرى، وأقبلتُ عليهما بنفسى ، ووضعتُ حواسّى كلَّها فى خدمتهما ، وقلتُ : هؤلاء هم رجالُ القانونِ الذى مادتُه الأولى القلب .

ما أسخفَ الحياةَ لولا أنها تدلُّ على شرفها وقَدْرِها ببعض الأحياء الذين نراهم فى عالم الترابِ كأن مادتَهم من السُّحُب ، فيها لغيرهم الظلُّ والماء والنسيم ، وفيها لأنفسهم الطهارةُ والعلوُّ والجمال ؛ يُثبتون للضعفاء أن غيرَ الممكن ممكنٌ بالفعل ، إذ لايرى الناسُ فى تركيب طباعهم إلا الإخلاصَ وإن كان حرمانًا ، وإلا المروءةَ وإن كانت مَشَقّة ، وإلا محبةَ الإنسانية وإن كانت ألمًا ، وإلا الجدَّ وإن كان عَناء ، وإلا القناعةَ وإن كانت فقراً .

هؤلاء قومٌ يؤلِّفون بيدِ القدرة ، فهم كالكتب قد انطوتْ على حقائقها وختِمتْ كما وُضِعتْ ، لا تستطيع أن تُخرِجَ للناس من حقيقةٍ نصفَ حقيقة ولاشِبهَ حقيقة ولاتزويراً على حقيقة .

وما أعجبَ أمرَ هذه الحياةِ الإنسانيةِ القائمةِ على النواميس الاقتصادية ! فالسماء نفسُها تحتاج فيها إلى سماسرةٍ لعرض الجنَّةِ على الناس بالثمن الذى يملكه كلُّ إنسان وهو العملُ الطيب .

قال : ونظرتُ إلى الشيخين على اعتبار أنهما من بقية النبوَّة العاملة فيها شريعةُ نفسها ، تلك الشريعةُ التى لاتتغير ولا تتبدلُ كيلا يتغيرَ الناسُ ولا يتبدلوا . ثم سألتهما عن حاجتهما ، فإذا أحدُهما قد عملَ أبياتًا من الشعر جاء

يمدح بها الباشا ليزدلفَ إليه ؛ فقلت فى نفسى : « ما أشبهَ حَجَلَ الجبان[١] بألوانِ صخرها ! » هذا عالِمٌ دنيا يحدُّها من الشرق الرغيفُ ، ومن الغرب الدينار ، ومن الشمال الجاه ، ومن الجنوب الشيطان . . . .

ثم نَشَرَ ورقةً فى يده وأخذ يَسْرُدُ علَىَّ القصيدة ، وهى على رَوِىِّ الهاء ، تنتهى أبياتها : ها . ها . ها . فكان يقرؤها شعراً — أو كما يسميه هو شعراً — وكنت أسمعها أنا قهقهةً من الشيطان الذى رَكبَ أكتافَ هذا العالم الدينى : ها . ها . ها . ها . . . . .

* * *

قال صاحبُ السر : وأدخلتهما على الباشا ، فوقف المدَّاح يمدحُ بقصيدته ، وأخذتْ لحيتُه الوافرةُ تهتزّ فى إنشاده كأنها مِنْفَضَةٌ ينفُضُ بها الملَلَ عن عواطف الباشا . . . وكان للآخر صمتٌ عاملٌ فى نفسه كصمت الطبيعة حين تَنْفَطِرُ البذرةُ فى داخلها ، إذ كانت الحاجةُ حاجتَه هو ، وإنما جاء بصاحبه رافداً وظَهيراً يحملُ الشمسَ والقمرَ والليثَ والغَيْثَ ، لتتقلَّبَ الأشياء حول الممدوحِ فيأخذَه السحْر ، فيكونَ جوابُ الشمس على هذه اللغة أن تضىء يومَ الشيخ ، وجوابُ القمر أن يملأ ظلامَه ، وجوابُ الليث أن يفترسَ عدوَّه ، وجوابُ الغيث أن يَهْطلَ على أرضه .

والباشا لايدعُ ظَرفَه ودُعابتَه ، وكان قد لمح فى أشداقِ العالم المتشاعر أسنانًا صناعية ، فلما فرغ من نظمه الركيك قال له : يا أستاذ ، أحسبُنى لا أكونُ إلا كاذبًا إذا قلت لك : لافُضَّ فوك . . . .

ثم ذكر الآخرُ حاجتَه : وهى رجاؤه أن يكونَ عمدةُ القرية من ذوى قرابتهِ لا من ذوى عدواتهِ . فقال له الباشا : ولقريتكم أيضاً أبو جَهْل . . . ؟

* * *

ولما انصرفا قال لى الباشا : لأمرٍ ما جعل هؤلاء القومُ لأنفسهم زيًّا خاصًّا يتميزون به فى الناس ، كأنَّ الدينَ بابٌ من التحرُّفِ والتصرُّف ،

---

(١) هذا مثل عربى ، والحجل : الطائر المعروف ، يكون فى الجبل من لون صخره للعلة المقررة فى التاريخ الطبيعى .

بعضُ آلتِه فى ثيابه ؛ فهؤلاء يسكنون الجُبَبَ والقفاطينَ وكأنها دواوينُهم لا ثيابُهم . . . .

قد أفهمُ لهذا معنىً صحيحًا إذا كان كلُّ رجل منهم محصوراً فى واجباتِ عمله كالجندىِّ فى معانى سلاحه ، فيكون التعظيمُ والتوقيرُ لثوب العالم الدينىّ كأداء التحية للثوب العسكرى : معناه أن فى هذا الثوب عملاً ساميًا أولُه بيْعُ الروح وبذلُ النفس وتركُ الدنيا فى سبيل المجتمع ؛ هذا ثوبُ الموت يُفْرَضُ على الحياة أن تعظِّمه وتجلَّه ، وثوبُ الدفاع تجب له الطاعةُ والانقياد ، وثوبُ القوة ليس له إلا المهابةُ والإعزاز فى الوطن .

ولكن ماذا تصنع الجبة اليوم ؟ إنها تُطْعِم صاحبها . . .

أثرُ الجيشِ معروفٌ فى دفاع الأمم العدوةِ عن البلاد ، فأين أثرُ جيش العلماء فى دفاع المعانى العدوَّةِ عن أهل البلاد ، وقد احتلت هذه المعانى وضربَتْ وتملكتْ وتركتْ هذا العالم الدينىَّ فى ثوبه كالجندىِّ المنهزم : يحملُ من هزيمته فضيحةً ومن ثوبه فضيحة أخرى ؟

أنت يا بنىَّ قد رأيت (الشيخ محمد عبده) وعرفتَه ؛ فرحم الله هذا الرجل ، ما كان أعجبَ شأنَه ! لكأنه والله سحابةٌ مطوية على صاعقة . ولو قلتُ إنه قد كان بين قلبه ورأسِه طريقٌ لبعض الملائكة . لأشْبَهَ أن يكونَ هذا قولاً .

كان يزورنى أحيانًا فأرانى مُرْغمًا على أن أقدِّمَ له مجلسين أحدُهما قلبي . وكان له وجهٌ يأمرُ أمراً ، إذ لاتراه إلا شعرتَ به يرفعك إلى حقيقة سامية[1] .

رجلٌ نبَتَت على أعراقٍ فيها إبداعُ المبدع العظيم الذى هيأه لرسالته ، فعواطفُه كالعِطْر فى شجرة العِطر الشَّذِيَّة ، وشمائله كجمال السماء فى زُرقة السماء الصافية ، ، وعظَمَتُه كرَوْعةِ البحر فى منظر البحر الصاخب . وكثيراً ما كان يتعجبُ من هذا أستاذه (السيد جمال الدين الأفغانى) فيسأله مندهشًا : بالله قل لى : ابنُ أىِّ ملكٍ أنت ؟

(١) وصفنا الشيخ (رحمه الله) فى كتابنا (السحاب الأحمر) واستلهمنا روحه فصلا طويلا تجده هناك .

لم يكن ابنَ ملكٍ ولا ابنَ أمير ، ولكنه ابنُ القوّاتِ الروحيةِ العاملةِ فى هذا الكون ؛ فهى أعدّته ، وهى ألهمتْه ، وهى أنطقته ، وهى أخرجته فى قومه إعلانًا غيرَ كتمان ، ومصارحةً غيرَ مخادعة ، وهى جعلت فيه أسديةَ الأسد ، وهى ألقت فى كلامه تلك الشهوةَ الروحيةَ التى تذاق وتُحَبّ ، كالحلاوةِ فى الحلْوى .

هذا هو العالم الدينى ؛ لابد أن يكونَ ابنَ القوّاتِ الروحية ، لا ابنَ الكتُبِ وحدها ، ولا بد أن يَخرجَ بعمله إلى الدنيا ، لا أنْ يُدخِلَ الدنيا تحت سقفِ الجامع . . .

وأنا فما ينقضى عجبى من هؤلاء العلماء الذين هم بقايا تتضاءلُ بجانب الأصل ؛ يبحثون فى سُنَن النبى (صلى الله عليه وسلم) : كيف كان يأكلُ ويشربُ ويلبس ويمشى ويتحدّث ؛ كأنهم من الدنيا فى قانونِ المائدة ، وآدابِ الولائم ، ورُسومِ المجتمعات ؛ أما تلك الحقيقةُ الكبرى ، وهى كيف كان النبى (صلى الله عليه وسلم) يقاتل ويحارب لهداية الخلْق ، وكيف كان يسمو على الدنيا وشهواتها ؟ وكيف كان بطباعه القويةِ الصريحةِ تعديلاً فعّالاً فى هذه الإنسانية للنواميس الجائرة ؟ وكيف كان يحملُ الفقرَ ليكْسِرَ به شِرّةَ النواميس الاقتصادية التى تقضى بجعل الأخلاق أثرًا من آثار السَّعَةِ والضيق ، فتُخرجُ من الغنىّ متعففًا ومن الفقير لصًّا ؟ وكيف استطاع (صلى الله عليه وسلم) بفقره السامى أن يُحوّلَ معنى الغنى فى نفوس أصحابه ، فيجعله ما استغنى عنه الإنسانُ من شهوات الدنيا وترَك ، لامانال منها وجمَع ؟ أما هذا ونحوُه من حقائق النبوة العاملةِ فى تنظيم الحياة ، فقد أهملوه ، إذ هو لايوجد فى الكُتب وشروحها وحواشيها ، ولكن فى الحياة وأثقالها وأكدارِها ؛ وبذلك أصبح شيوخُنا من الأمة فى مواضعَ لم يضعهم فيها الدينُ ولكن وضعتهم فيها الوظيفة . . .

ألا ليتهم يكتبون على أبواب الأزهر هذه الحكمة : سُئل بعضُ العرب : بِمَ سادَ فلانٌ فيكم ؟ قالوا : احتجْنا إلى علمه واستغنى عن دنيانا . . .

الأخلاقُ المحارِبة

وحدثنى صاحب سرّ (م) باشا بهذا الحديث قال : كنا فى ثورة سنة ١٩١٩ سنةِ الهزاهِزِ والفتَن ، وقد تفاقمت الثورةُ ، وأخذ الشبابُ يعملُ ويفكر فيما يستطيع أن يعملَ ، وما يجب أن يعمل؛ وكان السَّخْطُ العامُّ هو ميراثَ الوقت ، فكانت قلوبُ الشعب تُلهَمُ واجباتِها إلهامًا ، إذ لم يكن فى هذه القلوبِ كلِّها إلا لَذْعةُ الدم تعيِّن اتجاهَ أعمالها وتحدِّده .

كانت الثورة زلزلةً وقعت فى التاريخ ، فجاءت تحت زمن راكد لا يتغير إلا بأن يُنْسَف ، ولا ينسِفُه إلا مادةٌ إلهيةٌ كالحركة الكونية التى تخْرِجُ اليومَ الجديد من اليوم القديم ؛ فكان القَدَرُ يعمل بأيدى الإنجليز عملاً مصريا ، ويعملُ بأيدى المصريين عملاً آخر .

وتعلم الشعبُ من دفْن شهدائه كيف يَستَنْبِتُ الدمَ فَيُنْبِتُ به الحرية ، وكيف يزرع الدمعَ فَيُخرِج منه العزم، وكيف يستثْمِرُ الحزنَ فيثمر له المجد .

وكان رصاصُ الإنجليز يصيب هدَفين معًا : فيصرعُ شهداءنا ، ويقتلُ الموت السياسىَّ الذى احتلَّ معهم هذه البلاد . وقد أنعموا على الشعب بالصدمة الأولى ، فنَشِبَت المعركة التى تُقاتلُ فيها الأخلاقُ القومية لتنتصر ؛ وشعرت مصرُ فى جهادِها بأنها مصرُ ، فالتمس رُوحُها التاريخىُّ رمزَه العظيمَ فى الأمة ليظهرَ فيه عاتيًا جبَّاراً ؛ فكان هذا الرمزُ الجليلُ العظيم هو سعد زغلول .

* * *

قال صاحب السر : وكان الطلبةُ قد غدَوا من أول النهار يتظاهَرون ، وقد جعلتهم الثورةُ كالأرواح تخلَّصت من الموت بالموت فلا تخشاه ولا تباليه ، واستقلَّت عن العقل بتحولها إلى شعورٍ مَحْض ، وخرجتْ عن القوانين كلِّها إلا القانونَ الخفىَّ الذى لايُعلَم ما هو .

كانوا فى معانى قلوبهم لا فى غيرها ، فلستَ تراهم إلا عظماءَ فى عظمة المبدإ الذى ينتصرون له، أقوياءَ فى قوة الإيمان الذى يعملون به ، أجلاّءَ فى

جلال الوطن الذى يحيَوْن ويموتون فى سبيله .

وكانوا فى الشعب هم خيالَ الأمةِ العاملَ المدركَ ، وشعورَها الحىَّ المتوثب ، وقُواها البارزةَ من أعماقها ، وأملَها الزاحفَ ليَقهرَ الصُّعوبة .

يُفَادُون بأنفسهم الغالية ويُؤثِرون عليها ، وليس فى أحد منهم ذاتُه ولا أغراضُ شخصِه . فما أجلَّ وما أعظم ! وما أروعَ وما أسمى ! أيتها الحياة ! هل فيكِ أشرفُ من هذه الحقيقةِ إلا حقيقةَ النبوَّة ؟

* * *

قال : وكان أخى هو زعيمَ هؤلاء الطلبة فى مدينتنا ؛ قوىٌّ على الزَّعامة وفىٌّ بها ؛ يحمل قلبًا كالجمرة الملتهبة ، وله صوتٌ بعيدٌ تحسبُ الرعدَ يُقَعْقِع به . إذا مشى فى جهاده كان كلُّ ما على الأرض ترابًا تحت قدميه ، فلا يمشى إلا محتقِراً هذه الدنيا وما فيها ، غيرَ مقدِّسٍ منها إلا دينَه ووطنَه ؛ وسلاحُه أن كلَّ شىء فيه هو سلاحٌ على الظلم وضدٌّ الظلم .

وكان فى ذلك اليوم يقود « المظاهرة » ، وحوله جماعةٌ من خالِصته وصَفْوةِ إخوانه ، يمشون فى الطليعة تحت جوٍّ متَّقِدٍ كأن فيه غضبَ الشباب ، عنيف كأنما امتزج به السخطُ الذى يفورون به ، رهيب كأنه مُتهيِّئ لينفجر ؛ فلما بلغوا موضعًا من الطريق ينعطفون عنده انصبَّ عليهم المدفع الرشاش . . .

قال : فإنى لجالسٌ بعد ذلك فى الديوان إذ دخل عَلَىَّ أخى هذا ينتفضُ غضبًا كأن المعانى تنبعثُ من جسده لتقاتل ، ورأيتُ له عينين ينظر الناظرُ فيهما إلى النار التى فى قلبه ؛ فخشيتُ أن يكونَ القومُ أطلقوا عليهم الجنون والرصاصَ معًا .

واستنبأتُه خبرَ أصحابه فقال : إن الذين كانوا حوله وقعوا يتشَحَّطون فى دمائهم ، فوقفَ هو شاخصًا إليهم كأنه ميتٌ معهم ، وقد أحسَّ كأنما خَلَع عن جسمه نواميسَ الطبيعة ، فلا يعرف ما هى الحياةُ ولا ما هو الموت ؛ وكان الرصاصُ يتطاير من حوله كأن أرواحَ الشهداء تتلقاه وتُبعثره لا يناله بسوء . قال : وما أنْسَ لا أنسَ ما رأيتُه فى تلك الساعة بين الدنيا والآخرة ؛ فلقد رأيتُ بعينى رأسى الدمَ المصرىَّ يسلِّم على الدمِ المصرىِّ ، ويسعى إليه فيعانقهُ عناق الأحباب .

ثم قال : أين هذا الباشا ؟ وما باله لم يصنع شيئاً فى الاحتياط لهذه الفَوْرة ؟ يكاد الخِزىُ واللهِ يكونُ فى هذه الوظائف على مقدار المرتب . . .

* * *

قال صاحب السرّ : ولم يُتِمّ كلمته حتى خرج علينا الباشا متكَسِّرَ الوجهِ من الحزن قد تغرغرتْ عيناه ، فأخذ بيد أخى إلى غرفته وتبعتُهما ، ثم قال : هَوْنًا ما يا بنىّ ، إن العلةَ فيكم أنتم ياشبابَ الأمة ، فكلٌّ ما ابتلينا أو نُبتلىَ به هو مما يستدعيه خمولكم وتستوجبه أخلاقُكم المتخاذِلة ؛ إننا من غيركم كالمدافع الفارغةِ من ذَخيرتها : لاتَصلُح إلا شكلاً ، وبهذه العلةِ كان عندنا شكلُ الحكومة لا الحكومة .

أتدرى يا فتى ما هى الحكومةُ الصحيحةُ فى مثل حالتنا ؟ هى أن تحكموا أنتم فى الشعب حكومةً أخلاقيةً نافذةَ القانون ، فتضبْطوا أخلاقَ النساءِ والرجال ، وتردُّوها كلها أخلاقًا محارِبةً لاتعرفُ إلا الجِدَّ والكرامةَ وصرامةَ الحق ؛ وإلا فكما تكونون يُوَلى عليكم . . .

هذا وحده هو الذى يُعيد الأجانب إلى رشدهم وإلى الحقيقة ، فما أراهم يعاملوننا إلا كأننا ثيابٌ معلَّقة ليس فيها لابِسوها . . .

كيف يتَصَعْلَكَ المصرىُّ للأجنبى لو أن فى المصرىّ حقيقةَ القوة النفسية ؟ أترى بارجةً حربية تتصعلك لزورق صيدٍ جاء يرتزق ؟

إن فى بلادنا المسكينةِ الأجانب ، وأموالَ الأجانب ، وغطرسةَ الأجانب ؛ لا لأن فيها الاحتلال ، كلا ، بل لأن فيها ضعفَ أهلها ، وغفلةَ أهلها ، وكرمَ أهلها . . . بعضُ هذا يا بنىّ شبيهٌ ببعض ، وإلا فما هو كَرمُ الشاةِ الضعيفةِ إلا لذةُ لحمها . . . ؟

نريد لهذا الشعب طبيعةً جديةً صارمةً ، ينظر من خلالها إلى الحياة فيستشعرُ ذاتَه التاريخيةَ المجيدةَ فيعملُ فى الحياة بقوانينها ؛ وهذا شعورٌ لاتحدِثه إلا طبيعةُ الأخلاقِ الاجتماعية القوية التى لاتتساهل من ضعف ، ولاتتسمَّح من كذِب ، ولاتترخَّصُ من غفلة . والحقيقةُ فى الحياة كالحقيقة فى المنطق : إذا لم يَصْدُقِ البرهانُ على كل حالاتها ، لم يَصدُقْ على حالةٍ من حالاتها ؛ فإذا كنا ضعفاء

كُرماء ، أعزّاء ، سادةً على التاريخ القديم ، فنحن ضعفاءُ فقط . . .

إن الكبراءَ فى الشرق كله لا يصلحون إلا للرأى ، فلا تَسُوموهم غيرَ هذا ، فهم قد تلقّوا الدرسَ من أغلاطهم الكثيرة ، وبهذا لن تُفلحَ حكومةٌ سياسيةٌ فى الشرق الناهضِ ما لم يكن شبابُها حكومةً أخلاقيةً يُمِدُّها من نفسِه ومن الشعبِ فى كل حادثة بالأخلاقِ المحاربة .

يا بنىَّ ، إن القوىَّ لو اتفق مع الضعيف على كلمة واحدة لا تتغير ، لكان معناها للأقوى أكثرَ مما هو للأضعف ؛ فإن هذا القوىَّ الذى يعملُ مع الضعيف يكون فيه دائما شخصٌ آخرُ مختف ، هو القوىُّ الذى يعملُ مع نفسه .

هكذا هى السياسة ؛ أما فى الإنسانية فلا ، إذ يكونُ الحقُّ دائما بين الاثنين أقوى من الاثنين .

خضع يخضع . . .

وقال صاحب سر (م) باشا فيما حدثني به : جاء ذاتَ يوم قنصلُ (الدولة الفلانية) من هذه الدولِ الصغيرةِ ؛ التي لو علم الذبابُ في بلادها أن في مصرَ امتيازاتٍ أجنبيةً ، لطمِعَتْ كلُّ ذبابة أن يكونَ لها في بلادنا اسمُ الطيارة الحربية . . . .

ورأيتُه قد دخل عليّ شامخًا باذخًا متجبّراً ، كأنه قبل أن يجيءَ إلى هذا الديوان لمقابلة الحاكم المصري — قد تكلم في (التلفون) مع إسرافيلَ يأمره أن يكونَ مستعدًّا للنَّفْخ في الصُّور . . . .

جَنَى صُعلوكٌ من رعايا دولته على مصريّ ، فأُخِذَ كما يُؤخَذُ أمثالُه ، وقضى ساعةً أو ساعتين بين أيدى المحققين يسألونه الأسئلةَ الهيِّنةَ اللينة التي تُحيط بتعريفه من ظاهره ، ولا يُشْبِهُهَا في سَخافةِ المعنى إلا أن يسألوه عن ثيابه من أيِّ مصنع هي في أوربا . . . . فزعم القنصل أنه كان يجب أن يكونَ حاضراً يشهدُ التحقيقَ ، لأن جنايةَ أجنبيّ على مصريّ تقع أجنبية . . . فلها شأنٌ ورعايةٌ وامتياز ، وادعى أن المحققين ضايقوا المجرِمَ وعاسروه وتجهّموه بالكلام ، ولهذا جاء يحتجّ .

ورأيته جلس متوقّراً كأنما يشعرُ في نفسه أنه أثْقلُ من مِدفعٍ ضخْم ، لأن في نفسه وَهْمَ القوة ؛ وخيِّل إليّ أنه يرى موضعَه بين السقفِ والأرض ؛ إذ يحملُ في رأسه فكرةَ أنه الأعلى ، وكانت له هيئةٌ صريحة في أن الأجنبيَّ المقيمَ هنا ليس هو كلَّ الأجنبي ، بل لا تزالُ منه بقيةٌ تتمّمُها دولتُه ، وفي الجملة كان الرجلُ كلمةً واضحةً مفسَّرةً تنطق بأن للقانون المصريّ قانونًا يحكمه في بلاده !

وأنا قد درستُ القانون الدولي ، وعرفت ما هي الامتيازات وما أصلُها ، وهي لا تعدو كرَمَ الأرنبِ التي زعموا أنها كانت تملك حماراً تركَبُه وترتَفِقُ به ، فسألتها أرنبٌ أخرى أن تُرْدِفَها خلفها ، فلما اندفع بهما الحمار استبطَأَتْه ،

فقالت لصاحبته : يا أختى ، ما أفرَهَ حمارَك ! ثم سكتت مدة وأعجبها الحمار فقالت : يا أختى ، ما أفرَه حمارَنا . . .

وكنا نحن الشرقيين من الضعف والغفلةِ ؛ بحيث لم نبلغ مبلغَ الأرنب فى حكمتها وتدبيرِها وحذرِها ، فإنها أسرعتْ ودفعتْ صاحبتَها وقالت لها : انزلى — ويلكِ — قبل أن تقولى : ما أفرهَ حمارى .

قال : غير أنى فى تلك الساعة نسيتُ القانونَ الدولى وكنتُ فى إلهام مصريتى وحدها ، فظهر لى ظهوراً بيِّناً أن لاشىء اسمُه القانونُ الحقُّ فى هذه الدنيا ؛ ولكنَّ هناك اتفاقاً بين كل خضوع وكلِّ تسلط ، هو قانونُ هاتين الحالتين بخصوصهما .

وأسرعتُ إلى الباشا فأنبأته ، وأسرع الباشا فغيَّر وجهَه ، وتبسَّط ، وتهلل ، وتهيأ بهذا لاستقبال القادم العزيز ، كأنه أخصُّ محبيه يتطلَّع إلى مؤانَستِه ، وقد جاء يزورُه فى داره . ثم دخل القنصل ، ولم أسمع مما دار بينهما إلا الكلمةَ الأولى ، وهى قول الباشا : لنبدأ يا سيدى من الآخِر . . .

* * *

وكانت فى الباشا موهبةٌ عجيبة فى اختلاب الأجانب خاصة ، يُديرهم بلَبَاقة كالخاتَم فى إصبعه ؛ حتى قال لى أحدهم : إن لهذا الباشا حاسَّةً زائدةً ، لو سُمِّيت حاسةَ الإرضاء لكان هذا اسمَها الطبيعى ، وإنه يعمل بها كما يعمل المفكِّر بتفكيره ؛ فهو يبتكر الأساليبَ الغريبة التى يصعَدُ ويَهبط بها ميزانُ الحرارة النفسية ، وإن جليسَه يكاد يشعر من مَهارته فى التمثيل أن فى جوِّ المكان ستِاراً يُرفع وستاراً يُسْدَل بين الفصول .

فما لبِثَ القنصل أن خرج بغير الوجه الذى دخل به ، ولكنه عبَس فى وجهى أنا وتَكَرَّه لى كأنه أصْغَرَ شأنى ؛ فازدرتْنى عينُه ، فوثبتْ إلى رأسه فكرةُ الامتيازات .

وهذه القوةُ الظالمة (الامتيازات) ؛ لو أنها كانت قوّةً قاهرةً نافذة ، وأُعِينَ بها طُفيْلىٌّ ليقتحمَ دُورَ الناسِ آمنًا مطمئنًا — لاستحى هذا الطفيلىُّ أن يأكلَ بها ؛ إذ تجمع عليه التطفلَ والمَقْتَ معًا . ولو قيل لحُسامٍ بتَّار : إن لك امتيازاً على بعض السيوف ألاَّ تقارِعَك ، وإنك محمىٌّ أن تنالكَ سَطْوتُها

إذا قارعتَها – لأنِفَ أن يسمَّى سيفًا بهذا أو بمثلِ هذا ، فإن القوةَ الظالمةَ التى يُعيرُونه إياها ، ليست إلا مَهانةً لشرفِ القوةِ العادلةِ التى هى فيه .

* * *

قال صاحب السر : ووصفتُ للباشا هيئةَ القنصل التى انصرف بها ، وتقطيبه فى وجهى ، وقلت له : إن الذبابةَ وقعت فى صَحْفتى أنا من هذه الوليمة . . . فضحك بملء فيه ، ثم قال :

ستبطل هذه الامتيازات . وليس بيننا وبين نهايتها إلا أن ينتهىَ الشعب إلى حقيقته القومية ، فما تركها فى مكانتها إلا نزولُ الشعبِ عن مكانته ، وتالله لكأن هؤلاء الأجانبَ يسألوننا بهذه الامتيازات : أين مكانتُكم فى بلادكم . . . ؟

أتدرى ما قاله هذا القنصل حين تجاذَبْنا الحديثَ فيها ، بعد أن وضعتُ نفسى منه فى موضع المحامى الذى يخذلُه الدليلُ ، فيحاولُ أن يستنزلَ كرمَ القضاة بعَرْضِ بؤس المتَّهم على شفقتهم ، ليستعطفَ القانونَ الذى فى أيديهم بالقانونِ الذى فى أنفسهم ؟

إنه قال : لا يلومَنّ الشرقيون إلا أنفسَهم ، فهم علَّموا الأجانبَ أن نتفَ ريشِ الطيرِ أولُ أكلِه . . . وهذه الامتيازاتُ إنْ هى إلا معاملةٌ بيننا وبين طبيعةِ الخضوع فى الشعب . نعم إنها مَضَرَّةٌ ومَعَرَّةٌ ، وظلمٌ وقسوة ؛ ولكنها على ذلك طبيعيَّةٌ فى الطبيعة ؛ فما دام هذا الشعبُ ليِّنَ المأخذِ ، فإن هذا يُوجدُ له من يأخذه ؛ وما دامت الكلمةُ الأولى فى مُعْجَمِ لغته السياسية هى مادة (خضَعَ يَخْضَع) ، فهذه الكلمةُ تحمل فى معناها الواحدِ ألفَ معنى ، منها : ظلَمَ يظلِم ، وركِبَ يركَب ، ومَلَكَ يملِك ، واستبدَّ يستبِدُّ ، ودجَّل يُدجِّل ، وخدَعَ يخدَع ؛ فهل يكثُر أن يكونَ منها للأجانب امتاز يمتاز ؟

* * *

قال صاحب السر : ثم زمَّ الباشا فمَه وسكت : ففهمتُ الكلمات التى انطبق فمُه عليها وإن لم يتكلم بها ، ثم غلبَه الضحك فقال : والله يا بنىَّ لو أن بُرغوثًا طمَر من ثوب صُعلوكٍ أجنبىٍّ ، فوقع فى ثوب صعلوك وطنىٍّ ، فتقاتَلا ،

فقُبض عليهما ، فأخذا — لما رضيَ بُرغوثُ الأجنبيّ أن يحاكم إلا فى المحاكم المختلطة . . .

ثم سكت الباشا مرة أخرى كأنه يقول كلاما آخرَ لايجوز نشرُه ، ثم قال : يا بنيّ ، إن الأجانبَ لايضعون الحمل إلا على من يحمل ؛ فإذا نحن توخّينا مرادَهم أرادوا لأنفسهم لا لنا ؛ وإذا وافقْنا لهم غرضًا جعلوه كالدينار فيه مائةُ قرش ، وأبَوا إلا أن نُصَارِفَهم عليه بمائة . هم — ويحكَ — يمتازون فى معاملتنا لا فى سطورِ القوانين والمعاهدات ، فلنُبْطل هذه المعاملةَ يَبْطُلْ هذا الامتياز .

إن الحقّ يابنى استحقاقٌ لادَعوى ؛ وهذا التنازعُ على الحياة يجعلُ وسائله الطبيعيةَ الانتزاعَ والمطالبةَ والتجردَ له والدأبَ فيه والإصرارَ عليه . وكل الأقوياء يعلمون أن موضعَ الاعتدالِ بين غَصْب الحق وبين استرداده موضعٌ لامكانَ له فى الطبيعة : والأجنبيُّ يعتمد علينا نحن فى جعله أكبرَ منا وأوفرَ حُرمة ؛ فإذا أسقط الشعبُ هذه الامتيازات من فكره وروحه وأعصابه ، وثارتْ فيه كبرياءُ الوطنية فاستنكفَ من الاستخذاء ، ونفر من الاختضاع ، وأبى إلا أن يُعلن كرامتَه ، وصرفَ اهتمامَه إلى حقوق هذه الكرامة ، وأصرّ ألا يعاملَ أجنبيًّا يرى لنفسه امتيازاً على وطنيّ ، وقرر ذلك فى نفسه ، ومكّنه فى رُوعه ، وأجمع عليه إجماعَه على الدين — إذا جاءت (إذا) هذه بشَرْطِها من الشعب ، جاء جوابُ الشرط من الأجانب بنزولهم عن الامتيازات وانحلت المشكلة . إننا يا بنيّ لانملك ضغطَ السياسة ، ولكنا نملك ما هو أقوى ؛ نملك ضغطَ الحياة .

لهم الامتيازُ بأنهم أجانبُ عنا ، فليكن لنا الامتيازُ الآخرَ بأننا أجانبُ عنهم فى المعاملة ، مِثْلاً بمِثْل ، وما يفلّ الحديدَ إلا الحديد .

يقولون : النظام الاقتصادى والمال الأجنبى . ولكن أرأيتَ المالَ فى يد الأجنبى إلا مالاً وتدبيراً وسلطة وسيادة ، من أنه فى يد الوطنى دَيْنٌ وإسراف ورِقٌّ وذل ؟

لم يظهر لى إلا الساعةَ أن من حكمةِ تحريم الربا فى شريعتنا الإسلامية ، وِقايةَ الأمة كلِّها فى ثروتها وضياعِها ومُستغَلاّتها ؛ وحمايةَ الشعبِ وملوكهِ من

الإسرافِ والتخرُّقِ والكرمِ الكاذبِ ، وردَّ الاستعمار الاقتصادى ، وشلَّ النفوذِ الأجنبي .

أمَا لو أننا كتبنا من الأول على أبواب « البنك العقارى» وأبواب ذرّيته : « يَمْحَقُ الله الرِّبا . » فهلْ كانت تُقرأ هذه الكلماتُ الثلاث على أبواب تلك البنوك الأجنبية إلا هكذا : « محالٌ خالية للإيجار » . . . . ؟

فلنتعصب . . . !

وقال صاحب سر (م) باشا : جاءنى يوماً صَحَفىٌّ إنجليزى من هؤلاء الكتاب المتعصّبين الذين تُطلقهم إنجلترا كما تُطلق مدافعَها ؛ غير أن هذه للبارود والرصاص والقنابل ، وأولئك للكَذِب والتُّهم والمغالَطات .

وهو أذُنٌ وعينٌ ولسانٌ وقَلَمٌ لجريدة إنجليزية كبيرة ، معروفة بِثِقَلِ وطأتِها على الشرق والإسلام ؛ تُصْلح بإفساد ، وتُداوِى الحمَّى بالطاعون ، وتعمل فى نهضة الشرقيين واستقلالهِم ما يُشْبِهُ قطعَ ثَدْيِ الأمّ وهو فى شفتَىْ رضيعِها المسكين .

ودخل علىّ هذا الكاتبُ فى الساعة التى خرج فيها من غرفتى صاحبُ جريدة أسبوعية فى مدينتنا ؛ كان قد نفخ الضِّفْدَع ليجعلَها ثوراً ، فحوّلَ صحيفَته إلى جريدة يومية ، وهو لا يجدُ مادتها ولا يستطيع أسبابَها ، إلا أنه كدأبِ الناس عندنا كان يحسبُ الكذِبَ فى العمل سَهْلاً مَهْلاً[1] كالكذبِ فى القول ، فلم يتَعاظمْه الأمرُ العظيم ، واقترض لعمله كلّ ألفاظِ النجاح من اللغة . . .

وظنّ عند نفسِه أنه سيُخَوِّفُ بجريدته الكبراءَ والأعيانَ والمَياسيرَ حتى يَغْلبَ على جميعِهم ، ويُشْرِكَ أصابعَه مع أصابعهم فى استخراج ما يحتاج إليه من جيوبهم ؛ فلم تعشْ جريدتُه إلا أياما وأتلف ما جمع ، ورهَن فيها دارَه التى لا يملك غيرَها ؛ وعلم آخراً أن الذى يكذبُ فيسمِّى الحروفَ جملاً ، لا يقبَل منه أن يكذبَ على الكذب نفسِه ، فيزعمَ أن الناقةَ هى التى نَتَجتْ هذا الحروف . . . .

ولما انقلبت هذه الجريدةُ يومية كان الباشا هو ملجأ الرجل ووَزَره ، وكان لكل يوم فى الجريدة أخبارٌ عن الباشا لا تقعُ فى الدنيا ولا تُجمع من الحوادث ، ولكن تقع فى ذهن الكاتب ، وتُجمع من صناديق الحروف ؛ حتى قال لى

---

(١) هذا الاستعمال مما وضعناه نحن وليس فى اللغة ، وهو من باب الإتباع كقولهم : حسن بسن ، وشيطان ليطان الخ .

الباشا مرة : إن اسمى قد أصبح موظفًا فى هذه الجريدة لجمع الاشتراك . . . .

وتحرَّى هذا الصحفى أن يستأذنَ يومًا على الباشا وفى مجلسه حشدٌ عظيم من السَّراة والأعيان والعُمَد ، وكان جمَعهم لأمر ، فما هو إلا أن دخل الصحفى حتى ابتدره الباشا بهذا السؤال : يا أستاذ ، ما هى تلغرافات أوربا عن الحوادث التى ستقع غداً . . . . ؟

فضجَّ المجلس بالضحك ، وفقدَ المسكين بهذه النكتة أربعين ديناراً كان يؤمل أن يخرج بها ، وأعلن الباشا فى أظرف إعلان وأبلغه كذبَ الرجل ونفاقه وإسفافه ، وأنه من رجال الصحافة المدوَّرة تدويرَ الرغيف . . . .

* * *

قال : ونظرتُ إلى الصحفى الإنجليزى نظرةً أكشفهُ بها ، فإذا أولُ الفرقِ بينه وبين أمثالِه عندنا — شعورُه أن بلادَه قد ربَّتْه (للخارج) ، فهو عند نفسه كأنه إنجليزىٌّ مرتين ؛ ويأتى من ذلك إحساسُه بعزة المالكِ وقوةِ المستعمِر ، فلا يكونُ حيث يكونُ إلا فى صراحةِ الأمرِ النافذِ ، أو غموضِ الحيلة المبهَمة ؛ ويستحكم بهذا وذاك طبعُه العملىُّ ، فهو بغريزته مُقاتِلٌ من مقاتِلةِ الفكر ، يلتمسُ ميدانه بين القُوَى المتضاربةِ لايبالى أن يكونَ فيه الموتُ ما دام فيه العمل ؛ وبهذا كلِّه تراه نافذَ البصيرةِ قائمًا على سَواء الطريق ، لأن الإنجليزىَّ الباطنَ فيه يُوجِّه الإنجليزىَّ الظاهرَ منه ويُساندُه ؛ وفى أعماقِ الاثنين تجد إنجلترا ، وليس غيرَ إنجلترا .

ثم تفرَّستُ فى الرجل أريد كُنْهَه وحقيقتَه ، فإذا له نفسٌ مفتوحةٌ مقفَلة معًا ، كغُرَفِ الدار : الواحدةِ يُفتح بعضُها لما فيه كما يُرى ، ويُقفَلُ بعضُها على ما فيه كيلا يُرى .

وله وجهٌ عملىٌّ يكاد يحاسبُك على نظراتك إليه ؛ تدورُ فى هذا الوجه عينانِ قد اعتادتا وزْنَ الأشياء والمعانى ؛ يتلألأ فى هاتين العينين شعاعُ النفسِ القوية الممرَّنةِ ، قد نفَت الثقةُ بها نصفَ هموم الحياة عن صاحبها ، تُمِدُّ هذه النفسَ طبيعةٌ مؤمنةٌ بأن أكبرَ سرورها فى أعمالها ، فواجبُها فى الحياة أن تعملَ كلَّ ما يحسُنُ بها وكل ما يحسُنُ منها .

لقد خُيِّل إلىّ ، وأنا أنظر إلى نفسية هذا الإنجليزى أن كلمةَ الخيْبَةَ عند هؤلاء الإنجليز غيرُ كلمة الخيبة عندنا نحن الشرقيين ، فإن خيبةَ النفس لا تتم معانيها أبداً فى النفس العاملةِ الدائبةِ ، التى يُشعرها الواجبُ أنه شىء إلهى لايَخيب ، وأن ما يُرْفضُ على هذه الأرض من العمل الطّيب لايُرفض فى السماء .

وكأن الرجلَ قد أدرك غرضى بملَكَته الصحافية الدقيقة ، فأجابنى عن السؤال الذى لم أسأله ، وقال لى مبتدئًا : إن أساسنا الشخصيةُ وحاسةُ الواجب ؛ وإن فيكم أنتم كلَّ شىء إلا هذين ؛ فأخلاقُنا تَظهر دائما فى العمل ، وأخلاقكم تَظهر دائما فى الكلام الفارغ ؛ ونحن نطلب الحقيقة ، وأنتم تطلبون الألفاظ ، حتى إنه لو خَسِر المصرى ألفَ دينار ، ثم أعلن أنها مائةٌ فقط ، وصدّق الناسُ أنها مائة ؛ لكان عند نفسه كأنه ربح تسعَمائة . . .

* * *

قال صاحب السر : واستأذنتُ له على الباشا فسهّل ورحّب ؛ ثم هممتُ بالانصراف عنهما ، ولكن الإنجليزىّ قال : يا باشا ! إنه قد تمكن فى رُوعى أن صاحبَ سرك هذا متعصبٌ دينى ، وقد علمت أنه ابن فلان القاضى الشرعى ، فطر بوشُه ابنُ العمامة ؛ ولقد كان ينظر إلىّ ، وكأنه يتأملُ من أين يذبحُنى . .

فضحك الباشا وقال لى : يا فلان إن هذا الكاتبَ من تلاميذ برناردشو ، فهو كأستاذه يجعل لكل حقيقة ذَنبًا كذيلِ الهرّ، ثم يمسكُها منه فإذا هى تَعَضُّ وتتلوّى . . .

والتفتَ بعد ذلك إلى الإنجليزى ثم قال له : جاءنى كتابك فإذا كنت تريد رأيى فيما تسميه التعصب الدينى عند المسلمين ، فعجيبٌ أن تضعوا أنتم الغلطةَ ثم تسألونا نحن فيها ! إنك لتعلم أن هذا التعصبَ الكذِبَ الذى أكثرتم الكلامَ فيه ، إنما هو لفظٌ من ألفاظ السياسة الأوربية، أرسلتموه إلينا ليقاتِلَ لفظَ التعصب الحقيقى ؛ ومن قبل هذا اخترعتم لفظة (الأَقليات) ، وأجريتموها فى لغتكم السياسية ، لتجعلوا بها لتعصبنا الوطنىّ شكلا آخر غيرَ شكلِه فتفسدوه

علينا بهذه المادة المفسدة ؛ وبذلك تضربون اليدَ اليمنى من غير أن تلمسوها ، إذ تضربونها بشلّ اليد اليسرى .

إن الإسلام فى نفسه عدوٌّ شديدٌ على التعصب الذى تفهمونه ، فهو يقول لأهله فى كتابه العزيز : « كونوا قوّامينَ بالقِسْطِ شُهَدَاءَ لله ولو على أنفسِكم أو الوالدَيْن والأقربِين » .

فإذا كان العدلُ فى هذا الدين عدلاً صارماً ، وحقّاً محضاً لا يميِّز بشىء ألبتة ، لاذات النفس التى فيها اشتهاءُ الدم ، ولا أصلَها من الأبوين اللذين جاءت منهما وراثةُ الدم ، ولا أطرافَها من الأقربين الذين يلتفُّون حول نَسَب الدم — إذا كان هذا ، فأين فى هذا العدلِ محلُّ الظلم ؟

لعلك تشير إلى هذه الرُّعونة التى تعرفها فى الأغمار والأغفالِ من العامة ، فهذه ليست من أثرِ الدين ، بل هى أثرُ الجهلِ بالدين ؛ إن هذا ليس تعصباً ، بل هو معنى من معانى الحَمِيَّة النفسية الخَرقاء لم تجدوا أنتم له لفظا ، وكان أقربَ الألفاظ إليه عندكم هو التعصبُ ، فأطلقتموه عليه للمعنى الذى فى نفسه والمعنى الذى فى أنفسكم . ألا فاعلم أن إسلامَ العامة اليومَ هو كالدعوى المقبولة شكلاً والمرفوضة بعد ذلك .

قال الإنجليزى : ولكنّ لهؤلاء العامة علماءَ دينيين يُدبّرونهم من ورائهم . وهم عندكم ورثَةُ النبى صلى الله عليه وسلم أى منبعُ الفكرة وقوتُها .

قال الباشا : غيرَ أن هؤلاء قد أصبحوا كلُّهم أو أكثرُهم لا ينَدَسُّ فيهم عِرقٌ من تلك الوراثة ، وذلك هو الذى بلغ بنا ما ترى ؛ فالقوم إلا قليلاً منهم كالأسلاك الكهربائية المعطَّلة : لا فيها سَلْبٌ ولا إيجاب ؛ ولو أنّ هؤلاء العلماء كانت فيهم كهرباءُ النبوة ، لكَهْرَبوا الأمم الإسلاميةَ فى أقطارها المختلفة . إذن لقام فى وجه الاستعمار الأوربى أربعمائة مليون مسلمٍ جَلْدٍ صارمٍ شديدٍ : متظاهرين متعاونين ، قد أعدُّوا كل ما استطاعوا من قوة العلم ، وقوة النفس ، وهم لو قَذَفَ كلٌّ منهم بحجرين لردموا البحر . . . .

أتريد معنى التعصب فى الإسلام ؟ إنه بعينه كتعصب كل إنجليزى للأسطول ؛ فهو تَشَابُكُ المسلمين فى أرجاء الأرض قاطبةً ، وأخذُهم بأسباب

القوة إلى آخر الاستطاعة ، لدفع ظلمِ القوة بآخر ما فى الاستطاعة .

وهو بذلك يعملُ عملين : استكمالُ الوجودِ الإسلامىِّ ، والدفاعُ عن كماله .

وإذا أنت ترجمتَ هذا إلى معناه السياسى ، كان معناه إصرارَ جميع المسلمين على نوع الحياة وكرامتها ، لا على استمرار الحياة ووجودِها فقط . وذلك هو مبدؤكم أنتم أيها الإنجليز : لاتقبلون إلا حياة السيادة والحكم والحريةِ ، فأنتم مسلمون فى هذا المبدأ لو عدَلتم .

أليس من البلاء أن المسلمين اليومَ لايَدْرُسُ بعضُهم بلادَ بعض إلا على الخريطة . . . مع أن الحجَّ لم يُشرَعْ فى دينهم إلا لتعويدهم دراسةَ الأرضِ فى الأرض نفسها لا فى الورق ، ثم ليكونَ من مبادئهم العمليةِ أن العالمَ مفتوحٌ لا مقفل ؟

إن التعصبَ فى حقيقته هو إعلانُ الأمةِ أنها فى طاعة الشريعة الكاملة ، وأن لها الروحَ الحادَّة لا البليدة ، وأن أساسها فى السياسة الاحترام الذاتىُّ لا تقبل غيرَه ، وأن أفكارَها الاجتماعيةَ حقائقُ ثابتة لا أشكالٌ نظرية ، وأن مبدأها هو الحقُّ ولا شيءَ غير الحق ، وأن قاعدتَها « لا يَضُرُّكم من ضَلَّ إذا اهتديتُم » . فالهدايةُ أولاً والهداية آخراً : الهداية فى القوة ، والهدايةُ فى السياسة ، والهدايةُ فى الاجتماع . فقل لى بحياتك وحياة إنجلترا : أيعابُ ذلك على المسلمين إلا بالألفاظ التى يَعيب اللصُّ بها أهلَ الدار لأنهم يُحكمونَ فى وجهه إقفالَ الباب . . . . ؟

قال : فوجَم الإنجليزىُّ حتى ذُهل عن نفسه وصاح :

إذا كان هذا فلنتعصَّبْ ، فلنتعصَّبْ .

وزن الماضى

وقال صاحب سر (م) باشا : : إنى لجالسٌ ذات يومٍ وفى يدى كتابٌ لبعض المتفلسفةِ من مَلاَحِدَة أوربا الذين يريدون أن يفهموا ما لا يُفهم ؛ وكان الباشا قد رآنى مرّة أنظرُ فيه وأتدبّرُ مسائلَه الغامضة ، فقال لى : يا بنىّ ، إن أحدَ الكلاب كان شاعراً فيلسوفًا ، فنظر ليلةً فى النجوم فراعته وحيّرته ؛ فآلى أن يفهمَها بعقله وتفرّغ لدرسها مدةً طويلة ، ثم وضع فيها كتابًا نفيسًا ضخْمًا ، كان أعظمَ كتبِ الفلسفة وأشدّها غموضًا عند الكلاب ، وكان اسمُه : العظام المبعْثَرةُ فوقنا . . . (١)

قال : فأنا جالسٌ أقرأ هذا الكلامَ الذى لاصحيحَ فيه إلا أنه غيرُ صحيح . . إذ دخل علىّ كاتبٌ متفلسِفٌ مُلْحِدٌ من هؤلاء المدخُولين فى عقولهم ، المفتونين بأوربا ومذاهِبها وعُلْويّاتِها وسُفْلياتها . . . وهو يكتبُ فى الصحُف ، ويؤلف الرسائل ، وقد جاء يَسْتَصْرِخُ الباشا على فلاّحٍ شاركه فى زراعة أرضه ، فزرعَه الفلاحُ فيها وحَصَده ، ودَهاه بكَيده ، وابتلاه بغلْظَته ، وتهدّده بالنقمة .

وكان هذا الفلاحُ الساذَجُ الغريرُ قد سبقَه إلىّ وعرّفه لى تعريفًا قاموسيًّا محيطًا من مادة كَفَر يكْفُر ... ثم قال بعد ذلك : إنه (بيّاع كلام) يَصْدُق ويكْذِبُ حسب الطلب . . . والذمةُ نفسُها ليست عنده إلا (عملية حسابية) ؛ وهو فى أقوى جهاتِه لاينفع الدنيا بما تنفعُها به البهيمة من أضعفِ جهاتها .

أما الكاتبُ فيقول عن هذا الفلاح : إنه لا يدرى أهو يُتمّ بَهائمَه أم بهائمُه هى التى تُتِمُّه ، وإن الذى يرفعُ القضيةَ على مثلِ هذا المخلوق إلى المحكمة لايكون إلا كالذى يُقَعْقِعُ بالعصا على جُحْرٍ فيه الحيّةُ السامّة .

ورأى المتفلسفُ الكتابَ على يدى ، فتهلّل واستبشر وقال لى : هذا نَسَب بيننا . . فأدركتُ من كلمته هذه جملتَه وتفصيلَه ، وخيِّل إلىّ أنى أرى فيه نفسَه الشرقيةَ كالمرأة المطلقة . . فقلت له : أنا اشتريتُ هذا الكتاب من

---

(١) لا ريب أن المؤلف . . . قد بحث فى كتاب (الوسائل العملية) للانتفاع بهذه العظام المبعثرة . . .

أوربا ، ولكنى لم أشترِ منها دماغى . . .

وكلَّمتُه أستخرجُ ما عنده ؛ فإذا هو فى قومه وتاريخِ قومه كالسائح فى بلادٍ أجنبية : يفتحُ لها عينَه ولا يفتح لها قلبَه .

* * *

وكان جريئًا فى كلامه مع الباشا : يَطْرُدُ القولَ حيث شاء حقًّا وباطلاً ، ثم لاسنادَ لرأيه ولا تثبيتَ لحجته إلا قولُ فلان ورأىُ فلان ، كأن فى رأسه عقلاً شحّاذاً . . . ثم ذكر آخرَ الأمر ما جاء له ، فخجّله الباشا وقال : هذه مسألة ككل مسائلك : تحتاج إلى رأى فيلسوف أوربى . . . وأعرض عنه ولم يدخلْ فى شىء من أمره .

ولما انصرف قال الباشا : يحسبُ هذا نفسَه عالمًا ، وهو صُعلوكٌ عِلْمىّ .. وإنما يكون دماغُه وأدمغةُ أمثاله عند الفلاسفة والعلماء الذين يذكرونهم كما تكون سلَّة المهمَلاتِ عند الصحافيين .

إن هذا الرجل يُتم ضعفَ عقله فى الرأى بقوة عنادِه فيه ، ليجعلَ له ثباتَ الحقيقة فيُظَنّ حقيقة ، كأن خَضْخَضَةَ الماء باليد فى وعاء صغير يَنقلُ إلى هذا الوعاء طبيعةِ الموْج ؛ وعند أمثالِ هذا المفتون من الصعاليك العلميّين ، أنك إذاتناولتَ مسألة فأخطأتَ فيهاخطأ جريئًا ، فقد جعلتَهابخطئك الجرىء مسألةً من العلم . . . وأنك إذا عاندتَ فثبّتَ الخطأ فى وجه الناقدين سنة ، كان حقيقة مدةَ سنة . . .

هم مفتونون زائغون ، ومن فِتنتهم أنهم يرَون البعدَ بينهم وبين أهلِ الفضائل الشرقية ، كالبعد بين العالِم والجاهِل ؛ ولو حقّقوا لرأوه بُعْداً فى الغرائز لافى العقل ، أى كالبعد بين الفُجور وما أشبَه الفُجورَ ، وبين التقوى وما أشبه التقوى .

زعم الأحمقُ أن خصمَه الفلاحَ رجلٌ راسخٌ فى الماضى ، كأنه باقٍ فى أمسٍ لم ينتقل منه ؛ مع أن أمسِ قد انقطع من الزمن ، ثم خرج من ذلك إلى أن الأمةَ يجب أن تنبذَ ماضيَها ، ثم ادعى أن الإسلامَ يتعصّب للماضى . هذه

ثلاثُ كلمات تخرجُ منها الرابعةُ التى سكتَ عنها . . . (١)

وأنا لو شئتُ أن أسخرَ من مثل هذا الصُّعلوكِ العلميّ ، لما وجدتُ فى أساليب السخرية أبلغَ من أن أبعثَ إليه بقارورةٍ فارغةٍ وأقول له : املأها لى من آراء الفلاسفة . . .

يغفَلُ هذا وأمثالُه عن أن الدينَ الإسلاميَّ لايعرف الماضيَ بمعنى ما مضى على إطلاقه ؛ بل هو يشترط فيه ألا يخالفَ العقلَ ولا العلم ، وألا يناقِضَ الهداية ؛ « قالوا : بل نَتَّبِعُ ما ألفينا عليه آباءَنا . أوَلو كان آباؤُهم لايعقِلون شيئًا ولايهتدون ؟ » وفى الآية الأخرى : « قالوا : حَسْبُنا ما وجدنا عليه آباءَنا . أوَلو كان آباؤهم لايعلمون شيئًا ولايهتدون ؟ » وفى الثالثة : « قالوا : بل نتَّبِعُ ما وجدنا عليه آباءنا . أوَلو كان الشيطانُ يدعوهم إلى عذاب السَّعير ؟ » وفى الرابعة : « إنا وجدنا آباءَنا على أمَّةٍ وإنا على آثارهم مُقْتَدون . قال : أوَلو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءَكم ؟ » .

فانظر كيف صَوَّر ما نسميه اليوم بالجمود فى قوله : (حسبُنا) ، وكيف صور ما نسميه بالرجعية فى قوله : (نتَّبع) ، وتأمل كيف رفض الجمودَ والرجعيةَ معًا فى العلم والعقل والهداية ، أى فى آثارها من العلوم والمخترعات والفضائل الإنسانية ، وكيف أبطل فى تلك الثلاثِ الاحتجاجَ بالماضى بهذا الأسلوب الدقيقِ العالى ، وهو قولُه فى كل آية أوَلَوْ ، أوَلَوْ . لم نغيّرها ؛ بل كرَّرها بلفظها أربعَ مرات .

فالمعجزُ هنا مجيءُ الآيات بهذه الصورة المنطقية لإسقاط حجتهم ، ونفى معنى التقديس عن الماضى فيهنَّ ؛ إذْ كان العلمُ دائمَ التغيُّر ، وكان العقلُ دائمَ التجديدِ والإبداع ، وكانت الهدايةُ شديدةً على الطبيعة الحيوانية التى هى ماضى النفس ؛ فكأنها جديدةٌ على النفسِ عند كل شهوة .

إن الإنسانَ بماضيه وحاضرِه كأنه مقسومٌ قسمين ، يقولُ أحدُهما : أريد أن أكون . ويقول الآخر : أنا قد كنت . فالإسلامُ بهذه الآيات قد أوجبَ

---

(١) الرابعة التى يستلزمها هذا السياق المنطقى : هى تجرد الأمة من الدين ، وذلك ما يعمل له بعض الصعاليك العلميين .

وزنَ الكلمتين فى كل زمن بما هو الأصحُّ ، وبما هو الأنفع ، وبما هو الأهدى ؛ وباشتراطه الهدايةَ فى جميعها أشار إلى أن الكمالَ النفسىَّ للفرد يجب أن يكونَ مرتبطًا بالكمال الإنسانىِّ للجنس .

وهذا معنىً عجيب ، وأعجبُ منه ما ترى من أن الإسلامَ قد أصلح فكرةَ الماضى ؛ فنقلها من معنى الآباء والأجداد للناس ، إلى المعانى التى هى كالآباء والأجدادِ لإنسانيةِ الناس . والأخذُ (بالأهدى) فى اجتماعِ أُمةٍ من الأمم ، إنما هو بعينه ناموسُ الترقى والتطوُّر .

ومن أدَقِّ الأسرار قوله : « إنا وجدنا آباءنا على أُمَّة » فكلمة (أُمَّة) هذه لم يعرفها أحدٌ على حقيقتها ، ولم تفسِّرها إلاعلومُ هذا الزمن ، فهى المشاعرُ النفسية التى يتكوّن منها مزاجُ الشعب ، وفيها يستقرُّ الماضى ؛ كأن الآيةَ قد عبَّرت بآخر ما انتهى إليه علماء النفس : من أن الإنسانَ ابنُ أبويه وابنُ شعبِه أيضًا .

فالتعصبُ فى الإسلام هو للعلم النافع ، وللمجد الصحيح ، وللهداية الباعثة على الكمال ؛ وتعصبُ الجيلِ لمثلِ هذا فى ماضيه ، هو فى اسمِه تعصب ، غيرَ أنه فى معناه إنما هو العملُ لتسليم مجدِ الأمة إلى الجيلِ التالى .

المعجم السياسى

وحدثنى صاحبُ سر (م) باشا قال : كنا فى سنة ١٩٢٠ ، وهى بنت سنة ١٩١٩[1] ؛ وقد اجتمعت الأمةُ على مقاطعة لجنة (ملنر) لاتكلِّمُها ، فجعلت السكوتَ ثورة ، وأعلن الشعبُ أن كلمتَه فى لسان الوفد ينطق الوفدُ بها نطق النبى بما يُوحَى إليه ، فما يكونُ لأحدٍ غيرِه أن يقولها ، ولا أن يقولَ أُوحِى إلىّ . وأبى اللورد ملنر أن يصدِّقَ أن للمصريين إجماعا يُعْتَدُّ به ، وأنهم دخلوا فى السياسة دخولاً ثابتًا فَرَسَخُوا فيها ، وأنهم أصبحوا مع الإنجليزِ كالإنجليزِ الذين يقولون عن أنفسهم فى مثَلهِم السائر : ينبغى أن نكونَ أحراراً مثلَ أعمالنا .

وزعم اللورد لنفسه ، أن هذه الأحزابَ المصريةَ لايتفق منها اثنان أبداً إلا كان بينهما ثالثٌ يختلفان عليه ، وهو الطمعُ فى مناصب الحكم ؛ واستخرج من ذلك أن المصرىَّ والمصرىَّ كشِقَّى المِقراض : لايتحركان فى عملٍ إلا على تمزيق شىء بينهما ؛ فإن لم يكن بينهما (الشىء) لم يكن منهما شىء .

وذهب الرجلُ يتَظَنَّى ويَحْدِسُ على ما يُخيِّلُ له الظن، وقد حسب أن إنجلترا يحقُّ لها أن تقولَ فى المصريين ما يقولُ الله فى خلقه كما ورد فى الأثر : « إنما يتقلَّبون فى قبضتى .» وكما تقول اليومَ لأهل فلسطين من العرب : « إن يشأ يُذْهِبْكم ويأتِ بخلْق جديد » . . . وكان اللورد هذا رجلاً ممارسًا لمشاكل السياسة ، دخّالاً فيها ، داهيةً من دُهاة القوم ، له فى قلبه عينان وأذنان غيرَ ما فى وجهه كحذّاقِ السياسيين ؛ وهو يعرف أن سياسةَ قومه لاتدخلُ فى شىء إلا دخولَ الإبرة بخيطها فى الثوب ، إن خرجت هى تركت الخيطَ وقد جَمعَ وشدَّ ... فأراد أن يمتحنَ مذهبَ المصريين فى إجماعهم على الاستقلال ، وقدَّر أنه واجدٌ من الفلاحين عونًا له ومادةً لمكره السياسى ، وحسب الوفدَ صورةً جديدةً من طبقة (الباشوات) القديمة ، ينزلون من الشعب منزلةَ اليد

---

(١) سنة الثورة المصرية ، وقد مر وصفها فى مقالة (الأخلاق المحاربة) .

التى تُمْسِكُ القيدَ ، من الرِّجْلِ التى فيها القيد ، ويضعون معنى كلمة الحاجة فى كلمة السياسة ، ويقولون الوطن وهم يريدون الجاه ، ويقيمون الشعبَ كالسُلَّم ينتصبُ قائماً بأيديهم ليحملَ أرجلَهم الصاعدةَ عليه .

فجاء اللورد إلى مصر ، فوجد الأمةَ كلها قد حَذِرَت منه وتيقظت له ، حتى نصحه رشدى باشا بأنه لن يجدَ فى مصر هِرّةً تفاوضه ؛ ولكنه كان مستيقناً أن أذُنَ السياسة الإنجليزية (كالرديو) لصوتين : صوتِ الدنانير وصوتِ الجماهير ، فمرَّ فى البلاد يرسم على الهواء علامات استفهام ، وانْصَفَقَ عنه الناسُ وأهملوه ، وكان يسير فى دائرة الصمت التى مركزها أبو الهول ، فبدأ وظلَّ يبدأُ حتى انتهى وما زال يبدأ . . . وساح فى البلاد سياحةً طويلة ، وكأنه لم يسافر إلا من شَفَةِ أبى الهول السُّفلى إلى شفته العُليا .

* * *

قال صاحب السر : وجاء اللورد لمقابلة الباشا ، فمرَّ علىَّ مرورَ كتابٍ مقفَلٍ : لا أعرفُ منه إلا العنوان ؛ غيرَ أنه رجلٌ بمقدارِ الرجلِ الذى يخالفُ أمةً كاملة تكاد تحسبُه مطوِيًّا على زوبعة ، وترى له قوتين تُحِسُّ من أثرهما الرهبةَ والإعجاب ، وإذا تأملتَه قلتَ إن اللطفَ والظَّرْفَ أضعفُ شمائله ، وإن الدَّهاءَ والحيلةَ أقوى مواهبه .

فلما لقيتُ الباشا من الغد ، سألنى : كيف رأيت اللورد ملنر ؟ فقلت : والله يا باشا إنه كالضرورة : ما يتمناها أحدٌ ولكنها تجىء . .

فضحك الباشا وقال : ياليت لنا نحن الشرقيين كل يوم ضرورةً تصنع ما صنع اللورد ؛ إنه كشف لنا فى ذات أنفسنا عن حقيقةٍ من أسمى الحقائق السياسية : وهى أن الشعبَ الذى يُصِرُّ ولا يزال يُصِرُّ يجعلُ الإغراءَ لا يُغرِى والخوفَ لا يخيف .

وياليتَ الأممَ الشرقيةَ تتعلم هذا الصمتَ السياسىَّ عن مجاوبة الكلمة الاستعمارية أحياناً ؛ فإن صمْتَ الأمة المصرية عن جواب (ملنر) ، كان معناه أن قدرةَ الأمة هى المتكلمةُ كلامَها بهذا الصمت ، تعلن للعالم أن الواجبَ الشعبىَّ قد وضع قُفْلَه على كل فم .

وقد فسر اللورد هذا السكوتَ بتفسيره السياسى ، فأدرك منه أن فى الشعب أنَفَـةً وحميـةً وقوة ، وأن حسابَ الضميرِ الوطنىّ أصبح لهذه الأفئدة كالحساب الإلهىّ للنفوس المؤمنة : كلاهما مُستعلِنٌ يُخافُ ويُتّقى ، وكلاهما كلمةٌ محرّمة .

أية معجزة هذه التى جعلت كلمةَ الأجنبى تتخذُ فى أذهان أمةٍ كاملة شكلَ قائلها ، فاجتمعت لها البلادُ على معنى الرفض ، وأصبح كلُّ فرد يعرف محلَّه من الكل ، وخضعت الطبائعُ بجملتها لقانون العزة القومية ، الذى يُلزِمها ألا تخضعَ للأجنبى ؟

إن الأممَ بعضُ مسائلُ نفسيةٍ كهذه المسألة ؛ فلو أن لنا خمسةَ دروس سياسية مختلفة كدرس (ملنر) ، لكانت لنا فى الإيمان الوطنى كالصلواتِ الخمس .

والآن تعلمت الأمةُ أن الشعب العزيزَ هو الذى ينظر فى فَضٍّ مشاكله إلى الحلِّ وإلى طريقة الحل أيضًا ، وقد كان (ملنر)هو أول أساتذَتِنا فى تعليمنا الطريقة .

وهذا الدرسُ يجب أن يكون درسًا للشرق كله ، فإن السياسة الاستعماريةَ قائمةٌ فيه على خداع الطريقة فى حل مشاكله ، فيحلونها ويعقّدونها فى نصٍّ واحد ؛ ويُثبت الكلامُ الذى يتفقون عليه أن المرادَ منه زوالُ الخلاف ، ويثبت العملُ بعد ذلك أن المراد كان زوالَ المقاوَمة .

وفى السياسة الأوربية موافقاتٌ دميمةٌ كالنساء المشوَّهات، فإذا عرضوا واحدة منها على من يريدون أن يزوّجوه . . . فأباها وفتح لها عينيه بكل ما فيهما من قوة الإبصار ، أعفَـوه منها وقالوا له : سنأتيك بالجميلة ، ثم يذهبون بها إلى معهد التجميل اللغوى ، فيصقلونها ويصبغونها ، ويضعون لها أحمرَ السياسة وأبيضَها ، ثم يعرضونها جديدةً على صاحبهم ذاك ، وما صنعوا ما به صارت الدميمةُ غيرَ دميمة ، ولكن ما به رجع غيرُ الأعمى كالأعمى .

ولهم عقول عجيبة فى اختراع الألفاظ ، حتى لتكونُ شدةُ الوضوح فى عبارة ، هى بعينها الطريقةَ لإِخفاء الغموض فى عبارة أخرى . وكثيراً ما يأتون بألفاظٍ

منتفخة تُحسَبُ جزْلةً بادنةً قد ملأها معناها ، وهى فى السياسة ألفاظٌ حُبَالى ، تَستكمِلُ حملَها مدةً ثم تلد . . .

ولهم من بعض الكلمات السياسية ، كما لهم من بعض الرجال السياسيين ؛ فيكون الرجلُ من دُهاتهم رجلاً كالناس ، وهو عندهم [مِسْمَارٌ دَقُّوه فى أرض كذا أو مملكة كذا ، ويكون اللفظُ لفظًا كاللغة ، وهو مسمارٌ دقّوه فى وثيقة أو معاهدة .

ثم ضحك الباشا وقال : إن أرضَنا تُخرج القطن ، وسياستَنا تخرج ألفاظًا كالقطن : لاتوضع فى المِغزَل إلا مَدَّت وتحولت . وإذا ذهبنا نخالفهم فى التأويل والتفسير ، لم نجد عندنا المعجمَ السياسى الذى يُملِى النص . أتدرى يا بنى ما هو المعجم السياسى ؟

أَما إنه لو كان كتابًا يتألفُ من مليون كلمة ، لذهبت كلها عبثًا وباطلاً وهُراء ، ولكنه ذلك المعجمُ الحىّ ، ذلك المعجمُ الذى يتألف من مليون جندى . . . .

اللسانُ المُرَقَّع . . .

وقال صاحب سر (م) باشا : جاء « حضرة صاحب السعادة» فلان لزيارة الباشا ؛ وهو رجل مصريٌّ وُلد فى بعض القُرى ، ما نعلم أن الله (تعالى) ميزه بجوهر غير الجوهر ، ولاطبْع غير الطبع ، ولاتركيبٍ غير التركيب ، ولازاد فى دمه نقطة زهوٍ ، ولا وضعه موضع الوسط بين فَنَّين من الخليقة . غير أنه زار فرنسا ، وطاف بإنجلترا ، وساح فى إيطاليا ، وعاج على ألمانيا ، ولوَّن نفسه ألوانًا ، فهو مصريٌّ ملوَّن . ومن ثَم كان لايرى فى بلاده وقومه إلا الفروق بين ما هنا وبين ما هناك ، فما يظهر له دين قومه إلا مقابلاً لشهوات أحبها وغامر فيها ، ولا لغةُ قومه إلا مقرونة بلغة أخرى ودَّ لو كان من أهلها ، ولا تاريخُ قومه إلا مغمى عليه . . . كالميت بين تواريخ الأمم .

هو كغيره من هؤلاء المترفين المنعَّمين : مصريٌّ المال فقط ، إذ كانت أسبابهم ومستَغَلاّتهم فى مصر ؛ عربيٌّ الاسم لاغير ، إذ كانت أسماؤهم من جناية أهليهم بالطبيعة ؛ مُسلمُ ما مضى دون ما هو حاضر ، إذ كان لا حيلة فى أنسابهم التى انحدروا منها .

هو كغيره من هؤلاء المترفين المنعَّمين المفتونين بالمدنية : لكل منهم جنسه المصرىّ ولفكره جنس آخر .

قال : وكان حضرة صاحب السعادة يكلم الباشا بالعربية التى تلعنها العربية ، مرتفعًا بها عن لغة الفصيح ارتفاعًا منحطًّا . . . نازلاً بها عن لغة السُّوقة نزولاً عاليًا . . . فكان يرتضخ لكنة أعجميةً ، بينا هى فى بعض الألفاظ جرسٌ عال يطن ، إذا هى فى لفظ آخر صوت مريض يئنّ ، إذا هى فى كلمة ثالثة نغم موسيقى يرن. ورأيتُه يتكلف نسيان بعض الجمل العربية ليلوى لسانه بغيرها من الفرنسية ، لاتظرُّفًا ولاتملحًا ولا إظهاراً لقدرة أوعلم، ولكن استجابة للشعور الأجنبى الخفى المتمكن فى نفسه . فكانت وطنية عقله تأبى إلا أن تكذِّب وطنية لسانه ، وهو بإحداهما زائفٌ على قومه ، وبالأخرى زائف على غير قومه .

* * *

فلما انصرف الرجل قال الباشا : أفٍّ لهذا وأمثال هذا ! أفٍّ لهم ولما يصنعون ! إن هذا الكبير يلقبونه « حضرة صاحب السعادة » ، ولأشرفُ منه والله رجلٌ قَروىّ ساذج يكون لقبه « حضرة صاحب الجاموسة » . . . . نعم إن الفلاح عندنا جاهلُ علم ، ولكن هذا أقبح منه جهلاً ، فإنه جاهلُ وطنية .

ثم إن الجاموسة وصاحبها عاملان دائبان مخلصان للوطن ؛ فما هو عمل حضرة (صاحب اللسان المرقّع)هذا ؟ إن عمله أن يعلن ببرطانته الأجنبية أن لغة وطنه ذليلة مَهِينة ، وأنه متُجرد من الروح السياسى للغة قومه ؛ إذ لايظهر الروح السياسى للغةٍ ما ، إلا فى الحرص عليها وتقديمها على سواها .

كان الواجبُ على مثل هذا ألا يتكلم فى بلاده إلابلغته ، وكان الذى هو أوجبُ أن يتعصب لها على كل لغة تزاحمها فى أرضها ، فترك هذا وهذا وكان هو المزاحم بنفسه ؛ فهو على أنه « حضرة صاحب سعادة » ، لا ينزل نفسه من اللغة القومية إلا منزلة خادم أجنبى فى حانة .

أتدرى ما هو سر هؤلاء الكبراء وهؤلاء السَّراة الذين يطمطمون إذا تكلموا فيما بينهم ؟ إنهم عندنا طبقات :

أما واحدة، فإنهم يصنعون هذا الصنيع منجذبين إلى أصل راسخ فى طباعهم، مما تركه الظلم والاستبداد والحمق فى زمن الحكم التركى ؛ فهم يُبدون جوهرَ نفوسهم لأعينهم وأعين الناس ، كأن اللغة الأجنبية فيما بينهم علامة الحكم والسلطة واحتقار الشعب واستمرار ذلك الحمق فى الدم . . . وهم بها يتنبَّلون .

وأما طبقة ، فإنهم يتكلفون هذا مما فى نفوسهم من طباع أحدثها النفاقُ والخضوع والذلُّ السياسى فى عهد الاحتلال الإنجليزى ؛ فاللغة الأجنبية بينهم تشريف واعتبار ، كأنهم بها من غير الشعب المحكوم الذى فقد السلطة ، وهم بها يتمجدون .

وأما جماعة، فإنهم يتعمدون هذا يريدون به عيب اللغة العربية وتهجينها ، إذِ اتخذوا من عداوة هذه اللغة طريقة انتحلوها ومذهباً انتسبوا إليه ؛ وفيهم

العالم بعلوم أوربا ، والأديب بأدب أوربا ؛ وذلك من عداوتهم للدين الإسلامى ، إذ جعَل هذه اللغةَ حكومةً باقية فى بلادهم مع كل حكومة وفوق كل حكومة ؛ وهم يزدرون هذا الدين ويُسقطون عن أنفسهم كلَّ واجباته . وهؤلاء قد خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا ، إذ يغلون فى مصريتهم غلوًّا قبيحًا ينتهى بهم إلى سفه الآراء ، وخفة الأحلام ، وطيش النزعات ، فيما يتصل بالدين الإسلامى وآدابه ولغته . وما أرى الواحد منهم إلا قد غطى وصفُه من حيث هو رقيعٌ ، على وصفه من حيث هو عالم أو أديب أو ما شاء . إن هذا لمقتٌ « كبر مقتًا عند الله وعند الذين آمنوا » .

ومن أثر تلك الفئات الثلاث نشأت فئة رابعة ، تحوَّل فيهم ذلك الخلط من الكلام إلى طريقة نفسية فى النفس ؛ فهم يُقحمون فى كتابتهم وحديثهم الكلمات الأجنبية ، ويحسبون عملهم هذا تظرفًا ومعابثةً ومجونًا ، على أنه هو الذى يظهِرُ لعين البصير مواضع القطع التاريخى فى نفوسهم ، وأماكن الفساد القومى فى طبيعتهم ، وجهاتِ التحلل الدينى فى اعتقادهم . هؤلاء يكتب أحدهم : (النرفزة) وهو قادر أن يقول الغضب ، (والفلير) وهو مستطيع أن يجعل فى مكانها المغازلة ؛ (وسكالنس) وهو يعرف لفظة أنواع وألوان ، وهكذا وهكذا ؛ ولا والله أن تكون المسافةُ بين اللفظين إلا المسافةَ بعينها بين قلوبهم ورشد قلوبهم .

وما برح التقليدُ السخيف لايعرف له بابًا يلج منه إلى السخفاء إلا باب التهاون والتسامح ؛ ونحن قومٌ ابتلينا بتزوير العيوب على أنفسنا وعدّها فى المحاسن والفضائل ، من قلة ما فينا من الفضائل والمحاسن . وبهذه الطبيعة المعكوسة نحاول أن نقتبس من مزايا الأوربيين ، فلا نأخذ أكثر ما نأخذ إلا عيوبَهم ، إذ كانت هى الأسهلَ علينا ، وهى الأشكلُ بطبعنا الضعيف المتسامح المتهاون .

ومن هذا تجد مشاكلنا الاجتماعية — على أنها أهونُ وأيسرُ من مشاكل الأوربيين ، وعلى أن فى ديننا وآدابنا لكل مشكلة حلها — تجدها هى علينا

أصعبَ وأشدّ ، لأننا ضعفاء ومتخاذلون ومقلدون ومفتونون ، وكل ذلك من شيء واحد : وهو أن أكثر كبرائنا هم أكبر بلائنا .

* * *

قال صاحب السر : ثم ضحك الباشا ضحكته الساخرة وقال : كيف تصنع أمة يكون أكثر العاملين هم أكبر العاطلين ، إذ يعملون ولكن بروح غيرِ عاملة . .

سِرُّ القُبَّعَة

وحدثني صاحب سر (م) باشا ، قال نَجَمَتْ في مصر حركةٌ بِعقِب أيام البدعة التركية ، حين لم تبق لشيء هناك قاعدةٌ إلا القاعدةَ الواحدةَ التي تقررها المشانق . . . فمن أبى أن يخلع العمامةَ عن رأسه خلعوا رأسه ؛ ومن قال (لا) انقلبت (لا) هذه مشنقةً فعُلِّق فيها .

وكانت فكرة اتخاذ القبّعة في تركيا غطاءً للرأس ، قد جاءت بعد نزَعات من مثلها كما يجيء الحذاءُ في آخر ما يلبس اللابس ، فلم يشكّ أحدٌ أنها ليست قبّعةً على الرأس أكثرَ مما هي طريقةٌ لتربية الرأسِ المسلم تربيةً جديدةً ، ليس فيها ركعةٌ ولا سجْدة ؛ وإلا فنحن نرى هذه القبعةَ على رأس الزنجيِّ والهمَجيِّ ، وعلى رأس الأبله والمجنون ، فما رأيناها جعلت الأسودَ أبيض ، ولا عرفناها نقلت همجياً عن طبعه ، ولازعم أحدٌ أنها أكملت العقلَ الناقص أو ردّت العقل الذاهب ، أو انقلبت آلةً لحل مشكلات الرأس البليد ، أو غَصبَتِ الطبيعةَ شيئًا وقالت : هذا لحاملي دون حامل الطربوش والعمامة .

وقد احتجُّوا يومئذ لصاحب تلك البدعة أنه لايرى الوجهَ إلا المدنية ، ولا يعرف المدنيةَ إلا مدنيةَ أوربا ، فهو يمتثِلُها كما هي في حسناتها وسيئاتها ، وما يَحلُّ وما يَحرُم ، وما يكون في حاجة إليه وما يكون في غنيً عنه ؛ حتى لو أن الأوربيين كانوا عُوراً بالطبيعة ، لجعل هو قومَه عوراً بالصناعة ليشبهوا الأوربيين . . . نعم إنها حجةٌ تامة لولا نقصٌ قليل في البرهان ، يمكن تلافيه بإخراج طبعة جديدة من كتب الفُتوح العثمانية ، يظهر فيها الخلفاءُ العظامُ والأبطالُ المغَاوير الذين قهروا الأوربيين لابسين قبّعاتٍ ، ليشبهوا الأوربيين . . .

* * *

قال صاحب السر : وتهوّر في هذه الضلالة رَهْطٌ من قومنا ، وأخذوا يدعون إلى التقبُّع في مصر احتذاءً لتركيا ، وذهب بعضهم إلى سعد باشا (رحمه الله) يطلب رأيه ، فكان رأيُه (لا) بمدِّ الألِف . . . وعهد إليَّ بعضهم أن أسأل الباشا ؛ فقال :

ويْحهم ! ألاَ يخجلون أن نكون نحن المصريين مقلِّدين للتقليد نفسه ؟ إن هذه بدعةٌ تنحطُّ عندنا درجةً عن الأصل ، فكأنها بدعتان[١] . ثم ضحك الباشا وقال : كان فى القديم رجل سمع أن البصل بالخلِّ نافعٌ للصفراء ، فذهب إلى بستان يملكه وقال لوكيله : ازرع لى بصلاً بخلٍّ . . . هكذا يريدون من القبعات : أن تُخْرِج لهم تُركا بأوربيين .

ليست هذه القبعة فى تركيا هى القبعة ، بل هى كلمةُ سبٍّ للعرب وردٌّ على الإسلام . ضاقت بها كلُّ الأساليب أن تُظهرها واضحةً بيِّنةً ، فلم يَفِ بها إلا هذا الأسلوبُ وحْده . وهى إعلانٌ سياسى بالمناوأة والمخالفةِ والانحراف عنا واطِّراحِنا . فإن الذى يخرج من أُمَّته لا يخرج منها وهو فى ثيابها وشعارها ؛ فبهذا انفتح لهم بابُ الخروج فى القبعة دون غيرها مما يجرى فيه التقليدُ أو يُبدِعُه الابتكار ، وإلا فأى سرٍّ فى هذه القبعات ، ومتى كانت الأمم تقاس بمقاييس الخياطين . . . . ؟

ههنا سيفٌ أراد أن يكون مِقَصًّا فعمل أولاً ما يعمل الحسامُ البتَّار ، فأجاد وأبدع وأكبره الناسُ وأعظموه ؛ ثم صنع ما يصنع المِقصُّ ، فماذا عساه يأتى به إلا ما ينكره الأبطالُ والخياطون جميعًا ؟

أكُتِبَ علينا أن نظلَّ دهرَنا نبحث فى التقليد الأعمى ، وألاَّ يَحيْا الشرقىُّ إلا مستعبَداً ينتظر فى كل أموره مَن يقول له : اشْرَعْ لى . . . ؟ إنْ بحثْنا فلْنبحثْ فى زيٍّ جديد نتميَّز به ، فتكون القُوَى الكامنة فينا وفى طبيعة أرضنا وجوِّنا هى التى اخترعتْ لظاهرِها ما يجعله ظاهرَها . كما يُخرج زَوْرُ الأسدِ لِبْدَةَ الأسد ، غايةً فى المنفعةِ والجمالِ والملاءمة .

أنا ألبس ما شئت ، ولكنى عند القبَّعة أجدُ حدًّا تقفُ إليه ذاتيَّتى الفرديةُ ، فلا أرى ثَمةَ موضعَ انفراد ولكن موضع مشاكلة ، ولا أعرف صفةَ منفعة لى بل صفةَ حقيقة منى ، ويعترضنى من هناك المعنى الذى يصيرُ به النوعُ إلى الجنس ، والواحدُ إلى الجماعة . ومادمتُ مسلمًا أصلِّى وأركع وأسجد ، فالقبعةُ نفسُها تقول لى : دعنى فلستُ لك .

---

(١) الأصل تقليد تركيا لأوربا ، وهذه بدعة ؛ فتقليدنا لتركيا بدعة أسخف من الأولى .

وهؤلاء الرجالُ الذين لبسوها فى مصر ، إنما اشتقّوها من المصدر نفسِ المصدر الذى يَخرج منه التهتكُ فى النساء ، وكلاهما مَنزَعٌ من المخالفة ، وكلاهما ضدٌ من صفةٍ اجتماعية تقوم بها فضيلةٌ شرقية عامة . وليس يَعدم قائلٌ وجهاً من القول فى تزيين القبعة ، ولا مذهباً من الرأى فى الاحتجاج لها ، غير أن المذاهب الفلسفية لايُعجزها أن تقيم لك البرهانَ جَدَلاً محضاً على أن حياء المرأة وعفتَها إنْ هما إلا رذيلتان فى الفن . . . وإن هما إلا مرضٌ وضعف ، وإن هما إلا كيت وكيت ، ثم تنتهى الفلسفة إلى عدّهما من البلاهة والغفلة ، وما الغفلة والبلاهةُ إلا أن تريدَ فلسفةٌ من فلسفات الدنيا أن تُقْحِمَ فى كتاب الصلاة مثلاً فصلاً فى . . . فى . . . فى الدّعارة .

لايهولنَّك ما أقرر لك : من أن القبعة الأوربية على رأس المسلم المصرى ، تهتُّكٌ أخلاقىّ أو سياسىّ أو دينىّ أو من هذه كلها معاً ، فإنك لتعلم أن الذين لبسوها لم يلبسوها إلا منذ قريب ، بعد أن تهتكت الأخلاق الشرقية الكريمة وتحلل أكثر عُقَدِها ، وبعد أن قاربت الحريةُ العصريةُ بين النقائض حتى كادت تختلط الحدودُ اللغوية ؛ فحرية المنفعة مثلاً تجعل الصادقَ والكاذبَ بمعنى واحد ، فلا يقال : إلا أنه وجد منفعتَه فصدق ، ووجد منفعته فكذب ؛ وعند الحرية العصرية أنه ما فرّق بين اللفظين وجعل لكل منهما حدوداً إلا جهلُ القدماء ، وفضيلةُ القدماء ، ودينُ القدماء . وهذه الثلاثة : الجهل والفضيلة والدين ، هى أيضاً فى المعجم اللغوى الفلسفى الجديد مترادِفاتٌ لمعنى واحد ، هو الاستعباد أو الوهم أو الخرافة .

ومتى أزيلت الحدودُ بين المعانى ، كان طبيعياً أن يلتبسَ شىءٌ بشىء وأن يَحلّ معنى فى موضع معنىً غيره ، وأصبح الباطلُ باطلاً بسبب وحقاً بسبب آخر ، فلا يحكم الناسَ إلا مجموعةٌ من الأخلاق المتنافرة ، تجعل كلَّ حقيقة فى الأرض شبهةً مزوَّرةً عند من لاتكون من أهوائه ونزَعاته ، فيحتاج الناس بالضرورة إلى قوة تفصل بينهم فصلاً مسلحاً ، فيكْسِبون القانونَ بمدنيتهم قوةً همجية تضطره أن يُعِدّ للوحشية الإنسانية ، وتدفعُ هذه الوحشية أن تَعِدّ له .

ومن اختلاط الحدود تجىء القبعةُ على رأس المسلم، وماهى إلا حدٌ يطمِسُ

حدًّا ، وفكرةٌ تهزم فكرة ، ورذيلة تقول لفضيلة : هأنذى قد جئتُ فاذهبي .

ما هو الأكبر من شيئين لاحدّ بينهما لتعيين الصِّغر ؟ وما هو الأصغرُ من شيئين لا حدّ بينهما لتعيين الكبر ؟ إنها الفوضى كما ترى ما دام الحدْ لا موضع له فى التمييز ولا مقرّ له فى العُرف ولا فصلَ به فى العادة ؛ ومن هنا كان الدينُ عند أقوام أكبرَ كلمات الإنسانية فى عامة لغاتها وأملأها بالمعنى ، وكان عند آخرين أصغرها وأفرغَها من المعنى ؛ وما كبر عند أولئك إلا من أنه يسع الاجتماعَ الإنسانى وهو محدود بغاياته العليا ، وما صغر عند هؤلاء إلا بأن الاجتماع لا يسعه فلا حدّ له ، وكأنه معنى مُتوهَّم لاوجود له إلا فى أحرف كلمته .

فجماعة القبعة لايرون لأنفسهم حدًّا يحدونها به من أخلاقنا أو ديننا أو شرقيتنا ؛ وقد مَرَقُوا من كل ذلك وأصبحوا لا يرون فى زينا الوطنى ما فيه من قوة السر الخفى الذى يلهمنا ما أودعه التاريخُ من قوميتنا ومعانى أسلافنا .

وأنا أعرف أن منا قومًا يرى أحدُهم فى ظن نفسه أنه قانونٌ من قوانين التطور ؛ فهو فيما يلابِسُه لاينظر إلى أنه واحد من الناس ، بل واحدٌ من النواميس . . . ومن هنا التَّقَل والدعوى الفارغةُ ، وما هو أكبر من الثقل وفراغ الدعوى . وإنه لحقٌّ أن يكونَ بعضُ الناس أنبياء ، ولكن أقبحَ ما فى الباطل أن يظن كلُّ إنسان نفسَه نبيًّا .

واعلم أن كثيراً مما يزينونه للشرق من رذائل المدنية الأوربية ، إن هو إلا منطقُ شهوات فى جملته ، ولقد تسمعُ الجائعَ يتكلم عن الطعام ، فترى كلامًا تحته معانٍ ومعانٍ لا يعدها غيرُ الجائع إلا حماقةَ ساعتها . . .

سعد زغلول

وقال صاحب سرّ (م) باشا : أَلقى إلىّ الباشا ذاتَ يوم أن (سعداً) مُصبِّحُنا زائراً[١] ، وكانت بين الرجُلين خاصةٌ وأسبابٌ وطيدة . وللباشا موقعٌ أعرفه من نفس سعد كما أعرف الشُّعلةَ فى بركانها ؛ أما سعدٌ فكان قد انتهى إلى النهاية التى جعلته رجلاً فى إحدى يديه السِّحرُ وفى الأخرى المعجزة ، فهو من عظماء هذه البلاد كقاموس اللغةِ من كلماتِ اللغةِ : يُرَدُّ كلُّ مُفْرَدٍ إليه فى تعريفه ، ولاتصح الكلمةُ عند أحدٍ إلا إذا كانت فيه الشهادةُ على صحتها .

وجاءنا سعدٌ غُدْوَةً ، فأسرعتُ إلى تقبيل يده قبلةً لاتشبهها القُبلات ، إذ مُثِّلتْ لى من فرحها كأنها كانت منفيةً ورجعت إلى وطنها العزيز حين وُضعتْ على تلك اليد .

إن الرجل العظيم إذا كان بارًّا بأبيه عارفاً قدرَه مُدركًا عظمتَه ، يشعر حين يقبِّل يدَ أبيه كأنه يسجدُ بروحه سجدةً لله على تلك اليد التى يقبلها ، ويجد فى نفسه اتصالاً كهربائيًّا بين قلبه وبين سرّ وجوده ، ويَخُصُّه العالَمُ بلمسةٍ كأن قُبلتَه نبضتْ فى الكون : وكل هذا قد أحسسته أنا فى تقبيلى يدَ سعد ، وزدتُ عليه شعورى بمثل المعنى الذى يكون فى نفس البطل حين يقبِّل سيفَه المنتصر .

وضحك لى سعد باشا ضحكتَه المعروفة ، التى يبدأها فمُه ، وتتمها عيناه ، ويشرحها وجهُه كلّه ، فتجد جوابَها فى روحك كأنه فى روحك ألقاها .

والرجلُ من الناس إذا نظر إلى سعد وهو يتبسّم ، رأى له ابتسامةً كأنها كمالٌ يتواضع ، فيُحس كأن شيئًا غيرَ طبيعى يتصل منه بشىء طبيعى ، فينتعشُ ويثبُ فى وجوده الروحىّ وثبةً عاليةً تكون فرحاً أو طربًا أو إعجابًا أو خشوعا أو كلهامعًا . غير أن الرجلَ من الحكماء إذا تأمل وجهَ سعد وهو يضحك ضحكتَه المطمئنةَ المتمكنةَ من معناها المقِرِّ أو المنكرِ أو الساخرِ أو أىِّ المعانى — حسب نفسَه يرى شكلاً من القول لا من الضحك ، وظهرت له تلك الابتسامةُ الفاسفية

---

(١) يقال : صبحه (بتشديد الباء) ، أى جاءه صبحاً .

متكلمةً ، كأنها مرةً تقول : هذا حقيقى . ومرة تقول : هذا غير حقيقى .

إن سعداً العظيم كان رجلاً ما نظر إليه وطنىٌّ إلا بعين فيها دلائلُ أحلامِها ، كأنما هو شخصُ فكرة لاشخصُ إنسان ؛ فإذا أنت رأيتَه كان فى فكرك قبل أن يكون فى نظرك ؛ فأنت تَشهدُه بنظرين : أحدُهما الذى تُبصِرُ به ، والآخر ذاك الذى تؤمنُ به .

عبقرىٌّ كالجمرة الملتهبة لا تحسبه يعيش بل يحترق ويُحرق ؛ ثائرٌ كالزلزلة فهو أبداً يرتجُّ وهو أبداً يَرُجُّ ما حوله ؛ صريحٌ كصراحة الرسُل ، تلك التى معناها أن الأخلاق تقول كلمتَها .

رجلُ الشعب الذى يُحِسُّ كلُّ مصرى أنه يملك فيه مِلكًا من المجد . وقد بلغ فى بعض مواقفه مبلغَ الشريعة ، فاستطاع أن يقولَ للناس : ضعوا هذا المعنى فى الحياة ، وانزِعوا هذا المعنى من الحياة .

* * *

قال صاحب السر : وانقضت الزيارة وخرج سعد والباشا إلى يساره ، فلما رجع من وداعه قال لى : والله يا بنىَّ لكأنما زاد هذا الرجلُ فى ألقاب الدولة لقبًا جديداً ، ثم ضحك وقال : أتدرى ما هو هذا اللقب ؟ قلت : فما هو يا باشا ؟

قال : والله يا بنى ما من (باشا) فى هذه الدولة يكون إلى جانب سعد ، إلا وهو يشعر أن رتبته (نصف باشا) . . .

هذا رجل قد بلغ من العظمة مبلغًا تَصَاغر معه الكبير ، وتضاءلَ العظيم ، وتقاصَر الشامخ ؛ نعم وحتى ترك أقوامًا من خصومه العظماء، كفلان وفلان ، وإن الواحدَ منهم ليلوحُ للشعب من فراغه وضعفِه وتَطَرُّحِه ، كأنه ظلُّ رجلٍ لا رجل .

وقد أصبح قوةً عاملةً لابد من فعلها فى كل حىّ تحت هذا الأُفق ، حتى كأن معانىَ نفسِه الكبيرة تنتشر فى الهواء على الناس ، فهو قوة مرسَلة لاتُمسَك ، ماضيةٌ لاتُردّ ، مقدورةٌ لايُحتال لها بحيلة .

هذا وضْعٌ إلهى خاصٌّ لا يشبهه أحدٌ فى هذه الأمة ، كميدان الحرب

لاتشبهه الأمكنة الأخرى ؛ فقد غامَر سعدٌ فى الثورة العرابية وخرج منها ، ولكنها هى لم تخرج منه ؛ بل بقيت فيه ؛ بقيت فيه تتعلم القانونَ والسياسةَ ، وتُصلح أغلاطَها ، ثم ظهرت منه فى شكلها القانونى الدقيق . وبهذا تراه يَغْمُر الرجال مهما كانوا أذكياء ؛ لأن فيه ماليس فيهم ، وتراهم يظهرون إلى جانبه أشياء ثابتةً فى معانيها ، أما هو فتراه من جميع نواحيه يتلاطم كالأمواج العاتية .

وتلك الثورة هى التى تتكلم فى فمه أحيانًا فتجعل لبعض كلماته قوةً كقوة النصر ، وشهرةً كشهرة موقعةٍ حربية مذكورة .

ولما كان هو المختار ليكون أبًا للثورة — حرمته القدرةُ الإلهية النسلَ ، وصرفت نزعةَ الأبوّة فيه إلى أعماله التاريخية ، ففيها عنايتُه وقلبُه وهمومُه ، وهى نسلٌ حىٌّ من روحه العظيمة ، ويكاد معها يكون أسداً يزأرُ حولَ أشباله .

ولن يُذكَر السياسيون المصريون مع سعد ، ولن يذكر سعد نفسُه إذا انقلب سياسيًّا ، فإن المكانَ الخالىَ فى الطبيعة الآن هو مكانُ رجل المقاومة لارجلِ السياسة ، وهذا هو السبب فى أن سعداً يُشْعِر الأمةَ بوجوده لذةً كلذة الفوز والانتصار ، وإن لم يفز بشىء ولم ينتصر على شىء ؛ فاطمئنانُ الشعب إلى زعيم المقاومة ، هو بطبيعته كاطمئنان حامل السلاح إلى سلاحه .

وسعد وحده هو الذى أفلح فى أن يكون أستاذَ المقاومة لهذه الأمة ؛ فنسخ قوانينَ ، وأوجد قوانين ، وحمل الشعبَ على الإعجاب بأعماله العظيمة ، فنبـَّه فيه قوةَ الإحساس بالعظمة فجعله عظيما ، وصرفه بالمعانى الكبيرة عن الصغائر ، فدفعه إلى طريق مستقبله يُبدع إبداعَه فيه .

إن هذا الشرقَ لايحيا بالسياسة ولكن بالمقاومة ما دام ذلك الغربُ بإزائه ؛ والفريسةُ لا تتخلص من الحلْقِ الوحشىّ إلا باعتراض عظامها الصلبة القوية فى هذا الحلق .

وكم فى الشرق من سياسى كبير يجعلونه وزيراً ، فتكون الوظيفة هى الوزيرَ

لانفسُ الوزير ، حتى لو خلعوا ثيابـَه على خشبة ونصَّبوها فى كرسيه ، لكانت أكثرَ نفعـًا منه للأمة ، بأنها أقلُّ شرًّا منه . . .

يا بنيّ ، كل الناس يرضَون أن يتمتعوا بالمال والجاه والسيادة والحكم ، فليست هذه هى مسألةَ الشرق ، ولكن المسألة : مـَن هو النبي السياسيُّ الذى يرض أن يـُصْلـَب . . . ؟

حماسة الشعب

وحدثنى صاحبُ سر (م) باشا قال : لما رجع سعد باشا من أوربا فى سنة ١٩٢١، كانت الأمةُ فى استقباله كأنها طائر مدّ جناحيه ، لاخلافَ لشىء منه على شىء منه ، بل كلّه هو كلّه ؛ وكانت المعارضة فى الاستحالة يومئذ كاستحالة وجود رُقعةٍ فى ريش الطائر .

على أن ثوبَ السّياسة المصرية كثيرُ الرُّقع دائماً بالجديد والخَلَق ، فرقعةٌ من المعارضين ، وأخرى من المتعنّتين ، وثالثةٌ من المتخاذلين ، ورابعة من المعادين ، وخامسة وسادسة وسابعة من الحاسدين والمنافسين والمختلفين لشهوة الخلاف ؛ ورقاعٌ بعد ذلك مما نعلم ومالا نعلم ، فإن من العجيب أن هذا الجو الذى لاينقلب إلا بطيئًا ، ينقلب أهلُه بسرعة ؛ وهذه الطبيعة التى لاتكاد تختلف ، لايكاد أهلها يتفقون .

ولكن سعداً (رحمه الله) رجع من أوربا رجعةَ الكرامة لأمة كاملة ، ففاز بأنه لم يخسر شيئًا من الحق ، وانتصر بأنه لم يُهزم ،ودل على ثباته بأنه لم يتزعزع ، وذهب صَولةً ورجع صَولةً وعزيمة ؛ فكان إيمانُ الشعب هو الذى يتلقاه ، وكانت الثورةُ هى التى تحتفل به ، وبطلت العللُ كلّها فلم يجد الاعتراضُ شيئًا يعترض عليه ، واتفقت الأسبابُ فاجتمعت الكلمة ، وظهر سعد كأنه روحُ الأمة متمثّلاً فى قدرة ، حاكماً بقوة ، متسلطًا بيقين .

نعم لم ينتصر البطلُ ، ولكن الأمة احتفت به لأنه يمثل فيها كمالاً من نوع آخر هو سرُّ الانتصار ؛ فكانت حماسة الشعب فى ذلك اليوم حماسةَ المبدإ المتمكن : يُظهر شجاعةَ الحياة ، وفَوْرةَ العزائم ، وفضيلةَ الإخلاص ، وشدةَ الصولة ، وعنادَ التصميم ؛ ويثبت بقوة ظاهره قوةَ باطنه ، وكان فرحُ الأمة عِناداً سياسيًّا يفرح بأنه لايزال قويًّا لم يَضعف ، وكان ابتهاجُها مجداً يشعر بأنه لا يزال وافراً لم يُنْتَقَص ، وكان الإجماعُ ردًّا على اليأس ، وكانت الحماسةُ ردًّا على الضعف .

انبعثت صولةُ الحياة فى الشعب كلّه ، وابتدأ المستقبلُ من يومئذ ، فلونزلت

الملائكةُ من السماء فى سحابة مُجَلَّجِلة يسمَعُ تسبيحَهم ليؤيدوا سعداً — لما زادوه شيئًا ؛ فقد كان محله من القلوب كأنه العقيدة ، وكان التصديقُ مبذولاً له كأنه الكلمة الأخيرة ، وكانت الطاعة موقوفةً عليه كأنه الباعثُ الطبيعى ، وكان البطلُ فى كل ذلك يشبه نبيًّا من قِبَل أن كلاًّ منهما صورةٌ كاملة للسموّ فى أفكار أمة .

* * *

قال صاحب السر : ورجع الباشا من القاهرة وقد رأى ما رأى من مسامحة النفوس ، وصحةِ العهد ، واجتماعِ الكلمة ، وإعدادِ الشعب للمِراس والمعاناة ، فقال :

تالله لقد أثبت (سعد) للدنيا كلها أن مصرَ الجبارة متى شاءت بنت الرجالَ على طريقة الهرم الأكبر فى العظمة والشهرة والمنزلة والقوة . ولقد صنع هذا الرجلُ العظيم ما تَصنع حربٌ كبيرة ، فجمع الأمةَ كلها على معنى واحد لايتناقض ، ودفعها بروح قومية واحدةٍ لا تختلف ، وجعل عِرقَ السياسة يفور كما يفور العرقُ المجروحُ بالدم .

إن هذه الأمةَ بين شيئين لاثالثَ بينهما : إما الحزمُ إلى الآخر وإما الإضاعة . ولا حزم إلا آن يبقى الشعبُ كما ظهر اليوم : طوفانًا حيًّا ، مُستَوِىَ الطبيعة ، مندفع الحركة ، غامِراً كلَّ ما يعترضه ، إلى أن يُقضَى الأمر ويقول أعداؤنا : يا سماء أقلعِى .

هكذا يعمل الوطنُ مع أهله كأنه شخصٌ حىٌّ بينهم ، حين يستوى الجميع فى الثقة ، ويتآزر الجميعُ فى الأمل ، ويشترك الجميعُ فى العطف الروحى ، ولايبقى لجماعة منهم حظٌّ فى رغبة غيرِ الرغبة الواحدة للجميع ؛ وهكذا يعمل الوطن بأهله حين يعمل مع أهله .

كان أعداؤنا يحسبوننا ذبابًا سياسيًّا لاشأنَ له إلا بفَضَلات السياسة ، ولا عملَ له فى أزهارها وأثمارها وعِطْرها وحَلْواها ؛ فأسمعهم الشعبُ اليوم طنينَ النحل ، وأراهم إبَرَ النحل ، ليعلموا أن الأزهارَ والأثمارَ والعطرَ والحلوى هى له بالطبيعة .

وكانوا يتخرّصون أن مذهبنا فى الحياة لمصلحة المعاش فقط ، وأن المصرىّ حاكماً أو محكوماً لايـَمدُّ آماله الوطنيةَ إلى أبعدَ من مدة عمره سبعين أو ثمانين سنة ، فإذا أطلقوا أيديـَنا فى حاضر الأمة أطلقنا أيديـَهم فى مستقبلها . ومن ثم طمعوا أن يكون الحقُّ الناقصُ فى نفسه حقًّا تامًّا فى أنفسنا لهذه العلة ؛ وحسبوا أن السياسىَّ المصرى لايتجرأ أن يقول ما يقوله السياسىُّ الأوربى : من أنه لايخشى الموتَ ولكنه يخشى العار . فإنه إذا مات وحده ، وإذا جلب العار جلبه على نفسه وعلى أمته وعلى تاريخ أمته ، بَيـْدَ أن سعداً قالها ؛ وفى مثل هذا قد يكون قول (لا) معركة .

وها هى ذى معركةُ اليوم التاريخية ، فإن الذرّاتِ الحيةَ التى تُخلق من دمائنا نحن المصريين قد ثارت فى هذه الدماء، فى هذا النهار ، تعلن أنها لاترضى أن تولـَد مقيـَّدة بقيود .

أتدرى ماذا عرضوا على سعد ؟ إنهم عرضوا عليه ما يشبه فى السخرية طاحونةً تامةَ الأدوات والآلاتِ من آخر طراز ، ثم لاتـُقدَّم لها إلا حبةُ قمح واحدة لتطحنـَها . . . . نتيجةٌ تسخر من أسبابها ، وأسبابٌ تهزأ بالنتيجة .

إن أوربا لا تحترم إلا من يحملها على احترامه ، فما أرى للسياسيين فى هذا الشرق عملاً أفضلَ ولا أقوى ولا أردَّ بالفائدة من إحياء الحماسة فى كل شعب شرقى ، ثم حياطتـِها وحسنِ توجيهها ؛ فهذه الحماسةُ الشعبيةُ الدائمةُ القويةُ البصيرةُ ، هى قوةُ الرفض لما يجب أن يـُرفـَض ، وقوةُ التأييد لما يجب أن يقـُبـَل ، وهى بعد ذلك وسيلةُ جمع الأمرِ ، وإحكامِ الشأن ، وإقرارِ العزيمة فى الأخلاق ، وتربيةِ الثقة بالنفس ، وبها يكون إذكاءُ الحسِ وتعويدُه إدراكَ الأعمال العظيمة ، والتحمسَ لها ، والبذلَ فيها .

وما علةُ العللِ فينا إلا ضعفُ الحماسة الشعبية فى الشرق، وسوءُ تدبيرها ، وقبحُ سياستها ؛ وإنا لنأخذ عن الأوربيين من نظامهم وأساليبهم وسياستهم وعلومهم وفنونهم ؛ فنأخذ كلَّ ذلك بروحنا الفاترة فى خمول وإهمال وتواكُلٍ وتـَفرُّدٍ بالمصلحة واستبدادٍ بالرأى ، فإذا دينارُهم فى أيدينا درهم ، وإذا نحن وإياهم فى الشىء الواحد كالنحلة والذبابة على زهرة . . .

ليست لنا حماسةُ الحياة ، وبهذا تختلف أعمالُنا وأعمالُهم ، وذلك هو السرُّ أيضاً فى أن أكثر حماستنا كلاميةٌ محضةٌ ؛ إذ يكون الصراخُ والصياحُ والتشدُّقُ ونحوُها من هذه المظاهر الفارغة — تنقيحاً للطبيعة الساكنة فينا ، وتنويعاً منها بغير أن نجهدَ فى التنقيح والتنويع . ومن هذا كانت لنا أنواعٌ من الكلام ينطلق اللسانُ فيها للخروج من الصمت لاغير . . . ومنه كثير من هذا الهُراءِ السياسيِّ الذى يدور فى المجالس والأحزاب والصحف .

إن حماسة الشعب لاتكون على أعدائه فقط ؛ بل على معايبه أيضاً ، وعلى ضعفه بخاصَّة ، والشعبُ الفاترُ فى حماسته لونال حقين مغصوبين لعاد فخسِر أحدَهما أو كليهما ، أما الشعب المتحمس القوى فى حماسته ، فلو غُصِبَ حقين ونال أحدَهما لعاد فابتزَّ الآخر .

الجمهور

وقال صاحب سر (م) باشا : كان من بعض عملى فى الحكومة سنة ١٩٢٢ أن أراقبَ الحركاتِ والسكناتِ ، وأبثَّ العيونَ والأرصادَ ، وأعرفَ المضطربَ والمنقلَبَ فى أيام الفتن ونوازلِ المحنةِ ، محافظةً على الأمن، ومبادرةً لما يُتوقع ؛ فكنت كالمرصدِ المهيَّإ بآلاته لتدوين حركاتِ الزلازل .

وانتهى إلينا يومًا أن راجفةً من هذه الزلازل سترجُف بفلان من أهل الرأى الحر، الذى يَستقِلُ ولا يُتابِعُ ، وينتقد ولايُحابى ، ويُصرّح ولا يُجَمْجِمُ ، وأن قومًا ثوَّروا عليه الغُبارَ الآدمىَّ من العامة وأشباهِ العامة ، وأنهم يتحيَّنون الوقتَ لتوجيه المكيدةِ له فى شكلها المفترسِ من هذا الجمهور النائم .

أما فلان هذا فرجلٌ سياسىٌّ عنيد أضاع الحقَّ كلَّه لأنه لايرضى بنصف الحق . . . وكلمتُه فى السياسة كأنما تُلقَى على لسانه من الغيب ؛ فلا يتحول عنها ولايملك أن يتكلم إلا بما يتكلم ؛ وقد ذهب بصوته أنه فى قوم لايسمعون إلا ما أردوا ، فهو بينهم كالحق المغلوبِ : لايموت لأنه غيرُ باطل ، ثم لايحيا لأنه لاينتصر . وقد كان رجلاً كالمصباح الوهَّاج فألقَوا عليه الغِطاء، فإذا هو فى طبيعته ويبدو للناس بغير طبيعته ، وتركه رأيه الحرُّ الصريحُ كالنبىِّ المكذَّب يَردُّ صِدقُه ؛ لا لأنه غيرُ صدْق ، ولكن لأنه غيرُ مستطاعٍ ، أو غيرُ ملائم .

ومن آفاتنا نحن الشرقيين أننا نستمرئ العداوةَ ، وننقادُ لأسبابها ، ونتطاوَعُ لها تطاوُعَ الصغار بأنفسهم لما فى أنفسهم ؛ كأن المستبدين الذين كانوا فى تاريخنا قد انتقلوا إلى طبائعنا ؛ فرَدُّ الفكرِ على الفكرِ فى مناقشة تَجرى بيننا — لايكون من دَفْع الحقيقة للحقيقة ، ولكن من رد الاستبدادِ على الاستبداد ، ومن توثُّب الطغيان على الطغيان ؛ فهو التَّلبُّ ؛ والطعنُ والتجريح ، وهو الجَفْوةُ والخصومةُ والَّلدَد ، وهو المنازَعةُ والعنفُ والتحامل ؛ وهو بهذه وتلك شرٌّ وفسادٌ وسقوط . والجدالُ بين العقلاء يبعثُ الفكرَ فينتهى إلى الحق ، ولكنه فينا نحن يَهيجُ الخُلُق فينتهى إلى الشر ، والردُّ على عظيم منا كأنه

يردُّ على منزلته فى الناس لا على منزلته فى الرأى ، وكشفُ الخطأ عندنا تعيير بالخطأ لاتبصير بالصواب ، واستِلابُ الحجَّةِ من صاحبها وإفسادُها عليه كاستلاب المِلك من مالكه وطردِه منه . . .

ومن ثَمَّ كان الدفاعُ بالمكابرة أصلاً من أصول الطبيعة فينا ، وكان الاضطهادُ حجةً للحجة العاجزة ، وكان الإعناتُ دليلاً للدليل الذى لاينهضُ بنفسه ، ومتى اعتَبر كلٌّ إنسان نفسَه إمبراطوراً على الحق ... فلا جَرَمَ لا تَردُ كلمةٌ على كلمةٍ إلا بحرب .

* * *

قال صاحبُ السر : وكَبُرَ الأمرُ على الباشا ، فجمع رءوسَ المؤتمِرين بذلك الرجل الحر ، وأخذ يقلِّبهم تقليبَه بين التودُّد والملاطفة ، وقال لهم فيما قال : إن فضيلة الجمهور هى التى تضمن تربيةَ الفضيلة وحفظَها وغلَبتَها على الرذائل ، وإن كلَّ صحيح يكون فاسداً إذا لم يكن الجمهورُ صحيحاً ، وإن غيرَ العقلاء هم الذين يقبلون الحقيقةَ فى يوم ثم يرفضونها هى ذاتَها فى يوم آخر ، فإن ذهبتَ تجادلهم وتحتجُّ عليهم بأنهم قبلوها — قالوا : هذا كان أمس . . . فكأنماالفاصلُ بين زمنين يجعل الشىء الواحدَ ضِدَّين .

ثم سألهم : ما هو ذنبُ الرجل ؟ فقال منهم قائل : إنه خارجٌ علينا فى الرأى . فقال الباشا : إن المعنى فى أنه يخالفكم هو أنكم أنتم تخالفونه ؛ فقد تكافأت الناحيتان ، وخلافٌ بخلاف ؛ فما الذى جعل لكم حقَّ رده عن الرأى دون أن يكون له مثلُ هذا الحق فى ردكم أنتم ؟

قالوا : إننا الكثرة . قال الباشا : يا أصدقائى ، إن خوفَ الكثرة من رأى فرد أو أفراد هو أسوأ المعنيَين فى تفسير رأيها هى ؛ وعشرةُ جنيهات لاتعبأ بالجنيه الواحد ، فإنها تستغرقه ؛ بَيْدَ أن هذه ليست حالَ عشرة قروش يا أصدقائى . . . .

نعم إن قطعَ الخلاف ضرورةٌ من ضرورات الوطنية ، ولكن إذا كان الأمر فى ظاهره وباطنه كالخلاف فى أيِّهما أطولُ : العَصا أو المِئذنة . . . ؟ فذلك جدال محسومٌ من نفسه بلا جدال .

إن أساسَ انخذالنا نحن الشرقيين فى قلوبنا ، إذ لا نعتبر المعانىَ العامةَ إلا من جهة أنها قائمةٌ بالرجال ، ثم لا نعتبر الرجالَ إلا من ناحية ما فى أنفسِنا منهم ، ثم لانعتبر أنفسَنا إلا من جهة ما يُرضينا أو يغضبنا ، وقد لايغضبنا إلا الحقُّ والجِدُّ ، وقد لا يرضينا إلا الباطلُ والتهاون ، ولكنا لانبالى إلا ما نرضى وما نغضَب .

لستم أحراراً فى أن تجعلوا غيركم غيرَ حر ، فإن يكن الرأىُ الذى يعارضكم رأياً حقًّا وتركتم مُنَابذَتَه فقد نصرتم الحق؛ وإن يكن باطلاً فإظهاره باطلاً هو برهانُ الحق الذى أنتم عليه ؛ ولن تجرّدوا أحداً من اختيار الرأى إلا إذا تجردتم أنتم من اختيار العدل ، فإن فعلتم فهذه كبرياء ظالمة ، تدَّعى أنها الحق ، ثم تدَّعى لنفسها حكمه ، فقد كذَبتْ مرتين .

اسمعوا أيها السادة : قامت بين اثنين من فلاسفة الرأى مناظرة فى صحيفة من الصحف ، وتساجَلا فى مقالاتٍ عِدّة ، فلما عجز أضعفُهما حجةً وكَعَمه الجدال ، كتب مقالته الأخيرة فجاءت سقيمةً ، فلم ترضه فبيَّتَها ونام عنها على أن يرسلها من الغَداة بعد أن يُردد نظره فيها ويصححَ آراءه بالحجج التى يُفتح بها عليه . قالوا : فلما نام تمثَّلت له المقالة فى أحلامه جسما حيًّا موهونًا مترضضًا ، مخلوعًا من هنا مكسوراً من هناك ، مجروحًا مما بينهما ؛ ثم كلمتْه فقالت له : ويحك أيها الأبله ! إن أردتَ أن تغلب صاحبك وتُسكِتَه عنك ، فاحملْ مقالتك إلى رأسه فى العصا لا فى الجريدة . . .

* * *

قال صاحب السر : وضحك القومُ جميعًا ، وأذعنوا وانصرفوا مقتنعين ، قد خلَصَتْ دِخْلتُهم لذلك الرجل الحر وتنصَّلوا من جريمة كانت فى أيديهم ، وما جاء الباشا بمُعْجِزٍ من القول ، ولكنَّ تصويرَه للمسألة كان حلاً لها فى نفوسهِم . فلما أدبروا تنفَّس الباشا كأنما خرج من البحر وكان يتعاطى إنقاذَ غريق ويعانى فيه حتى نجا ؛ ثم قال لى : إن هذا كان جواباً عن شىء فى أنفسهم ، ولكنه هو سؤال عن شىء فى أنفسنا : ما الذى يجعل الناسَ عندنا يخشَون

المعارضة فى الرأى الوطنى حتى إنهم ليجازُون عليها بهذه العقوبة الشعبية المنكرة ؟ وما بالهُم لايعطون الرأى حكمتَه وحقيقتَه ، بل يعطونه من حكم أنفسهم وحقائقها وشهواتها المتقلبة ، حتى لترجعُ الفروقُ الضعيفةُ المتجانسةُ فى أبناء الوطن الواحد وكأنها من الخلافِ والمبايَنَة فروقٌ جنسيةٌ كالتى تكون بين إنسانٍ من أمة ، وإنسانٍ من أمة أخرى تعاديها.

قلت : إن رأى الكثرة قانون يا باشا .

قال : هذا صحيح ، ولكن بشرطين لابشرط واحد : الأولُ ألاّ يخرجَ الرأىُ على القانون ، والثانى ألاّ تكونَ الحقيقةُ فى الرأى الذى يناقِضه ؛ ومحاولة إكراهِ المعارضة نقضٌ للشرطين معًا ؛ ثم إن أساس الوطنية سلامةُ القلوب وصفاءُ النيات ، واستواء الموافق والمخالف فى هذا الحكم ، ومتى وقع الخلاف بين اثنين وكانت النية صادقةً مُخْلَصَة، لم يكن اختلافُهما إلا من تنوع الرأى، وانتهيا إلى الاتفاق بغلبة أقوى الرأيين ، ما من ذلك بد .

الحقيقة يا بنى أن الجماهيرَ الشرقيةَ ليست فى تربيتها من الجماهير السياسية التى يُعتدُّ بها ، إذ لاتزال فى أول عمرها السياسى ، وبهذا السبب وحده كان اختلافُ الكبراء فى السياسة لايشبهه إلا نزاعُ الخصمين بغير شهود ولا قاضٍ نافذِ الحكم ، فهو نزاع قوة تفوز بوسائلها ، لا نزاعُ حق يَستعْلى بأدلته.

وهذه المجالسُ النيابية الشرقية كلها صُورٌ ممثَّلة جافَّة ، منقطعةُ النماء من أسبابها ، كالفرع المقطوع من الشجرة ، وإنما يتنضَّرُ الفرعُ ويُثمِر أثمارَه إذا قام بشجرته لابنفسه ، وما شجرةُ الفرع السياسىّ إلا الجمهورُ السياسى .

فسبيلُ الإصلاح فى كل مملكة شرقية أن ينهض أهلُ الرأى من كل مدينة فيها بين عالم وأديب ومحام وسَرِىّ ، ومن كان بسبيل من هؤلاء ، فيجعلوا لمدينتهم دارَ ندْوة للاجتماع والبحث والمشُورة ، وقول (نعم) بالحجة وقول(لا) بالحجة . ثم يعلنون ذلك فى جمهورهم وينزلون منه منزلةَ الأستاذ والأب والصديق فى تعليمه وهدايته وإرشاده ؛ وتتصل هذه الدورُ فى كل مملكة بعضُها ببعض ، وتنتهى بالمجالس النيابية . وبغير ذلك لايُملأُ الفراغُ الذى نراه خاويًا بين الشعب

والحكومة ، وبين الكبراء والجماهير ، وإنما أكثرُ مصائبنا من هذا الفراغ ؛ فهو الذى يَضيع فيه ما يضِيع فيه ، ويختفى ما يختفى .

منا قومٌ موظفون فى الحكومة ؛ لكن أين القومُ الذين تكون الحكومة نفسُها موظفةً عندهم ؟

* * *

(اعتذار) : بهذا المقال انتهت أحاديث الباشا ؛ فقد أنبأنا صاحب السر أنه سيكتم السر . . . .

المجنون*

جاء يمشى هادئًا يتخيلُ فى مِشْيته ، يَرْجُفُ بين الخَطوة والخطوة كأنه من كِبره يُشعِرك أن الأرضَ مُدرِكة أنه يمشى فوقها . . . ولا ينقلُ قدمَه إذا خَطَا حتى ينْهضَ برأسه يُحرِّكه إلى أعلى ، فما تدرى أهو يريد أن يطمئنَّ إلى أن رأسَه معه . . . أم يُخَيَّل إليه أن هذا الرأسَ العظيم قد وُضع على جسمه فى موضع راية الدولة ، فهو يَهزُّه هزَّ الراية . . .

وأخذتْه عينى وليس بينى وبينه إلا طولُ غرفةٍ وعرضُها — فإذا هو زائغُ البصر كأنما وقع فى صحراءَ يقلِّب عينَه فى جهاتها متحيراً متردِّداً ، ثم كأنما رُفِعَ له فى أقصاها جبلٌ فأخذ إلى ناحيته . . .

ورحَّبتُ به ، وأجلسته إلى جانبى ، فأخذ يَستَعْرِفُ إلىَّ بذكر اسمه وجماعتِه وبلده ، لايزيد على ذلك شيئًا ، كأنه عنترةُ بنى عَبْس : لأرضه من طبيعتها جغرافيا ، ومن اسمه جغرافيا على حِدَة . . . فلما رآنى لا أُثْبِتُه مَعْرِفةً قال : إن بك نسيانًا .

قلت : وكثيراً ما أَنسى غير أن اسمك ليس من هذه الأسماء التى تذكِّر بتاريخ .

قال : هذه غلطةُ الجرائد . . ومهما تنسَ من شىء فلا تنسَ أنك أستاذُ « نابغة القرن العشرين[1] » . . .

فسرَّحتُ فيه نظرى ، فإذا أنا بمجنونٍ ظريفٍ أمردَ أهيفَ ، يكاد برخاوته وتفكّكه لايكون رجلاً ، ويكاد يبدو امرأةً بجمال عينيه وفتورهما .

وتوسمتُ فإذا وجهٌ ساكنٌ منبسطُ الأساريرِ ممسوحُ المعانى ، يُنبئُ بانقطاع صاحبه مما حوله ، كأن دنياه ليست دنيا الناس ، ولكنها دنيا رأسِه . . .

---

* انظر حديث هذا المجنون وخبره فى « عود على بدء » من كتاب « حياة الرافعى » .

(١) هذا الشاب المجنون من الأذكياء ، وكان قد انتهى إلى مدرسة المعلمين الأولية ، ثم خولط فى عقله فتركها ؛ وكل ما يمر فى هذا المقال بين قوسين فهو بنصه من كلامه .

وتأملتُ فإذا طفولةٌ متبلِّدة قد ثبتتْ فى هذا الوجه لتُخرِجَ من بين الرجلِ والطفلِ مجنونًا لا هو طفلٌ ولا رجل .

وتفرَّستُ فإذا آثارُ معركةٍ باديةٍ فى هذه الصَّفحة ، قتَلاها أفكارُ المسكين وعواطفهُ .

وتبيَّنتُ فإذا رجلٌ مُستَرْخٍ ، مُتَفتِّرُ البدن ، خائرُ النفس ، كأنه قائم لِتَوِّه من النوم فلا تزال فى عينه سِنَةٌ ، وكأنه يتكلم من بقايا حُلُمٍ كان يراه . . .

وخُيِّل إلىَّ من هذا الخُمولِ فى هذا الشاب ، أن عليه جوًّا من تثاؤبه ، وأن المكانَ كلَّه يتثاءبُ ، فتثاءبت . . . .

* * *

فلما رأى ذلك منى ضحك وقال : إن « نابغة القرن العشرين » رجل مغناطيسىٌّ عظيم ؛ فها هو ذا قد ألقى عليك النوم . . وحسبُكَ فخراً أن تكونَ أستاذَه وأخاه وثِقتَه ، « فليس على ظهرِها اليوم أديبٌ غيرى وغيرَك . . . »

قلتُ فى نفسى : إنّا لله ، ما يعتقد الرجلُ أن على ظهرها مجنونًا غيره وغيرى ، وكأنما ألمَّ بذلك فقال : لستُ مجنونًا ؛ ولكنى كنت فى البيمارستان . . .

قلت : أهو البيمارستان الذى يسمَّى مستشفى المجاذيب ؟

قال : لا ؛ إن هذا الذى تسميه أنت ، هو هو مستشفى المجاذيب ؛ أما الذى سميتُه أنا فهو مستشفى فقط . . .

وذكرتُ عندئذٍ أن من المجانين قومًا ظُرفاء يَدْخُلُهم الفسادُ فى عقولهم من ناحيةِ فكرةٍ ملازمةٍ لا تَبْرَحُ ، فلا يكون جنونُهم جنونًا إلا من هذا الوجه ، وسائرُ أحوالهم كأحوال العقلاء ، غير أنهم بذلك طيَّاشون متقلِّبون ، إذا ازْدُهِىَ لم يُطِقْهُ الناسُ من زَهْوه وكبريائه وتنطّعِه ، كأنه واحدُ الدنيا فى هذه الفكرة ، وكأن بينه وبين الله أسراراً ؛ ويظن عند نفسه أنه أعقلُ الناس فى أرقى طبقاتِ عقله ، وما جنونُه إلا فى هذه الطبقة وحدها .

ومثلُ هذا لا بدَّ له ممن يستجيبُ لهذَيانه كما يحركَ فيه خفتَه وطيشَه وزهوَه ، وليكونَ عنده الشاهدَ على هذا الوجود الخيالىِّ المُبدَع الذى لا يوجد

إلا فى عقله المختل . فإذا هو ظفر بمن يُحاسِنه ، أو يصانِعه ، أو يجاريه ، ويُنسِبه مُذْعِنًا مؤمنًا مصدِّقًا ، فلا يدَعه من بعدها ويتعلق به أشدَّ التعلق ، ويراه كأنه فى ملكه . . فيتخذُه صفيًا وهو يعتقد أنه رقيق ، وقد يزعُمه أستاذَه ليفهمَه من ذلك بحساب عقلِه . . . أنه تلميذُه .

وخشيتُ أن يكون (نابغة القرن العشرين) لم يُسمِّنى أستاذَه إلا بحساب من هذا الحساب ، فهو سيُعطى الأستاذيةَ حقَّها ، ولكن كما هو حقُّها فى لغة جنونه . . . فأُصبِحُ فى رأيه تلميذَه وصنيعتَه، ومحدِّثَ هذيانه ، وثقتَه وملجأه ، والمحامىَ من ورائه .

قلت فى نفسى : إذا أنا تركتُه جالسًا كان هذا المجلسُ مَثابتَه من بعدُ ، فلا يعرفُ له محلا غيره ، ويصبح كما يقال فى تعبير القانون « محله المختار » ، فيتَطرَّأ إلىَّ لسبب ولغير سبب ، ويقعُ فى أوقاتى وقوعَ السهوِ لا حسابَ عليه ، ويَضيعُ فيه ما يضيع . فأجمعتُ أن أصرِفَه راضيًا باليأس ؛ وقد انتهت نفسُه من معرفتى ، وانتهى عقلُه إلى الرأى أنى لا أصلح له أستاذًا ، لا بحسابه هو ولا بحساب الناس .

فقلت له : ظنى بك أنك أستاذُ نفسك ، ولا يحسنُ بنابغة القرن العشرين أن يكونَ له فى القرن العشرين أستاذ ؛ وأراك قد فرغتَ للأدب ، أما أنا فمشغول بأعمال وظيفتى ، وقد جاء من العمل ما تراه ، وتكاد لا تفى به الساعاتُ الباقيةُ من الوقت و . . .

فقطع علىَّ وقال : إن الوقت ليس فى الساعة ؛ والدليلُ أنى أعطِّلها فيتعطلُ الوقت ، ولا يكون فيها يومٌ ولا ساعة ولا ثانية ولا دقيقة .

فقلت : ولكنك إذا عطلتَها لم تتعطل الشمسُ التى تعيِّنُ منازِلَ النهار ، فسيَمُرُّ الظهرُ ويَحينُ العصر و . . .

قال : ويأتى غد ، وإنما أنا معك اليوم فقط . . . ويجب أن تغتبط بأنك أستاذ (نابغة القرن العشرين) ، فقد قرأت الكثير فى الأدب وقرأتك ، فما كان لى رأىٌ إلا رأيتُه لك . . . ولا صحَّت عندى نظرية إلا رأيتك قد أبديتَها ، وأنا لا أعتقد أدبًا فى مصر إلا ما توافقنا عليه معًا « ولا أسلِّم جدَلاً ، ولا جدَلاً

أسلّم أن فى مصرَ أدباء ينالون منى شيئًا ، فهو أنا وأنا هو »[(١)]، ولئن لم يذعنوا (لنابغة القرن العشرين)فليعلـَمـُنّ أنهم « وقعوا منى موقعَ نملة على صخرة . . . هذا من جهة ، ومن جهة أريد سجائر وليس معى ثمنُها » . . .

فتهللْتُ واستبشرتُ ، وقلتُ له : هذا قرش فهلمّ فاشتر به دخائنك ، وفى رعاية الله . ثم استويتُ للقيام ، ولكنه لم يقم ؛ بل تمكّن فى مجلسه . . .

* * *

وكرهتُ أن أتغيّر له وما أشكّ أنه فى هذا صحيحُ التمييز ؛ فما أسرعَ ما قال : إن « نابغة القرن العشرين» فى قوىّ الإرادة ؛ فإذا هو لم يصبر عن التدخين ساعات فما هو بصبور . . . . وإذا لم يُثْبتْ لك هذا الأمر عن مُعاينَة . . . فما أعطيتَه حقّه .

فقلت فى نفسى : لقد غرستُ الرجلَ من حيث أردتُ اقتلاعَه ، وأيقنتُ أنه من عقلاء المجانين الذين تتغير فيهم العاطفةُ أحيانًا فتلهمهم آيات من الذكاء لايتفق مثلُها إلا لنوابغ المنطق ؛ وذكرت (بهلول) المجنون الذى حكوا عنه أن إبراهيم الشيبانى مرّ به وهو يأكل خبيصًا [(٢)] فقال له : أطعمنى . قال : ليس هو لى ، إنما هو لعاتكةَ بنتِ الخليفة بعثتْه إلى لآكله لها . . .

وقالوا : إنه مر بسوق البزّازين فرأى قومًا مجتمعين على باب وكان قد نقِب ، فنظر فيه وقال : أتعلمون من عمل هذا ؟ قالوا : لا . قال : فأنا أعلم .

فقالوا : هذا مجنون يراهم بالليل ولايتحاشَونه ، فألْطفُوا به لعله يخبركم . ثم قالوا : أخبِرنا . قال : أنا جائع . فجاءوه بطعام سَنِىّ وحلواء ؛ فلما شبع قام فنظر فى النقْب وقال : هذا عملُ اللصوص . . .

وكانت مجلة (الرسالة) فى يد (نابغة القرن العشرين) ، فوصل الكلامَ بها وقال : إنه يقرأ كل مقالاتى ،وإنه وإنه ، وإنها وإنها . قلت : فما استحسنتَ منها ؟ قال : (مقالة السما) . . .

فقلت : متى كان آخرُ عهدِك برؤية السما ؟ قال : أمس .

---

(١) ما بين القوسين هو كلامه بنصه كما نبهنا إلى ذلك ، والباق ترجمناه نحن عن معانيه ، وأكثر ما يأتى فهذه سبيله .

(٢) طعام كانوا يتخذونه من التمر والسمن .

قلت : فأنا لم أكتب مقالاً عن السيما ، ولكنك أعجبت بما رأيتَ أمسِ فتحوَّل ما رأيتَه حلماً فى مقالة .

فأعجبه هذا التأويل وقال : بمثل هذا أنا (نابغة القرن العشرين) ، فأقرأُ مقالتَك فى الغيب من قبل أن تكتبَها . . . .

قلت : إنك تكثر أن تقولَ عن نفسك (نابغة القرن العشرين) ، وهذا يَحصرُ نبوغَك فى قرن بعينه ؛ فلو قطعتَ الكلمة وقلت : (نابغة القرن) ، لصحّ أن تكون نابغة القرن التاسع عشر والثامن عشر ، وما قبلهما وما بعدهما .

فرأيتُ به شَدْهَةً كأنه يفكر فى جنونه ، ثم أفاق وقال : لا . لا ؛ وإن هاهنا موضعَ نظر ، فلو رضيتُ بنابغة القرن فقط ، لجاء من يقول : إنى نابغة قرن خروف . . .

* * *

فقلت فى نفسى : حَمأةٌ مُدَّت بماء[1] ، وإن هذه الوساوسَ لاتنفكُّ تَعرو هذا المسكينَ ما وجد من يكلمه ؛ والأفكار فى ذهنه مجتمعة مختلطةٌ مسترسلةٌ كأنها ثورة من الكلام لانظامَ لها ، فلأسكتْ عنه ولأتشاغلْ بما بين يدىَّ .

وسكتُّ وأعرضتُ عنه ؛ فجعل طائفُه يعتريه ، وكأن السكوتَ قد سلَّط أفكارَه عليه ، وكأنها أخذت تصيح به فى رأسه كما يصيح غلمانُ الطرق بالمجنون ، لايزالون به حتى يُحْرِدُوه ويُفقدوه البقيةَ من صبرِه وعقله معًا . فغضب (نابغة القرن العشرين) ونقله الغضبُ إلى حالة زَمْهَرَتْ فيها عيناه[2] ، وكلَحَ وجهُه حتى خفتُ أن يثورَ به الجنون ، فأقبلتُ عليه وتعلَّلتُ بسؤاله : ألك إخوة ؟ ألم ينبغ فيهم نابغة . . . ؟

قال : إن له أخًا يعذبه ، ويُوقِعُ به ضربًا ، ويغلِّله بالسلاسل ، ويشدُّه « بأمراسِ كتَّانٍ إلى صُمِّ جَنْدل » ، وأنه أنزل به من العذاب ما لو أنزله بحجر لتألم .

---

(١) هذا مثل فى معنى زاد الطين بلة ، والحمأة إذا مدها الماء زادت واتسعت .

(٢) أى لمعت غضباً .

قلت : فأنت فى حاجة إلى راحةٍ ، ويحسن بك أن تأوىَ إلى مكان تتمدّد فيه .

قال : إنى منصرفٌ وسأجلس فى نَدِىّ كذا[1] « هذا من جهة . ومن جهة ليس معى ثمن القهوة » .

قلت : فهذا قرش تدفعه ثمنًا لها ، فاذهبْ فاستمتعْ بها وبالتدخين وبالراحة فى ذلك النديّ ، فالمكانُ ها هنا كثير الضجيج والحركة . واستوفزتُ للقيام ؛ ولكنه لم يتَحَلْحَلْ من مجلسه .

* * *

ثم قال : أراك الآن مُستَبْصِراً أنى (نابغة القرن العشرين) بعينه .

قلت : بل بعينيه اليمنى واليسرى معًا . . .

قال : لا . لا ؛ إنك نسيتَ أن العربَ تقول فى التوكيد : عينهُ ونفسهُ وذاتهُ . « أى أنا نابغة القرن العشرين بعينِه ونفسِه وذاتهِ ، فليس غيرى نابغة القرن العشرين » .

وكادت نفسى تخرج غيظًا ، ولكنى رأيتُ الحِلم على مثل هذا يجرى مجرى الصَّدَقة ؛ وقلت : إن أدباء المجانين كثيراً ما يتفق لهم الإبداعُ الطريفُ إذا علّلوا شيئًا ، كذلك القاصّ الذى كان يقصُّ على العامة سِيرةَ يوسفَ عليه السلام ، فقال لهم فيما قال : إن الذئب الذى أكل يوسف كان اسمه كذا ، فردوا عليه : إن يوسف لم يأكله الذئب . قال : فهذا هو اسمُ الذئب الذى لم يأكل يوسف .

فقلت للمجنون : فما العلةُ عندك فى أن العرب لم يقولوا فى التوكيد : عينُه واذنه وأنفُه وفمه ويدُه ورجله ؟

فنظر نظرةً فى الفضاء ثم قال : ليسوا مجانين فيَخلِطوا هذا الخلط ، وإلا وجب أن يقولوا مع ذلك : وعمامته وثوبه ونعله وبعيره وشاتهُ ودراهمهُ . « هذا من جهة ، ومن جهة ليس معى أجرة السيارة إلى بلدى وهى قرشان » .

---

(١) نحن نستعمل الندى لمكان القهوة .

قلت : هذه هي أجرة السيارة وصَحِبتْكَ السلامة ، ونهضتُ واقفًا ؛ ولكنه لم يتحرك .

* * *

ثم قال : إنك لم تعرف بعدُ « أني أقول الشعر في الغزل والنسيب والمدح والهجاء والفخر ؛ وأني في الخطابة قُسُّ بن ساعِدة أو أكثم بن صَيْفي ، وأني صخر لاينفجر . . . يابس لاينعصر ، لست كالحجَّاج بل كعمر » .

قلت : هذا شيء يطول بيننا ولاحاجةَ لك بهذه البراهين كلِّها ، فقد آمنتُ أنك نابغة القرن العشرين في الأدب والشعر والخَطابة والترسُّل .

قال : والفلسفة ؟

قلت : والفلسفة وكلّ معقول ومنقول ؛ وقد انتهينا على ذلك .

قال : ولكنك تحسبني مجنونًا أو ممروراً « كما حسبتني الجرائد التي زعمت أن اختفائي في البيمارستان كان لجنوني الفكريّ أو لذكائي الطبيعي وهو الأصح . . . فبيِّن لهذه الجرائد أني خرجت ، وأني سأطبع الأدبَ بطابع جديد » .

قلت : ولكني لستُ مراسل جرائد . قال : « فاجعلني رسالةً وراسِلْها عني أو أكتبُ لك أنا ما ترسله ، وما جئتك إلا لهذا ؛ ويجب أن تلحقني بجريدة كبيرة ، وهذه الجرائد تعرفني كلها ، وقد تناولتني من جميع النواحي الأدبية ؛ فضلاً عن أني كاتب فَذ ، وخطيب فَذ ، وشاعر فَذ، وهذا قليل من كثير ، فهل أعوِّل عليك في صلتي بالجرائد أولا ؟» .

قلت : إنك تعرفهم ويعرفونك ، وقد بلَوْتَهم وبَلَوْا منك؛ فلستَ في حاجة إليّ عندهم .

قال : « إنهم يخشون بأسي ، وقد حسبوني مجنونًا استهوته الشياطين ؛ وما علموا أن شيطانَ الشعر هو الذي استهواني ، كما أن شيطان الحب هو الذي استهواك . . . هذا من جهة ، ومن جهة ليس معي ثمن الغداء ، ولا أكلفك شيئًا . . . » .

قلت : فهذا قرش للغداء في مطعم الشعب . وهم الآن يتغدّون ويُوشِكُ إذا

أبطأتَ أن تـُوافِقـَهم وقد استنفدوا الطعام ، وأنت لاتجهل أن القرش فى مطعم الشعب هو قرشان فى القيمة .

قال : صدقت ؛ يـُوشِك أن أوافقـَهم وقد فرغوا من طعامهم وغسلوا الآنية . فلأبْقِ هذا للعـَشاء وسأطوى إلى الليل . . .

قلت : فمعك الآن ثمن الدخان ، والقهوة ، والغداء ، وأجرة السيارة إلى بلدك . وقد كان نابغة القرن الثالث للهجرة واسمه (طاق البصل)[1] يغنى بقيراط ولا يسكت إلا بدانق . هذا من جهة ، ومن جهة فخذ هذا القرش ثمناً لسكوتك وانصرِف .

* * *

فشقَّ ذلك عليه وقام مـُغْضَبـًا وتنفستُ بعده الصُّعـَداء الطويلة . . . وفتحتُ النافذة واستقبلتُ الهواء النقىّ وأخذتُ فى رياضة التنفس العميق ، ثم زاغتْ عينى إلى الباب ؛ فإذا (نابغة القرن العشرين) مقبلٌ مع نابغة قرنٍ آخر . . . . . .

---

(١) هذا مجنون من مجانين الكوفة فى القرن الثالث .

المجنون

٢

« رأيتُ المجنونين يدخلان معًا ، فكأنما سدَّا الباب وسوَّياه بالبناء وتركا الغرفةَ حائطًا مُصْمَتًا لا بابَ فيه ، مما اعترانى من الضيق والحرج ؛ وقلت فى نفسى : إنه لامذهبَ للعقل بين هذين إلا أن يُعينَ كلاهما على صاحبه ، فأرى أن أدعهما وأكونَ أنا أصرِّفُهما ؛ ويا ربما جاء من النوادر فى اجتماع مجنونين مالا يأتى مثله من عقلين يجتمعان على ابتكاره ؛ غير أنى خشيتُ أن أكونَ أنا المجنونَ بينهما ، ثم لا آمن أن يثبَ أحدُهما بالآخر إذا خطرتْ به الخطْرةُ من شيطانه ، فرأيت أن يكونَ لى ظهيرٌ عليهما ، إن لم يحقَّ به العونُ فلا أقلَّ من أن يطولَ به الصبر . . . وكان إلى قريبٍ منى الصديقُ (ا . ش) * فأرسلتُ فى طلبه .

أما هذا المجنونُ الثانى الذى جاء به (نابغة القرن العشرين) فقد رأيته من قبل ، وهو كالكتاب الذى خُلِّطت صُحُفُه بعضُها فى بعض فتداخلَتْ وفسد ترتيبُها ، وانقلب بذلك العلمُ الذى كان فيها جهلاً وتخليطًا ، يثِبُ الكلامُ بعد كل صفحة إلى صفحة غريبة لاصلةَ لها بما قبلها ولا ما بعدها .

وهو طالبٌ أزهرىٌ كان أكبر همه أن يصير حافظًا كالحفّاظ الأقدمين من الرواة والفقهاء ، فجعل يستظهِرُ كتابا بعد كتاب ومتْنًا بعد متن ؛ وكانت له أذُنٌ واعيةٌ ، فكل ما أُفرِغ فيها من درسٍ أو حديثٍ أوخبر ، نزلَ منها كالنقْر على آلة كاتبة ، فينطبعُ فى ذهنه انطباعَ الكتابة : لا تُمحى ولا تُنسى .

ثم انْتاثَ هذه اللوثةَ وهو يحفظ متنًا فى فقه الشافعى (رضى الله عنه) ، فغبرَ سنين يتحفَّظُه ، كلما انتهى إلى آخره نَسيَه من أوله ؛ فيعود فى حفظه وربما أثبتَ منه الشيء بعد الشيء ، ولكنه إذا بلغ الآخرَ لم يجد معه الأول ؛ فلا يزالُ هذا دأبَه لايملُّ ولايجد لهذا العناءِ معنى ، ولا يزال مقبلاً على الكتابِ يَجمعه ، ثم لايزال الكتابُ يتبدَّدُ فى ذاكرته .

---

* هو الصديق أمين حافظ شرف .

وترك المعهد الذى هو فيه وتخلى فى داره للحفظ ، وأجمع ألاّ يدعَ هذا المتنَ أو يحفظَه . كأن فيه الموضعَ الذى فارقه عقلُه عنده ، وبذلك رجع المسكينُ آلةَ حفظ ليس لها مِساك ؛ وأصبح كالذى يرفع الماء من البحر ، ثم يلقيه فى البحر ، لينْزِحَ البحر . . .

* * *

وجاء (ا . ش) فقلت له ، وأومأتُ إلى المجنون الأول : هذا نابغةُ القرن العشرين .

قال : وهل انتهى القرنُ العشرون فيُعرف مَن نابغتُه ؟

فقلت للمجنون : أجبه أنت . فسأله : وهل بدأ القرنُ الواحدُ والعشرون ؟

قال : : لا .

قال : فإن هذا الذى إلى جانبى نابغة القرن الواحد والعشرين . . . . . فكما جاز أن يكون هو نابغةَ قرن لم يبدأ ، جاز أن أكون أنا نابغةَ قرن لم ينته .

قلتُ : ولكنك زدتَ المشكلة تعقيداً من حيث توهَّمْتَ حلَّها ، فكيف يكون معك فى آنٍ وبينك وبينه خمسٌ وستون سنة ؟

فنظر نظرةً فى الفضاء . وهو كلما أراد شيئًا عسيراً نظر إلى اللاشىء . .

ثم قال : هذه الأمورُ لا تشتبه إلا على غير العاقل . . . وكيف لايكون بينى وبينه خمسٌ وستون سنة وأنا أتقدَّمه ؛ النبوغ بأكثر من علم العلماء فى خمسٍ وستين سنة . . ؟

قلت للآخر : أكذلك ؟

قال : مما حفظناه عن الحسَن : أدركنا قومًا لو رأيتموهم لقلتم : مجانين . ولو أدركوكم لقالوا : شياطين . . .

فضحك الأول وقال : إنه تلميذى .

قال الثانى : لقد صدق فهو أستاذى ، ولكنه حين ينسى لا يذكِّره غيرى . . .

قلت : لاغَرْوَ « فمما حفظناه » عن الزُّهْرى : إذا أنكرتَ عقلكَ فاقدَحْه بعاقل . . .

فغضب نابغة القرن العشرين وقال : ويحٌ لهذا الجاهل ، الأحمق ، الجاحدِ للنضل ، مع جنونه وخبَله . أيذكّرني وهو منذ كذا وكذا سنةً يحفظ متناً واحداً لا يُمسكه عقلُه إلا كما يُمسك الماءَ الغرابيل ؟ صدق والله من قال : عدوٌ عاقل خيرٌ ؛ خير ؛ خير . فقال الثانى : خيرٌ من صديق جاهل ، هأنذا قد ذكّرتك من نسيان ، وهأنت ذا رأيت .

فضحك النابغة وقال : ولكنى لم أُرِد أن أقولَ هذا ، بل أريد أن أؤلفَ كلاماً آخر . . . . عدوٌ عاقل خيرٌ ، خيرٌ ، خيرٌ : خير من مجنون جاهل . . . .

* * *

ورأيتُ أن فى التقاءِ مجنونين شيئاً طريفاً غيرَ جنونهما ، وصحَّ عندى أن المجنونَ الواحد هو المجنون ؛ أما الاثنان فقد يكون من اجتماعهما وتحاورِهما فنٌ ظريفٌ من التمثيل ، إذا وجدا من يُصَرِّفهما فى الحديث ، ويستخرِجُ ماعندهما ، ويستكشفُ منهما قصتَهما العقلية . . . .

ولم أكن أعرف أن (نابغة القرن العشرين) من المجانين الذين لهم أذُنٌ فى غير الأذُن ، وعينٌ فى غير العين ، وأنف بغير الأنف ؛ إذ تتلقى أدمغتُهم أصواتاً وأشباحاً وروائحَ من ذات نفسِها لا من الوجود ، وتدركُها بالتوهم لابالحاسة ، فتتخلّقُ هواجسُهم خلْقاً بعد خلق ، وتخطر الكلمةُ من الكلام فى ذهن أحدِهم فيخرجُ منها معناها يتكلمُ فى دماغه أو يمشى أو يلاطفه أو يؤذيه أو يفعلُ أفعالاً أخرى .

وبينا أنا أديرُ الرأىَ فى إخراج فصل تمثيلىّ من الحوار بين هذين المجنونين (١) . إذ قال (نابغة القرن العشرين) : صَهْ ، إن جرس « التلفون » يدقّ .

قال (ا .ش) : لا أسمع صوتاً ، وليس ههنا « تلفون » .

فاغتاظ المجنون الآخر وقال : إنك تتقحَّمُ على النوابغ ولستَ من قدرهم ، وما عملُك إلا أن تنكر ؛ والإنكارُ ، ويلك ، أيسرُ شىء على المجانين وأشباهِ

---

(١) سيأتى هذا الفصل التمثيلى فى مقال آخر .

المجانين ، والعامةِ وأشباهِ العامة ؛ وقد أنكرتَ نبوغَه آنفًا ، وأراك الآن تنكر « تلفونه » . . .

قال (ا.ش) : وأين « التلفون» وهذه هى الغرفة بأعيننا ؟

فضحك (نابغة القرن العشرين) وقال : صَهْ ويْحك لقد خلَّطتَ علَىَّ ؛ إن الجرسَ يدقُّ مرة أخرى ، وأنا لاأريد أن أكلمها حتى يطولَ انتظارُها ، وحتى تدقَّ ثلاث مرات ، وأخشى أن تكون قد دقت الثالثة وذهب رنينُها فى صوتك ولَغَطِكَ . . .

قال المجنون الآخر : هى صاحبتُه التى يهواها وتهواه ؛ وقد استهامها وتيَّمها وحيَّرها وخبَّلها ، حتى لاصبرَ لها عنه ، فوضعتْ له تلفونًا فى رأسه . . . .

قال « النابغة » : وهذا التلفون لايُسمِعنى صوتَها فقط ، بل هو يُنْشِقُنى عطرَها أيضًا . وقد تكلمنى فيه الملائكة أحيانًا ، وأنا ساخط على هذه الحبيبة فإنها غَيورٌ تُخْشَى سَطَواتُها على اللائى تَغار منهن ، ولولا ذلك لكلمتنى فى هذا التلفون إحدى الحُورِ العِين . . . .

قلنا : أوَتَغار منها الحورُ العين ؟

قال المجنون الثانى : بل الأمرُ فوق ذلك ، فإن الحور العين يشتُمنها ويلعنَّها ؛ « فمما حفظناه » هذا الحديث : لاتؤذى امرأةٌ زوجَها فى الدنيا إلا قالت زوجتُه من الحور العِين : لاتؤذيه قاتلكِ الله ؛ فإنما هو عندك دَخيلٌ يُوشِك أن يفارقَك إلينا .

قال (نابغة القرن العشرين) : ويْلِى على المجنون إنه يريد أن يخلوَ له موضعى فهو يتمنى هلاكى وانتقالى وَشيكًا من هذه الدنيا . وهو يقولُ بغير علم لأنه أحمقُ ليس له عُقدةٌ من العقل ، فيزعم أنها تؤذينى ، ولو هى آذتنى لغضبتْ قبل ذلك ، ولو غضبتْ لرفعت التلفون . صَهْ إن الجرس يدق .

* * *

قال ا.ش : إن للنوابغ لشأنًا عجبًا ، فى مديرية الشرقية رجلٌ نابغةٌ ماتت زوجته وتركت له غلامًا ، فتزوج أخرى وهو يعيش فى دار أبيه . فلما كان عيدُ الأضحى سأل أباه مالاً يبتاع به الأضحية فلم يعطه . وهو رجل يحفظ

القرآن ، فذكر قصة إبراهيم (عليه السلام) ورؤياه فى المنام أنه يذبح ابنه ، فخيل إليه أن هذا بابٌ إلى النبوة ، وأن الله قد أوحى إليه ، فأخذ الغلامَ فى صبيحة العيد وهمّ بذبحه ، ولولا أن صرخ الغلامُ فأدركه الناسُ فاستنقذوه . . . .

قال (نابغة القرن العشرين) : هذا مجنون وليس بنابغة ؛ بل هذا من جهلاء المجانين ؛ بل هو مجنون على حدته . وقد رأيته فى البيمارستان فى حين كنت أنا فى المستشفى . . . فكان يزعم أنه ائتمر فى ذبح غلامه بإرادة الله . ولو كانت إرادةَ الله لنفذتْ بالذبح ، ولو كان الأمر وحيًا لنزل عليه من السماء كبشٌ يذبحه . . . وهكذا أنا فى المنطق (نابغة القرن العشرين) .

ثم إنه أشار إلى المجنون الثانى وقال : وأنا أتقدم هذا فى النبوغ بأكثر من علم العلماء فى خمس وستين سنة كاملة .

قلت : ولكنك ذكرتَ هذا من قبل فلمَ عُدْتَ فيه الآن ؟

قال : إن السبب قد تغير فتغير معنى الكلام ؛ وقد بدالى أنه يتمنى هلاكى ليكونَ هو نابغةَ القرن العشرين . فمعنى الكلام الآن : أنه لو عاش خمساً وستين سنة « يحفظ المتن » لما بلغ مبلغى من العلم . هذا رجل نصفه ميتٌ جنونًا موتًا حقيقيًّا ، ونصفه الآخر ميتٌ جهلاً بالموت المعنوى .

قال ا. ش : حسبُهُ أن يقلدك تقليدَ العامىّ لإمامه فى الصلاة ؛ وعسى ألا تستكثر عليه هذا فإنه تلميذك .

قال المجنون الثانى « مما حفظناه » : لو صُوِّر العقلُ لأضاء معه الليل ، ولو صور الجهلُ لأظلم معه النهار ... ونابغة القرن العشرين هذا لايعرف كيف يصلى ، فقد وقف منذ أيام يصلى بالشعر . . . ولما رأيته ناسيًا فذكرته ونبهتُه أن الصلاة لاتجوز بالشعر ، التفت إلىّ وهو راكع فسبّنى وشتمنى وصرخ فىّ وقال : ما شأنك بى ؟ هل أنا أصلى لك أنت . . . ؟

فغضب « النابغة » وقال : والله إنْ تحسبوننى إلا مجنونًا فتريدون أن يقلدنى هذا الأحمقُ الذى ليس له رأىٌ يمسكه . ولولا ذلك لما اعتقدتم أن تقليدى من السهل الممكن ، ولعرفتم أن نابغة القرن العشرين نفسه لم يستطع تقليدَ نابغة القرن العشرين .

قلنا : هذا عجيب ، وكيف كان ذلك ؟

فضحك وقال : لا أعدّكم من الأذكياء إلا إذا عقلتم كيف كان ذلك ؟

قال ا . ش : هذا لم يُعرَفْ مثلُه فكيف نعرفه ؟ ولم يتوهمه أحد ؛ فكيف نتوهمه ؟

قال : لو لم تكن أستاذَ نابغة القرن العشرين لما عرفتها ؛ وهذا نصفُ صواب ؛ ومادمت أستاذى . فلو أننا اختلفنا فى رأى لكان خلافُك لى صواباً لأنه منك . وكان خلافى لك صواباً لأنه منى ؛ فأنت (غير مخطئ) وأنا مصيب ، وإذا أسقطنا كلمة (غير) أظلُّ أنا مصيباً وتكون أنت مخطئاً . . .

أنا لم أر (نابغة القرن العشرين) فى الرؤيا . ولكنى رأيته فى المرآة عند الحلاق . . . ورأيته يقلدنى فى كل شىء حتى فى الإشارةِ والقَوْمة والقَعْدة ولكنى صرختُ فيه وسبَبْتُهُ ففتح فمه ، ثم خافنى ولم يتكلم . . .

وأومأ إلى المجنون الآخر وقال : وأنا أتقدم هذا فى النبوغ بأكثر من علم العلماء فى خمس وستين سنة .

قال ا.ش : لقد قلتَها مرتين كلتاهما بمعنى واحد . فما معناك فى هذه الثالثة ؟

قال : هذا الغِرُّ يزعم أنى لا أعرف كيف أصلى ، ويستدلُّ لذلك بأنى صليتُ بالشعر وأنى شتمته وأنا راكع ؛ ولو كان عاقلاً لعلم أن شتمى إياه وأنا راكع ثوابٌ له . . . ولو كان نابغةً لعلم أنْ الشعر كان فى مدح دولة النحاس باشا وأُولى النُّهى .

قلنا : ولكن الشعر على كل حال لاتجوز به الصلاة ولو فى مدح دولة النحاس باشا .

قال : لم أُصلّ به . ولكن خطر لى وأنا أصلّى أنى نسيتُ القصيدة فأردت أن أتحقّق أنى لم أنسها . . . فإذا أنا نابغة القرن العشرين فى الحفظ ، وهى ستة أبيات . لا كهذا المعتوه الذى صبر على المتن صبرَ الغريب على الغُربة الطويلة ، ومع ذلك لم يحفظه .

قال ا . ش : فأملِ علينا هذا الشعر . فأملى عليه[1] .

---

(١) هذا شعره بحروفه كما أملاه .

يا حليف السُّهْد قل لى ... أين مَنْ فى الدهر خالْ
إن تكن تهوى غزالا ... أكحلَ العينين مـالْ
أنا أهواها ولـكن ... لاسـبيل إلى الوصالْ
منذ ولَّت قلتُ مهـلا ... منذ غابت فى خيـالْ
أنـا مجـنونٌ بليلى ... ليـلَ يا ليـلى! تعالْ

قلنا : ولكن ليس هذا مدحـًا ، فضحك وقال : أردت أن تعرفوا أنى أقول فى الغـزَل ، أما المديح فهو :

شغف الورى بمناصب وأمـانى ... وشغفتَ يا نحاس بالأوطان
حسـبوا الحياةَ تفاخراً وتنعما ... وحسـبتَها لله والأوطـان

ثم أُرْتِجَ عليه فسكت . قال المجنون الآخر : إنها ستة أبيات، وقد نسيت أربعة ، ولستُ أريد أن أذكـّرك :

فقال (النابغة) : أظنه قد حان وقت الصلاة وأريد أن أصلى . . . ونظر إلى اللاشىء فى الفضاء ، ثم قال . والبيت الأخير :

لا أبتغى فى المدح غيرَ أولى النُّهى ... أو صادقٍ (١) أو شوقى أومطران

ثم أمرا . ش . أن يقرأ عليه الشعر فقرأه ، فقال : أحسنت ، انظر إلى فوق . فنظر ، ثم قال : انظر إلى تحت . فنظر ثم سكت .

قال ا . ش : وبعدُ ؟ قال : وبعدُ فإن الناس ينظرون إما إلى فوق وإما إلى تحت . . .

* * *

وكان الضجر قد نال منى ، فرجوت ا . ش . أن يلبثَ معهما وأذنتُ لنابغة القرن العشرين أن يلقانى فى الندّى وانصرفت . .

قال ا . ش وهو يُنبِّئنى : فما غبتَ عنا حتى أخذ المجنون يشكو ويتوجع ويقول : لقد حاق بى الظلم ، وإن (الرافعى) رجل عَسُوفٌ ظالم ، لأنى أكتب له كل مقالاته التى ينشرها فى (الرسالة) . . . وأجمع نفسى لها ، وأجهدُ فى بيانها ،

---

(١) فسر (صادق) بأنه أستاذ نابغة القرن العشرين .

وأُذيب عقلى فيها ، وهو مستريحٌ وادعٌ ، وليس إلا أن ينتحِلها ويضعَ توقيعَه عليها ، ويبعثَ بها إلى المجلة ، ثم هو يقبض فيها الذهب وينال الشهرة ، ولا يدفع لى عن كل مقالة إلا قرشين [1] . . .

قال ا . ش : فما يمنعك أن ترسل أنت هذه المقالات إلى المجلة فتقبضَ فيها الذهب؟ قال : إن هناك أسراراً أنا مُحْصِنُها وكاتمُها ، ولا ينبغى أن يعلَمها أحد فإنها أسرار . . . قال له : فدع (الرافعى) واكتب لى أنا هذه المقالات ، وأنا أعطيك فى كل مقالة ذَهبَين لا قرشين .

قال هذه أسرار ولا أستطيع أن أكتبَ إلا للرافعى ، لأن (نابغة القرن العشرين) لايجوز أن يدعى كلامَه إلا أستاذُ نابغة القرن العشرين ، ولو ادعاه غيره لكان هذا حطًّا من قدر نابغة القرن العشرين ، وهذا بعضُ الأسرار لا كل الأسرار . . .

قلت : ثم جاء المجنونان فى العشيَّة إلى الندىّ .

---

(١) لا يزال هذا المسكين منذ تسعة أشهر يدعى أنه هو الذى يكتب لنا هذه المقالات ، غير أنه رفع القيمة أخيراً ؛ فجعلها عشرين قرشاً ... ...

المجنون

٣

وكنا فى النَّدِىّ ثلاثةً : أنا ، وا . ش ، وس* . ع ؛ وقد هيَّأتُ تدبيراً تَوافقْنا عليه لتحريك هذين المجنونين ، وتدوينِ ما يجىء منهما . فلما أقبلا تحفَّينا بهما وألْطَفْنَاهما ، وقمنا ثلاثتُنا ببَسْطهِما وإكرامهِما ، حتى حسبا أن فى كلمة « مجنون » معنى كلمة أمير أو أميرة . . . ورأيتُ فى عينىْ « نابغة القرن العشرين » — وهو أعيَنُ أنجلُ(١) — ما لو ترجمتُه لما كانت العبارةُ عنه إلا أنه يعتقد أن له نفساً أُنثى أعشقُها أنا . . . فكان مُسَدَّداً فَكِهَ اللسانِ ، تُستَملَحُ له النادرةُ ، وتُستطرَفُ منه الحركة .

ولما تمكَّن منه الغرورُ ، واحتاج الجنونُ كما يحتاج الجمالُ إلى كبريائه إذا حاطْته الأعيُن — أدار بَصَرَه فى المكان ، ثم قال : أُفٍّ لكم ولما تصبرون عليه من هذا الندىّ فى ضَوْضائه ورعاعِه وغَوغائه . إنْ هؤلاء إلا أخلاطٌ وأوشابٌ وحُثالة . هذا الجالسُ هناك . هذا الواقفُ هنالك . هذا المستَوفِز . هذان المتقابِلان . هؤلاء المتجمِّعون . هذا كله خيالُ حقيقةٍ فى رأسى . ما هى ؟ ما هى ؟

هذا التصايُحُ المنكَر . هذا الضربُ بحجارة النَّرد . هذه الزَّحمةُ التى انغمسنا فيها . هذا المكانُ الهائجُ من حولِنا . هذا كلُّه خيالُ حقيقةٍ فى رأسى . هى ، هى ، هى .

فانزعج المجنونُ الآخر ، ووقع فى تَهاويلِ خياله ، ونظر إلينا تدورُ عيناه ، وتوَجَّسَ شرّاً ، ثم زاغ بصرُه إلى الباب ، واستَوْفزَ وجمع نفسَه للقيام ؛ فلما رأى صاحبُه ما نزل به ، قَهقَهَ وأمعَنَ فى الضحك وقال : إنما خوَّفتُه الصبيان والضربَ ليثبتَ لكم أنه مجنون . . .

---

* س ع هو الصديق سعيد العريان .

(١) أى واسع العين أنجلها ، وقد مر وصفه فى المقالة الأولى .

فحَردَ الآخرُ واغتاظ وجعل يتمتم بينه وبين نفسه .

قال « النابغة » : ما كلامٌ تَطِنّ به طنينَ الذبابة أيها الخبيث ؟

قال : « مما حفظناه » : أن من علامات الأحمق أنه إذا استُنْطِق تَجلّفَ ، وإذا بكى خار ، وإذا ضَحِك نَهقَ ... كما فعلتَ أنت الساعةَ ، تقول : هاءْ ، هُوءْ ، هيءْ ...

فتغيَّر وجهُ «النابغة » ، ونظر إليه نظرةً منكرة ، وهمَّ أن يقتَحِمَ عليه. وقال : أيها المجنون ، لماذا تضطرنى إلى أن أُجيبَك جوابَ مجنون . . . لا نجوت إن نجوتَ منى !

فأسرع ا . شن ، وأمسك به ؛ واعترضَ مِنْ دونه س . ع ، وقال له : أنت بدأتَه والبادئُ أظلم .

قال : ولكن — ويحه — كيف قال هذا ؟ كيف لم يقل إلا هذا ؟ كيف لم يجد إلا هذا يقولهُ ؟ أنابغةُ القرن العشرين أحمق، وقد أوْحدَهُ الله فى القرن العشرين ؟ لَهمَمْتُ والله أن أكسِرَ الذى فيه عيناه ؛ فما يقولُ إلا أنى أحمقُ القرن العشرين . . .

* * *

قلتُ : إن كان هذا هو الذى أغضبك منه ؛ فى الحديث الشريف : « ليس من أحد إلا وفيه حَمْقَةٌ ، فَبها يعيش». والحياةُ نفسُها حماقةٌ منظّمة تنظيماً عاقلا ؛ وما يُقبلُ الإنسانُ على شئ من لذاتها إلا هو مقبلٌ على شئ من حماقاته. وأمتعُ اللذة ما طاش فيه العقلُ وخرج من قانونه ؛ ولولا هذا الحمقُ فى طبيعة الإنسان لما احتمل طبيعةَ الحياة ؛ أليس يُخيَّلُ إليك أن أكثرَكَ غائبٌ عن الدنيا وأقلَّك حاضرٌ فيها ، وأن يَقَظتك الحقيقيةَ إنما هى فى الحلُم وما يُشبه الحلُم ، كأنك خُلِقتَ فى كوكب وهبطتَ منه إلى كوكبنا هذا ، فما فيك للأرض ولا فيها لك إلا القليلُ يلتئِمُ بعضه ببعضه ، وأكثركما مُتَنَافِرٌ أو متناقِضٌ أو متراجِع ؟

قال : بلَى .

قلتُ : فهذا القليلُ هو الحمقَةُ التى بها تعيش ، وهو أرضيَّةُ الأرض فيك ؛ أما سماويةُ السماء فبعيدةٌ لاتحتملُها طبيعةُ الأرض ؛ ولهذا يعيشُ أهلُ الحقيقة عيشَ المجانين فى رأى المغرورين الذين غرَّتهم الحياةُ الفانية ، أو المخدوعين الذين

خدعتهم الظواهر الكاذبة ؛ فكلما أتوْا عملاً من الأعمال السامية انتهى إلى الحَمْقَى معكوسًا أو مُحوَّلاً أو معدولاً به ؛ ولعل هذا أصحُّ تفسير للحديث الشريف : « أكثرُ أهلِ الجنة البُلْه » .

قال المجنون الآخر : « مما حفظناه » : أكثرُ أهل الجنة البُله .

فقال (النابغة) : المصيبةُ فيك أنك أنت هو أنت ؛ ألا فلتعلمْ أنك من بُلَهاء البيمارستان لا من بُلْهِ الجنة . . .

قلتُ : ثم إن الموتَ لابد آت على الناس جميعًا ، فيسلبُهُم كلَّ ما نالوه من الدنيا ، ويُلْحِقُ من نال بمن لم ينل ؛ فمن ذا الذى يُسَرُّ بأن ينال مالا يبقى له ، إلا أن يكونَ سرورُه من حماقته ؟ ومن ذا الذى يَحزَنُ على أن يفوتَه مالا يبقى له، إلا أن يكونَ حزنُه حماقةً أخرى؟ وأى شىء فى الحب بعد أن ينقضىَ الحبُّ إلا أنه كان حماقةً ضرَبَتْ فى الحواسِّ كلِّها ملأت النفس ؛ ثم ملأت النفسَ حتى فاضت على الزمن؛ ثم فاضتْ على الزمن حتى خبَّلت العاشقَ تخبيلاً لذيذاً تصغُر فيه الأشياء وتكبر ، ويجعلُ الواقعَ فى النفس غيرَ الواقع فى دنياها ؟ يُشبِّه كلُّ عاشقٍ حبيبتَه بالقمر : فهَبِ القمرَ سمع هذا وفهمه وعَنَاه أن يُجيبَ عنه . فماذا عساه يقول إلا أن يُعْجَبَ من هذا الحمق فى هذا التشبيه ؟

* * *

فهدأ (النابغة) وسكن غضبُه وقال : صدقت ، ولهذا أنا لا أشبِّه حبيبتى بالقمر .

قلت : فبماذا تشبِّهها ؟

قال : لا أقول لك حتى أعلم بماذا تشبِّه أنت حبيبتَك . قلت : وأنا كذلك لا أشبهها بالقمر .

قال : فبماذا تشبهها ؟ قلت : حتى أعلمَ بماذا تشبِّه أنت . . .

قال : هذا لا يُرضَى منك وأنت أستاذ (نابغة القرن العشرين) ، ولك حبائبُ كثيراتٌ عددَ كتبك ، وقد أعجبتنى منهن تلك التى فى (أوراق الورد) . وأظنك أحببتها فى شهر مايو من سنة . . . من سنة . . .

قال المجنون الآخر : من سنة ١٩٣٥ ؛ هأنذا قد نبهتُك .

قال : ياويلك ! إن (أوراق الورد) ظهرتْ من بضع سنين ، إنما أنت من

بُلهاء البيمارستان لامن بُلْهِ أوراق الورد . . . ماذا كنتُ أقولُ ؟

قال ا . ش : كنتَ تقول : هذا لايُرضَى منك ولك حبائب كثيرات .

قال : نعم ، لأنك إذا شبهت واحدةً منهن بالقمر ، انتهى القمرُ وفرغ التشبيه فيظلُّ الأخْريات بلا قمر . . . ثم إن كلمةَ القمر لاتعجبنى ، فلونها أدكنُ مُغْبَرٌ(١) يَضْرِب أحياناً إلى السواد... فإذا عشقتُ زَنجيةً فهَهنا محلٌّ التشبيه بالقمر . . . أما البيضُ الرَّعابيبُ فتشبيههُنَّ بالقمر من فساد الذوق .

قال س . ع : وللألفاظ ألوانٌ عندك ؟

قال : لوكنتَ نابغةً لأبصرتَ فى داخلك أخْيِلةً من الجنة ؛ ألم يقل أستاذنا آنفاً عن (نابغة القرن العشرين) : إنه هبط من كوكب إلى كوكب ؟ ففى كوكبنا الأول يكون لنا سمعٌ ملوَّن ، وحِسٌّ ملوَّن نسمع قرعَ الطبل أزرق ، ونفْخَ البوقِ أحمر ، ورنينَ النغَم الحلوِ أخضر(٢) ، والوجودُ كله صُوَرٌ ملونةٌ ، سواء منه ما يُرَى وما يُحَس ، وما هو مُستَخْف وما هو ظاهر .

ثم أومأ إلى المجنون الآخر وقال : واسمُ هذا الأبله كلفظِ الحِبر : لا أسمعهُ إلا أسود . . .

* * *

وسكت « النابغة » وسكتنا ؛ فقال له س . ع . مالك لاتتكلم ؟ قال : لأنى أريد السكوت . قال : فلما ذا تريد السكوت ؟ قال : لأنى لا أريد أن أتكلم . . .

وتحرك فى نفسه الغيظُ من المجنون الآخر ، فرمى بعينه الفضاء ينظر اللاشىء وقال : إذا أصبح كلٌّ النساء ذواتِ لِحىً أصبح هذا عاقلاً . . . فدقّ الآخر برجله دقات معدودة ؛ فثار (النابغة) وقال : مَن هذا يشتُمُنى ؟

قال س . ع : لم يشتمك أحد ، هذا خَفْقُ رجلٍ على الأرض .

قال : بل شتمنى هذا الخبيثُ ، وسَمْعى لايَكْذِبُنى أبداً ، وأنا رجلٌ ظَنُونٌ ، أسىء الظنَّ بكلِّ أحد ، وعلامةُ الحازم « العاقلِ » سوءُ ظنه بالناس.

---

(١) الدكنة : لون بين الحمرة والسواد .

(٢) هذا واقع وليس من الخيال ؛ فبعض الناس يسمعون الأصوات ويحسون الأشياء ملونة ؛ وعلماء الأمراض العصبية يعرفون هذا ويعللونه بأنه صور ذهنية قد لبسها مؤثر من المؤثرات فهو يصبغها

فهبْه كما قلتَ قد خفَقَ بنعله، أو خبَط برجله ؛ فهو ما يعني من ذلك ، وأنا أسمعُ ما يعنيه . لقد طفحَ الشعرُ على قلبي فلابد لى من هجائه ، ولابد لى أن أذبحه ولو بالكلام، فإنى إذا هجَرتُه رأيتُ دمَه فى كلماتى ، وأريد أن أجعلَه كالعنْزِ التى كانت عندنا وذبحناها .

ثم انتزع قلم س . ع ، وقال : هذه هى السكّين . ولكن أسألكُ يا أستاذى أن تذبحهَ أنت بكلمتين وتصفَ له جنونَه، فقد عزَبَ عنى الشعر . إن خَفْقَةَ رَجلٍ على الأرض تستطيرُ الأرانبَ فزعًا؛ فينْفرْن إلى أجْحارِهنّ ويتَهارَبْن، وما كانت أبياتُ الشعر فى ذهنى إلا أرانب . . .

أنتم لا تعرفون أن من كان حَصيفًا ثبيتاً مثلى، كان دقيقَ الحسّ ؛ ومن كان فَدْمًا غبيًّا مثلَ هذا ، كان بليدَ الحسّ غليظًا كثيفًا ؛ فإذا أنا استشعرتُ البردَ رأيتُنى قد سافرتُ إلى القطبِ الشمالى ؛ أما هذا المجنونُ فهو إذا استشعر برداً سافر إلى عَباءته أو لحافه . . . إذ هو لا يعرف جغرافيا، ولا يدرى ماطَحاها .

قلت : هذا منك أظرفُ من نادرة أبى الحارث . قال : وما نادرةُ أبى الحارث ؟ وهل هو نابغة ؟

قلت : جلس يتغدّى مع الرشيد وعيسى بنِ جعفر ، فأتِىَ بخِوانٍ عليه ثلاثة أرغفة ، فأكل أبو الحارث رغيفَه قبلهما ، والرشيدُ ملكٌ عظيمٌ : لا يأكلُ أكلَ الجائع ، وإنما هو التّشعيثُ من هنا وهناك ؛ فكان رغيفُه لا يزال باقيًا ؛ فصاح أبو الحارث فجأةً : ياغلام ، فَرَسِي . ففزع الرشيد وقال : ويلك ما لكَ ؟ قال : أُريد أن أركب إلى هذا الرغيف الذى بين يديك . . .

قال (النابغة) : ولكنّ فرقًا بين أبى الحارث وبين (نابغة القرن العشرين) ، فإن من العجائب أنى ربما نظرتُ إلى الرجل وهو يأكلُ فأجدُ الشِّبَعَ ، حتى كأنه يأكل ببطنى لا ببطنه ، ولكن من العجائب أن هذا لا يتفق لى أبداً حين أكون جائعًا . . .

أما هذا المجنونُ الذى أمامنا ، فربما أبصر الحمارَ على ظهره الحِمْلُ ، فيشعُرُ كأن الحملَ على ظهره هو لا على ظهر الحمار . . .

قال الآخر : « مما حفظناه » : أنه سُرق لأعرابى حمار ، فقيل له أَسُرِق

حمارُك ؟ قال : نعم وأحمد الله . فقيل له : على ماذا تحمده ؟ قال : على أنى لم أكن عليه حين سُرق . . . . فأنا إذا رأيتُ حماراً مثقَلَ الظهر ، حمدتُ الله على أن الحملَ لم يكن علىّ ، لا كما يقول هذا . ثم دقّ برجله دقات ...

فاستشاط (النابغة) وقال : أسمعتم كيف يقول إنى مجنون ، ثم لايكتفى بهذا بل يقول إنى حمار على ظهره الحمل ؟

قلت : ينبغى أن تتكافآ ، وهذا لايَعيبك منه ولايعيبُه منك ، فإن من تواضُع « النوابغ » أن يشعروا ببؤس الحيوان ، فإذا شعروا ببؤسه دخلتْهم الرقةُ له . فإذا دخلتهم الرقّةُ صار خيالُ الحمل حِملاً على قلوبهم الرقيقة ؛ وقد يصنعون أكثرَ من ذلك : حكى الجاحظ عن ثُمامة قال : كان (نابغةٌ) يأتى ساقيةً لنا سَحَراً ؛ فلا يزال يمشى مع دابتها ذاهبًا وراجعًا فى شدة الحر أيامَ الحر ، وفى البرد أيام البرد ، فإذا أمسى توضأ وقال : اللهمّ اجعل لنا من هذا الهمّ فَرَجًا ومَخرجًا . فكان كذلك إلى أن مات !

قال المجنون الآخر : « مما حفظناه » : ثمرةُ الدنيا السرورُ ، ولاسرورَ للعقلاء ، فلو لم يكن هذا أعقلَ العقلاء لما مُحِقَ سرورُه فى الدنيا هذا المحْقَ إلى أن مات غمًّا ، رحمه الله !

* * *

قال س . ع : فاعفُ الآن عن صاحبك ولا تذبحْه بالهجاء .

قال : لقد ذكّرتَنى من نسيان . وهذا المجنونُ يرى نسيانى من مرض عقلى ، وكان الوجهُ — لو تَهَدّى إلى الحقيقة — أن يراه شذوذاً فى العقل ، أى نبوغًا عظيما كنبوغ ذلك الفيلسوف الذى أراد أن يَتَثَبَّتَ فى كم من الزمن تُسلق البيضة ؛ فأخذ بيده الساعةَ وبيده الأخرى بيضة ، ثم نسِىَ نسيانَ النبوغ ، فألقى الساعةَ فى الماء على النار ، وثبّتَتْ عينُه على البيضة ينظر فيها على أنها هى الساعة . ولو قد رآه هذا الأبله لزعمه مجنونًا كما يزعُمنى ، فإن المجانينَ يرون العقلاء مرضَى بمواهبهم وأعمالِهم التى يعملونها .

وأنا فليس يَهيجنى شىءٌ ما تَهيجنى كلماتٌ ثلاث : أن يقال لى مجنون ، أو أبله ، أو أحمق . فمن رغِبَ فى صحبتى فليتجنبْ هذه الثلاثَ كما يتجنب الكفرَ والكفرَ والكفر . . .

قال ا . ش : فإذا قيل لك مثلاً . مثلاً . أى على التمثيل : مغفَّل . . .
فحكَّ رأسَه قليلاً وقال : لا ، هذه ليست من قَدرى[1] . . .

قلت : فبعضُ الكلمات إذا قُطعتْ عندك غيَّرت الحقائق ، كذلك القرن الذى قُطع فرَدَّ البقرةَ فرسًا ؟

قال : وكيف كان ذلك ؟

قلت : زعموا أن أعرابيًّا خرج إخوتُه يشترون خيلاً ، فخرج معهم فجاء بعجلٍ يقوده ؛ فقيل له : ما هذا ؟ قال : فرس اشتريته . قالوا : يا مائق هذه بقرة ، أما ترى قرنيها ؟

فرجع إلى منزله فقطع قرنيها ، ثم قادها إليهم وقال لهم : قد أعدْتُها فرسًا كما تريدون . . .

قال (النابغة) : هذا غيرُ بعيد ، فقد رأيتُنا حين ذبحنا العنز وكسرنا قرنيها أعدناها كلبةً سوداء ، فتقذَّرتُها وعِفْتُ لحمَها ولم أطعم منها .

ثم أومأ إلى الآخر وقال : هذا لايدرى ما طَحَاها ، وهو مثل العنز : تحسبُ قرنيها للقتال والنِّطاحِ ومنهما تُمسَكُ للذبح ؛ فقل فى هذا يا أستاذ (نابغة القرن العشرين) .

قلت للآخَر : أيرضيك أن أقولَ فى المعنى لا فيك أنت ... ؟ قال : نعم .
فكتبتُ هذه الأبيات على ما يريد النابغة :

قل لعَنزٍ نَاطِحَاهـا لقتال سَلَّحَاها
ما لهـا قدْ طَرَحَاهـا فى يَدَيْنِ ذَبَحَاهـا ؟

* * *

شِيمةٌ منى نَحَاهَا عقلُ غِرٍّ فَلَحَاهَا
ليس يدرى ما طَحَاهـا بل يَرَى شمسَ ضُحَاها
حَجَراً مثـلَ رَحَاهَا ويَرَى الليـلَ مَحَاها
ظُلُمًا طالتْ لِحَاها . . .

* * *

---

(١) نص عبارته : « دى مش أدتى » ...

وسُرَّ (النابغة) وازدهى ، وجعل يقول : طالتْ لِحَاها ، طالت لحاها .
وما كان هذا إلا السرور الأصغر ؛ أما سروره الأكبر فمجىء ساعى (البريد المستعجل) إلى الندىّ ، وفى يده رسالة عنوانها : نابغة القرن العشرين فلان ، بندىٍّ كذا .

وجعل الرجلُ يهتفُ بالعنوان يسأل عن صاحبه ؛ فتطاولتْ أعناقُ الناس ، ورفعوا أبصارَهم ينظرون إلى (نابغة القرن العشرين) وقد مدَّ يدَه يتناول الرسالة وكأنه ملِكٌ من القدماء أُسْقِطَ له كتابٌ بالفَتح العظيم وبضم دولةٍ إلى دولته .

ثم ترك الرسالةَ بين أصابعه يقلبها ولايفُضُّها ونحن فى دهشة من أمره ؛ فنظر فيها المجنون وقال له : هذا عجيبٌ يا أخى ، كيف هذا ؟ إن هذا لايُصدَّق ؛ إنك لم تُلقِها فى صندوق البريد إلا منذ ساعة . . . .

المجنون

٤

وضاق « نابغةُ القرن العشرين » بحُمق المجنون الآخر ، ورآه داهيةَ دَوَاه ، كلما تَعاقَلَ أو تَحاذَقَ لم يأتِ له ذلك إلا بأن يكشفَ عن جنونه هو: فلا يبرَحُ يُجرِّعُه الغيظَ مرةً بعد مرة ، ولا يزال كأنه يَسُبُّه فى عقله ؛ فأراد أن يحتالَ لصرفه عن المجلس ، فدفع إليه الرسالةَ التى جاء بها (البريد المستعجل) وقال له : خذ هذه فاذهبْ فألقِها فى دار البريد ، فسيجىء بها الساعى مرة أخرى ، ثم تذهبُ الثانيةَ فتلقيها ، ويعود فيجىء بها ، وتكونُ أنت تذهب ويكونُ هو يجىء ، فنضحكُ منه ويضحكون . . . .

قال س . ع : ولكن كم يذهب هذا وكم يجىء ذاك ؟

فغمزه (النابغة) بعينه أن اسكتْ ؛ فتَغافَلَ س . ع ، وقال : كم تريد أن يجىءَ الساعى ليهتفَ بنابغة القرن العشرين ؟

قال المجنون الآخر : هذا هو الرأى ، فلستُ قائمًا حتى أعرفَ كم مرةً أذهب ؛ فإن الساعى لايجىء إلا راكبًا ، وأنا لاأذهبُ إلا راجلاً ، وإن لى رجلَىْ إنسان لارجلَىْ دابة . . .

قال (النابغة): سبحان الله ؟ بقليلٍ من الجنون يَخرُجُ من الإنسان مجنونٌ كامل مُستَلَبُ العقل . بَيْدَ أنه لايأتى النابغةُ إلا من كثيرٍ وكثير ، ومن النبوغ كلِّه بجميع وسائله وأسبابه على تعدُّدها وتفرّقها وصعوبةِ اجتماعها لإنسانٍ واحد (كنابغة القرن العشرين) ، فهو الذى توافَتْ إليه كلُّ هذه الأسبابِ ، وتوازَنَتْ فيه كلُّ تلك الخلال . إنه ليس الشأنُ فى العلم ولا فى التعليم ؛ ولكنما الشأنُ فى الموهبة التى تُبدعُ الابتكارَ ، كموهبة (نابغة القرن العشرين) ؛ فبها تجىء أعماله منسجِمَةً دالّةً بنفسها على نفسها ؛ ومتميزةً مع كونها منسجمةً دالةً بنفسها على نفسها ؛ ومتلائمةً مع كونها متميزةً دالةً بنفسها على نفسها . . .

هذا س . ع . كان الأولَ بين خرِّيجى مدرسة دار العلوم ، مدرسةِ الأدب والعربية ، والمنطق والتحذلُق ، وبلاغةِ اللسان وصحة النظر ؛ وهو يعرف أن الكتابَ يُلقَى فى البريد وعليه طابَعٌ واحد ، فيصل إلى غايته بهذا الطابع ، ثم يرَى بعينَىْ رأسه أربعةَ طوابعَ على هذه الرسالة المُعَنْوَنَةِ باسم (نابغة القرن العشرين) ، فلا يُدرك بعقله أن معنى ذلك أن من حق هذه الرسالة أن تصلَ إلىَّ أنا أربعَ مرات . . . .

فطرب المجنونُ الآخرُ ، واهتزَّ فى مجلسه ، وصفَّق بيديه ، وقال : « مما حفظناه» هذا الحديث: « يُحاسِبُ الله الناسَ على قدر عقولهم » . فلا تؤاخذْ س. ع . فإن مدرسة دار العلوم تعلِّمهم : « فيها قولان » ، وفيها ثلاثة أقوال ، وفيها أربعةُ أوجه ، ولكنها لاتعلمهم فيها أربعة طوابع . . . .

ثم التفتَ إلى س . ع . وقال له: لاعليك،فأنا صاحبُه وخَلِيطُه ، وحامِلُ عِلمه وراويةُ أدبه ، وأكبرُ دُعاتِه وثِقَاتِه ، وما علمتُ هذه الحكمةَ منه إلا فى هذه الساعة .

قال ا . ش : فإذا كان هذا ، فإن لقائلٍ أن يقول : لماذا لم يضع على كتابه عشرةً من الطوابع ، فيجىء به الساعى عشر مرات .

قال (النابغة) : وهذا أيضًا . . . ؟

« وما شرُّ الثلاثة أُمَّ عمرو * بصاحِبِك الذى لاتصحبينَ » ؛ إن الشمعةَ فى يد العاقل تكونُ للضوء فقط ، ولكنها فى يد المجنون للضوءِ ولإحراقِ أصابعه . . . كم الساعةُ الآن ؟

قلنا : هى التاسعة .

قال : ومتى ينصرفُ أهلُ هذا النديّ ؟

قلنا : لتَمامِ الثانيةَ عشرة .

قال : فإذا كان الساعى يتردد فى كل ساعةٍ مرة ، فهى أربعُ مرات إلى أن ينفضَّ المجتمعون هنا. وبين ذلك ما يكونُ قد ذهب قومٌ عرفوا (نابغة القرن العشرين) ، وجاء قومٌ غيرهم فيعرفونه . وأما بعدَ ذلك فلا يجد الساعى هنا أحداً ، فلا تكون فائدةٌ من مجيئه . . .

فصفـّق المجنونُ الآخر وقال : هذا وأبيك هو التّهدّى إلى وجه الرأى وسَداده ، وهذا هو الكلامُ الرصينُ الذى يقوم على أُصول الحساب والجغرافيا . . .

« ومما حفظناه » هذا الحديث : « لا مالَ أعوَدُ من العقل » . فأربعةُ طوابع ، لأربعِ مرات ، فى أربعِ ساعات ؛ وما عدا هذا فإسرافٌ وتبذير ؛ ولا مالَ أعودُ من العقل . . .

* * *

ورضِيَ (النابغةُ) عن صاحبه وقال له : لئن كانت فيك ضَعْفةٌ إن فيك لَبقيّةً تعقلُ بها . . . ثم أخذ منه الرسالة ودسّها فى ثوبه . قلنا : ولكن ألا تَفُضُّها لنعرفَ ما فيها ؟

فضحك وقال : أئِنْ جاريتكم فى باب المُطايبَة والنادرة ، وجاريتُ هذا الأبلهَ فى باب جُنونه وحُمقه — تحسبون أن الأمرَ على ذلك ، وأن الرسالة فارغةٌ إلا من عنوانها ، وأن نابغة القرن العشرين هو أرسلها إلى نابغة القرن العشرين ، كما قال سعد باشا : (چورج الخامس يفاوضُ چورج الخامس) . . .؟ لَحقّ والله أن العقلَ الكبيرَ الذى يأبى الصغائرَ ، هو الذى تأتى منه الصغائرُ أحيانًا لتثبتَ أنه عقل كبير ، وهكذا تسخَرُ الحقيقةُ من كبار العقول (كنابغة القرن العشرين) . . .

فغضب المجنونُ الآخر وهمّ أن يتكلم : فقال له (النابغة) : أنت كاذبٌ فيما ستقوله . . .

قلنا : ولكنه لم يقل شيئًا بعدُ ، فكما يجوز أن يكونَ كاذبًا يجوز أن يكونَ صادقًا .

قال : وسيُخطئ فى رأيه الذى يُبديه . .

قلنا : ولم يُبدِ شيئًا من رأيه .

قال : ولا يعرف الحقيقةَ التى سيتكلم عنها .

قلنا : ويحك ، أدخلتَ فى عقلِ الرجل أم تعلَمُ الغيب ؟

قال : لا هذا ولا ذاك ، ولكنه قياسٌ منطقىٌّ يُتَوَهَّمُ اطرادُه . إنه سيقول : إنى مجنون . . .

فأخرج الآخر لسانه . . . قال (النابغة) : تبّالك ، لقد رأيتُ الكلمةَ فى لسانك كأنها مكتوبةٌ بحروف المطبعة . ويحكَ يا مَرْقَعان(١) ، ألا تعرفُ أن لك دماغاً مخروقاً تسقط منه أفكارُك قبل أن تتكلمَ بها ، ولولا أنه مخروقٌ لحفظت المتن ! إن كل تخطئة لى منك هى اعترافٌ لى منك بصواب .

فنظر الآخرُ إليه نظرةً كان تفسيرُها فى حواجبه ، إذ مَطّ حواجبَه(٢) ورقّصها . فقال (النابغة) : ونظراتهُ خبيثةٌ مِلْحَةُ الطعم، مَزْعُوقَةٌ كماءِ البحر المرّ أُخِذَ من البحر وأُضيف إلى مِلْحه الطبيعىِّ مِلح ، أكاد أتهوَّعُ من هذه النظرة فأقىء .

الآن فهمتُ معنى قولهم : « ملحةٌ فى عين الحسود » . فإن الملحَ لا يغلبه إلا الملح ، كالحديد بالحديد يُفْلَحْ . هاتوا كأساً من مُعتّقةِ الخمر ، ثم لينظرْ فيها الخبيثُ هذه النظرةَ ، فإن الخمر لابد مستحيلةٌ « شربة ملح إنجليزى » . . . هذا الأبلهُ ثقيلُ الدم كأن دمَه مأخوذ من مستنقَع . . . أهذا الذى لايستطيع أن يقول لشىء فى الدنيا : هولى، إلا الفقرَ والجنونَ والخرافة — يكذّب ما فى الرسالة التى جاء بها البريد المستعجل ، ولا يُصدِّق أنها مرسَلة إلى نابغة القرن العشرين من صاحب السمو الأمير ؟

هذا الذاهبُ العقلِ هو كالجبانِ المنقطِع فى وَحْشةِ القَفْر ، فى ظلام الليل : إذا توَجَّس حركةً ضعيفةً انقلبتْ فى وهمه قصةَ جريمةٍ مِلْؤها الرعبُ وفيها القتلُ والذبح ؛ ولهذا يخشى ما فى الرسالة التى جاءت من صديقِ صاحب السمو . هاؤمُ اقرءوا الرسالة .

وفضضنا الغلاف ، فإذا ورقتان ممهورتان بتوقيع أمير معروف ، إحداهما صكٌ بألف جنيه تُدفَع (لنابغة القرن العشرين) ، والثانية أمرٌ بالقبض على المجنون الآخر . . . . وإرسالِه إلى المارستان . . .

* * *

وذهبتُ أصْلِحُ بينهما صلحاً فقلت : إن فى الحديث الشريف : « بينما

---

(١) المرقعان والمرقع : الأحمق الذى يتمزق عليه رأيه فلا يجتمع له .

(٢) هما حاجبان . ولكن هذا الأسلوب هو الأفصح هنا ، وهو كثير فى العربية .

رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى أصحابه إذ مرَّ به رجلٌ ، فقال بعضُ القوم : هذا مجنون . فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : هذا مُصاب ؛ إنما المجنونُ المقيمُ على معصيةِ الله » .

فقال صاحبُ المتن : « مما حفظناه » إنما المجنونُ المقيم على معصية الله .

قلت : وليس فيكما مقيمٌ على معصية الله . . .

قال المجنون : « مما حفظناه » : وليس فيكما مقيمٌ على معصية الله . . .

قلت : هذا ليس من الحديث ولكنه من كلامى .

قال (النابغة) : أنبأتكم أن هذا الأبلهَ يَضِلُّ فى داره كما يضلُّ الأعرابىُّ فى الصحراء ؛ وأن الأسطولَ الإنجليزى لو استقرَّ فى ساقيةٍ يدورُ فيها ثَور ، لكان ذلك أقربَ إلى التصديق من استقرار العقلِ فى رأس هذا الأبله ؟ . . .

فاحْتَدَمَ الآخر وهمّ أن يقول : « مما حفظناه » ، ولكنى أسكتُّه وقلت (للنابغة) : إنك دائماً فى ذِروة العالمَ ، فلا غروَ أن ترى المحيطَ الأعظمَ ساقية . « والنوابغ » هم فى أنفسِهم نوابغ ، ولكنهم فى رأى الناس مَرْضَى بمرضِ الصعودِ الخيالىِّ إلى ذِروةِ العالم . ومن هذا يكونُ المجانينُ هم المرضى بمرض النزولِ الحقيقىّ إلى حَضيضِ الآدمية ؛ فهناك يعملون فتكونُ أفكارُهم من أعمالهم ، ثم تكون عقولُهم من أفكارهم ، فيكونُ هذا هو الجنونَ فى عقولهم ؛ وذلك معنى الحديث : « إنما المجنونُ المقيم على معصية الله » .

قال (النابغة) : لَعَمْرى إن هذا هو الحق ؛ فنبوغُ العقل مرَضٌ من أمراضِ السموّ فيه ؛ فالشاعرُ العظيم مجنونٌ بالكون الذى يتخيَّله فى فكره ، والعاشقُ مجنون بكونٍ آخر له عينان مكحولتان ؛ والفيلسوفُ مجنون بالكون الذى يَدأبُ فى معرفته ؛ ونابغةُ القرن العشرين مجنون . . . لا . لا . قد نسينا ا . ش ، فهو مجنون ، وس . ع فهو مجنون .

وكلُّ الناس مجْنونٌ بليلَى وليـلى لا تُقِرُّ لهم بذاكَ

ومن حقّ ليلى ألاّ تقرَّ لهم ، إذ هى لا تقر إلا لنابغةِ القرن العشرين وحده ؛ وما أعجبَ سِحرَ المرأة فى الكون النفسانىّ للرجال ؛ أما فى الكون الحقيقى فهى

أنثى كإناثِ البهائم ليس غير . وأعقلُ الرجالِ من كان كالحمار أو الثور أو غيرهما من ذكور البهائم . فالحمار لا يعرف الحمارةَ إلا أنها حمارة ، والثور لا يعرف البقرة إلا أنها بقرة ؛ ولا ينظمون شعراً ، ولا يكتبون « أوراق الورد » . . . وإناثُ البهائم أمّاتٌ[1] لا غير . ولكنّ العجيبَ أن ذكورتَها ليست آباءً ؛ فهذه الذكورةُ طُفَيلية في الدنيا ، والطفيليُّ لا يأكلُ إلا بحيلة يحتالُ بها ، فيكونُ صاحبَ نوادرَ وأضاحيكَ وأكاذيب . ولهذا كان عشقُ الرجالِ للنساء ضُروبا من الخداع والأكاذيب والأضاحيكِ والحيَلِ والغفلةِ والبلاهة ؛ وإذا نظرنا إليه من أوله فهو عشق ، أما آخرُه فهو آخرُ الحيلة والأُكذوبة ، وهو قولُ الطفَيليّ : قد شبِعتُ وقد رَويت . . . ويحكم ، أين أولُ الكلام ؟

قلنا : أوله ما أعجبَ سِحرَ المرأة فى الكون النفسانيِّ للرجال .

قال : نعم هذا هو . إنه سحرٌ لا أعجبَ منه فى هذا الكونِ النفسانى إلا سحرُ الذهب ؛ فلو مُسِخَت المرأةُ الجميلةُ شيئًا من الأشياء لكانت سَبيكةً ذهبيةً تلمع ؛ ولهذا يُوجِدُ الذهبُ اللصوصَ فى الدنيا ، وتُوجِد المرأةُ الجميلةُ لصوصًا آخرين ، فيجب أن يُصَان الذهبُ وأن تُصانَ المرأة .

قلت : ولكن أليس من المالِ فضةٌ . وهى تُوجِدُ اللصوص كالذهب ؟

قال : نعم ، وفى النساء كذلك فضةٌ ، وفيهن النّحاس ؛ ولو أنتَ ألقيتَ ريالاً فى الطريق لأحدثتَ معركة يختصمُ فيها رجلان ، ثم لا يذهبُ بالريال إلا الأقوى ، ولو تركتَ قرشًا لتضارب عليه طفلان ، ثم لا يفوز به إلا من عَضّ الآخر . . .

ولكن (فُورد) الغنيَّ الأمريكى العظيمَ الذى يجمع يدَه على أربعمائة مليون جنيه ، لا يتكلم عن القرش ؛ (ونابغة القرن العشرين) الذى يملك (ليلَى) ، لا يتكلم عن غيرها من قروش النساء . . .

قلت : فإنى أحسبك أعلمتَنى أن اسمَها فاطمة لا ليلى .

قال : هل يستقيم الشعر إذا قلت : وكلُّ الناس مجنونٌ بفاطمة ، وفاطمُ لا تقرُّ لهم ؟ قلت لا .

---

(١) يقال فى غير العاقل : أمات ، وفى العاقل : أمهات .

قال : إذن فهى (ليلى) ليستقيم الشعر . . . أما حين أقول : أفاطمُ مهلاً بعد هذا التدلّل ، فهى فاطمة ليصحّ الوزن . . .

قلت : يُشْبِه والله ألا يكونَ اسمُها ليلى ولا فاطمة ؛ وإنما هى تسمى حَسَبَ الوزن والبحر ، فاسمها فَعولُنْ أو مُفاعَلَتُنْ ...

* * *

ثم قلنا له : فما رأيك فى الحب ، فإنه لَيقال : إنك أعشقُ الناس وأغزلُ الناس ؟ .

قال : إن ذلك لَيقال (وهو الأصح) ، ثم أطرق يفكر . وبدا عليه أنه مَدهوش ذاهبُ العقل ، كأنه من قلبه على مسافة أبعدَ من المسافة التى بينه وبين عقلهِ . وخُيل إلىَّ أن النساءَ قد حُشِرْن جميعًا فى رأسه ، ومرت كلٌّ واحدة تَعرض مفاتِنَها وغزَلَها ، وتلائم هَذَيانَه بهذيانٍ من جمالها ، فهو يرى ويسمعُ ويَعْرِض ويَتخيَّرْ . ثم اضطرب كالذى يحاولُ أنْ يُمسك بشىء أفلتَ منه ؛ فلم ينبِّهه إلاّ قولُ المجنون الآخر : « مما حفظناه » أن أعرابية سئلت عن العشق فقالت إنه داءٌ وجنون . . .

قال : اسكتْ يا ويلك لقد أطفأتَ الأنوارَ بكلمتك المجنونة . كان فى رأسى مرقصٌ عظيم تَسطع الأنوارُ فيه بين الأحمرِ والأخضرِ والأبيض ؛ وترقُصُ فيه الجميلات من الطويلة والقصيرةِ والممشوقةِ والبادنة ، فجئتَ بالداءِ والجنونِ قبحَك الله فأخرجتَنى عنهن إليك . أحسبُ أنك لو انتحرتَ لصَلُحَ العالَم أو صلُحتُ أنا على الأقل ... فإذا أردتَ أن تشنُقَ نفسَك فأنا آتيك بالحبل الذى كنتُ مقيَّداً فيه أى الحبل الذى عندى فى الدار . . . على أن رأسك الفارغَ مشنوق فيك وأنت لا تدرى .

قال الآخر : ما أنت مُنذُ اليومِ إلا فى شنقى وتعذيبى أو فى شنقِ عقلى (على الأصح) . « ومما حفظناه » قولُ الأحنف بن قَيس : إنى لأُجالِسُ الأحمقَ ساعةً فأتَبَيَّنُ ذلك فى « عقلى » . . .

فلم يَرُعْنا إلا قيامُ المجنونِ مسلَّحًا بحذائه فى يده . . . وهو حِذاء عتيق غليظ يقتلُ بضربةٍ واحدة ؛ فحُلنا بينهما وأثبتْناه فى مكانه . وقلنا : هذا رجل

قد غُلِبَ على عقله فلا يدرى ما يقول ؛ فإذا هو دلّ على أنه مجنون ، أفلا تَدُلُّ أنت على أنك عاقل ؟ ما سألناك فى انتحاره وجنونه ، بل سألناك رأيَكَ فى الحب ؛ وما نشُكُّ أنك قد أطلتَ التفكيرَ ليكونَ الجوابُ دقيقًا ، فإنك (نابغة القرن العشرين) ، فانظر أن يكونَ الجوابُ كذلك .

قال : نعم إن العاقلَ إذا ورد عليه السؤالُ أطال الفكرَ فى الجواب . فاكتب، يا فلان (س . ع) :

(جلس نابغةُ القرن العشرين مجلسَ الإملاءِ مُرتجِلاً فقال[1] : قصةُ الحب هى قصة آدم ، خلق الله المرأةَ من ضلعه . فأولُ علاماتِ الحب أن يشعرَ الرجل بالألم كأن المرأةَ التى أحبها كسَرَتْ له ضلعًا . . . وكل قديم فى الحب هو قديمٌ بمعنًى غيرِ معقول ، وكلُّ جديد فيه هو جديدٌ بمعنًى غيرِ مفهوم ؛ فغيرُ المعقولِ وغير المفهوم هو الحب .

والجمرةُ الحمراءُ إذا قيل إنها انطفأتْ وبقيتْ جمرةً فذلك أقربُ إلى الصدق من بقاءِ الحب حيًّا بمعناه الأول إذا انطفأ أو بَرَدَ .

والعاشقُ مجنون . وجنونه مجنونٌ أيضًا ، فهو كالذى يرى الجمرةَ منطفئةً ، ويرى مع ذلك أنها لا تزالُ حمراء، ثم يُمْعِنُ فى خياله فيراها وردة من الورد . . . وإذا سألتَه أن يصفَ الجمالَ الذى يهواه كان فى ذلك أيضًا مجنونَ الجنونِ ، كالذى يرى قمرَ السماء أنه قد تَفَتَّتَ وتَنَاثَر ووقَع فى الروضةِ ، فكان نثارُه هو الياسمينَ الأبيضَ الجميلَ الذكى . . .

والمجنونُ يرى الدنيا بجنونه والعاقلُ يراها بعقله ؛ ولكنَّ العاشقَ المخبولَ لا ينظر من يهواه إلا ببقيةٍ من هذا وبقية من ذلك ، فلا يخلُصُ مع حبيبه إلى جنون ولا عقل .

(والمجهولُ) إذا أراد أن يَظهرَ فى دماغ بشَرىٍّ لم يسعه إلا أحدُ رأسين : رأسِ المجنون ورأسِ العاشق . . .

ولا صعوبةَ فى الحكم على شىء بأنه خيرٌ أو شرٌّ إلا حين يكونُ الخيرُ والشر امرأةً معشوقة . أما أوصافُ الشعراء والكتَّابِ للجمال والحب فهى كلّها تقليدٌ قد

---

(١) هذا نص عبارته حين يريد التخليط .

توسَّعوا فيه ؛ والأصلُ أن ثوراً أحب بقرةً فكان يقول لها : يا نجمةَ القطب التى نزلتْ من السماء لتدورَ فى الساقية كما دارت فى الفَـلَـك . . .

قال (النابغة) : هذا رأيى فى حب العاشقين ؛ أما حبى أنا (نابغة القرن العشرين) فيجمعه قولك : فلّ ، ورد ، زهر . . .

قلنا ما هذه الألغاز ؟ وهل للحب مـَتـْنٌ كقولهم : حروفُ القلـَـلـْقـَـلة يجمعها قولك (قطْبُ جـَـد) ، وحروف الزيادة يجمعها قولك (سألتمونيها) ؟

فتضاحـَكَ (النّابغة) ، وقال : تكاثـَرت الظباءُ على خـَراش ، فلكيلا نـَنسى . . . إن كل حرف هو بدءُ اسم ، الفاء فاطمة ، واللام ليلـَى ، والواو وردة ، والراء رَباب ، والدال د َلال ، والزاى زكية ، والهاء هند ، والراء رَباب . . .

قلنا : رباب قد مضَت فى (ورد) .

قال : كنا تـَهاجـَرْنا مدةً ثم اصطلـَحْنا بعد هند . . .

* * *

قلت : هكذا «النوابغ» فإن رجلاً أديبـًا كانت كنيتـُه (أبا العباس) فلما «نبغ» صيـَّرها (أبا العـَيْر)[1] وفـَتقَ له نبوغـُه أن يجعلـَها تاريخـًا يـَعرف منها عمرَه . قالوا فكان يزيد فيها كل سنة حرفـًا حتى مات وهى هكذا :

أبو العـَير طـَرَدْ طِيل طـَلـِيرِى بـَك بـَك بـَك . . . . . .

* * *

(١) العير : الحمار وتكنى بعض الحمقى (أبو البقر) قياساً على (أبو العير) .

المجنون

٥

ثم إن (نابغة القرن العشرين) استخفَّه الطربُ لذكر صواحبِه وجميلاته من فاطمة إلى رَباب ؛ ومن طبع المجنون أنه إذا كذَبَ صَدَّق نفسَه ، فإن قوةَ الضبطِ في عقله إما معدومةٌ وإما مختلَّة ؛ وكلُّ وجه تَخَيَّل منه خيالا فهو وجهٌ من وجوه العلم عنده ، إذ كان عالَمُه أكثرُه في داخله لا في العالَم ، فإذا توهَّم أو أحسَّ أو شَعَرَ ، فإنما يكون ذلك بطريقته هو لا بطريقة الناس العقلاء ؛ فليس يَحتملُ عقلُه إلا فكرةً واحدةً تمضي منفردَةً بنفسها مستقلةً بمعناها كأنها قَدَرٌ غالبٌ على جميع أفكاره الأخرى ، فلا شأنَ لها بالواقع ، ولا شأنَ للواقع بها ، وإنما هي تُحقِّقُ معناها كما تَخْطُرُ له ، لا كما تتمثَّلُ فيما حوله .

فبين كل مجنون وبين ما حولَه دماغُه المُتَدَجِّي بالغُيوم العقلية ، لا تزال تَعْرِضُ له الغَيمةُ بعد الغيمة من اختلالِ بعض المواكز العصبية فيه ، وفسادِ أعمالِها بهذا الاختلال ، وقيامِ الطبيعة فيها على هذا الفساد .

ومن ذلك تنقلبُ الكلمةُ من الكلام ، وإنها لحادثةٌ تامةٌ في عقل المجنون كالقصةِ الواقعةِ لها زمانٌ ومكانٌ ، وبَدْءٌ ونهاية ، لا يُخامِرُه فيها الشك ، ولا يَعْتَرِيها التكذيب ؛ وكيف وهي قائمةٌ في ذهنه من وراءِ سمعِه وبصرِه قيامَ الحقيقة في الأبصار والأسماع ؟

ولحواسِّ المجنون جِهَتان في العمل ، لأنها بين كَوْنَيْنِ ؛ أحدُهما الكونُ الخَرِبُ الذي في دماغه ؛ وفي هذا يقول (نابغة القرن العشرين) : إن في داخلِ عينيه مِنظاراً يرى به الأشياءَ في غيرِ حقائقِها ، أي في حقائقها . . . .

وحدثنا الدكتور محمد الرافعي قال : إن في دار المجانين بمدينة ليون بفرنسا نابغةً كنابغة القرن العشرين ، ذُكِرَتْ أمامه قيصرةُ روسيا وخَبَرُ مقتلها ، فأحفظَتهُ هذا وأرْمَضَه وقال يا ويْحهم ! كَذَبوا عليها وعليَّ . . . فسأله الدكتور : وكيف ذلك ؟

قال : كان من خبر القيصرة أنها رأتنى فأحبتنى ، وعلمتْ من كل وجهٍ يمكن أن يعلمَ منه قلبُها أنى أنا رجلُها لا القيصر ؛ فما زالتْ بعدها تُناكدُ القيصرَ وتَلتَوى عليه ولا تصلُح له فى شىء حتى يَئِس منها فطلّقها ، فحملتْ كنوزَها وحلاها ولجأتْ إلى حبيبها ، ثم تَبِعتْها نفسُ القيصر ولم يُطِق العيشَ بعدَها فانتحر . . . . ثم طلبها الشيوعيون لما معها من كنوزٍ ، فأخفاها هو فى مكان حريزٍ لا يعلمه إلا هو ؛ ثم إنه هو لا يصلُ إلى هذا المكان الذى أحرزَها فيه إلا إذا نام . . . . كيلا يراه أحدٌ من الشيوعيين فيتعقّبه فيعلمَ مقرَّها ؛ ولهذا كان من الحكمة أن ينسى المكانَ إذا استيقظ . . . فقد يزِلُّ مرةً فيُخبِرُ به أو يغلبه الشوق مرة على « عقله » . . . فيذهبُ إليه ؛ فعسى أن يراه من يَنِمُّ بذلك ، فتفتضِحُ الحبيبة وتؤخَذُ منه .

قال : وإن القيصرةَ هى تحتاط أيضًا مثلَ ذلك فتراسِلُه كل يوم باللاسلكى رسائلَ تقع من الجو فى دماغه فيقرؤها وحده ، وإن أخوفَ ما يخافه أن يغلبَها جنونُ الحب يومًا فتطيش طيشَ المرأة . فتزورَه فى هذا المارستان . . . . . . فقد تُقتَلُ إذا رآها الشيوعيون .

قال الدكتور : وهناك (نابغة) آخر ثبتَ فى ذهنه أن امرأةً من أجمل النساء قد استهامتْ به وأنها مُبتَلاةٌ فى حبها إياه بجنون الغيْرة ، وقد تناهتْ فيه حتى إنها لتَقتل نفسَها إذا علمتْ أن لصاحبها هوًى فى امرأةٍ أخرى . وخبَّلَتْه هذه الفكرةُ ، فاعتقد أن حبيبتَه من جنون غَيرتها واقعةٌ بين السلامة والتلَف ؛ ثم توهمَ ذاتَ يوم أن واشيًا قد أعلمها أن النساءَ افتتَنَّ به ؛ فطار صوابُها ، فهى آتيةٌ إليه فى المارستان لتوبخَه وتشفِىَ غيظَها منه ، ثم تنتحرَ أمام عينيه . . . وأدار (النابغة) الفكرَ فى إقناعها لتعلمَ أنه لم يَخُنْها بالغَيب . . . فلم يهتدِ إلى مَقنَعٍ تَستَيقِنُ به المرأةُ أن لا أرَبَ للنساء فيه إلا أنْ . . . ففعل وَجَبَّ خِصيتيه بيده ليقدّمَهما بُرهانًا أنه لها وحدها . . .

* * *

قلنا : وطَرِب (نابغةُ القرن العشرين) لذكر صواحبه وجميلاته ، فجعل يترنم بهذا الشعر :

قالوا جُنِنْتَ بمن تهوَى فقلتُ لهم ما لذةُ العيشِ إلا للمجانينِ

فقال المجنون الآخر « مما حفظناه » : ما لذة « الخبز » إلا للمجانينِ . . .

فضحك (النابغة) : وقال : ما أسخَفَكَ مِنْ أحمق . إذا كان هذا هو المعنى فقل ما لذة (الكعك) . ألم أقل لكم إن هذا الأبله لو تَهَجَّأ كلمة خبز لقال إنها ل . ح . م . ولو تهجأ كلمة لحم لقال ف . و . ل . . .

إنه طفلٌ عمرهُ ثلاثون سنة وفيه دائمًا غضبُ الطفل ونَزَقُه وحماقتُه ، وفيه كذلك سرورُ الطفل وطيشُه وأحلامُه ؛ غير أنه ليس فيه عقلُ الطفل . . . وهو من الضعف ، وشدةِ الحاجة إلى العناية فى حياطتِه وسياسته والبِرّ به كطفل صغير — بحيث يُخيَّل إلىّ أحيانًا أنى أمه . . . . . .

قلنا : وتَنسى فى هذه الحالة أنك رجل ؟ .

قال : وأنتم كذلك تتهموننى بالنسيان ، وهو شرعا جِهةٌ مُلزِمَةٌ للحكم بالجنون فما النسيانُ إلا الكلمةُ الأخرى لمعنى ضعفِ العقل ؛ وضعفُ العقل هو اللفظُ الآخر لمعنى جنونى ؛ وقد أعلمتُكم ما أكره من الكلام .

قلتُ : لا ، النسيانَ لا يكون منك نسيانًا بمعناه فى المجانين ، بل بمعناه فيك أنت من تَواثُبِ الأفكارِ النابغة وتزاحُمِها فى تَوارُدِها على العقل . فإذا تواثبتْ وتزاحمتْ كان أمرُها إلى أن يُنسِيَ بعضُها بعضًا ، فلا ينطلقُ منها إلا القويُّ النابغُ حتىّ نبوغِه ، فيجىءُ كالمنقطِع مما قبله ؛ فيُحْسَبُ ذلك نسياناً وما هو به . وقد تصطلحُ الأفكارُ فى هذه المعركة الذهنية إذا كان النابغة مسروراً مَحبوراً يرقصُ طربًا . . . . . . فيكون أمرُها إلى أن تجيءَ كلّها معًا على اختلافِ معانيها وتناقضِها ؛ فيُحْسَب ذلك ضرباً من الذهول عند من يجهلُ العلةَ « النبوغية » ؛ وعذرُه جهلُ هذه العلة ، وهى فى دلالة العقل ليست نسيانًا ولا ذهولاً .

قال : فأعْلِمْنى كيف نسيانُ المجانين ، فقد خَفِىَ علىّ أن أدركَ هذا الأمر العجيبَ فيهم ، ولست أدرى كيف يفوتُهم ما استدلى لهم من الفكر بعد أن يكون قد استقرّ وحَصَل فى عقولهم ؟

قلت : لا يكون النسيانُ تُهمةً بالجنون إلا فى أحوالٍ ثلاثٍ ، جاءت بكلِّها الروايةُ الصحيحةُ المحفوظة :

فأما الأولى : فما يُروَى عن رجل كان سَرِيًّا غنيًّا وعُمِّر حتى أدركه الخرَف ؛ فجاءه كاتبه يومًا يستعينه على تجهيز أمه وقد ماتت ، فدفع إلى غلامٍ له دنانيرَ يشترى بها كفنًا ، ودنانيرَ أخرى ويتصدق بها على القبر ، ثم قال لغلام آخر ؛ امض إلى صاحبنا وغاسِل موتانا فلان فادْعُهُ يغسلها . قال الكاتب : فاستحييتُ منه وقلت : يا سيدى ابعثْ خلف فلانة وهى جارَةٌ لنا تغسلها . قال يا فلان : ما تدعُ عقلَك فى حزنٍ ولا فرح . كيف نُدخل عليها من لا نعرفه ؟

قال الكاتب : نعم تأذَنُ بذلك . قال : لا والله ما يغسلها إلا فلان :

فضاق الكاتب بهذا الحمق وقال : يا سيدى كيف يغسل رجلٌ امرأة ؟

قال : وإنما أمك امرأة ؟ . . . والله لقد أُنسيت . . .

وأما الحالةُ الثانية : فما يُروى عن رجل كان نائمًا فى ليلةٍ باردة فخرجت يدهُ من الفراش فبردتْ ، فأدناها إلى جسده وهو نائم فأحسَّ بردَها فأيقظتْه ، فانتبه فَزِعًا فقبض عليها بيده الأخرى وصاح : اللصوص . اللصوص . . . هذا اللص قد قبضتُ عليه ، أدركونى لئلا تكونَ فى يده حديدةٌ يضربنى بها ، فجاءوا بالسراج فوجدوه قابضًا بيده على يده وقد نسى أنها يدُه . . .

وأما الثالثةُ : فهى روايةٌ عن رجل قد وَرِثَ نصفَ دار ، ففكر طويلاً كيف تخلُصُ الدارُ كلُّها له ثم اهتدى إلى الوسيلة ؛ فذهب إلى رجل وقال له : أريد أن أبيعَك حصتى من الدار وأشترى بثمنها النصفَ الباقى لتصير الدارُ كلّها لى . . .

* * *

قال (النابغة) : لَعمرى إن هذا لهو الجنون ، وما يُذْكَر مع هؤلاء مجنون المتن ولا « غيرُه » . . .

فقال الآخر : تالله لولا أن (نابغة القرن العشرين) يرفع نفسَه عن الجنون لجاء فى الجنون بما يُذهِلُ « العقول » . . .

ثم نظر فإذا النابغة يتحفَّز له ... ؛ فأسرع يقول : « مما حفظناه » كُنْ

حذِراً كأنك غِرٌّ ، وكن ذاكِراً كأنك ناسٍ . فهذا هو نسيانُ نابغة القرن العشرين ، نسيانُ حكماء لا نسيانُ مجانين .

قال (النابغة) : ولكن قد فسد قولُ الشاعر : ما لذةُ العيش إلا للمجانين ؛ فما بقيتْ مع الجنون لذه .

قلت : إن الشاعر لا يريد المجانين الذين هم مجانين بالمرض ، وإنما يريد العشاقَ المجانينَ بالجمال ؛ وجنونُ العاشق فى هذا الباب كعيوب العظماء من أهل الفن ، وهى عيوبٌ تُدافع عن نفسها بحسَنَات العظَمة ، فليست كغيرها من العيوب .

قال : فيجب أن أصنعَ بيتًا آخرَ يفسِّر ذلك الشعرَ ليستقيمَ لى التمثل به ، ثم فكَّر وهَمْهمَ ، ثم كتب فى ورقة ثم طواها وقال : اصنع أنت أولُ ، وسأئتمنُ س . ع . على شعرى ودفع إليه الورقة :

فنظرت وقلتُ : يجب أن يكونَ الشعر هكذا :

قالوا جُنِنتَ بمن تهوى فقلتُ لهم ما لذةُ العَيشِ إلا للمجانينِ
العقلُ إن حَكم العُشَّاقَ أثقلُ من فَقرٍ تحكَّمَ فى رِزْقِ المساكينِ

ونشر س . ع . الورقة فإذا فيها :

قالوا جننتَ بمن تهوى فقلت لهم ما لذة العيش إلا للمجانينِ
إن العيوبَ عن المجنون دافعةٌ بأنه « نابغٌ فى القرن عشرينِ » ...

وضحكنا جميعًا ؛ فقال النابغة : أبعدك الله يا س . ع . إن من ائتمن المجنون على سرٍّ وقال له اكتمه فكأنما قال له انشره . . .

* * *

ثم قال : وَدِدْتُ والله أن يكونَ س . ع . هذا « نابغة » ، ولكنى سأجعله نابغة ، فقد صار له علَىَّ حقُّ الصديق وهو حقٌّ لا أضيِّعه ولا أُخِلُّ به . فإذا احتجتَ يا س . ع . إلى خطابٍ رنان تلقيه فى حَفْلٍ عظيم ، أو قصيدةٍ تمدح بها وزير المعارف ، فالجأ إلىَّ فإنى ملجأ لك . ومتى انتحلتَ شعرى كنتَ عند الناس المتنبى أو البحترى أو ابنَ الرومى ، فإن هؤلاء القُدامى لم ينفعهم إلا أنى لم أكن فيهم ، ولما لم أكن فيهم أعجبوا الناسَ إذ أننى لم أكن فيهم . . .

قلنا فما حكمك عليهم فى الأدب ؟

قال : إذا حكمتُ عليهم فقد جعلتُ نفسى بينهم ، فمن الطبيعى ألا يعجبنى منهم أحد . إن « نابغة القرن العشرين » لا يقول لمعنًى هذا أحسنُ ، فإنه هو فوق الأحسن ، ولا يقول عن نابغة هذا أشهر ، فإنه هو فوق الأشهر .

قلت : كأن الدنيا تحت قدميك وأنت فيها الزاهدُ العظيمُ الذى لا يقول فى حُسنٍ هذا أحسنُ لأنه فوقَ الشهوة ، ولا فى نعيمٍ هذا أطيبُ لأنه فوق الطمع ، ولا فى مالٍ هذا أكثر لأنه فوق الحرص . وأحسبك لو كنتَ ترعى غنماً لكنتَ الحقيقَ فى عصرنا بقول تلك الراعية الزاهدة : أصلحتُ شأنى بينى وبينه فأصلَح بين الذئب والغنم .

قال : وكيف ذلك ؟

قلت : حكى عن بعض الصالحين أنه فكر ذاتَ ليلة فقال فى نفسه : يا رب . مَن زوجتى فى الجنة ؟ فأُرِىَ فى منامه ثلاثَ ليال أنها جاريةٌ سوداءُ فى أرض كذا . فجاء تلك الأرضَ فسأل عن الجارية ، فقال له رجلٌ ما هذا ؟ تسأل عن جارية سوداءَ مجنونة كانت لى فأعتقتها ؟ قال وماذا رأيتم من جنونها ؟ قال : كانت تصوم النهارَ فإذا أعطيناها فَطُورها تصدقتْ به ، وكانت لا تهدأ الليلَ ولا تنام فضجرنا منها .

قال : فأين هى ؟ قال ترعى غنماً للقوم فى الصحراء :

فذهب إلى الصحراء فإذا هى قائمة فى صلاتها . ونظر إلى الغنم فإذا ذئبٌ يدلها على المرعى وذئبٌ يسوقها . فلما فرغت من صلاتها سلَّم عليها فأنبأته أنه زوجها فى الجنة وأنبأها أنه بُشِّر بها ؛ ثم سألها ما هذه الذئابُ مع الأغنام ؟ قالت : نعم أصلحتُ شأنى بينى وبينه فأصلح بين الذئب والغنم .

قال (النابغة) : هذا كذب لأنه عجيب ، وهو عجيب لأنه كذب .

قلت : وأى عجيب فى هذا ؟ إن الذئبَ والشاةَ ، والأسدَ والغزالَ ، والثعبانَ والعصفور ، وكلّ آكل ومأكول من الأحياء ، لو هى دخلتْ فى دائرة الصلاة الحقيقية لانتظمتْ كلها صفًّا واحداً يركَع ويسجد . فهذه الجاريةُ نشرتَ رُوحَ الصلاة والتقوى على كل ما حولها من قلبها الطاهر المطمئنّ بالإيمان

فوقع الذئبُ منها فى دائرةٍ مغناطيسية ، فسُلبَ وحشيتَه ورجع مُسَخَّراً لفكرة الصلاح والخير إذ تجانَسَتْ فيه الحياةُ بما حولَها ، وانسجم النوعُ والنوعُ فى حركةٍ متجاوبةٍ انسجامَ الرجُلِ المغناطيسى هو ومن ينوِّمه فى إرادةٍ واحدة وفكرة واحدة .

قال (النابغة) : فإذا دخل الذئبُ مسجداً يَرْتجُّ بالمصلِّين ، أتُراه يَصُفُ أرْبعتَهُ ويقفُ بينهم للصلاة ، أم يصلى صلاتَه الذئبيةَ فى لحومهم ؟

قلت : وأين هم الذين يصلون بحقيقة الصلاة ، فيخرجون بها من النفس إلى الكون ، ومن الزمن إلى الأبد ، ومن الأسبابِ إلى مُسبِّبِها ، ومما فى القلب إلى ما فوقَ القلب ؟ إن هؤلاء جميعًا يصلّون بجوارحهم وبينَهم وبين أرواحِهم طولُ الدنيا وعَرضُها ؛ وما منهم إلا من يتصل فكرُه بما يَغلب عليه ، كما يتصل فكرُ اللص بيده ، وفكرُ العاشِق بعينه ، وفكرُ الطفَيلى بمَعدتهِ . . . فاسمُها عندهم الصلاة ، وحقيقتها عند الله كما ترى .

قال (النابغة) : ولكنه ذئبٌ من طبيعته أن يأكل الشاةَ لا أن يرعاها ، فلا أفهم شيئًا .

وقال الآخر : « مما حفظناه » رتَعَ الذئبُ فى الغنم ، ولم يقولوا صلَّى الذئب فى الغنم ، فلا أفهم شيئًا .

قلت : سأزيدكما عَدَمَ فهم . . . إن قلب تلك المرأةِ العظيمةِ الطاهرةِ متصلٌ بالله ، وليس فيه شيء من طباعها الإنسانية ولا ظلٌّ من ظلال الدنيا ؛ وقد تجلَّى فيه سرُّ الحياة ، وهو السر الذى لا يَطعم ولا يَشرب ولا يَلبس ولا يَشتهِى ولا يَطمع فى شيء ولا يُحرز شيئًا ، وإنما طبيعتُه أشواقُه الكونيةُ ، واتصالهُ بنَفَحاَت القوة الأزلية المسخِّرةِ للوجود كلِّه . فانتشرتْ هذه الموجةُ الكهربائيةُ الأثيريةُ حول الجارية من قلبها ، وجاء الذئب فالتَجَّ فيها وغمرتْه الروحانيةُ الغالبةُ ، فإذا هو يفتح عينَه على كونٍ غريب قد تجلَّى السلامُ عليه ، فليس فيه إلا قوةٌ آمرةٌ أمرَها بائتلاف كلِّ شيء مع كل شى ، واجتماعِ المتنافرَيْن فى حالةٍ معروفة لا فى حالة إنكار . فصار الذئب مستيقظًا ، ولكنه فى رُوح النوم ، وشُلَّتْ فيه الذئبيةُ الطبيعيةُ ، فإذا هو يحملُ الأنيابَ والأظافرُ

وقد أنسِيَ استعمالَها ؛ وبقيتْ حركتُه الحيوانيةُ ، ولكن تعطلت بواعثُها فبَطَل معناها .

ومن كل ذلك اختفى الذئبُ الذى هو فى الذئب ، وبقى الحيوانُ حيًّا ككل الأحياء ، فناسب الشاةَ وفزع إليها إذ لم تكن العلاقةُ بينهما علاقةَ جسم الآكلِ بجسمِ الأكيلة ، بل علاقة الروح الحيِّ بروح حيٍّ مثلِه(١) .

* * *

قال (النابغة) : أما أنا فقد فهمتُ ولكنَّ هذا المجنونَ لم يفهم . أكتبْ يا س . ع : جلس نابغة القرن العشرين مجلسَه للفلسفة على غير إعدادٍ ولا تمكّن ، وبدون كتُب ألبتة . . . وكان هذا أجمعَ لرأيه وأذهبَ له وأدعى لأنْ يتوفَّر على الإملاء بكل « مواهبه العقلية » ؛ ولما أن فكر النابغةُ وأعطى النظرَ حقَّه وجمع فى عقله الفذّ جزالةَ الرأى إلى قوةِ التفنّن والابتكار ، قال مرتجلا : إن فلسفةَ الذئب والشاة حين لم يأكلْها ولم تَنْطِحْه ، هى بالنص وبالحرف كما قال أستاذ نابغة القرن العشرين . . . . . .

(حاشية) وإن مجنون المتن لم يفهم هذه الفلسفة .

فامتعضَ الآخر وقال : « مما حفظناه » :

وبات يَقدحُ طولَ الليلِ فكرتَه وفسَّرَ الماءَ بعد الجهدِ بالماءِ

---

(١) روت الصحف فى هذه الأيام قصة حاكم إنجليزى كان قد اقتنص ذئباً هنغارياً وشده فى سلسلة وجعله فى حديقة داره إلى أن يرى فيه رأياً ؛ وكان للحاكم طفل صغير أعجبه الذئب ومنظره الوحشى فتربص إلى الليل ، فلما استثقل أهله نوماً انسل من حجرته وهبط الحديقة وجاء إلى الذئب فوثب هذا يتحفز لافتراسه ؛ ولكن الطفل لم يدرك شيئاً من معنى هذه الوحشية ، ولم يكن فى نفسه إلا أن الذئب كالكلب فلم يضطرب ولم يخف ولم يداخله الشك ؛ ومضى إلى الوحش مسروراً مطمئناً فتناوله من شعره وجعل يمسحه بيده الصغيرتين ويعبث به ، والذئب مدهوش ذاهل ، ثم سكن واستأنس إليه كأنه مع جرو من أجرائه لا مع طفل آدمى ؛ وجذبه الطفل من رقبته حتى أضجعه ثم اتخذه وسادة ووضع رأسه على ظهره ونام ... وافتقدت الطفل مربيته فلم تجده فى فراشه ، فنبهت أهله وذهبوا يبحثون عنه فى غرف الدار ، ثم نزلوا إلى الحديقة فبصروا به نائماً ورأسه على الذئب ، وخافوا إزعاج الوحش فرموه بالرصاص فقتلوه وقام الطفل يبكى على صديقه الوفى ...

هذا هو أثر الروح المطمئنة الماضية على يقينها ، ولكن أين مثل هذا اليقين فى مثل هذه الحالة ؟ وكل مروضى الوحوش يعلمون أن أول وآخر ما يخيفونها به هو نزع الخوف من أنفسهم ، وأن هذا هو وحده سلاح النفس فى النفس .

فقال (النابغة) : ويلك يا أبله ! أما والله لو كنتَ نَفْطَوَيْه أو سيبوَيْه لما كنت عندى إلا جَحْشَوَيْه أو بَغْلويه . . .

لقد كنتُ أرى الكلامَ فى تلك الفلسفةِ طريقًا نَزِهًا جميلا حفَّته الأشجارُ والأزهارُ عن جانبيه ، واندفعتْ فى سَوَائه ((تُمبيلاتُ)) الأفكار خاطفةً كالبرق . فلما تكلمتَ أنت انتهينا من سخافتك إلى طريقٍ حجريّ تُقَعْقِعُ فيه عرباتُ النقل تجرها البغالُ البطيئة .

فقال الآخر وهو يعتذر إليه : ما أردتُ والله مَسَاءَتَك ولو أردتُها لقلت وفسر الماءَ بعد الجهد بالسبرتو . . . فهذا هو الخطأ ، أما تفسيرُ الماء بعد الجهد بالماء فهو صحيح .

قال (النابغة) : ولكنه تفسير مُفْرِطُ السقوط كتفسير المجانين ، فهو يقول إنى مجنون .

قلت : كلا ، إن تفسيرَ المجانين يكون على غير هذا الوجه ، كالذى حكاه الجاحظ قال : سمعتُ رجلا يقول لآخر : ضربنا الساعةَ زِنديقًا . قال الآخر : وأىُّ شىء الزنديقاً ؟ قال الذى يُقَطِّع المزّيقًا . قال : وكيف علمتَ أنه يقطِّع المزّيقًا ؟

قال : رأيته يأكل التين بالخل . . . .

* * *

المجنون

تتمة

وطال المجلسُ بنا وبالمجنونين ، والكلامُ على أنحائه يندفعُ من وجه إلى وجه ، ويمرُّ فى معنًى إلى معنى ؛ فأردتُ أن أبلغَ به إلى الغاية التى جمعتُ من أجلها بين هذين المجنونين ، بعد ما انطلقا فى القول وانفتح القُفلُ الموضوع على عقل كل منهما .

وكان قد مرَّ فى الندىِّ بائع روايات مترجمة « بوليسية وغرامية ولصوصية ! » يحمل الرجلُ منها مَزْبلَةَ أخلاقٍ أوربية كاملة لينفضَها فى نفوس الأحداث من فتْيانِنا وفتَياتنا ، فقلت (لنابغة القرن العشرين) : أتقرأُ الروايات ؟ قال : لا ، إلا مرةً واحدة ثم لم أعاوِدْ ، إذ جعلتنى الروايةُ روايةً مثلها .

قلنا : هذا أعجبُ ما مرَّ بنا منذ اليوم ، فكيف صرتَ رواية ؟

قال : أنتم لا تعرفون طبيعة النوابغ ، إذ ليس لكم حِسُّهم المرهَفُ ، ولا طبعُهم المستحكم ، ولا خصائصهم الغيبية ، ولا خواطرُهم المتعلقةُ بما فوق الطبيعة .

قلت : نعم أعرف ذلك ؛ وما من (نابغة) إلا وهو بين عالَمين على طرَف مما هنا وطرفٍ مما هناك ، فهو خرَّاجٌ ولاَّجٌ بين العالَمين ؛ وله نفسٌ مركَّبة تركيبَها على نواميسَ معروفة وأخرى مجهولة ؛ فهى تأخذ من الظاهر والباطن معًا ، ويحصرها المكانُ مرة ويُفْلتُها مرة ، وتكون أحيانًا فى زمانِ الأرض ، وأحيانًا فى زمن الكواكب من القمر فصاعداً . . . . . ولكن . . . .

فقطع علىَّ وقال : أضف إلى ذلك أن هذه العقولَ التى تَحصرُ من يسمونهم العقلاء فى الزمان والمكان ، لا تُوجِدُ أهلَها إلا الهمومَ والأحزانَ ، والمطامع السافلةَ ، والأفعالَ الدنيئة ، فإنهم يعيشون فوقَ الترابِ .

قلت : نعم ، وإذا عاشوا فوق التراب فباضطرارٍ أن تكونَ معانى التراب فوقهم

وتحتَهم ومِنْ حولِهم وبين أيديهم ، فليسوا يقطعون على هذه الأرض إلا عمراً ترابيًّا فى كل معانيه ولكن . . .

قال : وزد على ذلك أنهم مقيَّدون تقييدَ المجانين ، غير أن حبالَهم وسلاسلَهم عقليةٌ غيرُ منظورة ؛ وبتَغْليلِهم تغليلَ المجانين يسمُّون أنفسَهم عقلاء ، وأعقلُهم أثقلُهم قيوداً ، وهذا من الغرابة كما ترى .

قلت : نعم ، أما العقلاءُ بحقيقة العقل ، فهم الذين يضحكون على هؤلاء ويسخَرون منهم ، إذ كانوا فى حالٍ كحالِ المنطلِق من المقيَّد ، وفى موضعٍ كموضع المعافَى من المبتلَى . ولكن . . .

قال : وفوق هذا وذاك ، إنهم لا يملكون السعادةَ ، إذ ليس لهم العقلُ الضاحكُ الساخرُ العابثُ الذى خُصَّ به النوابغُ وكان الأوحدُ فيه (نابغة القرن العشرين) .

قلت : نعم ، وإذا ملكوا السعادةَ لم يشعروا بها ؛ أما (النوابغ) فقد لا يملكونها ، ولكن لا يفوتُهم الشعورُ بها أبداً فيجيئهم الفرحُ من أسبابه ومن غير أسبابه ما دام لهم العقلُ الضاحكُ الساخرُ العابثُ الذى دأبُه أبداً أن يَنسى ليضحك ، ولا قانون له إلا إرادةُ صاحبه ، على مشيئة صاحبه ، لمنفعة صاحبِه . ولكن . . . .

قال : والذى هو أهمُّ من كل ما سبق ؛ أن أعظمَ خصائص هذا العقل الضاحك الساخرِ العابثِ أن يطردَ عن صاحبه ما لا يحبّ ويجنِّبَه أن يخسرَ شيئاً من نفسه ؛ فهو لذلك يجعل حسابَه مع الأشياء حساباً يهوديًّا لا بد فيه من ربح خمسين فى المائة . . . . . .

قلت : نعم ، وهو دائماً كالطفل ؛ وما أظرفَ بلاهةَ الطفلِ وما أجداها عليه ، إذ يضع بلاهتَه دائماً فى أرواح الأشياء وأسرارِها فتخرجُ بلهاءَ مثلَه ، وتنقلبُ له الدنيا كأنها أمٌّ تُضاحكُ ابنَها وتُلاعبه . ولكن . . .

قال : ولكن هذا مبلغٌ لا تبلغه الإنسانيةُ إلا شذوذاً فى أفرادها من جبابرة العقول (كنابغة القرن العشرين) .

قلت : نعم (ولكن) كيف صار (نابغة القرن العشرين) روايةً حين قرأ الرواية ! .

قال : هذه نكتةُ النبوغ ؛ فلو أن مؤلفها كان نابغةً مثلَنا يتلقّى فى نفسه وحىَ الأثير وإشاراتِ الروح الأعظم ؛ لعلم من الغيب أن (نابغة القرن العشرين) سيقرأ روايته ، فكان يتحرّى معانىَ غيرَ معانيه ويتوخّى بهذه القصة وضْعًا آخرَ لا تكونُ فيه حبيبةٌ خائنة ، ولا لصٌّ عارم ، ولا قاتلٌ سفّاح ، ولا سجنٌ مظلم ، ولا محكمةٌ تقول حيث وحيث . . . . . .

قلت : وما عليك من حبيبة خائنة فى الورق ، ولصٍّ بين الحروف المطبعية ، وقاتلٍ لا يقتل إلا كلامًا ، وسجن ومحكّمة على الصحيفة لا على الأرض ؟

قال : هذه نكتةُ النبوغ ، فما استوعَبْتُ القصةَ حتى عمَرتْنى أشخاصُها ، وأُقْحِمْتُ منها على هَوْلٍ هائل ، فخانتنى الخائنة لعنها الله . . . ولولا خوفُ السجن والمحكمة لقتلتُها أشنعَ قِتْلة ، ومثّلتُ بها أقبح تمثيل . ويْحَ الخائنةِ كيف استمالها ذلك الدميمُ الطويلُ العِملاقُ المشبوحُ العظام المفتولُ العضَل ؟ ولكنى لستُ عملاقًا ولا مَبْنيًّا بناءَ الحائط ، ثم كان مجنونًا بشهواته جنونَ الفيل الهائج ، وكنتُ فى شهواتى عاقلاً عقلَ الإنسان ، ثم كان غنيًّا غِنَى الجهّال ، وكنت فقيراً فقرَ العلماء . والنساءُ ؛ قبح الله النساء . إنهن زينةٌ تطلبُ زينةً مثلَها . وإن المرأةَ لتَمنح وجهَها للقرد يقبّله إذا كان الذهبُ يتساقط من قُبُلاته . أما من كان مثلى ، أموالُه الشبابُ والجمالُ والعقلُ والنبوغ ، فهو مُفلس عندهن إفلاسَ القرد فى الغابة ، فهو عندهن قِرْدٌ لهذه المشابهة .

قلت : هذا ليس عجيبًا فإن اللغويين يُجرون على الشىء اسمَ ما يقاربه فى المعنى .

قال المجنون الآخر : « مما حفظناه » أن اللغويين يجرون على الشىء اسم ما يقاربه فى المعنى . . . .

فتربّدَ وجهُ (النابغة) غضبًا وقال : أبى يلعبُ هذا المجنون ؟ إنه يزعم أن اللغويين يسموننى قرداً ، فهاتوا القواميس كلها وارجعوا إلى مادة (قرد) ومادة (نابغة) . . . سَوْأَةً عليك أيها الصبىُّ المعمَّر . . . ألا فدعونى أؤدبه أدبَ

الصبيان فإن اللطمةَ القوية على وجه الطفل المكابرِ فى حقيقة تُلمِسُه الحقيقةَ التى يكابر فيها إذ تدخلها إلى عقله من أقربِ طريق . . .

قال ا . ش: أنت قلت ، لا هو . على أنك لستَ قِرداً أبداً إلا عند امرأة جميلة فاتنة متخيِّلة متماجِنة ، قد تضع البرذَعةَ على ظهر الأمير وتجعلَه حمارَها ، فيُعْجبُ الأميرُ أنّ يكون حمارَها . ولست قرداً مع قَرَّادٍ إلى جانب عنز وكلب . . .

قال : الآن علمت السبب، فإن الخائنة كانت متخيِّلةً مؤلفةَ كتُب وروايات ، والمرأة التى تؤلف الكتب ، غيرُ بعيد أن تؤلفَ الرجُلَ أيضًا ، وتجعلَه قصةً هو فيها قرد . . . وهذا إن كانت جميلة كامرأة الرواية . أما إن كانت دميمةً مجموعةً من المتناقضات ، أو عجوزاً مجموعةً من السنين ؛ فهذه وهذه كلٌّ أيامها كيوم الأحد عند النصارى . . . يومٌ للعُطلة لا بيع فيه ولا شراء ولا مساومة . هذه وهذه كلتاهما تجعل الرجلَ كالماء فى سبيل التجمد . . . لا يشتعل ، فضلا عن أن يَستْعِر ، فضلا عن أن يحترق .

ومؤلفة الكتب لا يكون وجهُها إلا إحدى وثيقتين : فإما جميلةٌ ، فوجهها وثيقة بأن لها ديونًا على الرجال ؛ وإما غيرُ جميلة ، فوجهُها (مخالَصة) من كل الديون . . . . . .

قلنا : هذا فى الخائنة . فكيف سرقك اللص ولست غنيًّا ؟

قال : هذه هى نكتة النبوغ ؛ وفى النبوغ أشياء لاينكشف تفسيرُها، وليس فى جهلها مضرَّةٌ على أحد ، وجهلٌ لا يضرّ هو علم لا ينفع ، لكنه علم . والبحثُ فى بعض أعمال (النابغة) هو كالبحث عن سر الحياة فيه ، إذ يعملُ أعمالَه تلك بسرّ الحياة لا بسر العقل ، أى بالعقل النابغ الخاصِّ به وحده لا بالعقل الطبيعى المشترك بين الناس .

* * *

قلت : ومن عجائبك أنك لا تقرأ الروايات ، ولكنك مع ذلك تؤلفها . . .

قال : إن ذلك ليكون ، وإن لم أؤلِّفها أنا تألفتْ هى لى . فإذا تقدم الليل ونام الناس جميعًا انتبهتُ أنا وحدى لرواية العالم فأرى ما شئتُ أن أرى . وفى ضوء

النهار أجدُ الناسَ عقلاء ولكنى فى ظلمة الليل أُبصرهم مجانين . فهذا الليل برهانُ الطبيعة على جنونِ الناس وضعفِ عقولهم إذ هو يثبتُ حاجةَ هذه العقول إلى ضَرْبٍ من النسيان الأبلهِ التامّ لولاه ما عقلتْ فى نهارها ولا استقام لها أمر .

يُصْرَعُ الناسُ فى الليل صرعةَ المجانين فيُغمضون أعينَهم ولا يرَون شيئًا . أما أنا فأرى العالَم فى الليل مسرحًا هزليًّا يضجُّ بالضحك من الإنسان الأحمق الذى يقطع سَرَاةَ نهارِه ، وهو معتقد أنه قابض على الوجود بالأعين والآذان والآناف . . . أئِنْ رأيتَ الأسدَ بعينك أيها الأحمق وسمعتَ فى أذنيك زئيرَه ، ادّعيتَ الدعوى العريضةَ ، وزعمتَ أنك ملكتَه وقبضتَ عليه ، ولا تدرى فى هذا أنك كالمعتوه إذا قبض على الظل بيده ، وصاح هاتوا الحبل لأقيّدَه لا يُفْلِت ؟ . . .

قلت : فإذا كان العالم كله روايتَك فأخرج لنا فصلا من الرواية .

قال : أيُّما أحبُّ إليكم ، أن أكتبَ أو أمثِّل ؟

قلنا : بل التمثيلُ أحبُّ إلينا . فنظر إلى المجنون الآخر وقال : إن المجنونَ فى طبيعته ينبوعٌ من الأشخاص يفيض حالاً بعد حال ، كينبوع الماء يَسُحُّ الدفعةَ بعد الدفعة ، فهنا المسرحُ ، والروايةُ الآن روايةُ الطبيب والمجنون . . .

* * *

أنت يا س . ع . عمٌّ هذا المجنون . فإذا قال لك يا عم . قل له : أنا لستُ ولكنى أخو أبيك . . . لننظر أيتنبَّهُ على الفرق بين الصيغتين أم لا ؛ فإنه فَرْقٌ عقلىٌّ دقيق تُمتحَنُ به العقول . . .

تعالَ أيها المريض فإنى أرجو أن يكونَ شفاؤك على يدى ، وفى يدى هذه لمسةٌ من لَمَسَات المسيح ، لأن (نابغة القرن العشرين) هو الآن طبيبُ القرن العشرين . . . .

اتَّقوا أن تُغضبوه أو تخيفوه ، وأقيموا له كلَّ ما يحتاج إليه ، وتحرَّوا مسرتَه دائمًا ، فإن إدخالَ بعض السرور إلى نفس المجنون هو إدخالُ بعض العقلِ إلى رأسه .

متى أنكرتَ يا س . ع عقلَ ابنِ أخيك وما كان السببُ ؟ وكيف غَلَبَ

على عقله ؟ وهل ا . ش . هو خالُه أو أخو أمه ؟ . . .

لَطَفَ الله لك أيها المسكين . قل لى : أتتذكر أمسِ ؟ أتتذكر غداً ؟ . . . إن الأمس والغدَ ساقطان جميعًا من حساب المجانين ؛ ومن الرحمة بهم أن الدنيا تَبدأ لهم كلَّ يوم فقد استراحوا من ثلثى هموم الزمن فى العقلاء . وهم لا يصلحون أن ينفعوا الناسَ كالعقلاء ، غير أنهم صالحون أكثرَ من العقلاء للانتفاع بأنفسِهم فى الضحك والمرح والطرب ، وهذا حَسْبُهم من النعمةِ عليهم .

قل لى أيها المَجنون : أتُحِسُّ أن الدنيا تَصنعُ لك نفسَك، أم نفسُك هى تصنعُ لك الدنيا ؟ إن هذه مسألة يحلّها كلُّ مجنون على طريقته الخاصة به ، فما هى طريقتك فى حلها ؟ .

مالَكَ لا تُجيب أيها الأبله ؟ (هذا من جهة ومن جهة) أعطوه قرشًا لينطلِقَ لسانهُ ، وآتوا الطبيبَ أجرَه وافيًا وهو لا يقلُّ عن قرشين . . .

ثم مال (النابغة) على مجنون المتن وسارَّه بشىء . فقلنا ما أمرُ المال بسِرّ ؛ هذا قرشٌ للمريض وهذان قرشان للطبيب .

فقال المجنون : « مما حفظناه » كفى بالسلامة داءً .

قال « الطبيب » : هذا مريضٌ بنوع من الجنون اسمُه « مما حفظناه » وهو جنونُ النسيان الذى يضع فى مكانِ العقل كلمةً ثابتةً لا يتذكرِ المجنونُ إلا بها ؛ ومن أعراضه جنونُ الشك فكل ما حول المريض مشكوك فيه ، وقد يترامَى إلى جنون اللَّمس ، فلو لمستَه بإصبعك توهَّمها عقربًا فخاف من الإصبع تلمسهُ خوفَه من العقرب تَلدغه ، ولكن بقيتْ أشياء لا بد من التدقيق فى فحصها ، فليس هذا من مجانينِ العبقرية التى انحرفتْ عن طريقها أو شذّت فى قوّتها ؛ ولا هو ممن يتَجَانُّ ويَتحَامقُ التماسًا للرزق والعيش كما قال بعضهم : حماقةٌ تَعولُنى خيرٌ من عقلٍ أعولُه .

فقال المجنون : « مما حفظناه » حماقة تَعولنى . . .

فضحك (النابغة) وقال : هو كما بيَّنتُ لكم مصابٌ بجنونِ (مما حفظناه) وهو أقل الجنون وأهونُه ، وعلاجُه البَسْطُ والسرورُ والقرش ؛ والضربُ أحيانًا . . . فإذا ثابرَ عليه الداءُ تحوَّلَ إلى جنون (مما ضَربناه) . . . فيعتدى المصابُ على

كل من يراه أو يُوقِعُ به ضَرِبًا ، وعلاجُه حينئذ القميصُ المرقوم[١] ؛ فإذا فَدَحتْ العلة انقلب المرضُ إلى جنون (مما قتلناه) . وعلاجُه يومئذ السلاسل والأغلال .

والحق أقول لكم إن آخرَ ما انتهت إليه فلسفةُ الطب فى القرن العشرين أن الناسَ جميعًا مجانينُ ولكنَّ بعضَهم أوفرُ قسْطًا من بعض . كأن سلْبَ العقلِ هو أيضًا حظوظٌ كحظوظ موهبةِ العقل . وأهلُ المريخ من أجل ذلك يسمون الأرض بمارستان الفَلَك . . .

ولكن بقيتْ أشياء لا بد من التدقيق فى فحصها ؛ وعندى فى الدارِ عَاطُوس إذا أشممتُه هذا المجنونَ عَطَسَ به عطسةً قوية فخرج جنونُه من أنفه . . . قل لى أيها المسكين : أتخاف إذا سرتَ وحدك فى مَيدان واسع كأن الميدانَ سيلتفُّ عليك ؟ أتضطربُ إذا مشيتَ فى مَضيقٍ كأن المكانَ سينطبقُ عليك ؟ وإذا كنتَ فى عربة القِطار فهل يخيَّل إليك أن البيمارستان قد جره القِطار وانطلق به هاربًا ؟ وهل شعرتَ مرة أنه أوحىَ إليك أن تَنتحِر ؟

أرنى هذا القرشَ الذى فى يدك . فمد إليه المجنون يَده بالقرش .

قال (النابغة) : انظر الآن هل تُحدثك نفسُك أن تَغْصِبَنى هذا القرشَ أو تسرِقَه منى ؟ قال : نعم .

قال (النابغة) ؛ إذن يجب أن أحرزَه فى جيبى . . . وأسرع فأخفاه فى جيبه .

* * *

فصاح الآخر وشَغَب ، وقال سلَبَنى ونَهَبَنى . قلنا لا ينبغى أن يتصلَ بينكما شرٌّ فى تمثيل الرواية فهذا قرش آخر ، ولكن أفى الفلسفة عند (النابغة) إباحةُ السرقة والغصْب ؟

قال : فالرواية الآن هى رواية الفيلسوف العظيم أفلاطون وتلميذه أرسطو .

قل لى ويحك يا أرسطو . أعلمتَ أن فى المجانين أغنياءَ يسرقون الشىء القليلَ

---

(١) القميص المرقوم قميص السجن يلبسه المسجون ويرقم عليه العدد الذى يسمى اليوم (النمرة) وقد كان هذا معروفاً فى التمدن الإسلامى .

لا قيمةَ له وهم أغنياء وليست بهم حاجةٌ إليه . فما علةُ ذلك عندك وما وجهُه فى مَقُولَة الجنون ؟

أعجزتَ عن الجواب ؟ إذن فاعلم يا أرسطو أن المصابَ بهذا الضَّرب من الجنون إذا اشترى هذا الشيءَ بدرهم كانت قيمتُه من الدرهم وحده ، وهو غنىٌّ لا قيمةَ للدرهم فى ماله فلا يَحفِلُ بالشراء بَيْدَ أنه إذا سرقه كانت قيمتُه عنده من عقلِه وحيلتِه فيجيئُه بلذةٍ لا تشتريها كلُّ أمواله ولا كلُّ أموال الدنيا . فهذا جنونٌ باللّذة لا بالسرقة ، وهو بذلك ضَربٌ من العشق يجعلُ الشيءَ إذا لم يُسرق كأنه المرأةُ المعشوقةُ الممتَنِعةُ على عاشقها .

والجِياعُ إذا سرقوا ليأكلوا ويُمسِكوا الرمَق على أنفسهم ، لا يقال فى لغة الفلسفة إنهم سرقوا بل أخذوا . . . فباضطرارٍ جاعوا وباضطرارٍ مثلِه أكلوا ، والسارقُ هنا هو الغنىُّ الذى منعهم الإحسانَ والمعونة . . .

فالدنيا معكوسةٌ منقلبةٌ أوضاعُها يا أرسطو ، ولو استقامت هذه الأوضاعُ لوُجدت السعادةُ فى الأرض لأهل الأرض جميعًا . وكيف لك بالسعادة والناسُ مخلوقون بعيوبهم ؟ ويا ليتهم مخلوقون بعيوبهم فقط ، ولكن الطامّةَ الكبرى أن عيوبَهم تعملُ دائمًا على أن تَرى فى الآخرين عيوبًا مثلَها .

كلُّ حمارٍ فهو يريد أن يملأ جوفَه تبنًا وفولا وشعيراً ، غيرَ أنى لم أر حماراً قط يريد أن يملأً لنفسه الإصطبل ؛ فإذا وُجِدَ حمارٌ هذه همتُه وهذا عملُه فاسمُه إنسانٌ لا حمار . . .

يا أرسطو إن معضلةَ المعضلاتِ أن يحاولَ إنسانٌ حلَّ مشكلة داخلية محْضة قائمة فى نفس حمار أو ثابتة فى ذهنه الحِمَارى . . . ومثلُ هذا أن يحاولَ حمارٌ حلَّ مشكلة نفسية فى ذهنِ إنسانٍ أو فى قلبه ، فلا حلَّ لمشاكل العالَم أبداً ما دام كلُّ إنسانٍ مع غيره كحمار مع إنسان . . . .

والمعضلاتُ النفسيةُ من عمل الشياطين ، فكان ينبغى أن تجيءَ الملائكةُ لتحاربَ الشياطينَ بالبرق والرعدِ دفاعًا عن الإنسانية ؛ ولكن الله تعالى منعها ، وأرسل للإنسان ملائكةً أخرى إن شاء هذا الإنسانُ عمِلتْ ، وإن شاء عجزتْ ؛ وهى فضائلُ الأديان المنَزلةِ . فإذا منحها الإنسانُ إرادتَه وقوتَه ، فعملتْ عملَها

كان الإنسانُ هو المَـلَك بل فوق المـلَك ، وإذا أضعفها ومَحقها كان الإنسانُ هو الشيطان وأسفلَ من الشيطان .

يا أرسطو[١] « هذا العالَم عندى كتلةٌ من العدم اتفقت على الظهور وستختفى . والعالَم عندى ضعفٌ ركّب وقوةٌ ركبت . والعالم عندى لا شىء . والعالم بَيْن بَيْن . والعالم قسمان : منهم الفلاح الزراعى وذلك أفضل فلسفة طبيعية . . . والعالم فى حاجة إلى الموت والموتُ فى حاجة إليه . والأدبُ هو الحياة ولا حياة بلا أدب . والأدبُ ضربان : أدبٌ نفسانى وأدبٌ مكتسَب ، وقد يكون طبيعيًّا كما هو عند نابغة القرن العشرين . ومن هو نابغة القرن العشرين ؟ هو شخصٌ مات بلا موت ، ويحيا بلا حياة » .

أتريد يا أرسطو أن تعرفَ سرَّ تركيب العالَم ؟ الأمر يسيرٌ غيرُ عسير ، فإن سر تركيبه كسر تركيب القرش الذى فى يدك ، فدعنى أظهِرُك على هذه الحقيقة ومُدَّ يدَك بالقرش لأبينَ لك سرّ التركيب فيه . . . .

* * *

ولكن المجنون الآخر أسرع فغيّب القرش فى جيبه . فقال (النابغة) : هذا سياسىٌّ داهية خبيث . والرواية الآن رواية سياسىّ القرن العشرين .

ليس فى حقيقة السياسة إلا الرَّذْلُ من أفعال السياسيين . والألفاظُ السياسية التى تحملُ أكثرَ من معنى هى التى لا تحملُ معنى . فليحذر الشرقُ من كل لفظ سياسىّ يحتمل معنيين ، أو معنى ونصفَ معنى ، أو معنى وشِبْهَ معنى ؛ فإن قالوا لنا (أحمر) قلنا لهم اكتبوه بهذا اللفظ ؛ فإذا كتبوه قلنا لهم : ارسموا إلى جانبه معناه باللون الأحمر لتشهدَ الطبيعةُ نفسُها على أن معناه أحمر لا غير . . . وعلى هذه الطريقة يجب أن تُكتَب المعاهداتُ السياسية بين أوربا والشرق .

إنهم يكتبون لنا جريدةً بأسماء الأطعمة ثم يقولون : أكلتم وشبعتم . . . .

---

(١) هذه الأسطر التى وضعناها بين القوسين هى من كلام المجنون بالنص ، وكنا سألناه أن يكتب رأيه فى العالم والحياة فكتب على البديهة مقالة كلها تخليط ، وتندر فيها كلمات كأعمق ما تجىء به مذاهب الفلسفة .

ولقد رأيتُ (مظاهرات) كثيرة ولا كالمظاهرة التى أتمناها ؛ فما أتمنى إلا أن يخرج كل المجانين فى مظاهرة . . . . . .

وهذا الأبله الذى أمامنا ليس وطنيًّا ولا فيه ذرةٌ من الوطنية ؛ فإن كان وطنيًّا أو زعم أنه وطنى ، فليخرج القرشَ الذى فى جيبه . . . . ليكونَ فألاً حسنًا لخروج جيش الاحتلال من مصر . . . .

* * *

ولكن المجنون لم يخرج القرش وترك جيشَ الاحتلال فى مكانه .

فقال (النابغة) : الرواية الآن رواية الشّرطى واللص . وبحقٍّ من القانون يكون للشرطىِّ أن يفتشَ هذا اللصَّ ليخرج القرشَ من جيبه . . . .

* * *

غير أن المجنون امتنع . فقال (النابغة) : كل ذلك لا يجدِى مع هذا الخبيث ؛ فالرواية الآن رواية هارون الرشيد مع البرامكة . ويجب أن يَنكُبَ الرشيدُ هؤلاء البرامكة ليَستَصْفِىَ القرش . . .

* * *

بيد أننا منعناه أن ينكُبَ « البرامكة » فقال : الرواية الآن رواية العاشق والمعشوقة ، ونظر طويلاً فى المجنون وصعَّد فيه عينَه وصوَّب فلم ير إلا ما يذكِّر بأنه رجل ، فتَهدَّى إلى رأىٍ عجيب . فوقع على قدميه وتوهَّمه امرأة فى حِذائها . . . وجعل يناجِى الحذاءَ بهذه المناجاة :

إن سخافاتِ الحب هى أقوى الدليل عند أهله على أن الحبَّ غيرُ سخيف ؛ فكل فكرةٍ فى الحب مهما كانت سخيفةً ، عليها جَلالُ الحب ؛ وللحذاء فى قدميكِ يا حبيبتى جمالُ الصندوق المملوءِ ذهبًا فى نظرِ البخيل ، وكل شىء منكِ أنتِ فيه سرُّ جمالكِ أنتِ . والحذاءُ فى قدميكِ ليس حذاءً ، ولكنه بعضُ حُدودِ جسمِكِ الجميلِ ، فلا أكون كلَّ العاشقِ حتى أحيطَ بكل حُدودِكِ إلى الحِذاء .

إن جسمَكِ يا حبيبتى كالماء الجارى العذْب ؛ فى كل موضعٍ منه روحُ الماءِ كلِّه ؛ وحيثما وَقَعت القُبلة من جسمِكِ كان فيها روحُ شفتيكِ الورديتين .

هذه قبلةٌ على قدميكِ يا حبيبتى ؛ وهذه قبلة على ساقيكِ ؛ وهذه قبلة على ثوبكِ وهذه قبلة على جَيْبكِ . . . .

وكادت يدُ (النابغة) تَخرجُ بالقرش ؛ فعضَّه المجنونُ فى كتفه عضةً وحشيةً ، فجأه الخوفُ منها فطار صوابُه ؛ فصرخ صرخةً عظيمةً دوَّى لها المكان وترددتْ كصَرْصَرَةِ البازىِّ فى الجو ، ثم اعتراه الطَّيف ، وأطبقَ عليه الجنون فاختلط وتخبَّطَ . . . . . .

(والروايةُ الآن) ؟ . . . . رواية عربة الإسعاف . . . . .

فهرست

الجزء الثانى من وحى القلم

الموضوع	الصفحة
الإشراق الإلهى وفلسفة الإسلام	٥
حقيقةُ المسلم	١٢
وحى الهجرة	١٨
فلسفة القصة	٢٤
فوق الآدمية (الإسراءُ والمعراج)	٣١
الإنسانية العليا	٣٨
سموُّ الفقر (١)	٤٦
سموُّ الفقر (٢)	٥٢
درسٌ من النبوّة	٥٩
شهر للثورة (فلسفة الصيام)	٦٦
ثباتُ الأخلاق	٧٣
قلت لنفسى ... وقالت لى ...	٨٠
الانتحار (١)	٨٧
الانتحار (٢)	٩٧
الانتحار (٣)	١٠٦
الانتحار (٤)	١١٤
الانتحار (٥)	١٢٢
الانتحار (٦) تتمة	١٣٢
وحى القبور	١٤١
عروسٌ تزَفّ إلى قبرها	١٤٦
موت أُم	١٥١
قصة أب	١٥٦
السَّمكة	١٦٢
الزاهدان (٢)	١٧١
إبليس يعلم . . . (٣)	١٧٨
الدينار والدرهم (٤)	١٨٥
دُعابةُ إبليس	١٩١
الشيطان . . .	١٩٨
تاريخ يتكلم . . .	٢٠٩
كُفر الذبابة . . .	٢٢١
يا شباب العرب !	٢٣٠
لو . . . !	٢٣٤
أيها المسلمون !	٢٤٠
قصة الأيدى المتوضئة	٢٤٤
نجوى التمثال	٢٥١
فاتح الجو المصرى	٢٥٤
أجنحة المدافع المصرية	٢٥٨
أحاديث الباشا	
الطماطم السياسى ...(١)	٢٦٢
البك والباشا (٢)	٢٦٦
ساكنو الثياب (٣)	٢٧٠
الأخلاق المحاربة (٤)	٢٧٤
خضع يخضع ... (٥)	٢٧٨

الموضوع		الصفحة	الموضوع		الصفحة
فلنتعصبْ ! . . .	(٦)	٢٨٣	الجمهور	(١٣)	٣١٢
وزْن الماضى	(٧)	٢٨٨	المجنون	(١)	٣١٧
المعجم السياسى	(٨)	٢٩٢	»	(٢)	٣٢٥
اللسان المرقَّع	(٩)	٢٩٦	»	(٣)	٣٣٣
سرُّ القبعة	(١٠)	٣٠٠	»	(٤)	٣٤١
سعد زغلول	(١١)	٣٠٤	»	(٥)	٣٥٠
حماسة الشعب	(١٢)	٣٠٨	»	(٦) تتمة	٣٥٩